

د. سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه

قصص الأنبياء
مرمر
عظاات وعبر

دار الحقيقة

قصص الأنبياء عز وجل عظاات وعبر

قصة نوح

قصة ذى النون

قصة لوط

قصة يوسف

قصة سليمان

عليهم السلام

د/ سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

رقم الإيداع: ٩٨ / ٧٤١٥

الترقيم الدولي: 6 - 53 - 5458 - 977

الإسكندرية: ١٠١ منشى الفتح - باكوس ت: ٥٧٤٧٣٢١
القاهرة: ٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

دار الحقيقة

قصة

نوح

عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

١ { آل عمران: ١٠٢ } .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ { النساء: ١ }

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ { الأحزاب: ٧٠-٧١ }

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها و كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

تعددت المواقف والاتجاهات وتباينت الأفكار طلباً للإصلاح وذلك على مستوى الأفراد والجماعات والدول واحتكر كل فريق لنفسه طريق الصواب وكان النفع والخير لن يتحقق إلا بمسلكه وأسلوبه، فعلى مستوى الدول، نجد دولاً شيوعية وأخرى رأسمالية، وأنظمة ديمقراطية وأخرى ديكتاتورية، وأحلافاً كحلف الأطلنطي وحلف وارسو، ومبادئ وشعارات ورايات مرفوعة هنا وهناك، بل قد صارت العلمانية اللادينية هي الراية المرفوعة على معظم البلدان الإسلامية!!

فإذا نظرنا إلى الطوائف والأحزاب والجماعات، لوجدنا اختلافاً لا يقل عن اختلافات الدول فهذا الحزب ليبرالي وهذا اشتراكي، هؤلاء يرون أن الوطنية هي السبيل وآخرون لا أفضل عندهم من القومية ... بل وسعى فريق إلى إحياء الفرعونية والبابلية والآشورية ...

وفى الساحة جماعات كثيرة، صوفية وشيعية وسنية. . ودعوات تنتسب للإسلام، ولكنها اختلفت فى رؤيتها للإصلاح، وكثير منها احتكر الصواب لنفسه واتهم الآخرين بالخطأ أو القصور، فمنهم من يعتقد أن طريق عودة الإسلام لن يتم إلا بالمشاركة فى البرلمانات وال نقابات والاتحادات، ومنهم من يرى السبيل فى إقامة الجمعيات الخيرية والمساهمة فى أعمال البر، } ومنهم من رأى ضرورة الإلثورة شعبية لتغيير أنظمة الحكم} ومنهم من يعتقد أن التغيير لا يحدث إلا عن طريق تقديم الحلول وعلاج المشكلات التى يعانى منها الشرق والغرب بالإقناع العقلى وإشاعة المفاهيم الإسلامية وسط الناس، ومنهم من لم ير سبيلاً إلا الجهاد فى سبيل الله، ومنهم أيضاً من رأى الخروج للدعوة والتبليغ هنا وهناك . . .

فإذا انتقلنا إلى الأفراد، وجدنا أن معظم الناس قد صار أشبه بجزيرة مستقلة، وكيان قائم بذاته، فقد أى البعد عن دين الله وغربة الحال وانحراف الأوضاع إلى تفاوت المفاهيم.

فالكثرة على دين ملوكهم، والطغيان المادى قد ران على العقول والقلوب إلا من رحم الله ونحن نرى هذا الحال لا يسعنا إلا أن ندعو ربنا ونقول: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم».

أى البشرية حاجتها شديدة لركوب سفينة النجاة، واتباع طريق الأنبياء والمرسلين ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ {الأنعام : ٣٠} .

والحذر الشديد من الإنبهار بكثرة زائفة والانخداع بمناهج وفلسفات كفرية ضائعة. كما لا وقت أيضاً للانشغال بتوافه صارفة عن الغاية التى تحقق عليها الحاققة وتقوم عليها الواقعة أو ينصب لأجلها الصراط والميزان، وتكون الجنة والنار فالبداية إلى السفينة من قبل أن يأتى الطوفان فإن من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك، ولا يضيرك إن كانت مصنوعة من خشب أو حديد، وسترسو بك هنا أو هناك، طالما كنت ممن آمن بالله وصدق المرسلين ولا تشغل بطولها وعرضها ولونها وما طوى عنك منها فقد انطلق ركب الإيمان فالحق به واستقم كما أمرت .

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ {الصفافات: ١٨٠ - ١٨٢}

ذكر نبي الله نوح - عليه السلام - في القرآن

ذكر نبي الله نوح - عليه السلام - باسمه في ثلاثة وأربعين موضعاً من القرآن الكريم، وذكرت قصته في سور كثيرة من كتاب الله كالأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر كما أن في القرآن سورة سُميت باسمه - عليه السلام - وهي سورة نوح. وهذه الآيات التي تعرضت لقصته، بينت دعوته وجهاده وصبره وثباته وما لاقاه من قومه - وكيف أنجاه الله من كيدهم... إلى غير ذلك من المعاني التي يحتاجها كل مكلف في سيره إلى الله تعالى.

قال تعالى في معرض الثناء عليه: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ {النساء: ١٦٣}. وقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ {آل عمران: ٣٣}.

وقال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾

{الانعام: ٨٤}.

وقال سبحانه: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ {الإسراء: ٣}.

وقال سبحانه: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ {الصفات: ٧٩}

وقال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ {مريم: ٥٨}.

وفي مقام بيان دعوته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ {المؤمنون: ٢٣}.

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ {هود: ٢٥}.

وقال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا﴾

{الشورى: ١٣}

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾

{العنكبوت: ١٤}

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾

{العنكبوت: ١٤} .

وفى بيان مآلقاته من قومه يقول تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرًا ﴾ {القمر: ٩}

وقال سبحانه: ﴿ وَقَوْمِ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى ﴾ {النجم: ٥٢}

وقال سبحانه: ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ {الشعراء: ١١٦} .

وقال سبحانه: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ {غافر: ٥} .

وقد ذكر القرآن دعاء نوح على قومه، قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ {الانبيا: ٧٦} وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ {نوح: ٢٦} وقال سبحانه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾

{القمر: ١٠} .

كما ذكر سبحانه كيف أنجاه ومن آمن معه، فأغرق وأهلك من كفر وكذب به فقال سبحانه: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ﴾

{هود: ٤٨} .

وقال سبحانه: ﴿ وَقَوْمِ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرَّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا هُمُ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ {الفرقان: ٣٧} .. وغير ذلك من المواضع الكثيرة التي تتعرض لها أثناء ذكرنا لقصته عليه السلام.

نسبه - عليه السلام -

والفترة بينه وبين آدم - عليهما السلام

يتهى نسب نبي الله نوح إلى شيث ابن آدم أبى البشر، ويعتبر إدريس الجدد الأكبر لنوح عليهم جميعاً وعلى نبينا الصلاة والسلام ..

وقد روى البخارى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام» .

قال ابن كثير رحمه الله - في البداية والنهاية - فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس بينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفى أن يكون أكثر باعتباره ما قيد به ابن عباس من الإسلام إذ قد يكون بينهما قرون أخرى متأخرة لم يكونوا على الإسلام، لكن حديث [أبي أمامة] يدل على الحصر في عشرة قرون وزدنا ابن عباس أنهم كانوا كلهم على الإسلام، وحديث أبي أمامة رواه ابن حبان في صحيحه وهو: «أن رجلاً قال يا رسول الله: أنبي كان آدم؟ قال: «نعم مكلّم» قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «عشرة قرون» .

قال ابن كثير: وحديث ابن عباس يرد على من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل وبنيه عبدوا النار اهـ .

نوح من أولى العزم من الرسل

فضل سبحانه بعض النبيين على بعض فقال: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [الإسراء: ٥٥]

وقد أجمعت الأمة على أن الرسل أفضل من الأنبياء، والرسل يتفاضلون أيضاً فيما بينهم كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وأفضل الرسل والأنبياء خمسة: محمد ﷺ ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وهؤلاء هم آلوا العزم من الرسل.

قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب: ٧].

وقد فضل الله تعالى نوحاً بأن جعله أول رسول إلى أهل الأرض، وسماه الله عبداً شكوراً ومرتبة العبد الرسول أفضل عند الله من النبي الملك، قال ابن تيمية: ولهذا كان أمر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم أفضل عند الله من داود وسليمان ويوسف اهـ.

نوح - عليه السلام -

أول رسول إلى أهل الأرض

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

{نوح: ١}

وفيها إخبار، أن الله تعالى أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم فإن تابوا وأنبأوا رفع عنهم، وفي الصحيح - من حديث الشفاعة -

وفيه أن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر، ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس، من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس ألا ترون ما أنتم فيه، ألا تنظرون من يشفع لكم فيقول بعضهم لبعض: أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، وخلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول آدم - عليه السلام - إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحاً - عليه السلام - فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عز وجل فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً، لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، نفسي نفسي» (١).

فهو - عليه السلام - أول رسول لأهل الأرض، بعد الطوفان الذي أغرق الدنيا، كما أنه شيخ المرسلين الذي تقدم أولى العزم من الرسل زماناً، وقد ذكر البعض أن من بُعث قبل نوح كإدريس وآدم - عليهما السلام - كانوا من جملة الأنبياء، ولم يكونوا رسلاً. والفارق بين الرسول والنبى، أن الرسول هو الذى أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، وأما النبى فهو الذى أوحى إليه بشرع ولكن لم يؤمر بتبليغه.

(١) رواه البخاري (٢٣٤٠) في أحاديث الأنبياء من حديث أبي هريرة، (٤٧١٢) في تفسير القرآن، ومسلم (١٩٤) في الإيمان، والترمذي (٢٤٣٤) في صفة القيامة.

إنه كان عبداً شكوراً

وُصِفَ نوح بأنه كان عبداً شكوراً: قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

قال ابن كثير - رحمه الله - تقديره ياذرية من حملنا مع نوح، فيه تهيج وتنبه علي المنة، أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فاذكروا أنتم نعمتى عليكم يارسالى إليكم محمداً ﷺ .

وقد ورد في الحديث وفي الأثر عن السلف أن نوحاً - عليه السلام - كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله، فلهذا سمي عبداً شكوراً.. وساق حديث الطبراني عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنما سمي عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله ..

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها»^(١).

وقال مالك عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال، ثم ساق حديث البخاري عن أبي هريرة وفيه: «فيقولون يانوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً فاشفع لنا إلى ربك»^(٢) اهـ.

قال عمران بن سليم: إنما سمي نوحاً عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل قال: الحمد لله الذي أطعمنى ولو شاء لأجاعنى، وإذا شرب قال: الحمد لله الذي سقانى ولو شاء لأظمأنى، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذي كسانى، ولو شاء لأعرانى، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذي حذانى ولو شاء لأحفانى، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذي أخرج عنى الأذى ولو شاء لحبسہ فى.

قال القرطبي: ومقصود الآية: إنكم من ذرية نوح وقد كان عبداً شكوراً فأنتم أحق بالافتداء به دون آبائكم الجهال.

(١) رواه مسلم (٢٧٣٤) في الذكر والدعاء، والترمذي (١٨١٦) في الأطعمة، وأحمد (١١٥٦٢).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٠) في أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٩٤) في الإيمان، والترمذي (٢٤٣٤) في صفة القيامة.

مدة لبث نوح . عليه السلام . فى قومه

ذكر سبحانه قصة نوح تسلياً لنبيه ﷺ فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤] .

وخص نوحاً بالذكر، لأنه أول رسول أرسل إلى الأرض وقد امتلأت كفراً، وأنه لم يلق نبى من قومه ما لقى نوح، فقد مكث فى قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق وإعراضاً عنه وتكديباً له وما آمن معه منهم إلا قليل، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أى بعد هذه المدة الطويلة ما نجح فيهم البلاغ والإنذار، فانت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم، فإن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء وييده الأمر وإليه ترجع الأمور ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٩٦) ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧] .

واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك وينذل عدوك ويكببهم ويجعلهم أسفل السفالين .

وقد ورد عن ابن عباس قال: بُعث نوح وهو لأربعين سنة ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاش بعد الطوفان ستين عاماً حتى كثر الناس وفسوا، وقيل غير ذلك، قال ابن كثير: وقول ابن عباس: أقرب والله أعلم .

وظاهر سياق الآية: أن نوح مكث فى قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً. وعن مجاهد قال: قال لى ابن عمر: كم لبث نوح فى قومه؟ قال: قلت: ألف سنة إلا خمسين عاماً، قال: فإن الناس لم يزالوا فى نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا .

فنوح عليه السلام كان طويل العمر مجاب الدعوة وهو أكبر الأنبياء، ولا يجوز التعويل على ما بأيدي أهل الكتاب فى مدة لبثه فى قومه وغيرها إذا خالف كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، فقد ثبت بالقرآن أنه لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .

حالة قوم نوح أثناء بعثته إليهم

كان بين نوح وآدم - عليهما السلام - عشرة قرون على الإسلام، كما روى البخارى عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا يدل على أن الناس قبل بعثة نوح - عليه السلام - كانوا مؤمنين، على شريعة من الحق لا يعرفون الوثنية، فلما اختلفوا ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾

{البقرة: ٢١٣} .

وفى قراءة عبد الله ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ﴾ .

وروى عن قتادة قال: كانوا على الهدى جميعاً فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فكان أول نبي بعث نوحاً عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ {هود: ٢٥} .

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ {نوح: ١} .

قال ابن عباس: يعنى عذاب النار فى الآخرة وقال الكلبي: هو ما نزل عليهم من الطوفان .

وقيل: أى أنذرهم العذاب الاليم على الجملة إن لم يؤمنوا، فكان يدعو قومه وينذرهم فلا يرى منهم مجيباً، وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه فيقول: رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون .

لقد تلوث عقائد قوم نوح بالشرك، وعبدوا الأوثان والأصنام، واتخذوا آلهة من دون الله، صرفوا لها العبادة واعتقدوا أنها تجلب لهم النفع وتدفع عنهم الضرر ولذلك قال لهم نوح: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ {نوح: ٢} أى مظهر لكم بلسانكم الذى تعرفونه هذه النذارة بين يدي عذاب شديد، ثم دعاهم إلى توحيد الله جل وعلا وطاعته فقال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ {نوح: ٣} .

أى فيما أمركم به فإنى رسول الله إليكم .

التوحيد الخالص دين جميع الأنبياء

الإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين، من لدن آدم حتى رسول الله ﷺ ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ { آل عمران: ١٩ } .

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ { آل عمران: ٨٥ } .

وهو الدين الذي يحكم به عيسى - عليه السلام - عند نزوله في آخر الزمان إذ شريعة الإسلام حاکمة ومهيمنة على سائر الشرائع، وما من نبي بعثه الله إلا وأمر قومه بعبادة الله وحده، ونهاهم عن الشرك .

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ { المؤمنون: ٢٣ } . وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ { المائدة: ٧٢ } .

وقال سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ { هود: ٥٠ } .

وقال سبحانه: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ { هود: ٦١ } ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ { هود: ٨٤ } .

وقال تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ { العنكبوت: ١٦ } وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ { النحل: ٣٦ } .

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ { الأنبياء: ٢٥ } .

وقال سبحانه عن نبيه إبراهيم: ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ { الحج: ٧٨ } .

وقال سبحانه عن وصية نبيه يعقوب: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ { البقرة: ١٣٣ } .

فالإسلام هو دين الفطرة، وهو الخيفية السمحة، وهو الدين الذي ارتضاه سبحانه للعالمين وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن الله لا يقبل من عبد صرفاً ولا عدلاً إلا إذا كان موحداً ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ { النساء: ٤٨ } .

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ {الحج: ٣١} .

التوحيد أولاً، فهو مفتاح دعوة الرسل

تقديم الأهم على المهم أمر واجب في العلم والعمل والدعوة إلى الله تعالى، وما من نبي إلا وافتتح دعوته بقوله: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ {المؤمنون: ٢٣} .

لأن هذه هي الغاية التي من أجلها خلق ربنا جل وعلا الخلق ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ {الذاريات: ٥٦}

قال شيخ الإسلام: العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر الله به على السنة الرسل .

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال لمعاذ بن جبل: «إنيك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يعبدوا الله»^(١) والواجب على الدعاة إلى الله، أن يقتفوا آثار الأنبياء والمرسلين في إبلاغ الحق إلى الخلق ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ {الأنعام: ٩٠} وأن يدوروا مع إسلامهم حيث دار، فيعمقوا معاني الإيمان والعقيدة في النفوس ويركزوا على مسائل التوحيد كما صنع الإمام البخاري في بداية صحيحه، وقد اعتبر الإمام أبو حنيفة مسائل الإيمان هي الفقه الأكبر وهذا من فقههم في دين الله وحسن اتباعهم لسنة المرسلين .

قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ {النساء: ٣٦} .

وقد اتفقت الشرائع على تحريم هذه الخمس المذكورة في سورة الأعراف ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ {الأعراف: ٣٣} .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «يا معاذ، أتدرى ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟» قلت الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» وحق العباد على الله: أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، قلت يا رسول الله، أفلا أبشر

(١) رواه البخاري في الزكاة (١٤٥٨) من حديث ابن عباس، ومسلم (١٩) في الإيمان.

الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلموا» (١).

ومن تتبع القرآن المكي والمدني، سيجد تركيزاً على هذه القضية التي تحق عليها الحاقة وتقوم عليها الواقعة وينصب من أجلها الميزان والصراط وتكون الجنة والنار فلا إله غيره ولا معبود بحق سواه.

التوحيد كما يقرر العلماء، توحيدان، توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول، وهذا معنى قولنا لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهذه هي كلمة التوحيد التي ندخل بها في دين الله، ولا التفات لقول من يقول: الناس قد عرفوا التوحيد وصاروا مسلمين مؤمنين، فلا مانع من تذكيرهم وتحذيرهم من الشرك دقه وجله، وقد أكد الصادق المصدوق عليه السلام أنه: «لن تقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة ولن تقوم الساعة وأحد في الأرض يقول الله الله».

سبب عبادة الأصنام في قوم نوح

كان الغلو في الصالحين سبباً في ظهور الشرك في قوم نوح وبداية عبادة الأوثان والأصنام من دون الله.

قال تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبْرًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ [نوح: ٢١-٢٤].

قال ابن عباس وغيره: هي أصنام وصور، كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العرب وهذا قول الجمهور. روى البخاري عن ابن عباس قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم يعبدوا حتى إذا هلك أولئك وتسخ [تقاوم] العلم عبدت.

قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد.

وروى ابن كثير عن ابن جرير . . . عن محمد بن قيس في تفسير الآية قال: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا

(١) رواه البخاري (٦٦٦٧) في الاستئذان، وفي مسند أحمد (٢١٥٣٤) ومسلم (٣٠) في الإيمان، والترمذي (٢٦٤٣).

يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال إنما كانوا يُعبدونهم وبهم يُسقون المطر فعبدوهم اهـ.

جاء في صفوة البيان عن تفسير هذه الآية: وهذه الخمسة أكبر الأصنام والصور التي كان قوم نوح يعبدونها، ثم عبدتها العرب من بعدهم كما عبدت غيرها فكان ود لكلب بدومة الجندل وسواع لهذيل بساحل البحر أو لهمدان، ويغوث لبني غطف من مراد بالجرف من سبأ أو لمراد، ثم لفظفا، ويعوق لهمدان باليمن أولراد، ونسرا لذى الكلاع من حمير اهـ.

حِيطَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِحَبَابِ التَّوْحِيدِ

رسخ النبي ﷺ في نفوس أصحابه أصلية عظيمة، الأصل الأول: أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، والأصل الثاني: أن يعبدوا الله بما شرع وليس بشرع أحد سواه، ولم يسمح صلوات الله وسلامه عليه لأحد أن يخدش أيّاً من هذين الأصلين .

ومن ذلك ما رواه أنس -رضي الله عنه- «أن ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»^(١).

وجاء في صحيح مسلم من حديث عائشة -رضي الله عنها-، أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأتها بالحبيشة تسمى مارية، فيها تصاوير، فقال رسول الله ﷺ: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»^(٢).

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتكم»^(٣) وورد أيضاً فيه «إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة ولا تماثيل ولا جنب»^(٤) وفي الحديث: «من صور صورة عذبه الله بها يوم القيامة حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافع»^(٥).

(١) رواه أحمد (١٣١١٧)، (١٢١٤١) (١٣١٨٤) من حديث أنس .

(٢) رواه البخاري (٤٢٧) عن عائشة، ومسلم (٥٢٨) .

(٣) رواه البخاري (٥٩٠)، ومسلم (٢١٠٩) في اللباس والزينة، وأحمد (٤٧٧٧) واللفظ له .

(٤) رواه النسائي (٤١٥٢) وابن ماجه (٣٦٥٠) وأبي داود (٢٢٧) .

(٥) رواه البخاري (٢٢٢٥) في البيوع، رواه الترمذي (١٧٥١) في البيوع، والنسائي (٥٣٥٨) في الزينة وأبو

داود (٥٠٢٤) في الأدب .

وقد استفاض عنه ﷺ أنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وقال: «لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً وصلوا علىّ حيثما كنتم»^(١) ونهى ﷺ عن الغلو فيه والمبالغة في مدحه فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»^(٢) وقال للرجل الذي قال له ما شاء الله وشئت: «اجعلتني لله نداً بل ما شاء الله وحده» وقال للوفد الذين قالوا له أنت سيدنا وابن سيدنا، «إنما السيد الله» .

ولما رأى ﷺ في يد عمر بن الخطاب صحيفة من التوراة غضب، وقال له: «أهنا وأنا حياً بين أظهركم لقد جسّكم بها بيضاء نقية، والله لو كان موسى حياً لما حل له إلا أن يتبعني» .

ولما سمع ﷺ الخطيب على المنبر يقول: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى قال له: «بس خطيب القوم أنت، ولكن قل: ومن يعصى الله ورسوله فقد غوى»، فنهى عن الألفاظ التي توهم الندية والمساواة بين الله وبين أحد من خلقه، فلا يجوز للإنسان أن يقول: أنا في حمى الله وفلان، أو أنا متوكل على الله وعلى فلان، أو ماشاء الله وفلان، والمخرج من ذلك أن تعطف بشم لا بالواو «ولا يقولن أحدكم ما شاء الله وفلان، وليقل ماشاء الله ثم فلان» وذلك لأن العطف بالواو يفيد مساواة المشتركين في الحكم .

وكذلك لا يجوز أن تقول: وحياتك أو وحية أبيك، أو لولا فلان لكان كذا، ولولا صياح الديك مثلاً أو نهيق الحمار لسرقنا اللصوص ونحو ذلك .

وقد نهى النبي ﷺ عن الوفاء بالنذر إذا نذر في مكان يعبد فيه صنم أو يقام فيه عيد من أعياد الجاهلية . . ولو ذهبنا نستقصى لوجدنا الكثير من صور الحيلة لجناب التوحيد وسد الذرائع التي تؤدي لمواقعة الشرك، فالتوحيد هو أخطر قيمة في الوجود، وقد رأيت كيف تسرب الشرك لقوم نوح بسبب الغلو في الصالحين وكانت البداية عبارة عن اتخاذ التصاوير لهم، وهكذا فإن معظم النار من مستصغر الشرر، فلا بد من الحيلة. وعلى هذا النهج الواضح من المحافظة على التوحيد سار الصحابة ومن تابعهم بإحسان ولذلك قال عمر رضي الله عنه عن الحجر الأسود: اللهم إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك «وعزل خالد بن الوليد خشية

(١) رواه أحمد (٨٥٨٦).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٥) في أحاديث الأنبياء.

الافتتان به، وقال عليٌّ رضي الله عنه لأبي الهياج الأسديّ [رئيس شرطته]: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن لا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته ولا صورة إلا طمستها»^(١).

الغلو في الصالحين ذريعة الشرك

لم نرفع رأساً بما حدث في قوم نوح، ولم نأخذ درساً مما قصه علينا القرآن، ولم نتفع بتحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغلو في شخصه بصفة خاصة وفي الصالحين بصفة عامة فخرج من يقول:

مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث المم

وكانه لا يعرف له رباً يعبد، ولذلك رد عليه القائل:

لذ بالآله ولا تلذ بسواه من لاذ بالملك الجليل كفاه

وجعل بعض الغلاة من علوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علم اللوح والقلم !! سبحانك هذا بهتان عظيم إلى غير ذلك من صور الغلو، وقد وصل الأمر في معظم بلاد الإسلام، إلى صرف العبادة للمقبورين، بزعم محبتهم، وسوء فهم قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٦) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]

ويسبب العقائد الصوفية والشيعة، أقيمت المساجد على القبور، مخالفين بذلك هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصبحنا نشاهد من يذبح للمقبورين وينذر لهم ويستغيث بهم ويدعوهم من دون الله، ومن يطوف بأضرحتهم ويقبل أعتابهم ويتمسح بقبورهم، ومن يشد الرحال لقبورهم ويقيم المهرجانات الجاهلية التي يسمونها الموالد إلى غير ذلك مما يثن منه الإسلام وتفتت على صخرته كل قواعد التوحيد. لا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر ولا توحيد وشرك ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحج: ١٨]

وفي الحديث: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ألا لا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك»^(٢).

وفي الحديث: «لا تصلوا إلى القبور»^(٣).

(١) رواه مسلم (٩٦٩) في الجنائز، والنسائي (٢٠٣١) ورواه الترمذي (١٠٤٩) وأبو داود (٣٢١٨).

(٢) رواه البخاري (١٣٣١) في الجنائز، ومسلم (٥٣٢) في المساجد والنسائي (٧٠٣) في المساجد.

(٣) رواه مسلم (٩٧٢) في الجنائز.

ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنساً يصلى عند قبر لا يعلمه، فقال عمر: القبر القبر، وقال عليه السلام: «لا تتخذوا القبور مساجد» (١).

وقد ذهب جمهور العلماء إلى حرمة بناء المساجد على قبر وحرمة الصلاة على قبر إستناداً لنصوص الشريعة، وذهب الإمام أحمد - إلى بطلان الصلاة في المسجد المقام على قبر، لأن النهى يقتضى البطلان والفساد.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: المسجد المنشئ على قبر لا يصلى فيه فرضاً ولا نفلأ وذلك لأنه أقيم على معصية الله تعالى .

وحكى العراقي: اتفق العلماء على أن الإنسان لو أوصى حال حياته أن يدفن في المسجد لا تفذ وصيته هذه لاشتمالها على محرم فيجب الحذر من الغلو في الصالحين وصرف العبادة لهم من دون الله، أما محبتهم فهى طاعة ودين يُدان به لله تعالى .

الأساليب التي انتهجها نوح - عليه السلام - في دعوته

سلك نبي الله نوح - عليه السلام - فى دعوة قومه كل سبل، فخاطبهم على قدر عقولهم، وراعى حالتهم ودعاهم ليلاً ونهاراً سرا وعلانية، ترغيباً وترهيباً، بل قيل: كان يدخل لهم فى بيوتهم لدعوتهم، وقد أنت الآيات توضح دعوته - عليه السلام وتجليها، فبعد أن قال لهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ [نوح: ٣] بين لهم الثمار التى يتحصلون عليها من وراء ذلك ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرْ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤].

قال ابن عباس: أى ينسى فى أعماركم، قال مقاتل: يؤخركم إلى منتهى آجالكم فى عافية، فلا يعاقبكم بالقحط وغيره.

وقال الزجاج: أى يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير مومة المستأصلين بالعذاب.

وقد ذكرت الآيات قيام نوح لله بحقه فى إبلاغ الحق إلى الخلق: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٥-٦] . أى واصلت دعوتهم، وازدادوا هم تباعداً من الإيمان ﴿وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم

(١) رواه مسلم (٥٣٢) فى المساجد ، وأحمد (١٦٩٦).

فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ [نوح: ٧].

قال ابن عباس: جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعون كلامه وأصروا على الكفر فلم يتوبوا، واستكبروا عن قبول الحق، قال نوح عليه السلام: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٨-٩] أي دعوتهم مجاهرًا لهم بالدعوة وأسرت لهم بالدعاء عن بعضهم من بعض فلم أبق مجهوداً بل وأتيتهم منازلهم تلطفاً بهم .

الدنيا والآخرة تتألفها بالاستغفار

على الداعية أن يفتح للناس أبواب الرجاء، وليس له أن يُحجر واسعاً، ولا أن يغلق أمامهم أبواب الرحمة ولذلك كان حرص نوح - عليه السلام - على أن يبين لقومه قيمة الاستغفار، وأن يربط بين الدنيا والآخرة،

قال تعالى حاكياً عن نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾

[نوح: ١٠-١٢]

فهو يعدهم على الإيمان والتوحيد رزقاً حسناً وحياة طيبة وكثرة في المال والولد، وهذا منه ترغيب في التوبة، أي سلوه المغفرة من ذنوبكم السالفة بإخلاص الإيمان، وستجدون الله تواباً رحيماً ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] وهذا دليل على أن الجزاء من جنس العمل، وحث نوح لقومه على الاستغفار دليل على أنه يُستنزَل به الرزق والأمطار وتُستجلب به الأولاد.

قال الشعبي: خرج عمر يستسقى فلم يزد على الاستغفار وحتى رجع أمطروا فقالوا: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: لقد طلبت المطر بمجاريح السماء التي يُستنزَل بها المطر، ثم قرأ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾

[نوح: ١٠-١١].

وقال الأوزاعي: خرج الناس يستسقون، فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: واللهم إنا سمعناك تقول: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]

وقد أقرنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؟ اللهم اغفر لنا وارحمنا واسقنا، فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسُقوا.

وقال ابن صبيح: شكى رجل إلى الحسن الجدوبة فقال له: استغفر الله، وشكا آخر إليه الفقر فقال له: استغفر الله وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله، وشكا إليه آخر جفاف بستانه فقال له: استغفر الله. فقلت له في ذلك؟ فقال: ما قلت من عندي شيئاً، إن الله تعالى يقول في سورة نوح ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ۝١٠ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ۝١١ وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ [نوح: ١٠-١٢].

فأكثر من الاستغفار باللسان، واندم بالقلب وأقلع بالجوارح عن الذنوب والمعاصي وبادر برد الحقوق لأصحابها، حتى تكون توبتك صحيحة ونصوحاً، عساها ترد ما قد يرد فإن البر لا يبلى والذنوب لا ينسى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾ [التحريم: ٨].

(١) نوح يلفت أنظار قومه

إلى آيات الله في الأنفس والآفاق

تنوع أساليب الدعوة بحسب الحاجة وبما تتأدى به المصلحة، وهذا فيه إزالة لشبهات المدعويين بإيراد الحجج المختلفة عليهم، وقطع الملل الذي يتطرق لنفوسهم بتنوع أساليب النصح والتذكير، والدعاة عندما يصنعون ذلك لا يتدعون ولا يخترعون، إنما هم يقتفون آثار الأنبياء والمرسلين، وخصوصاً مع تفاوت أحوال المدعويين.

فهذا نبي الله نوح - عليه السلام - بعد أن رغب قومه، عاد يخوفهم عاقبة تماديهم وإصرارهم على الكفر والضلال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩] ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٦]، ثم لفت أنظارهم إلى آيات الله في الأنفس والآفاق ليهتدوا بها إلى أن الخالق لهذه العوالم كلها، علويها وسفليها، هو المستحق للعبادة وحده، دون ما عدها من هذه الآلهة المزعومة، التي لا تخلق ولا تترق ولا تملك لعابديها شيئاً.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ۝١٢ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ۝١٦ وَاللَّهُ أَنْتَبِكُمْ

مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا فِجَاجًا ﴿نوح: ١٣-٢٠﴾

قال ابن عباس: ما لكم لا تخشون لله عقاباً وترجون منه ثواباً، وقال أيضاً هو وغيره: ما لكم لا ترون لله عظمة .

وقال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة، فقد جعل لكم في أنفسكم آية تدل على توحيده .

قال ابن عباس: ﴿أطواراً﴾ يعني نطفة ثم علقة ثم مضغة، أى طوراً بعد طور إلى تمام الخلق، ثم انتقل من ذكر دلائل القدرة فى النفس، إلى الحديث عن دلائل قدرته سبحانه فى السماء، فبين لهم أن الله خلق سبع سموات طباقاً على سبع أرضين، بين كل أرض وأرض وسماء وسماء خلق وأمر، فالذى أنبت الإنسان من تراب، هو القادر على إعادته، والذى خلق الكون على هذا النحو وسخر الشمس والقمر هو الذى يجب أن يُعبد، فلا يخلق هو ويُعبد غيره ولا يرزق هو ويُشكر سواه فهو المنعم سبحانه

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا فِجَاجًا ﴿نوح: ١٩-٢٠﴾

جعل لكم الأرض مبسطة وفيها طرق واسعة، وهذه نعم تستوجب الشكر للخالق جل وعلا، وتوحيد، لا الكفر والشرك به .

(٢) تهمة الدعوة إلى توحيد الله جل وعلا

خاطر نبى الله نوح - عليه السلام - بمهجته وروحه - وأوذى فى الله، ولكنه استمر فى دعوته وثابر عليها دون انقطاع أو ملل، ولم يكثر بما كان يتهدده به قومه من نفي أو قتل

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]

لقد سلكوا معه كل سبيل لإبعاده عن دعوته ولم يتركوا نقيصة ولا تهمة إلا وقذفوه بها، كل ذلك وهو صابر، يحاسب الأجر عند الله تعالى، يقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣] وهذه هى التهمة الحقيقية، التى جرت عليه البلاء والأذى، فإن نبى الله نوح لم يقتل منهم نفساً، ولم ينازعهم على الملك والرئاسة

بدخول البرلمان وغيره، ولم يطلب منهم أجراً على دعوته، وشأنه في ذلك كشأن سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين، يخلصون أمرهم لله .

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٩] .
 ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ [سبا: ٤٧] .

إن تهمة نبي الله نوح هي تهمة رسول الله ﷺ وهي تهمة صاحب يس ومؤمن آل فرعون وأصحاب الأخدود . . . ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨]

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤] .

فلم تكن تهمة هؤلاء دخول البرلمان أو القتل والتخريب . . . وكذلك الأمر بالنسبة لك، إذا قمت تعبد الخلاق لله وتدلهم على طريق الله، فإنك حتماً ستهم، كما اتهم نوح - عليه السلام - قتل: تهمة لا أنفيها وشرف لا أدعيه، وحسبك أن تكون مستقيماً على شرع الله، داعياً إلى توحيد الله، مستبعداً بطبيعة الطريق ووعورته ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨] .

(٣) أتباع نوح، عليه السلام، فقراء ضعفاء

سأل هرقل - أبو سفيان - وكان في تجارة بالشام، - أسئلة عشرة، علم منها أن رسول الله ﷺ سيملك موضع قدمه {أى ستفتح لرسول الله ﷺ قصور قيصر} وكان من بين هذه الأسئلة: أضعفاء القوم اتبعوه أم أشرافهم، فقال أبو سفيان، بل ضعفاءهم، فقال هرقل: وكذلك هم أتباع الرسل. (١).

وقد كان أتباع نوح من ضعفاء القوم وفقراءهم، ولا يعنيه ذلك فالحق لا يُعرف بكثرة ولا بقلّة، ولا بقوة ولا بضعف، ولا بذكورة أو أنوثة . . . ولكن اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف من آتاه، ولما كان أهل الباطل يحتجون بكثرة الأموال

(١) رواه البخاري (٢٩٤١) في بدء الوحي، ومسلم (١٧٧٣) في الجهاد والسير .

والأولاد والأنصار على أحقيتهم بكل دعوة إلى الإصلاح، وأنهم أهل للفوز من أى عذاب، فبين لهم القرآن خطأ تصورهم .

﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴿سبأ: ٣٥-٣٧﴾ .

وقد اعتبر قوم نوح ضعف من آمن به واتبعه، سبباً لانصرافهم عن قبولها من جهة، وسبباً لانتقاصه وتسفيه أتباعه من جهة أخرى: قال تعالى فى سورة هود، مبيناً ما قاله قوم نوح له: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ {هود: ٢٧} .

وفى سورة الشعراء يقولون له: ﴿ أَنْتُمْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدُلُونَ ﴾ {الشعراء: ١١١}، فيجيبهم نوح: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْهُمْ كَمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهِرُونَ ﴾ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِظَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ {هود: ٢٨-٣١}

وما حدث من قوم نوح يتكرر فى كل عصر ووقت، حيث يتم الطعن فى الدعوة لأن أتباعها من أراذل الناس وعامتهم من الفقراء وأصحاب الحرف الخسيسة!!!

فليسوهم من أشراف الناس ومثقفهم، ولا من أصحاب المراكز المرموقة!!!

وهذا يذكرنا بما حاولته قريش مع رسول الله ﷺ وطلبهم منه أن يجعل له مجلساً خاصاً لا يحضره أحد من الضعفاء والموالى والعييد كبلال وعمار وصهيب، فتزل الوحي يحذر رسول الله ﷺ من الاستجابة لهم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥٢) وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴿الأنعام: ٥٢-٥٣﴾ .

بل عوتب الرسول ﷺ عندما انصرف عن ابن أم مكتوم الأعمى وأقبل على صناديد قريش وأشرفها يدعوهم، قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يُزَكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿عَبَسَ: ١-١١﴾

(٤) المَلَأَ يَتَصَدُّونَ لَهُ كَمَا تَصَدُّوا لِكُلِّ الدَّعَاوَاتِ

المَلَأَ هم أشرف القوم وقادتهم ورؤساؤهم وساداتهم، كما يقول المفسرون، وإطلاق كلمة المَلَأَ على هؤلاء من قبيل بيان الواقع لا من قبيل بيان استحقاقهم فعلاً للشرف والسيادة والقيادة والرئاسة، ويشبه ذلك وصف النبي ﷺ هرقل بأنه «عظيم الروم» فهو عظيم في نظر الروم، وإن لم يستحق هرقل هذا الوصف، والوصف الغالب على المَلَأَ من كل قوم معاداتهم للدعوة إلى الله تعالى قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ ﴿سبأ: ٣٤-٣٥﴾.

والمَلَأَ من قوم نوح هم الذين تصدوا للدعوة إلى الله، وهم الذين نسبوا نبيهم إلى الضلال المبين وهذا من أعظم الظلم والصد عن سبيل الله قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿الأعراف: ٥٩-٦٠﴾.

فالملأ يدل من رؤيتهم الحق الذي جاءهم به نوح راؤه ضلالاً، ونوره ظلاماً، وادعوا أن هذا الضلال بين رأى واضح ظاهر، وهو في الحقيقة دليل على عماهم، وعدم رؤيتهم الحق الذي أدى بهم إلى هذا الادعاء بالتالي إلى هلاكهم، قال تعالى مخبراً عن عاقبتهم ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿الأعراف: ٦٤﴾.

وأسباب مخاصمة المَلَأَ الرسل الكرام وعداوتهم لهم ورفضهم دعوتهم ترجع إلى الكبر الذي تغلغل في نفوسهم وحبهم الرياسة والجاه، ثم الجهالات التي حسبوها أدلة و يقينيات. يدل ذلك على ذلك قوله تعالى في قصة نوح: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكًا مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آيَاتِنَا الْأُولَى ﴿المؤمنون: ٢٤﴾.

فالملاّ دفاعاً عن رياستهم على الناس وتسلطهم عليهم يقولون لقومهم: إن نوحاً بدعوته هذه يريد أن يتفضل عليكم، أى يترفع ويتعظم عليكم ويترأس عليكم، ويريد الملاّ بهذا الادعاء صرف الناس عن نوح - عليه السلام - وتصوير دعوته بأنها دعوة مادية وليست دعوة هداية خالصة لوجه الله، لتبقى سيطرة الملاّ ورياسته على عموم الخلق.

والحقيقة أن رسل الله لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ولا رياسة ولا تعاضماً، وإنما هم بطبيعة دعوتهم يصيرون أئمة للناس ورؤساء وقادة حقيقيين، يفترون افتراقاً عظيماً عن الملاّ المتكبرين، الذين يسعون طلباً للدنيا ويحطامها الفانى، والفارق كبير بين من كانت الآخرة نيته فأنته الدنيا وهى زاغمة، وبين أن تكون الدنيا هى كل هم الإنسان ومبلغ علمه، ومثل هذا لا يبالى الله فى أى أوديتها هلك.

والسفاهة وإنطماس البصيرة من سمات الملاّ، ويدل على ذلك ما قالوه لنبيهم نوح - عليه السلام -: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَائِنَا وَإِنَّمَا كُنَّا فِي عَيْنِنَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ كَافِرِينَ ﴾ [هود: ٢٧].

فهم لجهالتهم، يقولون لنبيهم نوح - عليه السلام: لست بملك ولكنك بشر، فكيف أوحى إليك من دوننا؟ ثم مانراك أتبعك إلا الذين هم أرادلنا ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، وهذا كله من جهالتهم، فلا بد أن يكون الرسول من البشر حتى يمكن أن يخاطبهم ويمكن لهم أن يفهموه، ثم الضعفاء والفقراء باتباعهم الحق يرهنون على حسن إدراكهم وصفاء نفوسهم، وهم فى ذلك أعظم إدراكاً من الأشراف والسادة الذين خالفوا دعوة الرسل وانحرفوا عن مقتضى العقل والفطرة.

والملاّ فى موقفه هذا من دعوة نوح - عليه السلام - يتشابه مع الملاّ فى قریش، والملاّ فى كل زمان ومكان كفراً بالله وصدماً عن سبيل الله ومعاندة للحق استكباراً وجهالة ومجبة للرياسة.

قال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٦٠] وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار فى ضلالة.

وإذا كان الأمر كذلك فلا تعباً مخالفة من خالف الحق، واسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين، واعلم أن على الحق نوراً وهو أبلج، فاعرف الحق تعرف أهله واعرف الباطل تعرف من آتاه.

(5) دعوة تسيرو وسط التهديد والتسفيه

ذكر الصابوني في النبوة والأنبياء أنواع الاتهامات لنوح - عليه السلام - فقال:

(1) اتهم عليه السلام بالسفه والضلال . قال تعالى:

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي صَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿الأعراف: ٦١﴾ .

(2) واتهم أيضاً بالجنون وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا ﴿٩﴾ {القمر: ٩} .

وأخبر القرآن عن لسانهم: ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ {المؤمنون: ٢٥}

(3) واتهم بكثرة الجدل وبالافتراء على الله، وفي ذلك يقول القرآن الكريم حكاية عنهم: ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

{هود: ٣٢} .

(4) وهُدد - عليه السلام - بالرجم قال تعالى:

﴿ قَالُوا لَنْ لَّم تَنْتَه يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ {الشعراء: ١١٦} .

(5) وقابلوه بالسخرية والتهمك، قال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ {هود: ٣٨} .

وهكذا تفتنوا في إيزاءه واتهامه ليقلوا من عزمه، وهذه الإفتراءات والاتهامات سلاح يستعمله الفجرة في كل وقت وحين في وجه كل نبي كريم أو داعية مصلح، وهو ليس خاصاً بقوم نوح فقد قال المشركون لسيد الخلق محمد ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ {الحجر: ٦} .

وقالوا أيضاً: ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُّسْحُورًا ﴾ {الفرقان: ٨} .

وقالوا كذلك: ﴿ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ {ص: ٤} وهكذا يستعمل الأشرار والفجار هذا السلاح في وجه كل نبي وداعية، فينبغي أن يتنبه الدعاة والمصلحون إلى هذا النوع من الحرب الباردة .

(٦) رحمة وشفقة في مواجهة الجفاء والغلظة

واجه نوح عليه السلام - جفاء قومه وغلظتهم بإظهار الخوف عليهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴿الْعنكبوت: ١٤﴾، فقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ {الأعراف: ٥٩}

وهذا التخوف لا يصدر إلا من قلب رحيم، وشفقة ظاهرة عليهم، وكذلك قوله - عليه السلام - وقد رموه بالضلالة: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلَغِكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحَ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

{الأعراف: ٦١-٦٣}.

فلم يغضبه كلامهم لأنهم قوم يجهلون، ولأن الداعي الرحيم لا يغضب لنفسه قط، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمت الله، وهذا هو خلق رسول الله ﷺ، وهكذا كان الأنبياء رحماء بمن أرسلوا إليهم مشفقون عليهم من العذاب، وهذه الرحمة تهون على الداعي ما يلقاه من أصحاب الغفلة والجهالة، بل تجعله وهو يتحمل أذى قومه، ويدعو لهم بالهداية .

كما روى أن نوحاً كان يقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وهكذا كان رسول الله ﷺ يكرر دعوته إلى قریش ويتحمل أذاهم ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(١). وقد وصف ﷺ بالرحمة في أكثر من موضع من كتاب الله .

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ {التوبة: ١٢٨} وقال: ﴿فِيمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ {آل عمران: ١٥٩}.

«فاحذر خشونة الطبع وغلظة القلب، حتى في مواجهة الغلظة، فهذا شأن أصحاب الدعوات من أتباع الأنبياء والمرسلين» .

(١) رواه البخاري (٣٤٧٧) في أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٧٩٢) في الجهاد والسير، وابن ماجه (٤٠٢٥) في الفتن.

(٧) توكل على الله في مواجهة التهديد والوعيد

يقول الشيخ خليل هراس في كتابة دعوة التوحيد: «إن نبي الله نوحاً رغم طول أناته وجميل صبره لم يبد في دعوته ضعفاً ولا تردداً بل ظل ثابتاً كالطود رغم تهديد القوم ووعيدهم، وقد ذكرنا أنه لم يجبههم إلى ما طلبوه من طرد المؤمنين وإقصائهم عن مجالسهم، ولقد وقف منهم موقفاً حاسماً غاية في الروعة حين قال لهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكَيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧١-٧٢].

يقول العلامة السلفي فضيلة الشيخ محمد العدوي رحمه الله في كتابه «دعوة الرسل إلى الله» عند تعليقه على هذه الآيات: «وفي القصة من العبر أنه إذا سئم المدعوون من طول مدة الدعوة فليس للداعي أن يسأم، واعتماد الداعي في دعوته على ربه لأن ذلك يملأ قلبه شجاعة وأملاً واستهانته بكل ما يلاقى في سبيل الدعوة ويمحص قلبه ويرفع منزلته، فهذا نبي الله نوح لا يبالي بتجمع قومه عليه واستعانتهم بشركائهم، ويأمرهم بأن يجمعوا أمرهم وينفذوا قضاءهم فيه، لأنه واثق بأن النصر حليفه والعاقبة له ولأنصاره» اهـ.

إن الله تعالى يكفي من يتوكل عليه ويفوض الأمور إليه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] لا سيما من يتوكل عليه في أمور الدعوة إلى الله ونصره وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه، فما خاب من يتوكل عليه سبحانه وأتاب إليه، وتعلق قلبه به في جلب النفع ودفع الضرر، ومن طالع قصة نبي الله نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ورسول الله وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين، علم قيمة التوكل وكفاية الله لعباده المؤمنين يوم حمراء الأسد: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ ﴿

[آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

فإذا تطاول الأعداء، ووجهوا لك سهام الكيد والبطش، فلا تخف، وقل: حسي الله ونعم الوكيل .

(٨) اصبر على دعوة الحق كما صبروا على آلهتهم الباطلة

قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ {الأحقاف: ٣٥}.

ونبي الله نوح - عليه السلام - أحد أولئك الذين أمر رسول الله ﷺ بالتأسي بهم، ولقد لبث في قومه، ألف سنة إلا خمسين عاماً، ويدعوهم إلى الله ويصبر على أذاهم، كل ذلك وهم لا يرفعون بدين الله رأساً ولا يرددعون عن غيهم وضلالهم وعبادتهم الأصنام من دون الله؛ لذا فإن الصبر واجب حتم على المؤمنين وهو من أهم أسلحة الدعوة إلى الله تعالى، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ {السجدة: ٢٤}.

ومع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ {آل عمران: ١٢٠} وبين جلا وعلا أن الفلاح مرتين بالصبر فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ {آل عمران: ٢٠٠}. والنصر قرين الصبر كما ورد في الحديث.

ولما سأل عمر أشياخ بنى عبس بما كتتم تتصرون على عدوكم، فقالوا: ما لقينا عدواً إلا صبرنا لهم كما صبروا لنا.

ومن عجيب أمر المشركين أنهم يصبرون على آلهتهم الباطلة، بل ويتناصحون بذلك: ﴿أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ {ص: ٦}، أفلا يصبر المسلم على دعوة الحق !! وإذا كان الصبر من الصفات اللازمة لكل إنسان، فإنه للداعي المسلم أشد ضرورة له من غيره، لأنه يعمل في ميدانين، ميدان نفسه، يجاهدها ويحملها على الطاعة ويمنعها من المعصية، والميدان الثاني، وهو ميدان الدعوة إلى الله، وهو محتاج هنا وهناك لصبر كبير ثم الصبر بأنواعه إنما هو بالله، ويعونه وتوفيقه .

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ {النحل: ١٢٧}.

وصبر المسلم طاعة الله، إذ به تحقق مرضاة الله، فاصبر صبراً جميلاً، ولا تنسحب من الميدان مع أول عقبة فيحق عليك الحساب ويفوتك الثواب .

(٩) دعوة صدق وإخلاص وتجرد

الصدق والإخلاص والتجرد من الصفات الملازمة للنبوة، والمتبع لقصة نبي الله نوح - عليه السلام - يلمس ذلك، فقد كانت دعوته لقومه بالليل والنهار سراً وعلانية وعلى امتداد السنوات الطوال، لم تفتّر عزمته، مع ما لاقاه من أذى قومه، وقلة عدد من آمن به، والداعى المسلم الصادق يظهر أثر صدقه فى وجهه وصوته، وتكاد حركاته وسكانته تنطق بذلك، قال تعالى عن نبيه نوح - عليه السلام -: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩-٣٠].

إنها دعوة التجرد وإخلاص الأمر كله لله، والتزام معانى الصدق مع الله ومع خلق الله، سواء كانوا أقوياء أم ضعفاء، وهذه الصفات ملازمة لجميع الأنبياء، ومن تتبع سيرة رسول الله ﷺ لوجد أنه اشتهر منذ الصغر بالصدق والأمانة، حتى كان المشركون يسمونه الصادق الأمين، فيقولون جاء الصادق الأمين، وذهب الصادق الأمين.

وروى أن رجلاً من سادة قريش لقي «أبا جهل» فى أحد طرقات مكة فاستوقفه ثم قال له: يا أبا الحكم ليس هنا غيرى وغيرك، أنشدك بالله هل محمد صادق أم كاذب؟ فأجابه أبو جهل: والله إن محمداً صادق، وما كذب قط فقال فما الذى يمنعكم من اتباعه؟ فقال له أبو جهل: تنافسنا نحن وبنو هاشم، وتنازعنا الزعامة والفخر، فأطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، وأجاروا فأجرنا، حتى كنا كفرس رهان - أى استوتينا وإياهم فى سبق والفخر - ثم زاد علينا فقالوا: بعث منا نبي، فمن أين نأتيهم بنبي؟ والله لا نؤمن به ولا نتبعه، وفى هذا أنزل الله تعالى تسلياً لنبية: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقد أورد البخارى قصة هرقل ملك الروم مع أبى سفيان - قبل إسلامه وكان فى تجارة بالشام - وذلك حين سأله عن أمر محمد ﷺ أسئلة عشرة، ومن جملتها: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: ما عرفنا عليه كذباً قط!! فأجابه هرقل بقوله: «ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله» (١).

(١) رواه البخاري (٢٩٤١) فى بدأ الوحي، ومسلم (١٧٧٣) فى الجهاد والسير.

وقد ارتسم الصدق على وجهه ﷺ كما يروى عبد الله بن سلام رضي الله عنه في قصة إسلامه - كان حبراً يهودياً - يقول: فرأيت وجهه ليس بوجه كذاب^(١) ولا شك أن ظهور أثر الصدق في وجه الداعي وصوته يؤثر في المخاطب ويحمله ذلك على قبول قوله واحترامه إلا إذا كان أعمى القلب قد بلغ منه مبلغاً عظيماً، فاحرص على الصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وتجنب الكذب فإن الكذب فجور والفجور يهدي إلى النار ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠].

(١٠) نعوذ بالله من الخذلان فالرحمة قد عميت عليهم

قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

[الحج: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

[الإسراء: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وقد حكى لنا سبحانه عن نبيه نوح - عليه السلام - أنه قال: ﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْنَاكُمْ مَكْمُوهًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [هود: ٢٨].

أى أنه على يقين فقد أیده الله بالنبوة والرسالة وأمده بالمعجزة، فما كان منهم إلا الإعراض عن هذه الرحمة وهذه الهداية، فلا يمكنه بعد ذلك أن يدخل الإيمان في قلوبهم ولا أن يضطرهم إلى المعرفة بها وقد جحدوها وكرهوا الإذعان لها، وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ

(١) رواه الترمذي (٢٤٨٥) في صفة القيامة، وابن ماجه (١٣٣٤) في إقامة الصلاة والسنة فيه، وأحمد (٢٣٢٧٢)، والدارمي (١٤٦٠).

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ [يونس: ٩٩-١٠٠] .

قال ابن عباس: كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبقت له السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول .

وقيل: المراد بالناس هنا أبو طالب فعلى الدعاة إلى الله أن يستفرغوا وسعهم في دعوة الخلق وبيان الحق لهم، وأن يعلموا أن قلوبهم وقلوب الخلق بيد الله يصرفها كيف يشاء - فضلاً وعدلاً - فما ينبغي أن تؤمن نفس إلا بقضائه وقدره ومشيئته وإرادته .

وقد كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يدعو ربه ويقول: «رب احملني على فضلك ولا تحملي على عدلك» فلا ظلم بين العباد لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يصح الاحتجاج بالقدر في المعاييب وإنما الاحتجاج به في المصائب فقط، إذ يجب على الخلائق أن تسلم وجوهها لله، ومن قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله . فاللهم توفنا مسلمين والحقنا بالصلحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك وطاعة نبيك ﷺ، اللهم اجعل خيرا أعمالنا خواتيمها وخيرا أعمارنا وأواخرها وخيرا أيامنا يوم نلتقك، واجعل اللهم صمتنا فكراً ونطقنا ذكراً ونظرنا عبراً .

(١١) خوف وتذلل وتواضع لله عز وجل

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية الله علماً وكفى بالإعترار جهلاً . والأنبياء هم أكثر الخلق خشية لله تعالى وذلك لوفرة علمهم ولذلك قال النبي ﷺ: «والله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» (١) .

وفي رد نوح - عليه السلام - على سفاهة قومه ما يشعرك بخوفه وتذله وتواضعه لله عز وجل .

(١) رواه البخاري (٦١٠١) في الأدب، ومسلم (٢٣٥٦) في الفضائل وأحمد (٢٣٦٦٠) .

تأمل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ .

وكأنهم سألوه أن يطرد الأراذل الذين آمنوا به كما سألت قريش النبي ﷺ أن يطرد الموالي والفقراء، فقابل ذلك بالرفض لأنه لو فعل ذلك لخاصموه عند الله، فيجازيهم على إيمانهم، ويجازى من طردهم ﴿ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ في استردالكم لهم، وسؤالكم طردهم . فمن الذي يمنعه من عذاب الله، إن طرد المؤمنين لأجل إيمانهم ثم أخبر نوح - عليه السلام - تذللته وتواضعه لله عز وجل، وأنه لا يدعى ما ليس له من خزائن الله ثم أوضح لهم أن أجور المؤمنين لن تبطل وأن ثوابهم لن يتقص لاستئفالهم واحتقارهم فمرددهم إلى الله ومرجعهم ومآبهم إليه سبحانه، حيث يجازيهم عليه ويؤاخذهم به ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ .

(١٢) رد علم ما طوى عنا إلى الله

أوضح نبي الله نوح لقومه أنه لا يعلم الغيب، لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل فقال: ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ وهذا المعنى قررته نصوص الشريعة في أكثر من موضع .

قال تعالى: ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ { الأنعام: ٥٩ } وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ { لقمان: ٣٤ } وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ { الكهف: ٢٣-٢٤ } وقال تعالى: ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴾ { الجن: ٢٦-٢٧ } .

«وعندما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الساعة، قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، فلما سأله عن أماراتها أجاب»، «ولما تذاكروا الساعة ليلة أسرى برسول الله ﷺ، وردوا أمرها إلى نبي الله إبراهيم فقال لا علم لي بها، وكذلك قال نبي الله موسى لا علم لي بها، فلما ردوا أمرها إلى نبي الله إبراهيم فقال لا علم لي بها، فلما

ردوا أمرها إلى نبي الله عيسى قال: أما وجبتها فلا يعلمها إلا الله، ثم أخبر عن نزوله - عليه السلام - وقتله الدجال وذلك لأنه علامة من علامات الساعة» «وقد نهى رسول الله ﷺ عن إتيان العرافين والكهان وتصديقهم، فهم ليسوا بشئ وإن صدقوا مرة كذبوا معها مائة كذبة، وفي الحديث: «من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» (١).

وفي خبر ابن مسعود موقوفاً: «من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» (٢) فلا يجوز إدعاء معرفة الغيب، ويدخل في ذلك ادعاء بعض الصوفية انكشاف حُجُب الغيب لهم والواجب رد علم ما طُوِيَ عنا إلى الله.

(١٣) وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ

نفى نوح - عليه السلام، أن يكون من عالم الملائكة الأبرار، فهو بشر أرسله ربه عز وجل لدعوة الخلائق لكي يوحدوه ويعبدوه ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١] قال البعض: الفائدة في الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء لدوامهم على الطاعة، واتصال عباداتهم إلى يوم القيامة وقد استدل هذا الفريق على ما ذهب إليه بالحديث القدسي: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم» (٣) وقد خالفهم في ذلك آخرون مستدلين بأن الله تعالى خلق آدم بيده وخلق الملائكة بكلمته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤] وقد فضل آدم بالعلم، حين سألهم سبحانه عن علم الأسماء فلم يجيبوه فأنبأهم آدم بذلك، كما استدلوا بحديث أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «إن الله يباهي بأهل عرفات أهل السماء فيقول لهم: «انظروا إلى عبادي هؤلاء جاءوني شعثاً غبراً» (٤) وقد ذهب ابن تيمية إلى أن صالحى البشر أفضل باعتبار كمال النهاية وذلك إنما يكون إذا ادخلوا الجنة ونالوا الزلفى وسكنوا الدرجات العلى وحياهم الرحمن وخصهم بمزيد قربه، وتجلى لهم، يستمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وقامت الملائكة في خدمتهم بإذن ربهم .

(١) صحيح: رواه أحمد (٩٢٥٢) والحاكم.

(٢) صحيح: رواه البزار وأبو يعلى وجود إسناد المنذري والحاظف ابن حجر والحديث، صحيح لشواهد.

(٣) رواه البخاري (٧٤٠٥) في التوحيد، ومسلم (٢٦٧٥) في الذكر والدعاء، والترمذي (٣٦٠٣) في الدعوات، وابن ماجه (٣٨٢٢) في الأدب.

(٤) رواه ابن حبان والحاكم وصححه الألباني (صحيح، ١٨٦٧) في صحيح الجامع.

والملائكة أفضل باعتبار البداية فإن الملائكة الآن فى الرفيق الأعلى متزهون عما يلابسه بنو آدم، مستغرقون فى عبادة الرب، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر قال ابن القيم: بهذا التفضيل يتبين سر التفضيل وتتفق أدلة الفريقين ويصالح كل منهم على حقه والله أعلم بالصواب .

(١٤) إذا اطلع إلى قلبى لم يغيره ثوبى

لقد نظر نوح إلى ظواهر فقراء المؤمنين، فكان الازدراء والاحتقار، ولو علموا قيمة وحقيقة الإيمان المكنون فى صدورهم لكان لهم شأن آخر، افتقدوا البصيرة فعميت أبصارهم عن الموازين الإيمانية، ولذلك قال نوح: ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ {هود: ٣١} .

لو تحققوا أن الله يعلم وهم لا يعلمون، وأنه سبحانه عليم بما فى الصدور، لأحبوا المؤمنين على فقرهم ووالوهم لإسلامهم بل وقدموهم على ساداتهم وأغنياءهم - ممن كفر بالله تعالى - فهؤلاء أهون على الله من الجعلان. وشأن قوم نوح فى عتوهم كشأن المادية الطاغية المعاصرة التى اهتمت بالزخارف والزينات والنقوش وأغفلت معانى الإيمان والعمل الصالح، وقد كان على بن أبى طالب رضي الله عنه يقول: إذا نظر إلى قلبى لم يضره ثوبى، وكان أبو عبيدة رضي الله عنه يسير وسط الجيش وهو يقول: «رب مبيض لثوبه مدنس لدينه، رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات» .

وكان محمد بن واسع يقول: لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد يجلس إلىّ وكان أحد العلماء يقول لأصحابه: وددت لأحدكم لو حافظ على دينه كما يحافظ على نعله، إن المعاصى قاذورات ونجاسات فعلى كل من طلب النظافة أن يسعى لتطهير باطنه كما يسعى لتنظيف ظاهره، فإن الله مطلع وراقب لا تخفى عليه خافية، والطهارة لا تتحقق إلا بتوحيد الله جل وعلا وإخلاص العبودية له سبحانه ولذلك تنادى الملائكة على المؤمنين على أبواب الجنة وتقول: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ {الزمر: ٧٣} . والاعتراف بالحق فضيلة وجحده رذيلة، ولذلك وصف الشرك بالنجاسة ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ {التوبة: ٢٨} حتى وإن اغتسلوا ونظفوا أبدانهم وارتدوا أفرخ الثياب وحازوا أكبر المناصب، وذلك لتمكن الكفر والشرك من قلوبهم .

(١٥) جدال الأنبياء بالتي هي أحسن

رفض قوم نوح الإذعان للحق وزعموا أنه قد خاصمهم فأكثر خصومتهم وبإلغ فيها فقالوا: ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢] . والجدل في كلام العرب المبالغة في الخصومة مشتق من الجدل وهو شدة القتل ويقال للصرق أيضاً أجدل لشدته في الطير، وقرأ ابن عباس ﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ والجدل في الدين محمود ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قبله نجح وأفلح، ومن رده خاب وخسر قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] . وقال: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] .

وأما الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فمزوم وصاحبه في الدارين ملوم، وما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل . وأبغض الرجال إلى الله الألد الخصم، أي الذي يفخر في خصومته .

قال النووي في {التبيان ص ١٠١}: «يحرم المراء في القرآن والجدال فيه بغير حق، فمن ذلك أن يظهر فيه دلالة الآية على شيء يخالف مذهبه ويتحمل احتمالاً ضعيفاً موافقة مذهبه فيحملها على مذهبه وينظر على ذلك مع ظهورها في خلاف ما يقول . وأما من لا يظهر له ذلك فهو معزور، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المراء في القرآن كفر»^(١) . قال الخطابي: المراد بالمراء الشك . وقيل: الجدال المشكك فيه . وقيل: وهو الجدال الذي يفعله أهل الأهواء في آيات القدر ونحوها» اهـ .

فعليك بحسن التأس برسول الله ﷺ في دعوتك وأقوالك وأفعالك، فهو زعيم بيت في رياض الجنة لمن ترك الجدال وإن كان محقاً .

(١٦) لئاجاة وعناد وتعجل العذاب بسبب طمس البصيرة

عندما تنطمس البصائر ويصبح على قلوب الكافرين مثل الران، ولا تعجب ولا تحار إذا قال قوم نوح له: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢] .

ومن قول عاد لنيهم هود: ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠] .

(١) رواه أبي داود (٤٦٠٣) في السنة لحديث أبي هريرة، وأحمد (٧٩٢٩) لحديث أبي هريرة .

وما حكاه لنا سبحانه عن قوم سبأ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٨-١٩].

ولا يختلف حال كفار قريش مع حالة هؤلاء.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

روى أنس بن مالك أن قائله أبو جهل (١).

ثم يجوز أن يقال: قالوه لشبهة كانت في صدورهم، وعلى وجه العناد والإبهام على الناس أنهم على بصيرة، ثم حل بهم يوم بدر مأسأوا.

حكى أن ابن عباس لقيه رجل من اليهود، فقال اليهودي: بمن أنت؟ قال: من قريش. فقال: أنت من القوم الذين قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية. فهلاً عليهم أن يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إن هؤلاء قوم يجهلون.

قال ابن عباس: وأنت يا إسرائيلي، من القوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذي أغرق فيه فرعون وقومه، وأنجى موسى وقومه، حتى قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فقال لهم موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فاطرق اليهودي مفحماً. وقد ورد في صحيح مسلم، أن أبا جهل لما قال: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية نزلت ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقال ابن عباس: لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبي ﷺ والمؤمنون، ويلحقوا بحيث أمروا.

(١) رواه البخاري (٤٦٤٨) في تفسير القرآن، ومسلم (٢٧٩٦) في صفة القيامة.

(١٧) استحضار الداعي أن الخلق لا يملكون لأنفسهم

ولا لغيرهم نفعاً ولا خيراً

لما قال قوم نوح: ﴿فَأَتْنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢] رد عليهم نبيهم: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (٣٢) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٣-٣٤].

أى إن أراد الله إهلاككم عذبكم، حتى وإن ملأتم الأرض سهلاً وجبلاً فلا تعجبوا بكثرتهم، فلستم بفاتنين، ومع إبلاغه واجتهاده فى إيمانهم إلا أنهم لم يقبلوا نصحه، وذلك لأن الأمر كله بيد الله، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقبلها كيف يشاء، ولا يكون فى ملكه إلا ما يريد، إذ هو الهادى المضل، فأضاف إغواءهم إلى الله سبحانه عما يقول الجاحدون والظالمون علواً كبيراً .

قال القرطبي: «وهذا مما يدل على بطلان مذهب المعتزلة والقدرية ومن وافقهما، إذ زعموا أن الله تعالى لا يريد أن يعصى العاصى ولا يكفر الكافر، ولا يغوى الغاوى، وأنه يفعل ذلك، والله لا يريد ذلك، فرد الله عليهم بقوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ وقد أكنبوا شيخهم اللعين إبليس . . . فى إغواء الله تعالى إياه حيث قال: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦] ولا محيص لهم عن قول نوح عليه السلام: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ

وقيل: ﴿أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ يهلككم، لأن الإضلال يفضى إلى الهلاك قال الطبرى: «يغويكم: يهلككم بعذابه، حكى عن طى: أصبح فلان غاوباً أى مريضاً، وأغويته أهلكته، ومنه ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] هو ربكم فإليه الإغواء، وإليه الهداية ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤] تهديد ووعيد» اهـ .

وهكذا فالداعى يأخذ بالأسباب ويكون تعلقه بمسبب الأسباب، فاعتماده على الله فى جميع أموره، ويتقرب به ثقة كاملة بأنه يحفظه وينصره ويدفع عنه الشرور قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨] وقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِن جندنا لهم الغالبون﴾ [الصفافات: ١٧١-١٧٣]

ويتوجه بكلية إلى خالقه ومولاه وناصره ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠]، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

(١٨) ما كان ليزر الكذب على الناس

ثم يذهب فيكذب على الله

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيْ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ {هود: ٣٥} أى إن اخترقت وأفعلت الوحي والرسالة، فعقاب إجرامى على وإن كنت محققاً فيما أقوله فعليكم عقاب تكذيبى .

وسواء كان الخبر فى الآية عن نوح وقومه أو عن رسول الله ﷺ وقومه فالحال لا يختلف، والصدق سمة من سمات دعوة الأنبياء والمرسلين، ولذلك قال هرقل لأبى سفيان: أكنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فقال له أبو سفيان: لا، فقال هرقل: قلت ما كان ليزر الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله (١).

وقد تحدى بالقرآن الإنس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك، ومع توافر دواعى أعدائه على معارضته، وفصاحتهم وبلغتهم، ثم تحداهم بعشر سور منه فعجزوا، ثم تنازل إلى التحدى بسورة من مثله فعجزوا عنه، وهم يعلمون عجزهم وتقصيرهم عن ذلك، وإن هذا ما لا سبيل لأحد إليه أبداً .

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٧) أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (٣٨) بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴿

{يونس: ٣٧-٣٩}.

وقال تعالى: ﴿إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ {البقرة: ٢٤} أى فإن لم تفعلوا فى الماضى ولن تستطيعوا ذلك فى المستقبل، وهذا تحد ثان وهو أنه لا يمكنهم معارضته لا فى الحال ولا فى المآل ومثل هذا التحدى إنما يصدر عن واثق بأن ما جاء به لا يمكن للبشر معارضته ولا الإتيان بمثله، ولو كان من متقول من عند نفسه لخاف أن يعارض،

(١) رواه البخاري (٢٩٤١) فى بدء الوحي، ومسلم (١٧٧٣) فى الجهاد والسير.

يفتضح ويعود عليه نقيض ما قصده من متابعة الناس له .

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأْرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ {العنكبوت: ٤٨-٤٩} .

فبين تعالى أن نفس إنزال هذا الكتاب المشتمل على علم ما كان وما يكون وحكم ما هو كائن بين الناس على مثل هذا النبي الأُمى وحده كان من الدلالة على صدقه . ولقد كانوا يعلمون نسب الأنبياء وصدقهم وأمانتهم، وأنهم لم يكذبوا على أحد منهم يوماً من الدهر، فكيف يسعهم أن يكذبوا على الله عز وجل، مالك الضر والنفع، الذي هو على كل شئ قدير، وبكل شئ عليم؟ وأي ذنب عنده أعظم من الكذب عليه، ونسبه ما ليس منه إليه .

كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ {الحاقة: ٤٤-٤٧} .

أى لو كذب علينا لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما استطاع أحد من أهل الأرض أن يحجزنا عنه ويمنعنا منه .

سفينة نوح

(١) دعاء نوح على قومه لما أخبر أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن

روى المفسرون أن نوحاً عليه السلام كان يأتي قومه فيدعوهم إلى الله فيجتمعون عليه ويضربونه بالضرب المبرح ويخفقونه حتى يغشى عليه ثم يلفونه في حصير ويرمون به في الطريق ويقولون أنه سيموت بعد هذا اليوم . فيعيد الله سبحانه إليه قوته فيرجع إليهم ويدعوهم إلى الله فيفعلون به مثل ذلك وهكذا بقي يؤذى ويُعذَّب وهو مع ذلك صابر لا يدعو على قومه بالعذاب وإنما كان يؤمل فيهم أو في أبنائهم الخير والصلاح، ويقول لعل الله يخرج من أصلابهم من يستجيب لدعوتي ويؤمن بالله، ولكن مع هذه المدة الطويلة لم يؤمن معه إلا القليل منهم وكان كلما انقرض جيل جاء من بعده أخبث وألعن، فقد كانوا يوصون أبناءهم بعدم الإيمان به وكان الوالد يقول لولده إذا بلغ وعقل: يا بني احذر هذا لا يغرّتك عن دينك وأكهتك.

وقيل: إن رجلاً من قوم نوح حمل ابنه على كتفه، فلما رأى الصبي نوحاً قال لأبيه: أعطني حجراً، فأعطاه حجراً، ورمى به نوحاً عليه السلام فأدماه، فأوحى الله تعالى إليه: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] .

ورد عن ابن مسعود أنه قال: «كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكى نبياً من الأنبياء ضربه قومه حتى أدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» (١).

فلما يئس نوح - عليه السلام - من إيمان قومه بعد هذه الفترة الطويلة من الزمان، وأوحى الله سبحانه إليه بأنه لن يؤمن من قومه بعد هذه الفترة الطويلة من الزمان، وأوحى الله سبحانه إليه بأنه لن يؤمن من قومه بعد هؤلاء المؤمنين أحد، عند ذلك التجأ إلى الله بالدعاء فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَجْرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧] فكان بعد ذلك الطوفان .

(١) رواه البخاري (٣٤٧٧) في أحاديث الأنبياء وسلم (١٧٩٢) في الجهاد والسير، وابن ماجه (٤٠٢٥) في الفتن.

(٢) مثل عمر كمثل نوح

روى الترمذى والحاكم والبيهقى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لما كان يوم بدر جئ بالأسارى فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله: قومك وأهلك، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم .

وقال عمر يا رسول الله: كذبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، قدمهم فاضرب أعناقهم .

وقال عبد الله بن رواحه رضي الله عنه: انظروا وادياً كثير الحطب فأضرموه عليهم ناراً .

فقال العباس وهو يسمع ما يقول: قطعت رحمك .

فدخل النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئاً فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر رضي الله عنه وقال أناس يأخذ برأى عمر رضي الله عنه فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة» (١).

مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم - عليه السلام - إذ قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى - عليه السلام - إذ قال: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، ومثلك يا عمر كمثل موسى - عليه السلام - إذ قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] . ثم قال صلى الله عليه وسلم: أتمم عائلة فلا ينفلت أحد منكم إلا بفداء أو ضرب عنق، فقال عبد الله يا رسول الله: إلا سهيل بن بيضاء فإنه سمعته يذكر الإسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع على الحجارة منى في ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إلا سهيل بن بيضاء . . . فأنزل الله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] .

وروى أحمد ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: «لما أسروا الأسرى يعنى يوم بدر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون قوة لنا على الكفار وعسى

(١) رواه أحمد (٣٦٢٥)، و الترمذى (١٧١٤) في الجهاد، واللفظ لأحمد.

الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال: لا والله يا رسول الله لا أرى الذى رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تمكثنا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل (أى أخيه) فيضرب عنقه، وتمكثنى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه ويمكن فلاناً من فلان قرابته، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده (١).

فهوى رسول الله ﷺ لما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يكيان... قلت يا رسول الله: أخبرنى من أى شئ تبكى أنت وصاحبك، فإن وجدك بكاءً بكيت وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ: «أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض على عذاهم أدنى من هذه الشجرة - الشجرة قريبة منه - وأنزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ لَوْ أُسْرِيَ حَتَّىٰ يَبْخُزَ فِي الْأَرْضِ ﴾ {الأنفال: ٦٧} .

(٣) كلهم طوع إشارة ورهين أمر

من ملامح حياة الأنبياء والمرسلين، توقيهرهم لمصدر الأمر، لأنهم عرفوا الله فقدروه حق قدره، فكانوا طوع إشارة ورهين أمر، فهذا نبى الله نوح - عليه السلام - يضع السفينة اليابسة وهو يعلم أن الله مجربها ومرساها، فلم يعترض على أمر ربه، ولم يحكم عقله فى موارد النصوص ويتحكم بمعقول هو فى الحقيقة مجهول، بل كان منه التسليم التام لأمر الله، وتقديم النقل على العقل، وشأنه فى ذلك كشأن نبى الله إبراهيم - عليه السلام - حين أسكن ذريته بواد غير ذى زرع عند بيت الله الحرام - صنع ذلك وهو يعلم أن الله لا يضيع أوليائه، ومازادت هاجر على قولها الله أمرك بهذا يا إبراهيم؟ ولم يتأخر - عليه السلام - عندما رأى فى المنام أنه يذبح ولده إسماعيل، فرؤيا الأنبياء حق ووحى ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ (١٠٦) وناديتاه أن يا إبراهيم ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ {الصافات: ١٠٣-١٠٥} ولم يعترض إسماعيل، بل بادل أباه تسليماً بتسليم فقال: ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ {الصافات: ١٠٢} .

وهذه أم موسى - عليه السلام - يتوجه إليها الأمر من الخالق جل وعلا: ﴿ فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تخَافِي وَلَا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من

(١) رواه مسلم (١٧٦٣) فى الجهاد والسير، وأحمد (٢٠٨).

الْمُرْسَلِينَ ﴿الْقِصَص: ٧﴾ فهل تلكأت في الاستجابة لهذا الأمر الإلهي؟ لقد علمت أن ابنها سيعود إليها أوفر ما كان، لأن الله لا يخلف وعده. ولما قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] قال لهم: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

لقد كانت هلكة محققة ففرعون خلفهم والبحر أمامهم، ولكنه الإيمان واليقين الذي يصنع الأعاجيب، فيجعل العبد يثق بما في يد الله ولا يطمئن لم في يد نفسه.

روى ابن أبي مليكة قال: كاد الخير أن يهلك رفعا صوتهما بحضرة رسول الله ﷺ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله أمر القعقاع، وقال عمر: يا رسول الله بل أمر الأقرع فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

لقد صرنا نرفع صوتنا فوق صوت النبي ﷺ، بل منا من يناقش ويراجع أوامر الله ونواهيه ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وصدق نبي الله نوح حين وصف لقومه داءهم فقال لهم بعد أن جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿نوح: ١٣-١٦﴾ إلى آخر ما قال ليعرفهم بربهم فيقدروه حق قدره فإذا هم بعد ذلك يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

(٤) أمره . عليه السلام . بصنع السفينة

توجه الخطاب إلى نوح - عليه السلام: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيرة: «يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نعمة الله بهم وعذابه لهم فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرُ﴾ [القمر: ١٠]، فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦] فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾

يعنى السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أى برأى منا ﴿وَوَحِينَا﴾ أى تعلينا لك ماتصنعه ﴿وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِفُونَ﴾ {هود: ٣٧} فقال بعض السلف أمره الله تعالى أن يفرز الخشب ويقطعه ويبيسه فكان ذلك فى مائة سنة ونجىها فى مائة سنة أخرى وقيل فى أربعين سنة والله أعلم .

وذكر محمد بن إسحق عند التوراة أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً وأن يطلى باطنها وظهرها بالقار وأن يجعل لها جؤجؤاً أزوراً يشق الماء .

وقال قتادة: كان طولها ثلثمائة ذراع فى عرض خمسين .

وعن الحسن طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلثمائة .

وعنه مع ابن عباس طولها ألف ومائتا ذراع فى عرض ستمائة .

وقيل: طولها ألفا ذراع وعرضها مائة فالله أعلم .

قالوا كلهم: وكان ارتفاعها فى السماء ثلاثين ذراعاً ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للإنس والعليا للطيور وكان بابها فى عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها .

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثراً غريباً من حديث على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن عبد الله بن عباس أنه قال: قال الحواريون لعيسى بن مريم لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها قال فانطلق بهم حتى انتهى إلى كتيب من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه فقال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: هذا كعب حام بن نوح . قال: فضرب الكتيب بعصاه، قال: قم ياذن الله فإذا هو قائم ينفخ التراب عن رأسه قد شاب، قال له عيسى - عليه السلام - أهكذا أهلكت؟ قال: لا ولكنى مت وأنا شاب، ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت، قال: حدثنا عن سفينة نوح؟ قال كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحوش، وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير، فلما كثر روث الدواب، أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوق منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث، فلما وقع الفأر بجوف السفينة يقرضها وحبالها أوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر، فقال

له عيسى - عليه السلام - كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوق عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت . قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها فعلم أن البلاد غرقت . قال: فطوقها الخضرة التي فى عنقها ودعا لها، أن تكون أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت، قال: فقلنا يا رسول الله ألا تطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال: فقال له عد ياذن الله فعاد تراباً .

لقد سبق أن ذكرنا أن الإسرائيليات إن وافقت ديننا قبلت، وإن خالفته ردت، وإن لم نعلم هل وافقت أو خالفت، فذكرها حيثذ يكون على سبيل الاستئناس، وعلى هذا يحمل ما نقله الإمام ابن كثير -رحمه الله- وغيره من أخبار أهل الكتاب .

(5) السخرية من نبي الله نوح والطعن بالدعوة والدعاة

الطعن بالدعوة والدعاة أمر قديم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصُوا بِهِ بَلِّغْ لَهُم قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾

وقال مشركوا العرب عن نبينا محمد ﷺ: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ .

وقال تعالى عن قوم نوح وما رموه به: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾

قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ {هود: ٣٨} .

وفى سخريتهم منه قولان :

أحدهما: أنهم كانوا يرونه يبنى سفينة فى البر، فيسخرون به ويستهزئون ويقولون: يا نوح صرت بعد النبوة نجاراً .

الثانى: لما رأوه يبنى السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت قالوا: يا نوح ما تصنع؟ قال: أبني بيتاً يمشى على الماء فعجبوا من قوله وسخروا منه .

قال ابن عباس: ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر، فلذلك سخروا منه، ومياه البحار هي بقية الطوفان، فلما سخروا من نبي الله نوح رد عليهم: ﴿ قَالَ إِنَّ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود: ٣٨] أى إن تستجهلونا فإننا نستجهلكم كما تستجهلونا وكما تسخرون من فعلنا اليوم عند بناء السفينة فإننا نسخر منكم غداً عند الغرق ثم هدهم فقال: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [هود: ٣٩].

فلا توقف دعوتك ولا تمتنع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لسخرية أو استهزاء بل امض في طريقك ولا تعباً فللباطل نهاية وقد كان أويس بن عامر - سيد سادات التابعين - يقول: نأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر فيشتموا آبائنا ويسبوا أعراضنا فوالله لا ندعهم حتى تقوم بحق الله فيهم .

(٦) فلرالتور وكان طوفان نعمة لا مطر رحمة

كان بعض السلف يقول: أنتم تنتظرون المطر وأنا أنتظر حلول العذاب، ولم يكن متشامماً بل كان عالماً بالسنن، فكل مقدمة لها نتيجة وكل عقيدة لها تأثير، ولا أقل من أن تتغير إذا تغيرت السنن الكونية من حولنا، فلنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وقد كان يتغير إذا تغير الجو أو هبت رياح، وكان يدخل الحجره ويخرج، تحل ذلك مخافة عذاب الله .

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرٌنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم (٢٤) تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥].

وقد جعل تعالى لنوح موعدة إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة والهتان الذى لا يقلع ولا يفسر، قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠] والأمر حيثئذ كما قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتقى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدِ قَدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الأَوْحاحِ وَدُوسِرَ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزاءً لِمَنْ كانَ كَفِرًا ﴾ [القمر: ١١-١٤]

وقد ذكر القرطبي في معنى التنور سبعة أقوال ثم قال: قال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة، لأن الله عز وجل أخبرنا أن الماء جاء من السماء والأرض، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴿١٢﴾﴾.

فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة. والفوران الغليان، والتنور اسم أعجمي عبرته العرب .

وقال ابن كثير: «وأما قوله ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فعن ابن عباس: التنور وجه الأرض، أي صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار من التناير التي هي مكان النار صارت تفور ماء وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف، وعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - التنور فلق الصبح وتنوير الفجر وهو ضياؤه وإشراقه والأول أظهر وقال مجاهد والشعبي كان هذا التنور بالكوفة وعن ابن عباس عين بالهند وعن قتادة عين بالجزيرة يقال لها عين الوردية وهذه أقوال غريبة. اهـ.

ومعنى ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا . والدر هي المسامير وقيل صدر السفينة أو طرفاها وأصلها ومعنى ﴿جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفْرًا﴾ أي جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح عليه السلام .

(٧) الكافر أهون على الله من الجعلان

إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم، وحشر الدواب والبهائم والوحوش ثم يوضع القصاص بين البهائم حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء بنطحتها، فإذا فرغ من القصاص بينهما قيل لها: كوني تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا﴾ {النبا: ٤٠} .

وقد يجعل العذاب للكافر في الدنيا قبل الآخرة، كما حدث مع قوم نوح وعاد وثمود، بينما تنجوا بعض البهائم والحيوانات من الدمار والهلاك، وذلك لأنها مخلوقات تسبح بحمد ربها ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ {الإسراء: ٤٤} في الوقت الذي ابتلع فيه الطوفان ولد نوح - عليه السلام - وامرأته، وإذ كانا كافرين بالله تعالى، فهلكا مع من هلك

قال تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾ {هود: ٤٠} .

قال ابن كثير: أمر الله نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل وغيرها من النباتات اثنين ذكراً وأنثى فقيل كان أول من أدخل من الطيور الدرة وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار فتعلق إبليس بذنبه وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه فجعل يقول له نوح عليه السلام: ما لك ويحك ادخل فينهض ولا يقدر فقال: ادخل وإن كان إبليس معك فدخلوا في السفينة، وذكر بعض السلف أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى ألقيت عليه الحمى . اهـ .

وقد ذكر القرطبي أن نوحاً - عليه السلام - حمل معه من كل صنف زوجين اثنين يعني ذكراً وأنثى لبقاء أصل النسل بعد الطوفان، كما حمل في السفينة من آمن به وأهله إلا من سبق عليه القول منهم أى بالهلاك وهم ابنه كنعان وامرأته وأهله كانوا كافرين .

(٨) ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ [هود]، درس لكل متعجل

قال ابن عباس - رضي الله عنه - آمن من قومه ثمانون إنساناً، منهم ثلاثة من بنيه، سام وحام ويافت، وثلاث كنانن^(١) له - ولما خرجوا من السفينة بنوا قرية وهي اليوم تُدعى قرية الثمانين بناحية الموصل .

وورد في خبر أنه كان في السفينة ثمانية أنفس، نوح وزوجته غير التي عوقبت وبنوه الثلاثة وزوجاتهم، وهو قول قتادة والحكم بن عيينة وابن جريج ومحمد بن كعب، وقال ابن إسحق: كانوا عشرة سوى نسائهم، نوح وبنوه سام وحام ويافت، وستة أناس ممن كان آمن به، وأزواجهم جميعاً . أى أنهم لم يتجاوزوا المائة - على أقصى تقدير - رغم أن نوحاً - عليه السلام - ظل يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً - وكانوا قد ملأوا السهل والجبل، ولم يدخر - عليه السلام - وسعاً في دعوتهم بالليل والنهار، وسراً وعلانية، أودى فيها أبلغ الأذى، حتى أنه كان يغمى عليه فإذا أفاق، قام يعبدهم لله جل وعلا، سخروا منه واتهموه بكل نقيصة وهو يتلقى كل ذلك بإيمان ويقين ﴿جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً﴾ [نوح: ٧] فما كان منه إلا أن قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَاراً﴾ (٢١)

(١) الكنة: امرأة الابن أو الاخ .

وَمَكْرُوا مَكْرًا كُبَارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَافُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَصْلَبُوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿نوح: ٢١-٢٤﴾ .

وقد عوتب نبي الله يونس - عندما خرج من وسط قومه بعد أن أنذرهم بعذاب قريب، ولم يكن قد تلقى الأمر الصريح بالخروج، فركب البحر ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ {الصافات: ١٤٢}.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٢﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

{الصافات: ١٤٣-١٤٤}.

لقد دخل في ظلمات ثلاث، ظلمة البحر والليل وظلمة بطن الحوت .

وقد ظل النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة بمكة يدعو قومه، أودى خلالها وحوصر وحاولوا قتله، وهاجر أصحابه، واضطر للخروج من أحب بلاد الله إلى الله ومن أحب بلاد الله لنفسه الشريفة ﷺ، وفي المدينة أقيم للمجتمع الإسلامي، بعد جهاد عظيم في جميع الميادين فلا ينبغي التعجل، فمن تعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه، ولا يصح أن نقيس نجاح الدعوة بقصر مدتها وكثرة المستجيبين لها، بل بمدى مطابقتها لمثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام، أما النتائج فمردها إلى الله لا يجعلها لوقتها إلا هو إن قلوب العباد ومعاني النصر والتمكين بيد الله، فما علينا إلا أن نأخذ بالأسباب الشرعية ونستقيم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وليس لنا أن نتعجل قطف الثمار قبل أوانها .

(٩) ذكر البسملة عند الركوب وعند ابتداء كل فعل

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ {هود: ٤١} أمر الركوب ويحتمل أن يكون من الله تعالى، ويحتمل أن يكون من نوح لقومه، قال عكرمة: ركب نوح - عليه السلام - في الفلك لعشر خلون من رجب، واستوت على الجودي لعشر خلون من المحرم، فذلك ستة أشهر وقال قتادة وزاد: وهو يوم عاشوراء، فقال لمن كان معه: من كان صائماً فليتم صومه، ومن لم يكن صائماً فليصمه . وذكر الطبري في هذا حديثاً عن النبي ﷺ أن نوحاً ركب في السفينة أول يوم رجب وصام الشهر أجمع، وجرت بهو السفينة إلى يوم عاشوراء ففیه أرسى على الجودي فصامه نوح ومن معه .

وذكر الطبري عن ابن اسحق ما يقتضى أنه أقام على الماء نحو السنة، ومرت بالبيت فطاف به سبعاً، وقد رفعها الله عن الغرق فلم ينلها غرق، ثم مضت إلى اليمن، ورجعت إلى الجودي فاستوت عليه . وقال الضحاك: كان نوح عليه السلام إذا قال بسم الله مجراها جرت، وإذا قال بسم الله مرساها رست . وفي هذه الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل، وقد وردت النصوص تفيد مشروعيتها ذكرها عند الوضوء وعند الذبيحة وعند الأكل وعند الجماع وغير ذلك .

وقد أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه «بسم الله الرحمن الرحيم»^(١) وأخرج البخاري في صحيحه عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: كانت قراءته مداً . ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم»^(٢) .

وفي الحديث: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع»^(٣) ، وعند أحمد «كل أمر ذي بال لا يفتتح بذكر الله فهو أتر أو أقطع»^(٤) . ولا شك أن البسملة من أبلغ الثناء وكتابتها اقتداء بالكتاب العزيز، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقتصر عليها في مراسلاته، كما في كتابه لهرقل عظيم الروم .

(١٠) سفينة نجاة تسيرو وسط أمواج كالجبال

ركب نوح - عليه السلام ومن آمن معه السفينة، وكانت سفينة نجا رغم المخاطر التي اعترضتها والأمواج العاتية التي عاقبتها ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ {هود: ٤٢} الموج جمع موجة، وهي ما ارتفع من جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح، وجاء في التفسير أن الماء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعاً، وشأن هذه السفينة كسفينة السنة التي من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك، وشأن من استقام على شرع الله وانقاد لأمر الله - في كل عصر ووقت - أن يجذف في بحار الفتن وسط أمواج عالية من الشهوات والشبهات، ولا يسعنا إلا مواصلة المسير فإما النصر وإما الشهادة وكلنا يقين، أن العاقبة للمتقين، وأن الله لا يصلح عمل المفسدين، فلا بد من صبر وثبات وجهاد كبير .

(١) رواه أبي داود (٧٨٨) في الصلاة .

(٢) رواه البخاري (٥٠٤٦) في فضائل القرآن والنسائي (١٠١٤) في الاقتراح، وأبي داود (١٤٦٥) في الصلاة .

(٣) ضعف الحافظ إسناده .

(٤) رواه أحمد (٨٤٩٥) وضعفه الألباني .

(١١) ولد نوح كان كافراً، فلماذا ناداه؟

تحكى لنا الآيات مناداة نوح - عليه السلام - لابنه لما شاهد الغرق الذى يوشك يهلكه مع الكافرين، قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

وكان ابنه فى الحقيقة لقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ ونوح أيضاً نص عليه فقال ﴿يَا بُنَيَّ﴾ وقد استبعد البعض أن يكون ولد الرسول المعصوم كافراً، وصرخوا الكلام عن حقيقته وأن نوحاً هو الذى ربه، وقيل: كان كافراً واسمه كنعان وقيل: يام، ولا يبعد أن يكون الولد كافراً والأب مسلماً أو العكس فوالد إبراهيم - عليه السلام - كان كافراً بنص القرآن، وقد استشكل البعض كيف ناداه مع كفره، وهو - عليه السلام - قد قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] فأجابوا عنه من وجوه:

الأول: أنه كان ينافق أباه فظن نوح أنه مؤمن فلذلك ناداه ولولا ذلك لما أحب نجاته.

والثانى: أنه عليه السلام كان يعلم أنه كافر، ولكنه ظن أنه لما شاهد الغرق والأهوال العظيمة فإنه يقبل الإيمان فصار وقوله: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ كالدلالة على أنه طلب منه الإيمان وتأكد هذا بقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ أى اترك متابعتهم فى الكفر واركب معنا.

والثالث: أن شفقة الأبوة لعلها حملته على ذلك النداء، والذى تقدم من قوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠] كان كالمجمل فعمله - عليه السلام - جوز أن لا يكون هو داخلاً فيه . ويروى أن علياً رضي الله عنه قرأ:

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ والضمير لامراته، وقرأ محمد بن على وعروة بن الزبير: ﴿ابْنَهَا﴾ بفتح الهاء يريد ﴿أن ابنها﴾ إلا أنهما اكتفيا بالفتحة عن الألف، وقال قتادة سألت الحسن عنه فقال: والله ما كان ابنه فقلت: إن الله حكى عنه أنه قال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥] وأنت تقول: ما كان ابناً، فقال: لم يقل إنه منى ولكنه قال: من أهلى وهذا يدل على قولى . والأشبه بالصواب والصحة ما ذهب إليه جمهور العلماء من أنه ولده لصلبه .

(١٢) لم يُغني عن امرأته من الله شيئاً

قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التحریم: ١٠] .

ضرب الله تعالى هذا المثل تنبيهاً على أنه لا يغني أحدٌ في الآخرة عن قريب ولا نسيب، بل ولا يستطيع دفع الهلكة عنه في الدنيا، وكان اسم امرأة نوح والهة قاله مقاتل، وذكر الضحاك أن اسمها واغلة، ومعنى فخانتاهما أى بالكفر كما قال عكرمة والضحاك .

وورد عن ابن عباس كانت امرأة نوح تقول للناس أنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه، وعنه أيضاً عليه السلام ما بغت امرأة نبي قط، وهذا إجماع من المفسرين فيما ذكر القشيري إنما كانت خيانتهم في الدين وكانتا مشركتين، وقيل: كانتا منافقتين، وقيل: خيانتهم النيمة إذا أوحى الله إليهما شيئاً أفشياه إلى المشركين، قاله الضحاك .

وقيل: كانت امرأة لوط إذا نزل ضيف دخنت لتعلم قومها أنه قد نزل به ضيف، لما كانوا عليه من إتيان الرجال ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [التحریم: ١٠] أى لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما - لما عصتا - شيئاً من عذاب الله، تنبيهاً بذلك على أن العذاب يُدفع بالطاعة لا بالوسيلة ويقال: إن كفار مكة استهزءوا وقالوا: إن محمداً عليه السلام يشفع لنا .

فبين الله تعالى أن شفاعته لا تنفع كفار مكة وإن كانوا أقرباء، كما لا تنفع شفاعته نوح لامرأته وشفاعة لوط لامرأته، ومع قريبهما لهما لكفرهما، وقيل لهما: ﴿ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [التحریم: ١٠] فى الآخرة، كما يقال لكفار مكة وغيرهم .

(١٣) لا جبل ولا غيره يعصم اليوم من أمر الله إلا من رحم

كان كنعان في معزل من السفينة لأنه كان يظن أن الجبل يمنعه من الغرق، أو أنه كان في معزل عن أبيه وإخوته وقومه وقيل: إنه كان في معزل من الكفار كأنه انفرد عنهم فظن نوح - عليه السلام - أن ذلك إنما كان لأنه أحب مفارقتهم، واعلم أنه تعالى لما حكى عن نوح - عليه السلام - أنه دعاه إلى أن يركب السفينة حكى عن ابنه أنه قال: ﴿سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣].

وهذا يدل على أن الابن كان متمادياً في الكفر مصراً عليه مكذباً لأبيه فيما أخبر عنه فعند هذا قال نوح - عليه السلام -: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣]. أي لا مانع، فإنه يوم حق فيه العذاب على الكفار، أو لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم، أي إلا الله وهذا اختيار الطبري.

وقد ذكر العلماء أنه تعالى رحيم، وأنه برحمته يخلص هؤلاء الذين ركبوا السفينة من آفة الغرق، وأنه لا فرار من الله إلا إلى الله، وهو نظير قوله ﷺ في دعائه: «وأعوذ بك منك» .

وقال البعض وكأن في الكلام مضمرة في حكم الملفوظ لظهور دلالة اللفظ عليه والتقدير: لا عاصم اليوم لأحد من أمر الله إلا من رحم، ويبقى أن الذي رحمه الله معصوم، وقد حصل ذلك لنوح ومن آمن معه وهم الذين خصهم الله تعالى برحمته .

وقد ورد في كتب التفسير: أن الموج حال بين نوح وابنه كنعان ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣] قيل: أنه كان راكباً على فرس قد بطر بنفسه، وأعجب بها، فلما رأى الماء جاء قال: يا أبت فار التور، فقال له أبوه: ﴿يَا بَنِي أَرْكَبْ مَعَنَا﴾ [هود: ٤٢] فما استتم المراجعة حتى جاءت موجة عظيمة فالتقمته هو وفرسه، وحيل بينه وبين نوح فغرق .

وقيل: أنه اتخذ لنفسه بيتاً من زجاج يتحصن فيه من الماء، فلما فار التور دخل فيه وأقفله عليه من داخل، فلم يزل يتغوط فيه ويبول حتى غرق بذلك . وقيل: أن الجبل الذي أوى إليه «طور سيناء» .

(١٤) لا داعى للهزيمة النفسية أمام قوة الأعداء

﴿ كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

وهذه الأمة لا تتصبر بكثرة عدد أو عتاد، وإنما تتصبر بالإيمان وقوة اليقين ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ١٠].

فنحن إن وثقنا صلتنا بالله تعالى لن ترهبنا ولن تهزمننا قوة مادية مهما كانت، فمن كان الله معه، كان معه الفتنة التي لا تغلب والهادى الذى لا يضل والحارس الذى لا ينام ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٠] والواجب علينا أن لا ننخدع بتبجيل الأعداء وغزوهم الفكرى ومبالغتهم فى تضخيم قوتهم، فالقوة النووية قد تنقلب ضدهم كما حدث فى تشرنوبل وأمريكا لم تستطع إيقاف إعصار أندرو وفيضان الميسى وزلزال سان فرانسكو.

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١].

فإذا أتى أمر الله قيل لهم كما قيل لكنعان ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ فبدلاً من الضعف والتخاذل والهزيمة النفسية أمام قوة الأعداء المادية، علينا أن نرجع إلى آخية الإيمان ونأخذ بأسباب القوة المعنوية والمادية ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

(١٥) أمره سبحانه نافذ في الجمادات فكيف لا يستسلم العقلاء لحكمه ؟

لما انتهى أمر الطوفان ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤] الأرض مأمورة، والسماء مأمورة والبحر مأمور، والجبل الذى أوى إليه كنعان مأمور، والسفينة التى جرت بهم إلى أن تناهى الأمر هى الأخرى مأمورة ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة: ١١] فأمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك وأمر الأرض بالابتلاع.

قال ابن العري: التقى الماء أن على أمر قد قدر، ما كان فى الأرض، وما نزل من السماء، فأمر الله مائزل من السماء بالإفلاق، فلم تمتص الأرض منه قطرة، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ ﴾ [هود: ٤٤].

ولو قُتِّسَ كلام العرب والعجم ما وجد فيه مثل هذه الآية على حسن نظمها، وبلاغة وصفها، واشتمال المعاني فيها، وغيض الماء، أى نقص وما بقى منه شئ، وقُضِيَ الأمر أى أَحْكَمَ وُفِّرَغَ منه، يعنى أهلك قوم نوح على تمام وإحكام، تنبيهاً على أن كل ما قضى الله تعالى فهو واقع فى وقته، وأنه لا دافع لقضائه ولا مانع من نفاذ حكمه فى أرضه وسمائه، ويقال: إن الله تعالى أعقم أرحامهم، أى أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة، فلم يكن فىمن هلك صغير، وهذا قول بعض المفسرين، وهذا لو حدث لكان آية عجيبة قاهرة، ولا يبعد مع ظهورها استمرارهم على الكفر فكم من آية ومعجزة باهرة يمر عليها الكفار وهم معرضون .

والأشبه بالصحة أنه أهلك الولدان بالطوفان، كما هلكت الطير والسباع، ولم يكن الغرق عقوبة للصبيان والبهائم والطيور، بل ماتوا بأجلهم وحكى أنه لما كثر الماء فى السُّكِّ خشيت أم صبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت به إلى الجبل، حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعت يديها بابنها حتى ذهب بها، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبى ولا اعتراض على الله تعالى فى أفعاله ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فضلاً وعدلاً، إذ لا ظلم بين العباد لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، وقد رجح النووى، أن أولاد الناس فى الجنة بما فيهم أولاد الكفار، وقال هذا قول المحققين من العلماء .

وهذه الآية: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ [هود: ٤٤] مشتملة على ألفاظ كثيرة كل واحد منها دال على عظمة الله تعالى وعلو كبريائه، فكلمة قيل تُشعر أنه تقرر فى الفطر والعقول أنه لا حاكم فى العالمين ولا متصرف فى العالم العلوى والعالم السفلى إلا هو سبحانه .

وقوله تعالى: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ [هود: ٤٤] يدل على أن الله قاهر لهذه الأجسام العظيمة، متصرف فيها كيف يشاء وأراد، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وإذا كان أمره سبحانه نافذاً فى الجمادات فلأن يكون أمره نافذاً على العقلاء فمن باب أولى وأحرى فسبحان من له الخلق والأمر، وله الأسماء الحسنى والصفات العلى .

(١٦) استوت السفينة على الجودي ، فأين هي الآن ؟

بعد أن غرق أهل الأرض، أمرت السماء أن تكف عن المطر، وأمرت الأرض أن تبتلع المياه التي غمرتها، وعادت الحياة كما كانت على ظهر الأرض، وكانت السفينة قد وصلت إلى جبل (الجودي) إلى جانب دجلة عند الموصل في العراق، قال تعالى : ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ {هود: ٤٤}.

قال القرطبي : استوت عليه في العاشر من المحرم يوم عاشوراء، فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والطير والدواب وغيرها فصاموه شكراً لله تعالى وقيل : كان ذلك يوم الجمعة .

وروى أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسى على واحد منها فتناولت وبقي الجودي لم يتناول تواضعاً لله، فاستوت السفينة عليه، وبقيت عليه أعوادها وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : «لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة» .

وقال مجاهد : شامخت الجبال وتناولت لثلا ينالها الغرق، فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعاً وتظامن الجودي، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق، ورسست السفينة عليه . ولا يخفى عليك أن الانشغال بالبحث عن آثار السفينة، ومع إغفال العظة والعبرة الموجودة في قصتها، كالانشغال بالبحث عن اسم ورسم صاحب يس وأصحاب الكهف ومؤمن آل فرعون، وكالانشغال المريب بالبحث والتنقيب عن آثار الفراعنة لكي نشيد بحضارة الفراعنة !! ومبلغ الرقى العمراني الذي كانوا عليه !! .

إن الواجب علينا أن نسير في الأرض سير اتعاظ مستبصرين بالسنن الشرعية والسنن الكونية . وفي معنى ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ {هود : ٤٤} وجهان :

الأول : أنه من كلام الله تعالى قال لهم ذلك على سبيل اللعن والطرود .

والثاني : أن يكون ذلك من كلام نوح عليه السلام وأصحابه لأن الغالب ممن يسلم من الأمر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فإذا اهلكوا ونجا منهم قال مثل هذا الكلام ولأنه جار مجرى الدعاء عليهم فجعله من كلام البشر أليق .

(١٧) لما تواضع الجودي وخضع عز

أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر، الجودي بنوح، وطور سيناء بموسى، وحراء بمحمد ﷺ وقد قال مجاهد: شامخت الجبال وتطاولت لثلا ينالها الغرق، فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعاً، وتضامن الجودي، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق، ورسى السفينة عليه، ولذلك قيل: لما تواضع الجودي وخضع عز، ولما ارتضع غيره واستعلى ذل، وهذه سنة الله في خلقه، ويرفع من يخضع، ويضع من ترفع، ولقد أحسن القائل :

وإذا تذللت الرقاب تخضعاً منا إليك فعزها في ذلها

فما ارتفع شئ من الأرض إلا وضعه الله: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ { طه: ١٠٥-١٠٧ } .

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: كانت ناقة للنبي ﷺ تُسمى العُضْبَاءَ وكانت لا تُسَبِّحُ، فجاء أعرابي على قعود له فسبقتها، فاشتد ذلك على المسلمين، وقالوا: سُبِّحت العُضْبَاءُ! فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ حَقَّ عَلَيَّ إِلَّا يَرْفَعُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ»^(١) وخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»^(٢) وقال ﷺ: «إِنْ اللَّهُ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغَى أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»^(٣).

(١٨) رغم قربه من ابنه إلا أنه لا يعلم حقيقته

سأل نوح ربه نجاة ابنه من الغرق معتقداً أنه من أهله الذين وعده الله أن ينجيهم من الغرق قال تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ {هود: ٤٥} يعنى الصدق قال علماء التفسير: وإنما سأل نوح ربه ابنه لقوله: ﴿ وَأَهْلِكَ ﴾ {هود: ٤٠} وترك قوله: ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ {هود: ٤٠} فلما كان عنده من أهله قال: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ {هود: ٤٥} يدل على ذلك قوله: ﴿ وَلَا

(١) رواه البخاري (٢٨٧٢) في الجهاد والسير، وأحمد (١١٥٩٩) وأبي داود (٤٨٠٢) والنسائي (٣٥٨٨) في الخيل.

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨) في البر والصلة والآداب، والترمذي (٢٠٢٩) في البر والصلة، وأحمد (٧١٦٥) في المسند.

(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها وأبو داود (٤٨٩٥).

تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿هُود: ٤٢﴾ أى لا تكن ممن لست منهم، لأنه كان عنده مؤمناً فى ظنه، ولم يك نوح يقول لربه ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿هُود: ٤٥﴾ إلا وذلك عنده كذلك، إذ محال أن يسأل هلاك الكفار، ثم يسأل فى إنجاء بعضهم، وكان ابنه يُسر الكفر ويظهر الإيمان، فأخبر الله تعالى نوحاً بما هو منفرد به من علم الغيوب، أى علمت من حال ابنك ما لم تعلمه أنت، وقال الحسن: كان منافقاً، ولذلك استحل نوح أن يناديه، وعنه أيضاً: كان ابن امرأته، دليله قراءة على ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ وقد وصف القرطبي هذه القراءة بالشذوذ وقال: «فلا تترك المتفق عليها لها».

﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿هُود: ٤٥﴾ أى حكمت على قوم بالنجاة، وعلى قوم بالغرق، ولا راد لقضائك ولا معقب لحكمك .

(١٩) العبرة بقربة الدين لا بقربة النسب

حكم الاتفاق فى الدين أقوى من النسب ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ﴿هُود: ٤٦﴾، ولما ثبت بالدليل أنه كان ابناً فيكون المراد أنه ليس من «أهلك» دينك ولا ولايتك وهذا قول الجمهور، أو أنه ليس من أهلك الذين وعدت أن أنجيهم معك ولا يصح القول بأنه ولد زنا فهو باطل قطعاً، وهذه الآية تدل على أن العبرة بقربة الدين لا بقربة النسب، فإن فى هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه، ولكن لما انتفت قرابة الدين لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الالفاظ وهو قوله ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ﴿هُود: ٤٦﴾.

وقد قرأ ابن عباس وعروة ويعقوب والكسائي ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ أى من الكفر والتكذيب واختاره أبو عبيد . وقرأ الباقون ﴿عَمَلٌ﴾ أى ابنك ذو عمل غير صالح . والولد قد يُسمى عملاً كما يسمى كسباً . قيل لسعيد بن جبير يقول نوح: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ ﴿هُود: ٤٥﴾ أكان من أهله؟ أكان ابنه؟ فسبح الله طويلاً ثم قال: لا إله إلا الله! يحدث الله محمداً ﷺ أنه ابنه، وتقول: إنه ليس ابنه! نعم كان ابنه، ولكن مخالفاً فى النية والعمل والدين، ولهذا قال الله تعالى ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ﴿هُود: ٤٦﴾ ومن الآيات الدالة على أن الرابطة الحقيقية هى الدين، وأن تلك الرابطة تتلاشى معها جميع الروابط النسيبه والعصيه

قوله تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ {المجادلة: ٢٢} إذ لا رابطة نسبية أقرب من رابطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر .

وقوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ {التوبة: ٧١} وقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ ﴾ {الحجرات: ١٠} فهذه الآيات وأمثالها تدل على أن النداء برابطة أخرى غير رابطة الإسلام كالقومية ... لا يجوز ولا شك أنه ممنوع بإجماع المسلمين .. إن الإسلام رفع سلمان فارس ووضع النسب أبا لهب، فالرابطة الحقيقية التي تجمع المشرق وتؤلف المختلف هي رابطة «لا إله إلا الله» .

وقد أجمع العلماء: على أن الرجل إن مات وليس له من الأقارب إلا ابن كافر، أن إرثه يكون للمسلمين بإخوة الإسلام ولا يكون لولده لصلبه الذي هو كافر، وهذا لا يمنع من أن يتتبع المسلم بروابط نسبية لا تمت إلى الإسلام بصلة، كما نفع الله نبيه ﷺ بعمه أبي طالب، وكما انتفع شعيب برهطه كما قال تعالى عن قومه: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ {هود: ٩١} . وهذا كله من هدى القرآن للتي هي أقوم .

(٢٠) قصة نوح مع ولده تسلية للخلق في فساد أبنائهم

الواجب على الآباء أن يتعاهدوا الأبناء بطاعة الله، ولا يخفى أن الوالد قدوة لابنه، وأن الأولاد يتتبعون بصلاح الآباء إلا من سبق عليه القضاء وغلب عليه الشقاء .

ففي الحديث «احفظ الله يحفظك» وكان سعيد بن المسيب يطيل في صلواته ويقول لابنه: والله إنني لأطيل في صلواتي رجاء أن أحفظ فيك وبتلو قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ {الكهف: ٨٢} قيل حفظ الأبناء بصلاح الآباء، والأب المذكور في الآية قيل: هو الجد الصالح، وهذا كله في الأعم الأغلب، وإلا فنبي الله أحد أولى العزم من الرسل، وهو من الصلاح والتقى بمكان، ولا يمكن أن ينسب إلى إخلال أو تفریط في تربية ولده كنعان، أو تعاهده، ولذلك فقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ {هود: ٤٦} تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين، وقد حسد أولاد نبي الله يعقوب - عليه السلام - أخاهم يوسف، وكادوا له، لإيعاده عن أبيه فألقوه في غيابة الجب على غير جريرة ارتكبتها، وكذبوا على والدهم إلى غير ذلك مما فعلوه .

وروى أن ابن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطاه، قال فعلم مالك أنه قد فهمه الناس، فقال مالك: الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات، فعلينا أن نأخذ بالأسباب ولا ندخر وسعاً، وندعوه سبحانه أن يعصمنا وأولادنا وسائر المسلمين من موجبات غضبه وسخطه .

(٢١) عتاب لا يقلح في عصمة نبي الله نوح عليه السلام.

الأنبياء معصومون من الكبائر ومن الإصرار على الصغائر، وحسنات الأبرار سيئات المقربين، ولهذا لما قال نبي الله نوح: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] حصل العتاب ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] أى أنهاك عن هذا السؤال، وأحذرك لئلا تكون أو كراهية أن تكون من الجاهلين، أى الآثمين .

ومنه قوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ [التور: ١٧] أى يحذركم الله وينهاكم، وقيل: المعنى أرفعك أن تكون من الجاهلين . قال ابن العربي: وهذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحاً عن مقام الجاهلين، ويعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين، فقال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧] .

وهذه ذنوب الأنبياء عليهم السلام فشكر الله تذللته وتواضعه ﴿وَالْأَتَغْفِرْ لِي﴾ ما فرط من السؤال ﴿وترحمني﴾ أى بالتوبة ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] أى أعمالاً وقد ذكر البعض أن أمة نوح عليه السلام كانوا على ثلاثة أقسام، كافر يظهر كفره، ومؤمن يعلم إيمانه، وجمع من المنافقين، وقد كان حكم المؤمنين هو النجاة، وحكم الكافرين هو الغرق، وكان ذلك معلوماً، وأما أهل النفاق فبقى حكمهم مخفياً، وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مؤمناً، وكانت الشفقة المفرطة التي تكون من الأب في حق الابن تحمله على حمل أعماله وأفعاله لا على كونه كافراً، بل على الوجوه الصحيحة، فلما رآه بمعزل عن القوم طلب منه أن يدخل السفينة فقال: ﴿سَأْوِي إِلَى جِبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣] وذلك لا يدل على كفره لجواز أن يكون قد ظن أن الصعود على الجبل يجزى مجرى الركوب في السفينة في أنه يصون عن الغرق .

وقول نوح: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣] لا يدل إلا على أنه عليه السلام كان يقرر عند ابنه أنه لا ينفعه إلا الإيمان والعمل الصالح، وهذا أيضاً

لا يدل على أنه علم من ابنه أنه كافراً فعند هذه الحالة كان قد بقي في قلبه ظن أن ذلك الابن مؤمن فطلب من الله تعالى تخليصه بطريق من الطرق، إما بأن يمكنه من الدخول في السفينة، وإما أن يحفظه على قمة جبل، فعند ذلك أخبره الله تعالى بأنه منافق وأنه ليس من أهل دينه، فالزلة الصادرة عن نوح عليه السلام هو أنه لم يستقص في تعريف ما يدل على نفاقه وكفره، بل اجتهد في ذلك وكان يظن أنه مؤمن، مع أنه أخطأ في ذلك الاجتهاد لأنه كان كافراً، وليس ذلك من باب الكباثر، وعلى كل حال فقد أتبع نبي الله نوح ذلك بالندم والتوبة والعزم على عدم العودة فيه مرة ثانية فقال: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ {هود: ٤٧} وهذا إخبار عما في المستقبل، أي لا أعود إلى هذا العمل وبين أنه لا يقدر على الاحتراز منه إلا بإعانة الله وهدايته، فلماذا بدأ أولاً بقوله ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ﴾ ثم اشتغل بالاعتذار عما مضى فقال: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ {هود: ٤٨}.

(٢٢) هبوط أهل السفينة بعد نجاتهم إلى الأرض

استقرت السفينة بجبل «الجودي» أمر الله نوحاً ومن معه أن ينزلوا منها بسلام وأمان وبركات منه سبحانه: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ {هود: ٤٨} وكان نزولهم من السفينة يوم عاشوراء من المحرم، قيل بعد أن بقوا فيها (١٥٠) يوماً فصام نوح ذلك اليوم شكراً لله وأمر من معه من المؤمنين أن يصوموه، وقد توارث بنو إسرائيل صيام ذلك اليوم وجاء الإسلام فأقر صيامه وقد صح أن النبي ﷺ لما قدم المدينة رأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: يوم صالح، هذا يوم نحيى الله تعالى فيه بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه»^(١).

وأخرج الترمذى عن النبي ﷺ أنه قال: «صيام يوم عاشوراء إنى أحسب على الله أن يكفر السنة التى قبله» وقد نقل ابن كثير عن ابن عباس أنه كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوه، وأنهم مكثوا في السفينة مائة وخمسين يوماً، وأن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوماً ثم وجهها إلى الجودي فاستقرت عليه. اهـ.

وبعد هبوط أهل السفينة إلى الأرض بدأوا في عمارة الأرض بشرح الله .

(١) رواه البخاري (٢٠٠٤) في الصوم، ومسلم (١١٣٠) في الصيام، وأبو داود (٢٤٤٤) في الصوم. وابن ماجه (١٧٣٤) في الصوم.

(٢٣) جميع الخلائق من نسل نوح، عليه السلام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نوح آدم الأصغر، فجميع الخلائق الآن من نسله، ولم يكن معه في السفينة من الرجال والنساء إلا من ذريته، على قول قتادة وغيره قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ {الصفافات: ٧٧} فكل الخلائق ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة.

روى أحمد عن النبي صلوات الله عليه أنه قال: «سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم».

وروى البزار في مسنده أن النبي صلوات الله عليه قال: «ولد لنوح سام وحام ويافث، فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم وولد ليافث يأجوج ومأجوج».

ذكر النقاش عن سليمان بن أرقم عن الزهري: أن العرب وفارس والروم وأهل الشام وأهل اليمن من ولد سام بن نوح، والسند والهند والزنج والحبشة والزط والنوبة وكل جلد أسود من ولد حام بن نوح، والتترك وبرير ووراء الصين ويأجوج ومأجوج والصقالبة كلهم من ولد يافث بن نوح، والخلق كلهم ذرية نوح.

ولهذا يسمى نوح - عليه السلام - (أبا البشر الثاني) لأن جميع أهل الأرض بعد الطوفان هم من نسل أهل السفينة الذين كانوا مع نوح، حتى ابن نوح الذي لم يؤمن بالله ولم يركب مع أبيه في السفينة كان من الهالكين.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ {هود: ٤٨} كل مؤمن إلى يوم القيامة، ودخل في قوله تعالى: ﴿وَأُمَّمٍ سَمْتَهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ {هود: ٤٨} كل كافر إلى يوم القيامة، وروى ذلك عن محمد بن كعب.

وعلى القول بأن الخلق كلهم من نسل نوح وذريته يكون بموت كل من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل إلا من ذريته أو بأنه لم يكن في سفينة نوح - عليه السلام إلا من نسله وذريته، ويكون هذا هو المراد من البركات التي وعده الله بها.

وقال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ {الإسراء: ٣} وذلك أن كل من على الأرض من بنى آدم فهم من ذرية من حملة الله مع نوح في السفينة.

وقال قتادة: والناس كلهم ذرية من أنجى الله من تلك السفينة.

قال مجاهد بنوه وبنوهم ونوح، وقيل هم ثلاثة عشر رجلاً ونساءً والله أعلم إذ رد العلم إليه أسلم.

معالم الانتصار في قصة نوح

ذكر د . ناصر بن سليمان العمري في كتابه [حقيقة الانتصار] ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧]، أن نبي الله نوح قد حقق أعظم الانتصارات، وأن ذلك يتمثل فيما يلي :

(١) صبره وثباته طوال هذه القرون وعدم ميله إلى محاولات قومه - وحاشاه من ذلك - أو تأثره باستهزائهم وسخريتهم

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود: ٣٨] .

(٢) حماية الله له من كيدهم ومؤامراتهم ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦] .

(٣) إهلاك قومه الذين كذبوه بالغرق ﴿ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٤] .

(٤) نجاة نوح ومن آمن معه ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ١٥] .

﴿ ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣]، ﴿ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ [الصفافات: ٧٩]

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

[آل عمران: ٣٣] .

وهكذا تتضح حقيقة النصر، من خلال قصة نوح وقومه إن الانتصار هو انتصار المنهج لا الأفراد، والعبرة ليس بكثرة المؤمنين والمستجيبين للحق، وإنما في المنهج الذي يحمله أولئك سواء أقلوا أم كثروا، ولذا فإن بضعة نفر أو يزيدون، ولا يتجاوزون ثلاثة عشر فرداً يحملون الإسلام ويحققون معنى العبودية، يهلك أهل الأرض جميعاً حماية لهؤلاء وللمنهج الذي يمثلونه ويحملونه مادام أن هناك خطراً يهدد بزوالهم، ومن ثم زوال المنهج الذي يحملونه

﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٧] اهـ .

موازنة بين فضائل نوح وفضائل رسول الله ﷺ (١)

قال أبو نعيم: فإن قيل: فقد سمي الله نوحاً عليه السلام باسم من أسمائه الحسنی، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] قلنا: وقد سمي الله محمداً ﷺ باسمين من أسمائه فقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال: وقد خاطب الله الأنبياء بأسمائهم: يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى يا داود، يا يحيى، يا عيسى بن مريم، وقال مخاطباً لمحمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ [الزمل: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١] وذلك قائم مقام الكنية بصفة الشرف.

ولما نسب المشركون أنبياءهم إلى السفه والجنون، كل أجاب عن نفسه، قال نوح: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧] وكذا قال هود عليه السلام، ولما قال فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مَوْسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١] قال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنَ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وأما محمد ﷺ فإن الله تعالى هو الذي يتولى جواهم عنه بنفسه الكريمة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [٦] ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٦-٧] قال الله تعالى: ﴿مَا نُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨] وقال تعالى: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [٥] ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥-٦] وساق الكثير من النصوص للتدليل على ذلك .

قال أبو نعيم: ولبت نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، فبلغ جميع من آمن به رجالاً ونساء الذين ركبوا معه سفينته، دون مائة نفس، وآمن بنينا - في مدة عشرين سنة - الناس شرقاً وغرباً، ودانت له جبابرة الأرض وملوكها، خافت زوال ملكهم، ككسرى وقيصر، وأسلم النجاشي والأفيال رغبة في دين الله، والتزم من لم يؤمن به من عظماء الأرض الجزية والإيادة عن صغار، أهل نجران، وهجر، وأيلة، وأنذر دومة،

(١) من كتاب شمائل الرسول لابن كثير باختصار وتصرف.

فذلوا له متقادين، لما أیده الله به من الرعب الذى يسير بين يديه شهراً، وفتح الفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجا كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحَ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ .

قال ابن كثير: . . فكما عمت جميع أهل الأرض النعمة بدعوة نوح عليه السلام، لما رآهم عليه من التماذى فى الضلال والكفر والفجور، فدعا عليهم غضباً لله ودينه ورسالته، فاستجاب الله له، وغضب لغضبه وانتقم منهم بسببه وكذلك عمت جميع أهل الأرض بركة رسالة محمد ﷺ ودعوته، فأمن من آمن من الناس وقامت الحجة على من كفر منهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وكما قال ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة» (١).

وقال الإمام الفقيه أبو محمد عبد الله بن حامد فى كتاب دلائل النبوة: ذكر ما أوتى نوح عليه السلام من الفضائل، وبيان ما أوتى محمد ﷺ مما يضاهى فضائله ويزيد عليها: إن قوم نوح لما بلغوا من أذيته والاستخفاف به وترك الإيمان بما جاءهم به من عند الله، دعا عليهم فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] فاستجاب الله دعوته، وغرق قومه، حتى لم يسلم شئ من الحيوانات والدواب إلا من ركب السفينة، وكان ذلك فضيلة أوتيتها، إذ أجبت دعوته، وشفى صدره بإهلاك قومه قلنا: وقد أوتى محمد ﷺ مثله، حين ناله من قريش ما ناله من التكذيب والاستخفاف، فأنزل الله إليه ملك الجبال وأمره بطاعته فيما يأمره به من إهلاك قومه، فاختار الصبر على أذيتهم، والابتغال فى الدعاء لهم بالهداية . قلت: وهذا أحسن .

وقد تقدم الحديث بذلك عن عائشة عن رسول الله ﷺ، فى قصة ذهابه إلى الطائف، فدعاهم فأذوه فرجع وهو مهموم، فلما كان عند قرن الثعالب ناداه ملك الجبال فقال يا محمد إن ربك قد سمع قول قومك وما ردوا عليك وقد أرسلنى إليك لأفعل ما تأمرنى به، فإن شئت أطبقت عليهم الأخشبين يعنى جبلى مكة اللذين يكتفانها جنوباً وشمالاً، أبو قيس وثور فقال: بل استأنى بهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك بالله شيئاً .

وقد ذكر الحافظ أبو نعيم في مقابلة قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرُ﴾ (١٥) ففَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿القمر: ١١-١٢﴾ أحاديث الاستسقاء عن أنس وغيره . . . وكذلك استسقى في غير ما موضع للحدث والعطش فيجاء كما يريد على قدر الحاجة المائية، ولا أزيد ولا أنقص، وهكذا وقع أبلغ في المعجزة، وأيضاً فإن هذا ماء رحمة ونعمة، وماء الطوفان ماء غضب ونقمة، وأيضاً فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يستسقى بالعباس عم النبي صلوات الله عليه فيسقون، وكذلك مازال المسلمون في غالب الأزمان والبلدان، يستسقون فيجاءون فيسقون، وغيرهم لا يجابون غالباً ولا يسقون ولله الحمد، وقد نقل بن كثير - رحمه الله - قصص الأولياء ممن مشى على متن الماء، وفي قصة العلاء بن زياد الحضرمي، صاحب رسول الله صلوات الله عليه ما يدل على ذلك، وهذا كله لا يقل عن نجاة نوح - عليه السلام - في السفينة بالمؤمنين .



وختاماً : فالعلم والصلاح رحم بين أهله

نبى الله نوح - عليه السلام - أطول الأنبياء عمراً وهو شيخ المرسلين وأول نذير عن الشرك، وقد مكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وسماه الله عبداً شكوراً وجعله بعد محمد فى الميثاق وقيل إنه دفن بقرب المسجد الحرام بمكة المكرمة، والمتبع سجد أن الله جل ثناؤه لم يقصص علينا أخبار جميع المرسلين، وإنما ذكر بعضهم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصِصْ عَلَيْكَ﴾ {غافر: ٧٨} ولم تخل أمة من أمم الأرض من بعثة رسول لها ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ وبين نوح وآدم - عليهما السلام - فترة تقدر بألف عام، وبعد نوح - عليه السلام - لم يذكر إلا الرسل الذين انحدروا من سلالة سام ولد نوح، إبراهيم - عليه السلام من ذرية نوح لقوله تعالى: ﴿وإن من شيعته لإبراهيم (٨٢) إذ جاء ربه بقلب سليم﴾ {الصفات: ٨٣-٨٤} . وقد جعل الله تعالى فى ذرية نوح وإبراهيم النبوة والرسالة فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ {الحديد: ٢٦} .

وقصة نوح - عليه السلام من الأخبار التى كانت غائبة عن الخلق، فما كان النبى ﷺ يعرفها بل قومه أيضاً ما كانوا يعرفونها نعم كانت مشهورة على جهة الإجمال أما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة، ولذلك فبعد ما ذكرها سبحانه بالتفصيل فى سورة هود قال تعالى: ﴿تلك من أنباء الغيب نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ {هود: ٤٩} .

والمعنى: يا محمد فاصبر أنت ومن آمن معك على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح والمؤمنون على أذى أولئك الكفار، وفيه تنبيه أن الصبر عاقبه النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح عليه السلام - ولن آمن معه .

فهما اشتد الأذى، وطال الطريق، فالتصرأت بإذن الله، والغمة ستتشعب، وسفينة النجاة ستطفو، حتى وإن كان الطوفان مدمراً ومهلكاً ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ {الروم: ٤٧} .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

سعيد عبد العظيم

قصة

لوط

عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

قال تعالى في قصة قوم لوط: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، والتوسم من السمة وهي العلامة، فأخبر سبحانه أنه جعل عقوبات المعتدين آيات للمتوسمين .

وفي الترمذى عن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» (١) ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، فدل ذلك على أن من اعتبر بما عاقب الله به غيره من أهل الفواحش كان من المتوسمين وأخبر تعالى عن اللوطية أنه طمس أبصارهم فكانت عقوبة أهل الفواحش طمس الأبصار كما قد عرف ذلك فيهم وشوهد منهم وكان ثواب المعتبرين بهم التاركين لأفعالهم إعطاء الأنوار وهذا مناسب لذكر آية النور:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] عقيب غض الأبصار: ﴿قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، ﴿وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾

[النور: ٣١] (٢)

وكل ناظر ومتأمل في الأحداث من حوله، وكل متعظ ومعتبر بالسنن الشرعية والكونية لابد وأن يلمح بوادر الهلاك ونذر الدمار تتوالى أمام عينيه، عندما يرى الفوضى الأخلاقية والشذوذ الجنسي والإباحية تنتقل من أمريكا والغرب لبلاد

(١) رواه الترمذى (٣١٢٧).

(٢) راجع تفسير سورة النور لشيخ الإسلام ابن تيمية (١١٥).

المسلمين بسبب الإنبهار والهزيمة النفسية التي تعيشها الأمة حتى أخذنا النجاسات الموجودة في أمعائهم من حضارة الفلق الزائفة الكاذبة، فعقدنا المؤتمرات التي يُطالب فيها بإباحة الشذوذ الجنسي وسارت مجموعات من الشاذين والمخثئين تطالب بحرية الفسق والفجور، وتواكبت معهم أبواق الضياع في وسائل الإعلام وساعد على ذلك غياب الشريعة الإلهية واستبدالها بنعرات التحلل كالديمقراطية وغيرها، ويكفى أن نعلم أن أول إصابة اكتشفت بالإيدز كانت عام ١٩٧٩ في مدينة نيويورك عند رجل شاذ جنسياً ثم تابعت الإصابات وكان معظمها عند رجال شاذين، اتصفت هذه الإصابات بسيرها السريع نحو الموت .

والشذوذ الجنسي «عمل قوم لوط» يعتبر أوسع الطرق لإنتشار مرض الإيدز إذ بلغت نسبة الذين أصيبوا به عن هذا الطريق {٧٣٪} من مجموع حالات الإيدز التي اكتشفت حتى الآن لذلك أطلقوا عليه: «طاعون الشذوذ» .

لقد تناسى هؤلاء قول ربه: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيَّئِيهِمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ {الزمر: ٥١} .

وقول رسول الله ﷺ: «يامعشر المهاجرين خمس، إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدوهم من غيرهم، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله - عز وجل - ويتحروا فيما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»^(١)

إن الذنوب على اختلافها هي في نفسها أمراض تُحدث خللاً في الدين وفساداً في الأخلاق مما لا يستقيم معه أحوال المجتمع ولذلك حذر الله تعالى من المعاصي ونهى عن كل أنواع الفواحش والآثام فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ {الأنعام: ١٥١} .

(١) انفراد به ابن ماجه (٤٠١٩) في كتاب «الفتن» .

وقال عزوجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ {الأعراف: ٣٣}.

وقال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ {الأنعام: ١٠٢}.

وقال سبحانه: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

{النحل: ٩٠}

وفى الحديث: «مامن أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش» (١)، «وإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش» (٢).

ليس الأمر في ذلك مقصوراً على الذنوب الكبار، بل قد حذرنا ﷺ حتى من الذنوب الصغار التي يحقرها الناس ولا يبالون بها وهي سموم قتالة فتاكة بالقلوب، فإياكم ومحقرات الذنوب ففي الحديث: «... وإن من محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه» (٣).

قال المناوي: إن الصغائر إذا اجتمعت ولم تكفر أهلكتك . والذنوب كلها مشؤومة وعواقبها وخيمة، وقد جرت سنته تعالى في خلقه، كما مضى قضاؤه في كتابه، أن يعامل عباده حسب ما عملوا إن خيراً فخير وإن شراً فشر كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾

{الشورى: ٣٠}.

وقال جل جلاله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾

{الأنفال: ٥١}.

فكل ما حصل أو سيحصل من بلاء وحوادث وكوارث وفساد في الأرض فيسبب الإسراف في الإجمام. قال عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ {الأنفال: ٥٣}.

(١) رواه البخاري (٧٤٠٣) في التوحيد، ومسلم (٢٧٦) في التوبة، والترمذي (٣٥٣٠) في الدعوات.

(٢) رواه مسلم (٢١٦٥) في السلام، وأبو داود (٤٠٨٩) في اللباس.

(٣) رواه أحمد (٢٢٣٠٢).

فالله عز وجل لا يزيل ما يقوم من العافية والنعمة فيبدلها بالآلام والأمراض والنوازل والزلازل والفتن حتى يغيروا ما بأنفسهم، فيعصون ربهم ويجحدون فضله عليهم فعند ذلك تحل نعمته بهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وشؤم هذه الذنوب قد يتسرب لغير المباشرين من سائر خلق الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَأُتَصِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] كما حدث يوم أحد بسبب مخالفة الرماة، ودخول نبي الله موسى وأخوه هارون في التيه أربعين سنة بسبب مخالفة بنى إسرائيل، فهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً وقد ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إنه كاد الجعلل ليعذب في جحره بذنوب ابن آدم» .

ولذلك كانت هذه النصيحة من قبل أن يأتي الطوفان، فازكب سفينة النجاة وقم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واعتبر بمن مضى .
﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] .

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

كتبه

سعيد عبد العظيم

قصة قوم لوط في القرآن

لوط عليه السلام من الرسل الكرام، وقد ذكره الله تعالى في عديد من سور القرآن في «الأعراف، وهود والحجر، والأنبياء، والشعراء، والنمل، والعنكبوت» وغيرها من سور القرآن، وذكرت قصته مع قومه مفصلة في بعض السور ومجملة في البعض الآخر .

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾

{الأعراف ٨٠ : ٨٤} .

وفي سورة هود بيان ما دار بين الملائكة ونبي الله إبراهيم عليه السلام من بشارتهم له بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب وإخبارهم إياه بإهلاك قوم لوط .

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا يَلْتَمِسْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مُنْضُودٍ (٨٢) مَسُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ {هود ٧٧ : ٨٣} .

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوْءَ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ {الأنبياء ٧٤ : ٧٥} .

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَمَا

أَسَأَلَكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَنْ نَمَسَّهُ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَخْرُجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿الشعراء: ١٦٠-١٧٥﴾

وفى سورة النمل يقول تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَجْنَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا مِنْ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرُكُونَ﴾

{النمل ٥٤ : ٥٩}

وقال تعالى فى سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَأَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّنَا بَعْدَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَجِّنِيهِ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ {العنكبوت ٢٨ : ٣٥} .

كما ذكرهم جل وعلا فى سورة الحجر فقال:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ

مَنْكُمْ أَحَدٌ وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنْ سَجِيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ {الحجر ٥٧ : ٧٧} .

وفي سورة القمر يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ﴿٣٢﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذْرٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمُ بُكَرَةٌ عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذْرٍ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ {القمر ٣٣ : ٤٠} .

نسب نبي الله لوط عليه السلام

هو لوط بن هاران بن تارح . . . هكذا إلى آخر نسب نبي الله إبراهيم عليه السلام وقد بعثه الله في زمن إبراهيم الخليل، وهو ابن أخيه، وإبراهيم عمه، فلو ط هو ابن (هاران)، وإبراهيم وهاران وناحور إخوة وكلهم أولاد آزر، وقد آمن لوط بعمه إبراهيم واهتدى بهديه كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ {العنكبوت: ٢٦} .

ثم هاجر معه من العراق، وتبعه في جميع أسفاره، ثم أرسله الله تعالى إلى أهل (سدوم) في دائرة الأردن، وليس له في قومه الذين أرسل إليهم نسب لأنه ليس من القبيلة، بخلاف صالح وهود وشعيب فقد كانوا من نفس العشيرة .

قال الفراء: لوط مشتق من قولهم بقلبي، أي الصق، وقال النحاس: قال الزجاج: زعم بعض النحويين - يعني الفراء - أن لوطاً يجوز أن يكون مشتقاً من لظت الحوض إذا ملسته بالطين. قال: وهذا غلط، لأن الأسماء الأعجمية لا تشتق كإسحاق فلا يقال: إنه من السحق وهو البعد، وإنما صرف لوط لأنه على ثلاثة أحرف وهو ساكن الوسط. قال النقاش: لوط من الأسماء الأعجمية وليس من

العربية فأما لُطت الحوض وهذا أليط بقلبي من هذا فصحيح ولكن الاسم أعجمي كإبراهيم وإسحاق .

وعلى هذا فالفاحشة التي عمل بها قوم لوط، والتي يُطلق عليها اسم اللواط - أو اللوطية - لا ينبغي أن تشتق من اسم نبي الله لوط - عليه السلام - لأن كلمة لوط أعجمية كما وضحنا أما اللوطية فهي لوثة وجريمة وانحراف خلقى لا تُنسب لنبي الله لوط عليه السلام، وقد ذُكرت هذه الفاحشة باسم اللوطية في بعض الروايات عند أحمد وأبو داود^(١) كما ذُكرت في كتب الفقه، وهذه الكلمة لها أصل لغوي صحيح من قولهم لاط، يلوط حوضه، كما قال النقاش وغيره .

قصة قوم لوط بإيجاز كما وردت في كتب التفسير

أمر نبي الله لوط - عليه السلام - أن يتوجه إلى (سدوم) في أطراف شرق الأردن وكان قومها من أفجر الناس وأكفرهم، وأخبثهم نفساً، وأقبحهم سيرة، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر، وقد ارتكست فطهرهم، وانتكست في الرذيلة قلوبهم وكانوا بالإضافة لكفرهم يرتكبون جريمة من أقبح وأشنع الجرائم، لم يسبقهم إليها أحد من أهل الأرض الأوهى (إتيان الذكور) دون النساء، وكانوا لجراتهم يرتكبونها علانية أمام بعضهم البعض، فلا يستقبحون قبيحاً ولا يسترّون من منكر، قد قست قلوبهم وفسدت أخلاقهم، فبعث الله إليهم لوطاً - عليه السلام - فدعاهم إلى الله وذكرهم ونهاهم وخوفهم بأس الله تعالى وقال لهم فيما قاله : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦] .

فلما ألح عليهم هددوه بالطرد والإخراج : ﴿ قَالُوا لَنْ نَمُوتَ بِمَا نَعْبُدُ فَتَنْعَسْ يَا لَوْ لَتُكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٧] .

وقالوا في معرض الاستهزاء والاستخفاف به : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِمَّنْ قَرَّبَكُمْ إِلَيْهِمْ أَنْاسٌ يَتَّخِذُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] وهذا هو منطلق الطغيان والفجور في كل زمان ومكان .

(١) ذكر في حديث أبي داود برقم (٤٤٦٣)، وأحمد (٢٩٠٩).

وحين أراد الله عز وجل إهلاك أولئك الخبيثاء الأشرار من قوم لوط، أرسل إليهم الملائكة وكانت لهم قرى خمسة ويزيد عددهم على (٤٠٠ ألف)، كما يذكر المفسرون، فمروا في طريقهم على إبراهيم الخليل فبشروه بغلام حلِيم وأخبروه أنهم ذاهبون للانتقام من قوم لوط، الذين هم أهل (سدوم وعمورة) فتخوف إبراهيم على لوط، وقال: إن فيهم لوطاً، قالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢] .

ولما جاءت الملائكة إلى لوط أشفق عليهم وخاف من قومه أن يسمعوا بقدمهم فيعتدوا عليهم بفعل الفاحشة، وكانت الملائكة في منتهى الحسن والجمال، وسرعان ما علم أهل القرية بمجيئهم، وأخذ لوط عليه السلام يجادلهم بالحسنى لصرفهم عن غيهم، ولكنهم صارحوه بغرضهم السيئ ورغبتهم الدنيئة، التي اعتادوها، فازداد همه وغمه، فأخبرته الملائكة بحقيقة الأمر وأنهم ليسوا بشراً، وقد قدموا لإهلاك أهل هذه القرية بأمر من الله لأن أهلها كانوا ظالمين .

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْ أَهْلَكَ بِقَطْعِ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٧٧-٨١] .

وقد هلكت زوجة لوط مع الهالكين لأنها لم تكن مؤمنة بالله، وكان هلاك قوم لوط بالصيحة وقلبت بهم القرية فجعل عاليها سافلها وأمطروا حجارة من سجيل منضود، وأصبحوا بذلك عبرة للمعتبرين وآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وقد ذكر البعض أن البحر الميت، المعروف الآن ببحيرة لوط لم يكن موجوداً قبل أن تقلب القرية، وقد أثبتت الاكتشافات القريبة آثار مدن قوم لوط على حافة البحر الميت .

يقول ابن كثير - رحمه الله -: «وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها لردائتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثلة، وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه»^(١)

ونخشى أن تنطمس الأبصار والبصائر، فننسى ما كان من قوم لوط وما نزل بساحتها ولانكاد نتذكر إلا الآثار التي تدل على عظمة الأجداد وحضارتهم كمسلات وأهرامات الفراعنة !!

ترسيخ الإيمان وتقويم الإنحراف

ما من نبي إلا وبعث بلسان قومه ليبين لهم، وما من رسول إلا وقال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ {الأعراف: ٦٥}.

ولم يكن نبي الله لوط - عليه السلام - بدعاً من الرسل فقد دعا قومه إلى الصراط المستقيم ونهاهم عن الانحراف وعالج الآفات التي استشرت في قومه، وكان أعظمها بعد الكفر بالله جريمة اللواط التي كانوا يمارسونها جهاراً، ولذلك كان هذا التركيز :

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ {النمل: ٥٤}. ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾

{الأعراف: ٨٠-٨١}.

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾

{الشعراء: ١٦٥}.

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ {الأعراف: ٨٠}.

بل بلغت بهم الوقاحة والجرأة عندما علموا بوجود الملائكة عند نبي الله لوط، أن جاءوا يهرعون ويسرعون إليه لمواقعة الفاحشة، فما كان منهم إلا أن ذكروهم بالله، وأمرهم بتقواه، ولوط عندما حارب جريمة اللواط التي استشرت في قومه

شابه في ذلك غيره من الأنبياء في تقويمهم الانحرافات الشائعة في أقوامهم فنبى الله نوح أنكر على قومه عبادة الأصنام، كذلك إبراهيم وهود أنكر على قومه الاستعلاء في الأرض والتجبر فيها، وصالح أنكر عليهم الإفساد في الأرض واتباع المفسدين وشعيب قاوم جريمة التطفيف في المكيال والميزان . . . وهكذا . فعلى الدعاة إلى الله أن يحسنوا التأسى بالأنبياء والمرسلين في إبلاغهم الحق إلى الخلق وتوضيح المفاهيم للناس وإزالة شبهاتهم وتخولهم بالموعظة وتبشير من آمن بالجنة وتخويف من كفر بالعذاب وذلك كله لا يتحقق إلا بتعليمهم وأمر ربهم وتزكية نفوسهم بتعريفهم بربهم وأسمائه وصفاته ودلالاتهم على السبيل التي توصلهم إلى محبته وتوضيح ما ينفعهم وما يضرهم .

قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ {النساء: ١٦٥} .

فعلى الدعاة إلى الله أن يتعرفوا على واقع المدعويين، وأنواع الآفات والعلل التي تستشري في وسطهم، وأن يصفوا لكل داء دواءه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فما أنزل الله داءً إلا وأنزل له دواء، وقد جعل سبحانه كتابه شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة، وعلينا أن نعلم أن ترسيخ معاني الإيمان والعقيدة في النفوس أعظم علاج لأمراض الشهوات والشبهات، فالإنسان الذي يخشى الله ويحبه ويعلم قربه منه واطلاعه عليه . . . ويؤمن أن الموت حق والجنة حق والنار حق وأن الله يبعث من في القبور . . . ويرضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً . . . كيف تطيب نفس مثل هذا الإنسان بعمل قوم لوط؟

بعض القبائح التي نسبها أهل الكتاب

إلى لوط والأنبياء

في التوراة المحرفة - التي كتبها اليهود بأيديهم . . . مانصه: «فصعد لوط وسكن الجبال وابنتاه معه، وخاف أن يسكن صاغر، وأوى إلى كهف هو وابنتاه - فقالت الكبيرة منهما للصغرى - إن أبانا قد شاخ وليس رجل على الأرض يستطيع أن يدخل علينا، فهلمى نسقيه خمراً، ونضطجع معه، ونقيم من أيننا خلفاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت الكبرى فاضطجعت مع أبيها وهو لا يعلم عند اضطجاع ابنته ولا نهوضها . . . ولما كان الغد قالت الكبرى للصغرى: هو ذا قد اضطجعت البارحة مع أبي فلنسقيه خمراً في ليلتنا هذه أيضاً، فادخلي فاضطجعي معه فنقيم نسلًا من أيننا فسقيا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً ودخلت الصغرى فاضطجعت مع أبيها، ولم يعلم عند اضطجاعها، فحملت ابنتا لوط من أيهما، وولدت الكبرى ابناً ودعت اسمه (مواب) وهو أبو الموابيين إلى يومنا هذا وولدت الصغرى أيضاً ودعت اسمه (عمان) فهو أبوالعمانيين إلى اليوم «سفر التكوين ١٢٨» .

وأن نبي الله هارون صنع عجلاً وعبده مع بنى إسرائيل، إصحاح (٣٢) عدد (١) من سفر الخروج.

وأن إبراهيم الخليل قدم امرأته سارة إلى فرعون حتى ينال الخير بسببها، إصحاح (١٢) عدد (١٤) من سفر التكوين.

وأن يعقوب سرق مواشى من حميه وخرج بأهله خلصة دون أن يُعلمه «سفر التكوين إصحاح (٣١) عدد (١٧)» .

وأن راوبين زنى بزوجة أبيه يعقوب، وأن يعقوب علم بهذا الفعل القبيح وسكت «سفر التكوين إصحاح (٣٥) عدد (٣٢)» .

وأن داود زنى بزوجة رجل من قواد الجيش ثم دبر حيلة لقتل الرجل، وبعد ذلك أخذ داود الزوجة وضمها إلى نسائه فولدت له سليمان . . . سفر صموئيل الثاني إصحاح (١١) عدد (١)

وأن سليمان ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام وبنى لها المعابد، سفر الملوك الأول اصحاح (١١) عدد (٥).

هذه بعض القبائح التي نسبها اليهود للأنبياء -عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام-.

وأما النصارى فإنهم لا يعتقدون بعصمة الأنبياء وذلك بناء على عقيدتهم بألوهية المسيح - عليه السلام - فهو وحده المعصوم، وكل البشر بما فيهم الأنبياء يخطئون، وليس هناك شفيح ولا مخلص سوى المسيح، لأن المخطئ لا يخلص المخطئين، على حد تعبير الإنجيل المغير والمبدل.

إن إيمان هؤلاء بحاجة لإيمان، وإلا فهم لم يؤمنوا بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر... ولذلك كانت سلوكياتهم فاسدة كأفكارهم وعقائدهم المنحرفة والسلوك كما يقولون مرآة الفكر، ثم هؤلاء لم يأخذوا درساً وعظة من قوم لوط ولا من غيرهم ممن أهلكهم الله، معاذ الله أن يفعل ذلك لوط وغيره من الأنبياء، مما نسبته إليهم اليهود والنصارى، فقد عاش الأنبياء حياة الإيمان وكانت دعوتهم للتخلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل ما استحقوا به أن يكونوا أسوة البشر وقدوة الخلق ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وفى مواجهة هذه العقائد الزائفة لا يسعنا إلا أن نردد قول ربنا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الصفات: ١٨٠-١٨٢].

فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة .

فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين

لم ينجو من العذاب الذى نزل بقوم لوط إلا من تبع نبي الله لوط - عليه السلام - ولم يكن إلا ابتغاه، قال تعالى مخبراً عن قوم لوط: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ [القمر: ٣٣-٣٤]. أى ريحاً ترميهم بالحصاء وهى الحصى، قال تعالى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسِحْرِ﴾ [القمر: ٣٤]. و السحر هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر ﴿نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا﴾ [القمر: ٣٤]. أى إنعاماً منا على لوط وابنتيه ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٥]. أى من آمن بالله وأطاعه .

وهذا المعنى المذكور فى سورة القمر ورد مثله فى سورة الذاريات يقول الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥]، أى لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان فى قومه من المؤمنين، لئلا يهلك المؤمنون، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [الحجر: ٦٥]

قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦]. يعنى لوطاً وابنتيه، فسامهم فى الآية الأولى مؤمنين وفى الآية الثانية مسلمين .

وقيل الإيمان تصديق القلب والإسلام الإنقياد بالظاهر، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً، فالإيمان يتضمن الإسلام ويزيد عليه وقد يتواجد أصل الإيمان الذى يمنع الإنسان من الدخول فى عداد المنافقين كما فى قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] وهذا على أحد التفسيرين، ولكن ليس معه الإيمان المطلق الذى يستحق به هذا الوصف: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ١٥] .

وعموماً فالإسلام والإيمان إذا اجتمعا فى نص افترقا فى المعنى، وإذا افترقا - أى جاءت كلمة الإسلام أو الإيمان فى نص بمفردها - اجتمعا فى المعنى ودخلت أركان الثانية فى معنى الكلمة الأولى كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. فالإسلام الذى يرضى عنه ربنا يدخل فى معناه أركان الإيمان .

وكون لم يؤمن بنبي الله لوط إلا ابتاه، فهذا وإن دل على قلة عدد من آمن به، إلا أنه لا يدل على تقصيره أو تفريطه - عليه السلام - في القيام بواجب الدعوة إلى الله بقدر ما يدل على مكابرتهم وإصرارهم وعنادهم ﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقد قص علينا سبحانه قصة نوح مع قومه وكيف أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم ويعبدهم لخالق الأرض والسماوات وعلى الرغم من ذلك: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

فالحق لا يعرف بكثرة ولا بقلة، ولكن بموافقة دين الله عز وجل فاعرف الحق تعرف أهله واعرف الباطل تعرف من أتاه، واسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين وإياك وطرق الضلالة ولا تنغر بكثرة الهالكين .

وقد ورد في الخبر أن النبي يحشر يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان وقد يحشر النبي وليس معه أحد، وأكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة رسول الله ﷺ، فلا أسوة في الشر، والنار ستقول يوم القيامة هل من مزيد: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [نق: ٣٠].

فالواجب على الدعوة إلى الله أن يخلصوا أمرهم لله ويعلموا أن القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء - فضلاً وعدلاً - وأن يتبعوا منهج الأنبياء والمرسلين في الدعوة إلى الله دون ابتداع أو اختراع بزعم تحجيب الخلق في الدين - سالكين مسالك الرفق والشفقة وعدم التنفير ودون إفراط أو تفريط أو غلو أو جفو .

ضرب المثل بامرأته الهالكة فلا محاباة

كانت امرأة لوط ممن أهلكتهم الله، وضُرب بها المثل في كتاب الله، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾

﴿التحریم: ١٠﴾.

وهذا المثل فيه التنبيه على أنه لا يغنى أحدٌ في الآخرة عن قريب ولا نسيب إذا فرق بينهما الدين، فالوالد لا يغنى عن ولده، والزوج لا يغنى عن زوجته من الله شيئاً حتى ولو كان نبياً وقد كانت زوجة نبي الله نوح ونبي الله لوط كافرة وهذا هو معنى الخيانة المذكورة في الآية: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال عكرمة والضحاك: بالكفر .

وعن ابن عباس: كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه، وعنه: ما بغت امرأة نبي قط^(١) وقد نقل البعض الإجماع على ذلك، إنما كانت خيانتها في الدين وكانتا مشركتين، وقيل: كانتا منافقتين . وقيل: خيانتها النميمة إذا أوحى الله إليهما شيئاً أفشاه إلى المشركين قاله الضحاك .

وقيل: كانت امرأة لوط إذا نزل به ضيف دخلت لتُعلم قومها أنه قد نزل به ضيف، ولما كانوا عليه من إتيان الرجال .

﴿فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ ﴿التحریم: ١٠﴾ .

أى لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما - لما عصتا - شيئاً من عذاب الله، تنبيهاً بذلك على أن العذاب يُدفع بالطاعة لا بالقربة والنسب . ويقال إن كفار مكة استهزءوا وقالوا: إن محمداً ﷺ يشفع لنا، فبين الله تعالى أن شفاعته لا تنفع كفار مكة وإن كانوا أقرباء، كما لا تنفع شفاعته نوح لامرأته وشفاعة لوط لامرأته، مع قربهما لهما لكفرهما، وقيل لهما: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ ﴿التحریم: ١٠﴾، في الآخرة كما يقال لكفار مكة وغيرهم، وقد ذكر سبحانه براءة نبيه إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي سَبِّحَانَهُ بِرَاءةٍ نَبِيِّهِ إِبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي

(١) قال ابن كثير: فخانتاهما أي في الدين فلم تبعناهما فيه، وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة وكلا، لا يقدر علي نبي أن تبغي امرأته ومن قال خلاف هذا فقد أخطأ كثيراً.

براءً مما تعبُدون ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿الزخرف: ٢٦: ٢٨﴾ .

وفى الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل فقال له: «يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا فكان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب وأبي أن يقول لا إله إلا الله فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنه، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿التوبة: ١١٢﴾ .

وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿القصص: ٥٦﴾ (١)

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي يامعاذ: أتدرى ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، قلت: يارسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تبشروهم فيتكلوا» (٢).

فمن أراد السلامة في الدنيا والنجاة في الآخرة فعليه بالاستقامة على شرع الله، أما من حاد عن أمره وكفر بشرعه سبحانه فلا يلومن إلا نفسه، وعليه أن يضع هذه الأمثلة المصروية نصب عينيه ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ﴿الاعراف: ٨٣﴾ .

(١) رواه البخاري (١٣٠٦٠) في الجنائز، ومسلم (٢٤) في الإيمان، والنسائي (٢٠٣٥) في الجنائز، وأحمد (٢٣١٦٢).

(٢) رواه البخاري (٢٨٥٦) في الجهاد والسير، ومسلم (٣٠) في الإيمان، والترمذي (٢٦٤٣) في الإيمان، وأحمد (٢١٥٠١).

نتن الفعل وانتكاس الفطرة

تجمع فى قوم لوط عدة قبائح ورذائل بالإضافة لكفرهم فكانوا كما وصفهم ربههم جل وعلا: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ {العنكبوت: ٢٨}.

يعنى إتيان الذكور دون الإناث، وهى فعلة اللواط التى وجدت فيهم ولم يسبقهم فى فعلها أحد.

﴿وَتَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ﴾ {العنكبوت: ٢٩} قيل: كانوا قطاع طرق، قاله ابن زيد، وقيل: كانوا يأخذون الناس من الطرق لقضاء الفاحشة، حكاه ابن شجرة، وقيل: إنه قطع النسل بالعدول عن النساء إلى الرجال، قاله وهب بن منبه، أى استغنوا بالرجال عن النساء .

قال القرطبي: ولعل الجميع كان فيهم فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال والفاحشة ويستغنون عن النساء بذلك .

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ﴾ {العنكبوت: ٢٩}

النادى: المجلس واختلف فى المنكر الذى كانوا يأتونه فيه، فقالت فرقة: كانوا يخدفون النساء بالخصى ويستخفون بالغريب والخاطر عليهم، وقيل: إن قوم لوط كانوا يجلسون فى مجالسهم وعند كل رجل قصعة فيها الخصى للخذف فإذا مر بهم عابر قذفوه فأبهم أصابه كان أولى به، يعنى يذهب به للفاحشة، وقالت عائشة وابن عباس والقاسم بن أبى بزة والقاسم بن محمد: إنهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم، وقال مجاهد: كانوا يأتون الرجال فى مجالسهم وبعضهم يرى بعضاً.

وعن مجاهد: كان من أمرهم لعب الحمام وتطريف الأصابع بالحناء والصفير والخذف ونبد الحياء فى جميع أمورهم .

قال ابن عطية: وقد توجد هذه الأمور فى بعض عصاة أمة محمد ﷺ فالتناهى واجب .

قال مكحول: فى هذه الأمة عشرة من أخلاق قوم لوط: مضغ العلك، وتطريف الأصابع بالحناء، ووصل الإزار، وتنقيص الأصابع (فرقتها)، والعمامة

التي تلف حول الرأس، والتشابك، ورمى الجَلاَهق (كعلابط البندق) والصفير والحذف، واللوطية .

وعن ابن عباس قال: إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم، ويشتم بعضهم بعضاً، ويتضارطون في مجالسهم، ويخذفون ويلعبون بالنرد والشطرنج، ويلبسون المصبغات، ويتنافرون بالديكة، ويتناطحون بالكباش، ويطرّفون أصابعهم بالحناء، وتشبه الرجال بلبس النساء والنساء بلبس الرجال، ويضربون المكوس (الضرائب) على كل دابر ومع هذا كله كانوا يشركون بالله، وهم أول من ظهر على أيديهم اللوطية والسّحاق، فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللجاج .

الاعتراف بالحق فضيلة وجحده رذيلة، والتوحيد طهارة والشرك نجاسة ولذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٢٨] . وذلك لندس قلوبهم حتى وإن تنظفت أبدانهم، فلا طهارة حقيقية لهم إلا بالرجوع لمعانى الإيمان، فكيف إذا ما انضاف لكفرهم هذه القبائح، ومن المعلوم أن المعاصي قاذورات كما ورد في الحديث: « من أتى شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله فإن أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله »^(١) . لقد أتوا هذه النجاسات على الملأ دون استتار وبلا خوف من خالق أو حياء من مخلوق، وإن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت، والحياء والإيمان قرنا جميعاً فإذا رُفِع أحدهما رُفِع الآخر .

(١) موطأ مالك (١٥٦٢) في الحدود من رواية زيد بن أسلم.

نكسوا لانتكاسهم وأبدلوا بحيرة منتنة لنتن خصالهم

ارتكست عقولهم وانتكست فطرهم ، وأظلمت قلوبهم ، وكان منهم فاعل ومنهم راضٍ ، فعوقب الجميع لسكوت الجماهير عليه ، وهي حكمة الله وسنته في عياده ، وكان جزاؤهم من جنس عملهم ، يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا ﴾ {هود : ٨٢} .

قيل : إن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، وهي خمس «سدوم - وهي القرية العظمى - وعاموراء ، ودادوما ، وضعوه ، وقيم» فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها حتى سمع أهل السماء نهيق حمرهم وصياح ديكتهم ، لم تنكفي لهم جرة ، ولم ينكسر لهم إناء ، ثم نكسوا على رءوسهم وأتبعهم الله بالحجارة ، قال تعالى . ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ ﴾ {هود : ٨٢} قال قتادة وعكرمة : السجيل الطين بدليل قوله : ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ {الذاريات : ٣٣} .

وقال الحسن : كان أصل الحجارة طيناً فشدت ، والسجيل عند العرب كل شديد صلب .

قال ابن عباس منضود أى متتابع ، وقال قتادة : نُضِدُ بعضها فوق بعض ، وقال الربيع : نُضِدُ بعضه على بعض حتى صار جسداً واحداً .

يقول تعالى : ﴿ مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ {هود : ٨٣} أى معلمة وقيل : مكتوب على كل حجر اسم من رُمي به ، وكانت لاتشاكل حجارة الأرض . ثم لما كانت فعالهم نتنة أبدلوا بهذه القرى التي عاشوا فيها بحرة منتنة كما يقول ابن كثير : «وجعل الله مكان تلك البلاد بحرة منتنة لاينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضى المتاخمة لفنائها لردائتها ودنائتها ، فصارت عبرة ومثلة ، وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه» .

كان جزاؤهم من جنس عملهم وهذه سنة من سنن الله في خلقه ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ مِنْ اللَّهِ لَيُغَيِّرَنَّ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ وقال : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ {الرحمن : ٦٠} .

وفي الحديث: «احفظ الله يحفظك» .

وفي الحديث: «من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»، وصنائع المعروف تقى مصارع السوء .

وقالوا: من أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة. وقال سفيان الثوري: إن ذنوباً ولت علينا هؤلاء لذنوب جسام ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩] ولما قال البعض للحسن: لا أستطيع قيام الليل، قال: قيدتك خطاياك، وقالوا: من غير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يفعله. ولما تساءل البعض يوم أحد بسبب كثرة القتل وتحول النصر إلى هزيمة، قالوا: ﴿أَنْتَى هَذَا﴾ [العمران: ١٦٥] كانت الإجابة: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾

[آل عمران: ١٦٥].

وقال سبحانه عن المنافقين: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]

وهكذا فشواهد ذلك كثيرة في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ وبذلك نطقت أقوال أهل العلم .

آية للذين يخافون العذاب الأليم

لما أهلك سبحانه قوم لوط قال: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ [الذاريات: ٣٧] أى عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم والآية المتروكة هى نفس القرية الخربة أو الحجارة التى رُجموا بها ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧] لأنهم المتضعون .

كان سُمِيط يقول: أتاهم من الله وعيد وقذهم (أمرضهم) فناموا على خوف وأكلوا على تنغيص، وكان الحسن يقول: إن لله عبادة كمن رأى أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وقال البعض: أكلهم أكلُ المرضى ونومهم نوم الفرقى (الخائفين)، وقال أحمد بن حنبل: الخوف يمنعنى من أكل الطعام والشراب فما أشتهيه .

وقيل: صلى زُرارة بن أبي أوفى بالناس فقراً «المدثر» فلما بلغ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨] أخرج ميتاً وكان عتبة الغلام طويل البكاء فقيل له: ارفق بنفسك فقال: إنما أبكى على تقصيري وقال مالك بن دينار: رأيت جويرية تطوف بالبيت وتقول: يارب كم من شهوة ذهبت لذتها وبقيت تبعثها، يارب ما كان لك عقوبة إلا بالنار؟ فما زالت كذلك إلى الصباح .

ياعجباً كيف تنام عين مع مخافة، أم كيف تلهو نفس مع ذكر المحاسبة .

ذكرت نفوس القوم العذاب فأنت، وتفكرت في شدة العتاب فأرنت، أزعتها الحذر ولولا الرجاء ما اطمأنت .

قال مالك بن دينار: وددت أن الله عزوجل أذن لي يوم القيامة إذا وقفت بين يديه أن أسجد سجدة فأعلم أنه قد رضى عنى ثم يقول: يا مالك كن تراباً .

كيف لا يخاف من قلبه بيد المقلب؟ أين الكثير المال الطويل الأمل؟ أما خلا في لحده وحده بالعمل، أين من حبس ذيل الخيلاء غافلاً ورفل؟ أما سافر عنا وإلى الآن ما قفل؟ أين من تنعم في قصره وفي قبره قد نزل؟ فكأنه في الدار ما كان وفي اللحد لم يزل، أين الجبارة الأكاسرة العتاة الأول؟ ملك أموالهم سواهم والدنيا دُوك، خلا والله منهم النادى الرحيب، ولم ينفعهم طول البكاء والنحيب، وعانوا من هول المطلاع كل عجيب، وسئل عاصيهم فلم يدركوا كيف يجيب، أين قوم نوح وعاد وثمود؟ أين قوم لوط؟ رحلوا إلى البلى أفواجاً بعد أفواج وسارت بهم الليالي والأيام سيراً حثيثاً، فأسلمتهم إلى ربهم وقدمت بهم على أعمالهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا .

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢) **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ** (١٠٣) **وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ** (١٠٤) **يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ** (١٠٥) **فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَمِنَ النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ** ﴿هود: ١٠٢-١٠٦﴾

وعن أنس رضي الله عنه قال: «خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم وهم خائفين» (١) .

(١) رواه البخاري (٤٦٢١) في تفسير القرآن، ومسلم (٣٥٩) في الفضائل ..

فتدبروا الأمور تدبر ناظر، واصفوا إلى ناصحكم والقلب حاضر، واحذروا غضب الحليم وهتك الساتر، وتأهبوا للحمام فسيوفه بواتر، وهاجروا إلى دار الإنابة بهجران الجرائر، وصابروا عدوكم مصابرة صابر، وتهياؤوا للرحيل إلى عسكر المقابر قبل أن يندم العاصي ويخسر الفاجر وتصعد القلوب إلى أعلى الحناجر، فتأملوا عواقب مصيركم فاللييب يرى الآخر .

وما هي من الظالمين ببعيد

أعقب الله سبحانه ذكر عذاب قوم لوط بقوله: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ ﴾ [هود: ٨٣]. وفيها للمخالفين فالشرع لا يخالف بين المتساويين، وكما أنزل العذاب بساحة قوم لوط ينزل بغيرهم عن عمل بعملهم.

وقد ذكر القرطبي في تفسير هذه الآية مانصه: [يعنى قوم لوط أى لم تكن تخطئهم. وقال مجاهد: يُرهب قريشاً المعنى ما الحجارة من ظالمى قومك يا محمد بعيد . وقال قتادة وعكرمة: يعنى ظالمى هذه الأمة، والله ما أجار الله منها ظالماً بعد. وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «سيكون فى آخر أمتى قوم يكتفى رجالهم بالرجال ونساؤهم بالنساء، فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قوم لوط أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ ﴾ [هود: ٨٣]. وفى رواية عنه عليه السلام: «لاتذهب الليالى والأيام حتى تستحل هذه الأمة أذبار الرجال كما استحلوا أذبار النساء فتصيب طوائف هذه الأمة حجارة من ريك» اهـ .

فما من ظالم إلا وهو معرض لحجر يصيبه من ساعة إلى ساعة عذاب قريب ليس ببعيد عن الظلمة، حتى وإن ادعوا القوة والتطور المادى والتقدم التكنولوجى، فليسوا معجزين ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

وقد رأينا ماذا عمل إعصار أندرو وفيضان الميسيسى بالأمريكان، فهل استطاعوا دفعاً لهذه النذر؟ والزلازل تلك مدناً بأكملها فى اليابان وتركيا وغيرها فهل منعها مقياس ريختر أو معامل الأمان الزلازلى .

قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ {الطلاق: ٩}.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ {الإسراء: ١٦}.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾

{النساء: ١٢٣}

عن كردوس التغلبي، قال: حدثني رجل من أهل المسجد - مسجد الكوفة - كان أبوه ممن شهد بدرًا قال: مررت على قرية تنزل فوقفت قريباً أنظر فخرج عني رجل فقلت: ما ورائك فقال: تركتها تنزل وإن الحائطان ليصطكان ويرمي بعضها ببعض، فقلت: وما كانوا يعملون؟ قال: كانوا يأكلون الربا.

وعن هشام قال: اغتم ابن سيرين مرة ف قيل له: يا أبا بكر ما هذا الغم؟ قال هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة.

قال محمد بن كعب القرظي: إنما الدنيا سوق خرج الناس منها بما يضرهم وبما سفعهم، وكم اغتر ناس فخرجوا ملومين واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم، وصاروا إلى من لا يعذرهم، فيحق لنا أن ننظر إلى ما نغلبهم به من الأعمال معملها وإلى ما نتخوف فنجتنبها.

وقال ابن يحيى بن معاذ: المغبون من عطل أيامه بالبطلات وسلط جوارحه على الهلكات ومات قبل إفاقة من الجنائيات.

قال ابن الجوزي: إنما يقع الجزاء على أعمالك، وإنما تلقى غداً رغبت أفعالك وقد قصدنا إصلاح حالك، فإن كنت متيقظاً فاعمل لذلك وإن كنت نائماً فاتبه ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ {النساء: ١٢٣}.

كان يأوي إلى ركن شديد

لما رأى بى الله لوط عليه السلام استمرار قومه فى غيهم، وضعف عنهم ولم يقدر على دفعهم، تمنى لو وجد عوناً على ردهم، فقال على جهة التفعُّع والإستكانة ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨]، أى الالتجاء والانطواء إلى العشيرة والمنعة بالكثرة لرد فساد قومه والحيلولة بينهم وبين ما يريدونه من مواجهة الفاحشة مع أضيافه وقد بلغ به قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى، فيروى أن الملائكة وجدت عليه حين قال هذه الكلمات وقالوا إن ركنك لشديد

وفى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «يرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد»^(١) وخرجه الترمذى وزاد «ما بعث الله بعده نبياً إلا فى ثروة من قومه»^(٢) حديث حسن قال محمد بن عمرو والثروة الكثرة والمنعة

ويروى أن لوطاً عليه السلام لما غلبه قومه، وهموا بكسر الباب وهو يمسكه قالت له الرسل تنح عن الباب، فتتحى وانفتح الباب، فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم، وعموا وانصرفوا على أعقابهم يقولون النجاة، قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧]

وقال ابن عباس وأهل التفسير أغلق لوط بابَه والملائكة معه فى الدار، وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون تسوّر الجدار، فلما رأت الملائكة مالقى من الهد والكرب والنصب، قالوا يالوط إن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، وإنا رسل ربك، فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه وقيل أخذ جبريل قبضة من تراب وأذراها فى وجوههم فأوصل الله إلى عين من بعد ومن قرب من ذلك التراب فطمس أعينهم، فلم يعرفوا طريقاً ولا اهتدوا إلى بيوتهم، وجعلوا يقولون النجاء النجاء! فإن فى بيت لوط قوماً هم أسحر من على وجه الأرض، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا، وجعلوا يقولون يالوط كما أنت حتى يصبح فسترى، يتوعدونه

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢) في أحاديث الأنبياء، مسلم (١٥١) في كتاب الإيمان، وابن ماجه (٢٦ ٤) في الفت

(٢) رواه الترمذي (٣١٠٦) في تفسير القرآن

قال تعالى مخبراً عن الملائكة : ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١] .

فكان الصبح ميقاتاً لهلاكهم لأن النفوس فيه أودع والناس فيه أجمع، وخرج لوط هو وابتناه وطوى الله لهم الأرض حتى نجوا .

وَأَنْتَ كَذَلِكَ لَسْتَ وَحْدَكَ

مهما كثر الأعداء من حولك، واشتدت بك الخطوب، وكثرت من حولك الفتن، فلا تجزع ولا تيأس، بل استمسك بحبل الله المتين وبذكره الحكيم وصراطه المستقيم ووثق صلتك بالله، واستشعر أنه لا حول ولا قوة إلا بالله . واعلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]، فمن كان الله معه فمن عليه، معه الفشة التي لا تغلب والحارس الذي لا ينام والهادى الذي لا يضل، فلو كادت السموات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن، لجعل الله لك من بينهن فرجاً ومخرجاً: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣] ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤] وتحسن معية التوفيق والتسديد والإحاطة، وأحسن التأسي بالأنبياء والمرسلين، فإنه لما قالت بنو إسرائيل: ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١] وكان البحر أمامهم وفرعون ورائهم، قال لهم نبي الله موسى: ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢] . ولما قال عندما وجهه سبحانه لفرعون: ﴿ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِنَا ﴾ [طه: ٤٥] قال سبحانه: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٦] .

ويوم الهجرة لما قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأنا، قال النبي ﷺ : « لا تخزن إن الله معنا، ما بالك باثنين الله ثالثهما » .

إنه اليقين فى نصره الله لعباده المؤمنين، والثقة فى وعده سبحانه الذى لا يتخلف عن المتقين، ولذلك ارتبطت القلوب بخالقها فى جلب النفع ودفع الضر، وعلمت أن الله كافئها ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [الزمر: ٣٦]، ولذلك قال نبي الله إبراهيم عليه السلام: حسبى الله ونعم

الوكيل يوم ألقى في النار، فكانت برداً وسلاماً عليه وكان هو أمة، وقالها رسول الله ﷺ هو وصحابته الكرام يوم حمراء الأسد: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

وكان هذا هو شأنهم يوم الأحزاب لم يتزعزع يقينهم على الرغم من شدة البرد وشدة الجوع وكثرة جموع الكفر الذين أتوا بخيلهم وخيلانهم .

يقول تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠-١١] ما كان قولهم يومئذ إلا أن قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]. وكان من نتيجة ذلك ما حكاه سبحانه: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

لله جنود السموات والأرض، وهو سبحانه رب كل شئ ومليكه، هو سبحانه القادر النافع الضار المعطي المانع المحي المميت، مالك الملك وخالق الخلق ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

فأنت لست وحدك، فاعتز بإيمانك حتى لو كنت وسط جحافل الكفر، واهتف بأمتك أن تثبت على الحق وتطبق الشرع وترجع إلى كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ، ولا تلتفت لقوى الشر المادية من الأمريكان وغيرهم، فكل هؤلاء في قبضته، والله غالب على أمره و متم نوره ولو كره الكافرون .

التوبة من عمل قوم لوط

لقد فتح سبحانه أبواب الرجاء حتى لمن قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. وقال سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

فالتوبة النصوح تمحو كل ذنب كفرأ كان فما دونه عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك مادعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو آتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة» (١).

يقول ابن تيمية في تفسير سورة النور مانصه: وقال عن قوم لوط: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَاثَاتِ﴾ [الأنبياء: ٧٤].

وقال اللوطي عن لوط وأهله: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

قال مجاهد: عن أدبار الرجال، ويقال في دخول الغائط: أعوذ بك من الخبث والخبثات ومن الرجس والنجس والخبث والمخبث وهذه النجاسة تكون من الشرك والنفاق والفواحش والظلم ونحوها، وهي لاتزول إلا بالتوبة عن ترك الفاحشة وغيرها، فمن تاب منها فقد تطهر وإلا فهو متنجس وإن اغتسل بالماء من الجنابة فذلك الغسل يرفع حدث الجنابة ولا يرفع عنه نجاسة الفاحشة التي قد تنجس بها قلبه وباطنه، فإن تلك نجاسة لا يرفعها إلا الاغتسال بالماء، وإنما يرفعها الإغتسال بماء التوبة النصوح المستمرة إلى الممات .

عن مجاهد قال: لو أن الذي يعمل يعنى عمل قوم لوط اغتسل بكل قطرة في السماء وكل قطرة في الأرض لم يزل نجساً .

(١) رواه أحمد والترمذي وحسنه الألباني والترمذي (٣٥٤٠) في الدعوات، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٣٣٨) عن أنس .

ورواه ابن الجوزى: وروى القاسم بن خلف فى كتاب ذم اللواط بإسناده عن الفضيل بن عياض أنه قال: لو أن لوطياً اغتسل بكل قطرة نزلت من السماء للقى الله غير طاهر، وقد روى أبو محمد الخلال عن العباس الهاشمى ذلك مرفوعاً، وحديث إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود «اللوطيان لو اغتسلا بماء البحر لم يجزهما إلا أن يتوبا» ورفع مثل هذا الكلام منكر وإنما هو معروف من كلام السلف .

وكذلك روى عن أبى هريرة وابن عباس قالوا: خطبنا رسول الله ﷺ فقال فى خطبته: « من نكح امرأة فى دبرها أو غلاماً أو رجلاً حشر يوم القيامة أنتن من الجيفة يتأذى به الناس حتى يدخله الله نار جهنم ويحبط الله عمله ولا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً ويجعل فى تابوت من نار ويسمر عليه بمسامير من حديد فتشك تلك المسامير فى وجهه وجسده» قال أبو هريرة هذا لمن لم يتب، وذلك أن تارك اللواط متطهر، كما دل عليه القرآن، ففاعله غير متطهر من ذلك فيكون متنجساً، فإن ضد الطهارة النجاسة. اهـ .

التوبة من اللواط ونحوه تكون بأن يستغفر الإنسان باللسان ويندم بالقلب ويقلع بالجوارح، وعلى الإنسان أن يتباعد بنفسه عن الأماكن والأسباب التى تعينه على معصية الله وأن يكثر من التفكير فى الموت والقبور والآخرة ويسابق الريح فى طاعة الله ومريضاته «واتبع السيئة الحسنة تمحها» ويقول بلسان حاله قبل مقاله: ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤].

وأن يعلم أنه ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء، فيستعصى على وساوس شياطين الإنس والجن، ويلزم الصالحين من عباد الله، ويكثر من التعود بالله من الشيطان الرجيم، ويعرض نفسه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وينظر للمعصية والفاحشة على أنها لذة ساعة وألم دهر فيستحى من اطلاع الله عليه وقربه منه وقدرته عليه .

وكبيرها فهو التقى	خل الذنوب صغيرها
أرض الشوك يحذر ما يرى	واصنع كماش فوق
الجمال من الحصى	ولا تحقرن صغيرة إن

وكان الإمام أحمد ينشد ويقول:

إذا خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

فالله الله في نفسك، احذر أن يراك حيث نهاك وأن يفقدك حيث أمرك فليست تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ولا من ملكه إلى ملك غيره، إليه المرجع والمآب، إن المعصية نذالة ومهانة، وكذلك قال البعض: رأيت المعاصي نذالة فتركتها مروءة فاستحالت ديانة .

أضرار اللواط

إن جريمة اللواط من أكبر الجرائم، وهي من الفواحش المفسدة للخلق وللنفس وللدين والدنيا، بل وللحياة نفسها، وقد عاقب الله عليها بأقسى عقوبة، فخسف الأرض بقوم لوط وأمطر عليهم حجارة من سجيل جزاء فعلتهم القذرة، واللواط من جملة الكبائر المحرمة.

وقد ورد في وصف رسول الله ﷺ أنه: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ [الاعراف: ١٥٧].

واللواط من جملة الخبائث التي تترتب عليها أوحش العواقب وأشد الأضرار. ولذلك قال الشوكاني: ما أحق مرتكب هذه الجريمة، ومقارفي هذه الرذيلة الذميمة بأن يعاقب عقوبة يصير بها عبرة للمعتبرين، ويعذب تعذيباً يكسر شهوة الفسقة المتمردين فحقيق بمن أتى بفاحشة قوم ماسبقهم عن أحد من العالمين، أن يصلى من العقوبة بما يكون في الشدة والشفاعة مشابهاً لعقوبتهم، وقد خسف الله تعالى بهم واستأصل بذلك العذاب بكرهم وثيبتهم .

ومن أهم أضرار اللواط وأشدّها خطورة :

(١) الإيدز

(إنهيار وسائل الدفاع الطبيعية في الجسم)

هذا المرض هو طاعون الشذوذ وحصاد مخالفة الفطرة التي فطر الناس عليها، لقد ظهر هذا المرض ولاأحد حتى الآن - وقت كتابة السطور - يعرف كيف بدأ، ولامن أين يأتي، وماعلاجه - إلا الله - على الرغم من ذبوعه وانتشاره وتضافر همم الحكومات والباحثين والعلماء على معرفة ذلك، فهو من أكبر التحديات للطب الحديث، وقد قاربنا على العشرين سنة منذ بدأ اكتشافه سنة ١٩٧٩، فالمصابون به يموتون أمام الأطباء دون أن يتمكن هؤلاء من إنقاذهم، وبإصطلاح الأطباء فإن نسبة الوفيات بين المصابين بهذا المرض تقرب من ١٠٠٪، ويعم الدنيا - وأمريكا وأوروبا وجنوب شرق آسيا بصفة خاصة - موجة عارمة من الذعر والهلع بسبب هذا المرض الفتاك، الذي ظهر في أمريكا ثم انتشر منها بسرعة إلى كثير من البلدان، وقد قرر الباحثون أن عدد الحاملين للمرض في أمريكا يقارب مليون شخص وفي ألمانيا الغربية ١٠٠ ألف وأن ٩٨٪ منهم لايزالون غير مكتشفين وغير معروفين .

إن معاناة المصابين بهذا المرض لم تقف عند حد آلامه والرعب من المصير المحتوم الذي سيؤولون إليه بل صار الناس يفرون من المطاعم والفنادق والأماكن التي يتواجد أو يخدم بها الشاذون جنسياً، بل قد صار منبوذاً حياً وميتاً وتعتبر الإصابة بالإيدز في الولايات المتحدة الأمريكية أعلى النسب إذا قورنت بغيرها من البلدان حيث يتواجد بها عشرة ملايين شاذ جنسياً على الأقل، وأكبر تجمعاتهم ونواديبهم في نيويورك وسان فرانسيسكو وغيرها . . . والشذوذ عندهم ظاهرة اجتماعية يقف ورائها سياسيون واقتصاديون وعلماء اجتماع !!

أما الوسائل والطرق الرئيسية لانتقال فيروس - الأيدز - فهي :

أولاً: السائل المنوى، ويتم انتقال السائل المنوى من شخص إلى آخر بإحدى

الطرق الآتية:

(١) الشذوذ الجنسي «عمل قوم لوط»: وتبلغ نسبة الذين أصيبوا بالأيديز عن هذا الطريق ٧٣٪ .

(٢) الزنى الجماعى .

(٣) التلقيح الصناعى: فإذا كان الرجل مصاباً بالأيديز فإن الأثى وجنينها يصابان بهذا المرض .

ثانياً: الحقن الوريدية الملوثة، وتدل الإحصائيات على أن الإدمان مسئول عن ١٧٪ من حالات الأيدز المعروفة إلى الآن، وأن إعطاء الدم الملوث يسبب ٢٪ من الحالات .

وقد ينتقل المرض من الأم المصابة لجنينها بواسطة الدم أو بواسطة الحليب بعد الولادة وهناك احتمال لانتقاله عن طريق التقبيل - أى مع اللعاب - واحتمال أقل أن يكون للبعوض - فى الدول الأفريقية - دور فى نقل هذا المرض، من المصاب إلى السليم .

ويشكل الشذوذ الجنسي والزنى وإدمان المخدرات نسبة ٩٢ - ٩٥٪ من مجموع حالات الأيدز التى تم تشخيصها حتى الآن .

وليس كل من أصيب بفيروس الأيدز تظهر عليه أعراض المرض وإن أصبح ناقلاً لغيره ونسبة الذين تظهر عليهم أعراض مرض الأيدز قليلة جداً وخطورتهم تعتبر أقل من الذين لا تظهر عليهم أعراضه، لتحرز الناس منهم، والأعراض التى تظهر كثيرة منها:

* إنهاك عام شديد وتضخم الغدد اللمفاوية .

* نقص شديد فى الوزن، وارتفاع فى درجة الحرارة وسعال جاف وصعوبة فى التنفس .

* طفح جلدى مع التهابات فى الفم والحلق وإسهالات شديدة ومزمنة وظهور الإنتانات الإنتهازية التى ربما تكون السبب المباشر للموت .

لماذا فشلت العلاجات الوضعية؟

قد يتصور البعض أن القصور المادى العلمى هو السبب فى عدم اكتشاف علاج ناجح لمرض الأيدز، وأنه متى اكتشف الدواء فقد انتهت المشكلة، وهذا وهم عريض فالقضية ليست فى اكتشاف الدواء الذى يقضى على فيروس المرض^(١) ويعالج الأبدان، فهذا الدواء سيكون علاجاً للأعراض لاعلاجاً للأمراض، إن القلوب والأرواح حاجتها للعلاج أشد من حاجة الأبدان، والقوانين المعمول بها هنا وهناك بحاجة لإعادة صياغة وفق ما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

لقد كان من جملة التوصيات التى وضعتها السلطات الصحية فى الغرب لتقليل الإصابة بالأيدز، أن يقصر كل شاذ جنسياً علاقاته الجنسية على أقل عدد ممكن !! إنهم يسمحون بأسباب المرض ثم يثنون من أعراضه ويطالبون بعلاجه على الرغم من ادعاءات التطور والتقدم !!

ثم دينهم المحرف ورجاله الذين طمس الله على قلوبهم، من أعظم أسباب إنتشار الرذيلة فقد جاء فى كتاب الأيدز لفؤاد سيد ص ٦٥ مانصه: « فى تحقيقات بارعة نشرتها الديلى ميل عام «١٩٧٠» أن مايقرب من ٨٠٪ من الرهبان والراهبات ورجال الكنيسة يمارسون الزنا؟؟؟ وأن مايقرب من ٤٠٪ يمارسون الشذوذ !! وانتشار الزنى فى رجال الكنيسة وراهباتها قديم . . . وقد أباحت كثير من الكنائس - فعل الفاحشة وفى بعض كنائس أمريكا يتم عقد قران الرجل على الرجل على يد قسيس؟؟؟!! وأن الكاردينال الفرنسى المشهور «روتشيلو» كان مصاباً بالزهري ؟ وأن أحد كرادلةفرنسا مات وهو فى أحضان إحدى العاهرات فى باريس ؟ وقد نشرت إحدى العاهرات مذكراتها، فجاء فيها: إسم ثلاثة بابوات؟؟؟ وأحد عشر كردينالاً . . .!؟

إن التقليد الأعمى لأمريكا والغرب كان سبباً فى تسرب الإباحية والشذوذ لديار المسلمين وقد ساعد على ذلك هذه القوانين الفاجرة المعمول بها التى تسهل طريق

(١) بإذن الله سيتمكن العلماء من ذلك حتى وإن طال المدى -فما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله إلا الهرم ، كما جاء فى الحديث .

الفاحشة وتزوج لها بينود فاسدة وعقوبات هزيلة، كهذه التي تأمر بعدم إقامة عقوبة الزنى إلا بأمر الزوج !!

وإذا كان الزنى يرضى الزوجة البالغة، وبلا إكراه، وتنازل الزوج فلا عقوبة ولاجزاء! وبالتالي فديانة الزوج قد تمنع العقوبة حتى مع وجود الإقرار الذي هو سيد الأدلة، والتراضى على الزنى يسقط العقوبة!! وإذا حدثت العقوبة فهي عبارة عن حبس لم يأذن به الله في حالة ثبوت هذه الفواحش.

جاء أيضاً في المادة رقم ١٩٣ مايلي: «إذا واقع رجل رجلاً آخر، بلغ الثامنة عشرة، وكان ذلك برضائه !! عوقب كل منهما بالحبس مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات !! وبغرامة لا تتجاوز ثلاث آلاف روبية أو بإحدى هاتين العقوبتين !! لقد صرنا كالمستجير من الرمضاء بالنار، أو

كالعير بالرمضاء يقتله الظمأ والماء فوق ظهوره محمول

وللتخيل معاً مجتمعاً نظيفاً في الظاهر - كما يزعمون -، قد خلا من الأيدز والأمراض الفتاكة، فالعلاجات موجودة والقوانين صارمة، فهل نطمئن على أنفسنا ويطيب عيشنا مع انتشار اللواط والزنى والمخدرات ... إن الإجابة واضحة تعرفها مما حل بقوم لوط وغيرهم، فما أهون الخلق على الله إن هم عصوه، وقد جرت سنته سبحانه في خلقه، أنه يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ {هود: ١٠٢} .
وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ {طه: ١٢٤} .

وفي الحديث: «إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله بأسه بأهل الأرض»^(١) وهذا في الدنيا ولعذاب الآخرة أشد .

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ {الأحزاب: ٦٢} .

(١) رواه الحاكم وهو في صحيح الجامع .

(٢) الرغبة عن المرأة (١)

من شأن اللواطة أن تصرف الرجل عن المرأة، وقد يبلغ به الأمر إلى حد العجز عن مباشرتها، وبذلك تتعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج، وهي إيجاد النسل ولو قدر لمثل هذا الرجل أن يتزوج، فإن زوجته تكون ضحية من الضحايا، فلا تظفر بالسكن ولا بالمودة، ولا بالرحمة التي هي دستور الحياة الزوجية، فتقضى حياتها؟ معذبة معلقة، لاهى متزوجة ولا مطلقة.

(٣) التأثير في الأعصاب

إن هذه العادة تغزو النفس، وتؤثر في الأعصاب تأثيراً خاصاً: أحد نتائجه الإصابة بالانعكاس النفسى فى خلق الفرد فيشعر فى صميم فؤاده بأنه ما خلق ليكون رجلاً، وينقلب الشعور إلى شذوذ به ينعكس شعور اللائط إنعكاساً غريباً، فيشعر بميل إلى بنى جنسه، وتتجه أفكاره الخبيثة إلى أعضائهم التناسلية .

ومن هذا تستطيع أن تتبين العلة الحقيقية فى إسراف بعض الشبان الساقطين فى التزين وتقليدهم النساء، فى وضع المساحيق المختلفة على وجوههم ومحاولتهم الظهور بمظهر الجمال بتحميم أصداعهم، وتزجيج حواجبهم وتثنيهم فى مشيتهم، إلى غير ذلك مما نشاهده جميعاً فى كل مكان، وتقع عليه أبصارنا فى كثير من الأحيان، ولقد أثبتت كتب الطب كثيراً من الوقائع الغريبة التى تتعلق بهذا الشذوذ أضرب صفحاً عن ذكرها . ولا يقتصر الأمر على إصابة اللائط بالانعكاس النفسى، بل هنالك ماتسببه هذه الفاحشة من إضعاف القوى النفسية الطبيعية فى الشخص كذلك، وماتحدثه من جعله عرضة للإصابة بأمراض عصبية شاذة وعلل نفسية شائنة، تفقده لذة الحياة، وتسلبه صفة الإنسانية والرجولة، فتحبى فيه لوثات وراثية خاصة وتظهر عليه آفات عصبية كامنة تبديها هذه الفاحشة، وتدعو إلى تسلطها عليه .

ومثل هذه الآفات العصبية النفسية: الأمراض السادية، والماسوشية، والفيتشزم وغيرها .

(٤) التأثير على المخ

واللواط بجانب ذلك يسبب اختلالاً كبيراً في توازن عقل المرء، وارتباكاً عاماً في تفكيره، وركوداً غريباً في تصوراته، وبلاهة واضحة في عقله، وضعفاً شديداً في إرادته، وإن ذلك ليرجع إلى قلة الإفرازات الداخلية التي تفرزها الغدة الدرقية، والغدد فوق الكلى، وغيرها مما يتأثر باللواط تأثيراً مباشراً، فيضطرب عملها وتختل وظائفها، وإنك لتجد هنالك علاقة وثيقة بين «النيورستاتيا» واللواط، وارتباطاً غريباً بينها، فيصاب اللائط بالبله والعبط وشرود الفكر وضياح العقل والرشاد.

(٥) السويداء

واللواط إما أن يكون سبباً في ظهور مرض السويداء أو يغدو عاملاً قوياً على إظهاره وبعثه ولقد وجد أن هذه الفاحشة وسيلة شديدة التأثير على هذا الداء من حيث مضاعفتها له وزيادة تعقيدها لأغراض ويرجع ذلك للشذوذ الوظيفي لهذه الفاحشة المنكرة وسوء تأثيرها على أعصاب الجسم .

(٦) عدم كفاية اللواط

واللواط علة شاذة وطريقة غير كافية لإشباع العاطفة الجنسية، وذلك لأنها بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية، ولاتقوم بإرضاء المجموع العصبى، شديدة الوطأة على الجهاز العضلى، سيئة التأثير على سائر أجزاء البدن .

وإذا نظرنا إلى فيسيولوجيا الجماع والوظيفة الطبيعية التي تؤديها الأعضاء التناسلية وقت المباشرة ثم قارنا ذلك بما يحدث فى اللواط وجدنا الفرق بعيداً والبون بين الحالتين شاسعاً، ناهيك بعدم صلاحية الموضع وفقد ملاءمته للموضع الشاذ.

(٧) ارتخاء عضلات المستقيم وتمزقه

وإنك إذا نظرت إلى اللواط من ناحية أخرى وجدته سبباً في تمزق المستقيم وهتك أنسجته وارتخاء عضلاته وسقوط بعض أجزائه، وفقد السيطرة على المواد البرازية وعدم استطاعته القبض عليها، ولذلك تجد الفاسقين دائمى التلوث بهذه المواد المتعفنة بحيث تخرج منهم بغير إرادة أو شعور .

(٨) علاقة اللواط بالأخلاق

واللواط لوثة أخلاقية ومرض نفسى خطير فتجد جميع من يتصفون به سيئى الخلق فاسدى الطباع، لا يكادون يميزون بين الفضائل والردائل، ضعيفى الإرادة ليس لهم وجدان يؤنبهم ولا ضمير يردعهم، لا يتحرج أحدهم ولا يردعه رادع نفسى عن السطو على الأطفال والصغار واستعمال العنف والشدة لإشباع عاطفته الفاسدة والتجروء على ارتكاب الجرائم التى نسمع عنها كثيراً ونطالع أخبارها فى الجرائد السيارة وفى غيرها ونجد تفاصيل حوادثها فى المحاكم وفى كتب الطب .

(٩) اللواط وعلاقته بالصحة العامة

اللواط فوق ما ذكرت يصيب مقترفيه بضيق الصدر وبرزوهم بخفقان القلب، ويتركهم بحال من الضعف العام يعرضهم للإصابة بشتى الأمراض، ويجعلهم نهبة لمختلف العلل والأوصاب .

(١٠) التأثير على أعضاء التناسل

ويضعف اللواط كذلك مراكز الإنزال الرئيسية فى الجسم ويعمل على القضاء على الحيوية المنوية فيه، ويؤثر على تركيب مواد المنى، ثم ينتهى الأمر بعد قليل من الزمن بعدم القدرة على إيجاد النسل والإصابة بالعقم مما يحكم على اللائطين بالإنقراض والزوال .

(١١) التيفود والدوسنتاريا

ونستطيع أن نقول: إن اللواط يسبب بجانب ذلك العدوى بالحمى التيفودية والدوسنتاريا وغيرهما من الأمراض الخبيثة التي تنتقل بطريق التلوث بالمواد البرازية المزودة بمختلف الجراثيم المملوءة بشتى أسباب العلل والأمراض.

(١٢) أمراض الزنا (١)

ولا يخفى أن الأمراض التي تنتشر بالزنا يمكن أن تنتشر كذلك بطريق اللواط أو تصيب أصحابه ففتك بهم فتكاً ذريعاً فتبلى أجسامهم... وتحصد أرواحهم. مما تقدم نتبين حكمة التشريع الإسلامى فى تحريم اللواط، وتظهر دقة أحكامه فى التنكيل بمقترفيه والأمر بالقضاء عليهم وتخليص العالم من شرورهم.

حكم اللواط

ذكر ابن قدامة فى المغنى ج (٨) ص ١٨٧ مانصه: « أجمع أهل العلم على تحريم اللواط وقد ذمه الله تعالى فى كتابه وعاب من فعله وذمه رسول الله ﷺ فقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (الأعراف: ٨٠-٨١) . وقال النبى ﷺ: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط» (٢).

واختلفت الرواية عن أحمد رحمه الله فى حده، فروى عنه أن حده الرجم بكرة كان أو ثيباً، وهذا قول على وابن عباس وجابر بن زيد وعبد الله بن عمر والزهرى وأبى حبيب وربيعة ومالك وإسحاق وأحد قولى الشافعى وقتادة والأوزاعى وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وأبو ثور وهو المشهور من قولى الشافعى لأن النبى ﷺ قال: «إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان» ولأنه إيلاج فرج آدمى فى فرج آدمى لأمك له فيه ولاشبهة ملك وكان زنا كالإيلاج فى فرج المرأة، إذا ثبت كونه زنا دخل فى عموم الآية والأخبار فيه ولأنه فاحشة فكان زناً كالفاحشة بين الرجل والمرأة.

(١) مثل الزهرى والسيلان ومرض هريس الجنس.

(٢) رواه أحمد (٢٨١٢).

وروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه أمر بتحريق اللوطى وهو قول ابن الزبير لما روى صفوان بن سليم عن خالد بن الوليد أنه وجد فى بعض ضواحي العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة فكتب إلى أبى بكر فاستشار أبو بكر رضي الله عنه الصحابة فيه فكان على أشدهم قولاً فيه فقال: ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة، وقد علمتم ما فعل الله بها أرى أن يحرق بالنار، فكتب أبو بكر إلى خالد بذلك فحرقه . وقال الحكم وأبو حنيفة: لا حد عليه لأنه ليس بمحل الوطء أشبه غير الفرج .

ووجه الرواية الأولى قوله عليه السلام: «من وجدتموه يعمل بعمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»^(١) رواه أبو داود وفى لفظ: «فارجموا الأعلى والأسفل»^(٢) ولأنه إجماع الصحابة رضى الله عنهم، فإنهم أجمعوا على قتله، وإنما اختلفوا فى صفته واحتج أحمد رضي الله عنه بقول على عليه السلام^(٣) وأنه كان يرى رجمه، ولأن الله تعالى عذب قوم لوط بالرجم فينبغى أن يعاقب من فعل فعلهم بمثل عقوبتهم .

وقول من أسقط الحد عنه يخالف النص والإجماع .

وقياس الفرج على غيره لا يصح لما بينهما من الفرق .

إذا ثبت هذا فلا فرق بين أن يكون فى مملوك له أو أجنبى لأن الذكر ليس بمحل لوطء الذكر فلا يؤثر ملكه له» أ. ه .

حكم السحاق (٤)

السحاق محرم باتفاق العلماء، لما رواه أحمد ومسلم، وأبو داود، والترمذى أن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضى الرجل إلى الرجل فى ثوب واحد، ولا تفضى المرأة إلى المرأة فى الثوب الواحد»^(٥) .

قال ابن قدامة فى المغنى: وإن تداكت امرأتان فهما زانيتان ملعونتان لما روى عن النبى صلّى الله عليه وآله أنه قال: «إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان» ولا حد عليهما لأنه

(١) رواه الترمذى (١٤٥٦) فى الحدود، وأبى داود (٤٤٦٢) فى الحدود، وابن ماجه (٢٥٦١) فى الحدود، وأحمد (٢٧٢٧) .

(٢) رواه ابن ماجه (٢٥٦٢) فى الحدود .

(٣) الأولى أن يقال: على رضي الله عنه كقولنا فى سائر الصحابة .

(٤) إتيان المرأة المرأة

(٥) رواه أبى داود (٤٠١٨) فى الحمام، والترمذى (٢٧٩٣) فى الأدب، ومسلم (٣٣٨) فى الحيض، وأحمد (١١٢٠٧) .

لا يتضمن إيلاجاً فأشبهه المباشرة دون الفرج وعليهما التعزير لأنه زنا لاحد فيه فأشبهه مباشرة الرجل المرأة من غير جماع ولو باشر الرجل المرأة فاستمتع بها فيما دون الفرج فلا حد عليه لما روى أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنى لقيت امرأة فأصبت منها كل شئ إلا الجماع فأنزل الله تعالى:

﴿أقم الصلاة﴾، فقال الرجل: إلى هذه الآية؟ فقال: «لن عمل بها من أمتي»^(١).

إتيان البهيمة

أجمع العلماء على تحريم إتيان البهيمة، واختلفوا فى عقوبة من فعل ذلك . قال ابن قدامة: «اختلفت الرواية عن أحمد فى الذى يأتى البهيمة فروى عنه أنه يعزر ولا حد عليه، وروى ذلك عن ابن عباس وعطاء والشعبي والنخعي والحكم ومالك والثوري وأصحاب الرأي وإسحاق وهو قول الشافعي، والرواية الثانية: حكمه حكم اللواط سواء.

وقال الحسن: حده حد الزاني، وروى عن أبى سلمة ابن عبد الرحمن: يقتل هو والبهيمة لقول رسول الله ﷺ: «من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوا معه»^(٢).

ووجه الرواية الأولى، أنه لم يصح فيه نص ولا يمكن قياسه على الوطء فى فرج الآدمى لأنه لآحرمة لها، وليس بمقصود ويحتاج الزجر عنه إلى الحد، فإن النفوس تعافه وعامتها تنفر منه فىبقى على الأصل فى إنتفاء الحد، والحديث يرويه عمرو ابن أبى عمرو ولم يثبتته أحمد، وقال الطحاوى هو ضعيف ومذهب ابن عباس خلافه وهو الذى روى عنه قال أبو داود هذا يضعف الحديث عنه .

قال اسماعيل بن سعيد: سألت أحمد عن الرجل يأتى البهيمة فوقف عندها ولم يثبت حديث عمرو أبى عمرو فى ذلك، ولأن الحد يدرأ بالشبهات فلا يجوز أن يثبت بحديث فيه هذه الشبهة والضعف، وقول الخرقى أدب وأحسن أدبه يعنى

(١) رواه الترمذي (٣١١٤) فى تفسير القرآن، وابن ماجه (٤٢٥٤) فى الزهد.

(٢) رواه أبى داود (٤٤٦٤) فى الحدود، والترمذي (١٤٥٥) فى الحدود.

يعزر ويبالغ في تعزيره لأنه وطء في فرج محرم لاشبهة له فيه لم يوجب الحد فأوجب التعزير كوطء الميتة .

وقد ذهب على رضي الله عنه والشافعي وابن قدامة في المغنى والشوكاني في نيل الأوطار إلى وجوب قتل البهيمة وتحريم لحمها . قال في البحر: أنها تذبح البهيمة ولو كانت غير مأكولة لثلاث تأتي بولد مشوه، كما روى أن راعياً أتى بهيمة فأتت بمولود مشوه اهـ .

وذهبت القاسمية والشافعية في قول وأبوحنيفة وأبيوسف إلى أنه يكره أكلها تنزيها فقط .

حكم الاستمناء

استمناء الرجل بيده مما يتنافى مع ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان من الأدب وحسن الخلق، واستخراج المنى على هذا النحو يطلق عليه اسم الخضخضة والعادة السرية وجلد عميرة والاستمناء، وهو فعل محرم على قول جمهور العلماء فمن جملة القائلين بالتحريم، علماء المالكية والشافعية والزيدية، وقال الحنابلة: إنه حرام إلا إذا استمنى خوفاً على نفسه من الزنا أو خوفاً على صحته، ولم تكن له زوجة أو أمة، ولم يقدر على الزواج فحيث لا حرج عليه، فضبطوا الجواز باشتداد الشهوة مما يخشى معه الوقوع في الزنا، أو بحيث يخشى المضرة بتشقق الأنثيين لغلبه الشهوة عليه، ثم هو لا زوجة له ولا أمة ولا يستطيع الزواج لتصرفه شهوته في المباح، ومن المعلوم أن الضرورات تبيح المحظورات والضرورة تقدر بقدرها في هذه المسألة وغيرها، وكل هذا يتنافى مع التهاون في انتهاك الحرام، واعتياد موقعة هذا الفعل السيئ .

وقد استدلل العلماء على تحريمه بقول الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ [المؤمنون: ٥-٧] فأمر سبحانه بحفظ الفرج في كل الحالات إلا بالنسبة للزوجة وملك اليمين، فإذا تجاوز المرء هاتين الحالتين واستمنى كان من العادين المتجاوزين ما أحل الله لهم إلى ما حرمه عليهم .

وقال تعالى : ﴿وَلَيْسَتَعَفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ {النور: ٣٣} فأمر بالاستعفاف ولم يأذن في الاستمنا، ولم يأذن النبي ﷺ لعثمان بن مظعون وغيره في الإختصاص لما شقت عليهم العزوية، فلو كان الاستمنا مباحاً لوسع عليهم به .

وقال ﷺ : «يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» (١) فقال : عليه بالصوم ولم يقل بالإستمنا .

والإستمنا ضار بالصحة كما هو معلوم وخصوصاً إذا اعتاده الإنسان، ولا ضرر ولا ضرار فلا يحل لأحد أن يستلحق المضرة بنفسه، إذ الشرع لم يعطه هذا الحق، والمضرة قد تتعدى للزوجة في حالة زواجه .

وكان الإمام الشافعى رحمه الله يقول: لو أعلم أن شرب الماء البارد يخرم مروتى ما شربته .

والإستمنا فعل دنى . فالواجب على العبد أن يتقى الله، وأن يعلم أن الله مطلع ورقيب لاتخفى عليه خافية، وعليه أن يكثر من الصيام، ويغض البصر عن الحرام ولا يطلع صور النساء في الجرائد والمجلات، ويشغل نفسه بطاعة الله ويتعوذ بالله من الخواطر السيئة ولا يستجلب الشهوة وبواعث الإثارة، ويكثر من ذكر الموت والقبور والآخرة، ولا يكون خالياً سهلاً لافى عمل دين ولا فى عمل دنيا كما يقول عمر رضى الله عنه، ويكثر من ذكر الله ويحافظ على الأذكار الموظفة فنفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، كما يكثر من الاستغفار والدعاء وقول لاحول ولا قوة إلا بالله وبصفة خاصة :

« اللهم يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » .

« اللهم أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا تكلنى إلى أحد من خلقك، ويسعى طلباً للزواج حتى وإن كان فقيراً فليتوكل على الله ويعظم الرغبة فيما عنده سبحانه .

(١) رواه البخاري (٥٠٦٦) في النكاح، ومسلم (١٤٠٠) في النكاح، والترمذي (١٠٨١) في النكاح، والنسائي (٢٢٣٩) في الصيام، وأبي داود (٢٠٤٦) في النكاح، وابن ماجه (١٨٤٥) في النكاح، وأحمد (٣٥٨١)، والدارمي (٢١٦٥) في النكاح.

وكان عمر رضي الله عنه يقول: عجباً لمن لم يلتمس الغنى في النكاح والله يقول: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢].

حكم إتيان النساء في أدبارهن

الحكمة في خلق الأزواج بث النسل، وقد ذكر أبو عمر بن عبد البر أن العلماء لم يختلفوا في الرتقاء التي لا يوصل إلى وطئها أنه عيب تُرد به إلا شيئاً جاء عن عمر بن عبد العزيز من وجه ليس بالقوى أنه لا ترد الرتقاء ولا غيرها، والفقهاء كلهم على خلاف ذلك لأن المسيس هو المبتغى بالنكاح، وفي إجماعهم على هذا دليل على أن الدبر ليس بموضع وطء، ولو كان موضعاً للوطء ماردت من لا يوصل إلى وطئها في الفرج وفي إجماعهم أيضاً على أن العقيم التي لا تلد لا ترد.

قال تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات يعني بذلك موضع الولد.

وروى الترمذى عن ابن عباس قال: «جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله هلكت، قال: وما أهلكك، قال: حولت رحلى الليلة، قال: فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قال: فأوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ أقبل وأدبر واتق الدبر والحیضة» (١).

والأحاديث في هذا الموضع كثيرة وكلها نص في إباحة الحال والهيئات كلها إذا كان الوطء في موضع الحرث، أي كيف شئتم من خلف ومن قدام وباركة ومستلقية ومضطجعة، فأما الإتيان في غير الماتى فما كان مباحاً، ولا يباح، وذكر الحرث يدل على أن الإتيان في غير الماتى محرم، وروى النسائي عن أبي النضر أنه قال لنافع مولى ابن عمر: قد أكثر عليك القول إنك تقول عن ابن عمر: أنه أفتى بأن يؤتى النساء في أدبارهن. قال نافع: لقد كذبوا على... الحديث.

وقد قال أصحاب أبي حنيفة: إنه عندنا ولائط الذكر سواء في الحكم، ولأن القدر والأذى في موضع النجو (ما يخرج من البطن) أكثر من دم الحيض فكان أشنع.

(١) رواه الترمذى (٢٩٨٠) في تفسير القرآن، وأحمد (٢٦٩٨).

وقد وردت أحاديث صحيحة حسان شهيرة رواها عن رسول الله ﷺ إثنا عشر صحابياً بمتون مختلفة كلها متواردة على تحريم إتيان النساء من الأدبار ذكرها أحمد بن حنبل في مسنده وأبو داود والنسائي والترمذى وغيرهم، وقد جمعها أبو الفرج بن الجوزى بطرقها في جزء سماه «تحريم المحل المكروه» .

قال القرطبي : ولشيخنا أبي العباس أيضاً في ذلك جزء سماه { إظهار إديار، من أجاز الوطء في الأدبار } قال: وهذا هو الحق المتبع والصحيح في المسألة، ولا ينبغي لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يُعرج في هذه النازلة على زلة عالم بعد أن تصح عنه، وقد حذرنا من زلة العالم وقد روى عن ابن عمر خلاف هذا وتكفير من فعله، وهذا هو اللائق به رضى الله عنه، وكذلك كذب نافع من أخبر عنه بذلك . . . وأنكر ذلك مالك واستعظمه وكذب من نسب ذلك إليه .

وروى الدارمى أبو محمد في مسنده عن سعيد بن يسار أبى الحُباب قال: قلت لابن عمر: ماتقول فى الجوارى حين أحمضُ لهن؟ قال: وما التحميض؟ فذكرت له الدر فقال: هل يفعل ذلك أحد من المسلمين!

وأسند عن خزيمة بن ثابت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أيها الناس إن الله لا يستحى من الحق لا تأتوا النساء فى أعجازهن»^(١) ومثله عن على بن طلق، وأسند عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «من أتى امرأة فى دبرها لم ينظر الله تعالى إليه يوم القيامة»^(٢) وروى أبو داود الطيالسى فى مسنده عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبىه عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «تلك اللوطية الصغرى»^(٣) يعنى إتيان المرأة فى دبرها .

وروى عن طاووس أنه قال: كان بدء عمل قوم لوط إتيان النساء فى أدبارهن .
قال ابن المنذر: وإذا ثبت الشئ عن رسول الله ﷺ استغنى به عما سواه .

(١) رواه أحمد (٢١٣٤٧)، والدارمى (١١٤٤)، فى الطهارة.

(٢) رواه الدارمى (١١٤٠) فى الطهارة، وابن ماجه (١٩٢٣) وأحمد (٨٣٢٧).

(٣) رواه أحمد (٦٩٢٨).

لجنة الفتوى تسأل عن :

حكم وطء المرأة فى الدبر

توجه هذا السؤال للجنة الفتوى بالسعودية، وهل على من فعل ذلك كفارة ؟
فأجابت: وطء المرأة فى الدبر من كبائر الذنوب ومن أقيح المعاصى لما ثبت عن
النبي ﷺ أنه قال: «ملعون من أتى امرأته فى دبرها» وقال ﷺ: «لا ينظر الله
إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة فى دبرها»^(١).

والواجب على من فعل ذلك البدء بالتوبة النصوح وهى الإقلاع عن الذنوب
وتركه تعظيماً لله وحذراً من عقابه والسند على ماقد وقع من ذلك والعزيمة
الصادقة على ألا يعود إلى ذلك مع الاجتهاد فى الأعمال الصالحة، ومن تاب توبة
صادقة تاب الله عليه وغفر له ذنبه كما قال عز وجل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ
وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [سورة طه: ٨٢].

وقال عز وجل فى سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ
العَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ
يَبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وقال النبي ﷺ: «الإسلام يهدم ماكان قبله والتوبة تهدم ماكان قبلها»^(٢).
والآيات والأحاديث كثيرة فى هذا المعنى.

وليس على من وطأ فى الدبر كفارة فى أصح قولى العلماء ولا تحرم عليه زوجته
بذلك، بل هى باقية فى عصمته.

وليس لها أن تطيحه فى هذا المنكر العظيم، بل يجب عليها الامتناع من ذلك
والمطالبة بفسخ نكاحها منه إن لم يتب نساء الله العافية من ذلك.

(١) رواه أحمد (٩٨٥٠)، وأبى داود (٢١٦٢) فى النكاح.

(٢) رواه مسلم (١٢١) فى الإيمان.

النظر إلى الأمر

الأمرد هو من لم تنبت لحيته لصغره بأن لم يأت أوان نباتها لا من فات أوان نباتها وأيس منه فيسمى فظاً كما قال السفاريني في غذاء الألباب .

وقال ابن تيمية : «الإمام والصبيان إذا كن حسناً تخشى الفتنة بالنظر إليهم كان حكمهم كذلك (أى لا بد من غض البصر عنهم)، كما ذكر ذلك العلماء، وقال المروزي: قلت لأبي عبد الله يعنى أحمد بن حنبل: الرجل ينظر إلى المملوك؟ قال: إذا خاف الفتنة لم ينظر إليه كم نظرة ألفت في قلب صاحبها البلاء» اهـ.

ويروى عن سفيان الثوري أنه قال: مع الجارية شيطان ومع الغلام شيطانان، فخشيت على نفسي شيطانيه .

وكان سفيان الثوري لا يدع أمرد يجالسه، وعن بشر قال: احذروا هؤلاء الأحداث، وقال يحيى بن معين: ما طمع أمرد أن يصحبنى ولا أحمد بن حنبل في طريق، وكان البعض يوصى إخوانه عند مفارقتهم: اتق صحبة الأحداث، اتق معاشره الأحداث .

وروى ابن الجوزي بإسناده عن سعيد بن المسيب قال: إذا رأيتم الرجل يلح بالنظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه .

قال الحسن بن ذكوان: لاتجالسوا أولاد الأغنياء فإن لهم صوراً كصور العذارى، وهم أشد فتنة من النساء .

وقال بعض التابعين: ما أنا بأخوف على الشاب الناسك من سبع ضار من الغلام الأمرد في بيت أو حانوتاً أو حمام قياساً على المرأة لأن النبي ﷺ قال: «ماخلا رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان» .

وقال البعض: لأن أؤتمن على سبعين عذراء أحب إلى من أن أؤتمن على شاب أمرد . قال النووي في التبيان: هذا هو المذهب الصحيح المختار عند العلماء وقد نصي علي تحريمه الإمام الشافعي ومن لا يحصى من العلماء، ودليله قوله تعالى: ﴿ قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ [النور: 30] ولأنه في معنى المرأة بل ربما كان بعضهم أو كثير منهم أحسن من كثير من النساء ويتمكن من أسباب الريبة فيه، ويستسهل من طرق الشر في حقه ما لا يستسهل في حق المرأة فكان تحريمه أولى . وأقاويل السلف منهم أكثر من أن تحصى وقد سموهم الأتنان لكونهم مستقذرين شرعاً اهـ.

والنظر إلى الأمد إن كان حاجة كالبيع والشراء والأخذ والإعطاء والتطيب والتعلیم ونحوها من مواضع الحاجة فجائز للضرورة، لكن يقتصر الناظر على قدر الحاجة، ولا يديم النظر من غير ضرورة وكذا المعلم إنما يباح له النظر الذي يحتاج إليه، ويحرم عليهم في كل الأحوال النظر بشهوة.

قال ابن تيمية: وهكذا الرجل مع الرجال والمرأة مع النساء لو كان في المرأة فتنة للنساء وفي الرجل فتنة للرجال لكان الأمر بالغض للناظر من بصره متوجهاً كما يتوجه إليه الأمر بحفظ فرجه.

نظر الرجل إلى الرجل

قال رسول الله ﷺ «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة»^(١) وقال أيضاً:

«احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ماملكت يمينك»^(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة والحاكم والبيهقي وأخرج الحاكم عن رسول الله ﷺ: «ما بين السرة والركبة عورة»، وعند الحاكم: «غط فخذك فإن الفخذ عورة» وعند الترمذي: «الفخذ عورة»^(٣) وهذا هو الأحوط كما قال البخاري - رحمه الله -

فيحرم على الرجل أن ينظر إلى رجل آخر فيما بين سرتة وركبته، ولا يجوز له كشف ذلك ولا جزء منه لا في رياضة أو تدريب أو حمام . . . ، وإن أمن الشهوة.

ولا يجوز طاعة من يأمره بذلك لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

ولا يصح القول بأن العورة من الرجل بالنسبة للنظر السواتان فقط .

وقد نهى النبي ﷺ «أن تباشر المرأة المرأة في شعار واحد وأن يباشر الرجل الرجل في شعار واحد». وفي رواية النسائي: «لا تباشر المرأة المرأة ولا الرجل الرجل»^(٤)

(١) رواه مسلم (٣٣٨) في الحيض، وأحمد (٧ ١١٢)، والترمذي (٢٧٩٣) في الأدب، وابن ماجه (٦٦١) في الطهارة وسنتها

(٢) رواه الترمذي (٢٧٦٩) في الأدب. وأبي داود (١٧ ٤) في الحمام، وابن مساجه (١٩٢) في النكاح، وأحمد (١٩٥٣)

(٣) رواه الترمذي (٢٧٩٥) في الأدب

(٤) رواه أحمد (٨١١٩)

وفي الحديث : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر»^(١) وفي الحديث الذي رواه مسلم وأصحاب السنن «... ولا يفضى الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد، ولا تفضى المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد»^(٢).

والنظر إلى العورات حرام - كما ذكر ابن تيمية - داخل في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ {الأعراف: ٣٣} وفي قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ {الأنعام: ١٥١}.

فإن الفواحش وإن كانت ظاهرة في المعاشرة بالفرج أو الدبر وما يتبع ذلك من الملامسة والنظر وغير ذلك وكما في قصة لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ {النمل: ٥٤} وقوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْنِيَّ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ {الإسراء: ٣٢} والفاحشة أيضاً تناول كشف العورة، وإن لم تكن في ذلك مباشرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ {الأعراف: ٢٨}.

وهذه الفاحشة هي طوافهم فيها بالبيت عراة، فليقت الله هؤلاء الذين يتكشفون ويتعرون بزعم أنهم رجال مع رجال !!! .

نظر المرأة إلى المرأة

في صحيح البخاري عن ابن مسعود بلفظ «لاتباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها»^(٣).

وفي الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من إناث أمتى فلا تدخل الحمام إلا بمئزر»^(٤).

قال ابن تيمية: «وقال العلماء يرخص للنساء في الحمام عند الحاجة كما يرخص للرجال مع غض البصر وحفظ الفرج وذلك مثل أن تكون مريضة أو نفساء أو عليها غسل أو لا يمكنها إلا في الحمام، أما إذا اعتادت الحمام، وشق عليها تركه، فهل يباح لها على قولين في مذهب أحمد وغيره». اهـ.

(١) رواه النسائي والترمذي وحسنه الحاكم وصححه.

(٢) رواه النسائي (٤٠١)، رواه أحمد (٨٠٧٦).

(٣) رواه البخاري (٥٢٤٠) في النكاح، والترمذي (٢٧٩٢)، وأبي داود (٢١٥٠).

(٤) رواه أحمد (٨٠٧٦).

والحمامات أماكن كان الرجال والنساء يرتادونها ويكشف بعضهم عن عورته أمام بعض، ولذلك ورد النهي كما في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته - زوجته - الحمام»^(١).

وعورة المرأة بالنسبة للمرأة ما بين سرتها إلى ركبته، وليس معنى ذلك أن تستر ما بين سرتها إلى ركبته فقط وتبقى شبه عارية أمام النساء بدون حاجة، وإنما معناه أن تغطية ما بين السرة والركبة واجبة عليها ويحرم النظر إليه من غيرها ولو كانت قريبة منها كابنتها وأختها وخالتها...

وصح عن عمر رضي الله عنه منع الكتابيات دخول الحمام مع المسلمات، وقد صرح ابن عباس رضي الله عنهما أنه ليس للمسلمة أن تتجرد بين نساء أهل الذمة ولا أن تبدى لكافرة إلا ما تبدى للأجانب. ومحل ذلك في كافرة غير محرم للمسلمة أما هي فيجوز لها النظر إليها كما بحثه الزركشي في المحرم، وأفتى به النووي في المملوكة.

وقد ذكر ابن تيمية أن اليهوديات كن يدخلن على أم المؤمنين عائشة وهي مكشوفة الوجه.

وقال العز بن عبد السلام: «إن المرأة الفاسقة في ذلك حكمها حكم الذميمة فيجب على ولاية الأمور منع الذميات والفاسقات من دخول الحمامات مع المحصنات من المؤمنات، فإن تعذر ذلك لقلة مبالاة ولاية الأمور بإنكار ذلك فلتحترز المؤمنة الحرة عن الكافرة والفاسقة» أ.هـ.

قال ابن تيمية: وكذلك المرأة مع المرأة، وكذلك محارم المرأة مثل ابن زوجها وابنه، وابن أخيها، وابن اختها، ومملوكها عند من يجعله محرماً متى كان يخاف عليه الفتنة أو عليها توجب الاحتجاب بل وجب، وهذه المواضع التي أمر الله تعالى بالاحتجاب فيها مظنة الفتنة ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك أذكى لهم﴾... ولازكاة بدون حفظ الفرج من الفاحشة لأن حفظه يتضمن حفظه عن الوطء به في الفروج والأدبار، ودون ذلك وعن المباشرة ومس الغير له وكشفه للغير، ونظر الغير إليه، فعليه أن يحفظ فرجه عن نظر الغير ومسه أ.هـ.

(١) رواه الترمذي (٢٨٠١) في الأدب، وأحمد (١٤٢٤١).

هذا ويحرم اضطجاع رجلين أو امرأتين ولو محارم كأب وابنه وأم وابنتها وأخ وأخيه، وأخت وأختها في فراش واحد إذا كان كل منهما عارياً أو شبه عار أو أن يلتحفا بلحاف واحد لخبر مسلم: «لا يفضى الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد ولا المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد» .

الخنثى

الخنثى مأخوذ من الخنث وهو اللين والتكسر، والخنثى شخص اشتبه في أمره ولم يدر أذكر هو أم أنثى، إما لأن له ذكراً وفرجاً معاً، أو لأنه ليس له شيء منهما أصلاً وتبين الذكورة والأنوثة بظهور علامات كل منهما، وهى قبل البلوغ تعرف بالبول، فإن بال بالعضو المخصوص بالذكر فهو ذكر وإن بال بالعضو المخصوص بالأنثى فهو أنثى، وإن بال منهما كان الحكم للأسبق .

وبعد البلوغ، إن نبتت له لحية أو أتى النساء أو احتلم كما يحتلم الرجال فهو ذكر، وإن ظهر له ثدى كثنى المرأة أو در به لبن أو حاض أو حبل فهو أنثى، وهو في هاتين الحالتين يقال له خنثى غير مشكل . فإن لم يعرف أذكر أم أنثى ؟ بأن لم تظهر علامة من العلامات أو ظهرت وتعارضت فهو الخنثى المشكل .

وبالنسبة للميراث فإن تبين أنه ذكر ورث ميراث الذكر، وإن تبين أنه أنثى ورث ميراث الأنثى والعبرة بالمبال قبل البلوغ وعلامات الذكورة والأنوثة بعده .

أما الخنثى المشكل فقد اختلف الفقهاء فى حكمه من حيث الميراث، فقال أبو حنيفة إنه يمرض أنه ذكر ثم يفرض أنه أنثى ويعامل بعد ذلك بأسوأ الحالين، حتى لو كان يرث على اعتبار آخر لم يعط شيئاً وإن ورث على كل من الفرضين واختلف نصيبه أعطى أقل النصيبين، وقد أخذ القانون المصرى برأى الإمام أبى حنيفة - رحمه الله - .

وقال مالك وأبو يوسف: يأخذ المتوسط بين نصيبين الذكر والأنثى .

وقال الشافعى: يعامل كل من الورثة والخنثى بأقل النصيبين لأنه المتيقن إلى كل منهما، وقال أحمد: إن كان يرجى ظهور حاله يعامل كل منه ومن الورثة بالأقل ويوقف الباقي، وإن لم يرج ظهور الأمر يأخذ المتوسط بين نصيبى الذكر والأنثى، وهذا القول هو الأشبه بالصحة والله أعلم .

لعن المخنثين ونفيهم لإفسادهم

روت أم سلمة: «أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها مخنث وهو يقول لعبد الله أحيها: إن فتح الله لك الطائف غداً، أدلك على ابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان فقال النبي ﷺ: «أخرجوهم من بيوتكم»^(١)، وفي رواية في الصحيح: «لا يدخلن هؤلاء عليكم» وفي رواية: «أرى هذا يعرف مثل هذا لا يدخلن عليكم بعد اليوم».

وروى الجماعة إلا مسلماً أن النبي ﷺ لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء، وقال: «أخرجوهم من بيوتكم وأخرجوا فلاناً وفلاناً يعني المخنثين»^(٢). وقد ذكر بعضهم أنهم كانوا ثلاثة - بهم وهيت وماتع - على عهد رسول الله ﷺ ولم يكونوا يرمون بالفاحشة الكبرى إنما كان تخنيثهم وتأنيثهم ليناً في القول وخضاباً في الأيدي والأرجل كخضاب النساء ولعباً كلعبهن.

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ أتى بمخنث وقد خضب رجليه ويديه بالحناء فقال: ما بال هذا؟ فقيل يارسول الله: يتشبه بالنساء فأمر به فنفي إلى النقيع، فقيل يارسول الله: ألا تقتله، فقال: إني نهيت عن قتل المصلين^(٣) والنقيع ناحية عن المدينة وليس بالنقيع.

فإذا كان النبي ﷺ قد أمر بإخراج مثل هؤلاء من البيوت فمعلوم أن الذي يمكن الرجال من نفسه والاستمتاع به وبما يشاهدونه من محاسنه وفعل الفاحشة الكبرى به شر من هؤلاء وهو أحق بالنفي من بين أظهر المسلمين وإخراجه عنهم، فإن المخنث فيه إفساد للرجال والنساء لأنه إذا تشبه بالنساء فقد تعاشره النساء ويتعلمن منه وهو رجل فيفسدهن ولأن الرجال إذا مالوا إليه فقد يعرضون عن النساء ولأن المرأة إذا رأت الرجل يتخنث فقد تترجل هي وتشبه بالرجال فتعاشر الصنفين وقد تختار هي مجامعة النساء كما يختار هو مجامعة الرجال.

وأما إفساده للرجال فهو أن يمكنهم من الفعل به كما يفعل بالنساء بمشاهدته ومباشرته وعشقه فإذا أخرج من بين الناس وسافر إلى بلد آخر ساكن فيه الناس

(١) رواه أبو داود (٤٩٢٩) في الأدب، والبخاري (٤٣٢٤) في المغازي، ومسلم (٢١٨٠) في السلام، وابن

ماجه (١٩٠٢) في النكاح.

(٢) رواه البخاري (٦٨٣٤) في الحدود، وأبي داود (٤٩٣٠) في الأدب.

(٣) رواه أبو داود (٤٩٢٨) في الأدب.

ووجد هناك من يفعل به الفاحشة فهنا يكون نفيه بحسه فى مكان واحد ليس معه فيه غيره، وإن خيف خروجه فإنه يُقيد إذ هذا هو معنى نفيه وإخراجه من بين الناس وهذا نوع من الهجرة، فالزناة واللوطية . مخالطتهم مضرّة على دين الإسلام وليس فيهم معاونة لا على بر ولا تقوى فمن لم يهجرهم كان تاركاً للمأمور فاعلاً للمحظور، ومما يدخل فى هذا أن عمر بن الخطاب نفى نصر ابن حجاج من المدينة إلى البصرة لما سمع تشييب النساء وتشبهه بهن وكان أولاً قد أمر بأخذ شعره ليزيل جماله الذى كان يفتن به النساء، ثم نفاه إلى البصرة لما استمرت فتته، فهذا لم يصدر منه ذنب ولا فاحشة يعاقب عليها، لكن كان فى النساء من يفتن به، وهذا من باب التفريق بين الذين يُخاف عليهم الفاحشة والعشق قبل وقوعه وليس من باب المعاقبة .

قرار مجلس المجمع الفقهي بشأن

تحويل الذكر إلى أنثى وبالعكس

القرار السادس: «الحمد لله والصلاة والسلام على من لانبى بعده سيدنا محمد ﷺ أما بعد:

فإن مجلس المجمع الفقهي الإسلامي لرابطة العالم الإسلامي فى دورته الحادية عشرة المنعقدة بمكة المكرمة فى الفترة من يوم الأحد ١٣ رجب ١٤٠٩ هـ الموافق ١٩ فبراير ١٩٨٩ م إلى يوم الأحد ٢٠ رجب ١٤٠٩ هـ الموافق ٢٦ فبراير ١٩٨٩ م قد نظر فى موضوع تحويل الذكر إلى أنثى وبالعكس . وبعد البحث والمناقشة بين أعضائه قرر مايلى:

أولاً: الذكر الذى كملت أعضاء ذكوره والأنثى التى كملت أعضاء أنوثتها لا يحل تحويل أحدهما إلى النوع الآخر، ومحاولة التحويل جريمة يستحق فاعلها العقوبة لأنه تغيير لخلق الله، وقد حرم سبحانه هذا التغيير بقوله تعالى مخبراً عن قول الشيطان:

﴿وَأْمُرْتَهُمْ فَلْيَغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] فقد جاء فى صحيح مسلم عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الواشحات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل، ثم قال: ألا ألعن من لعن رسول

الله ﷺ وهو في كتاب الله عز وجل يعنى قوله : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧] .

ثانياً: أما من اجتمع في أعضائه علامات النساء والرجال فينظر فيه إلى الغالب من حاله فإن غلبت عليه الذكورة جاز علاجه طبيياً بما يزيل الاشتباه في ذكورته ومن غلبت عليه الأنوثة جاز علاجه طبيياً بما يزيل الاشتباه في أنوثته سواء أكان العلاج بالجراحة أو بالهرمونات لأن هذا مرض والعلاج يقصد به الشفاء منه، وليس تغييراً لخلق الله تعالى .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً والحمد لله رب العالمين .

اللوطيون أصناف ثلاثة

قال ابن أبي الدنيا بإسناده عن أبي سهل الصعلوكي قال: سيكون في هذه الأمة قوم يقال لهم اللوطيون على ثلاثة أصناف: صنف ينظرون، وصنف يصفاحون، وصنف يعملون ذلك العمل .

وفي المدخل لابن الحاج: اللوطية على ثلاث مراتب: طائفة تتمتع بالنظر وهو محرم لأن النظر إلى الأمرد بشهوة حرام إجماعاً، بل صحح بعض العلماء أنه محرم وإن كان بغير شهوة، والطائفة الثانية بالملاعبة والمباشطة والمعانقة، والطائفة الثالثة بفعل الفاحشة الكبرى» اهـ .

فمس الأمرد لشهوة والتلذذ بمصافحته ونحو ذلك حرام بإجماع المسلمين كما يحرم التلذذ بمس ذوات المحارم والمرأة الأجنبية، كما أن الجمهور على أن عقوبة اللوطي أعظم من عقوبة الزنا بالأجنبية، فيجب قتل الفاعل والمفعول به سواء كان أحدهما محصناً أو لم يكن جاء ذلك في السنن وعمل به الصحابة من غير نزاع يُعرف بينهم، قال ابن تيمية: وقتله بالرجم كما قتل الله قوم لوط .

قال: والنظر إلى وجه الأمرد بشهوة كالنظر إلى وجه ذوات المحارم والمرأة الأجنبية بالشهوة سواء كانت الشهوة شهوة الوطء أو كانت شهوة التلذذ بالنظر كما يتلذذ بالنظر إلى وجه المرأة الأجنبية، وإذا كان معلوماً لكل أحد أن هذا حرام

فكذلك النظر إلى وجه الأرمدة باتفاق الأئمة .

وقول البعض النظر إلى الوجه الجميل عبادة - حتى لو كان وجه امرأة أجنبية أو أرمدة - قول باطل ويدل على فسق وفجور، ومعلوم أن من جعل هذا النظر المحرم عبادة فهو بمنزلة من جعل الفواحش عبادة قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

والله سبحانه قد أمر في كتابه بغض البصر، وهو نوعان، غض البصر عن العورة، وغضها عن الشهوة وقد قسم ابن تيمية النظر إلى الأرمدة إلى ثلاثة أقسام: أحدهما: ماتقرن به الشهوة فهو محرم بالاتفاق.

والثاني: ما يجزم أنه لاشهوة معه كنظر الرجل الورع إلى ابنه الحسن وابنته الحسنة وأمه الحسنة فهذا لاتقرن به شهوة إلا أن يكون الرجل من أفجر الناس ومتى اقرن به الشهوة حرم، وعلى هذا نظر من لايميل قلبه إلى المردان كما كان الصحابة وكالأمم الذين لايعرفون هذه الفاحشة فإن الواحد من هؤلاء لايفرق من هذا الوجه بين نظره إلى ابنه وابن جاره، وصبي أجنبي، لا يخطر بقلبه شئ من الشهوة لأنه لم يعتد ذلك، وهو سليم القلب من قبل ذلك .

والقسم الثالث من النظر: هو النظر إليه بغير شهوة لكن مع خوف ثورانها، ففيه وجهان ورجح عدم الجواز وهذا قول الشافعي والأصح في مذهب أحمد - رحمه الله - .

هل تنتشر الحرمة باللواط؟

اختلف العلماء في مسألة اللواط، فقال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم: لا يحرم النكاح باللواط.

وقال الثوري: إذا لعب بالصبي حرمت عليه أمه، وهو قول أحمد بن حنبل قال: إذا تلوط بابن امرأته أو أبيها أو أخيها حرمت عليه امرأته، وقال الأوزاعي: إذا تلوط بغلام ثم وكد للمفجور به بنت لم يجز للفاجر أن يتزوجها، لأنها بنت من قد دخل به، وهو قول الإمام أحمد.

ديمقراطية قوم لوط

الديمقراطية كما يعرفونها هي حكم الشعب نفسه بنفسه لنفسه، وهي نظام قديم، يصطدم بدين الله بداية ونهاية، في المنشأ والطريق والهدف والغاية والديمقراطية دين عند أهلها، ووثن يُعبد من دون الله، وكما أن الإسلام عقيدة وشريعة، فكذلك الديمقراطية عبارة عن نظم تقف خلفها عقيدة لادينية والأكثرية والأغلبية في النظم الديمقراطية حكمها نافذ ورأيها يجب النزول عليه من قبل الأقلية، حتى لو كان هذا الرأي مصادماً لشرع الله .

ونحن عندما ننظر في قصة لوط ستجد أن كلمتهم قد اتفقت على ممارسة اللواط ولم يخالف في ذلك إلا نبي الله لوط وابنتاه، ومؤدى ذلك وفق النظم الديمقراطية أن لاتنزل الأغلبية على رأى الأقلية !! أو بمعنى آخر يستمر الكفر واللواط ... طالما هو رأى الجماهير العريضة، والأصوات المطالبة بذلك وكانت هي الأكثرية !!!

إن نظرة سريعة على قصة قوم لوط لتدلك على مبلغ الدمار والعذاب الذى ينتظر الديمقراطية فى الدنيا والآخرة فكل مقدمة لها نتيجة وكل عقيدة لها تأثير ذهبت اللذات، وأتت الحسرات، وانقضت الشهوات، وأورثت الشقوات تمتعوا قليلاً، وعذبوا طويلاً، رتعوا مرتعاً وخيماً فأعقبهم عذاباً أليماً، أسكرهم خمرة تلك الشهوات، فيما استفاقوا منها إلا فى ديار المعذنين: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ {الطور: ١٦} .

ولقد قرب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين إخوانهم فى العمل، فقال مخوفاً لهم بأعظم الوعيد: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ {هود: ٨٣} .

ولقد تخوف رسول ﷺ من أن يسرى ذلك الداء إلى هذه الأمة وينتشر بين صفوفها ذلك الوباء الفتاك الذى يفسدها ثم يفنيها، ويجعل منها أمة ساقطة من عين الله، قد جرت على نفسها الخزى والمذلة والعار، والوبال والهلاك فقال عليه الصلاة والسلام: « إن أخوف ما أخاف على أمتى عمل قوم لوط»^(١) .

(١) رواه الترمذى (١٤٥٧) فى الحدود، وابن ماجه (٢٥٦٣) فى الحدود.

الديمقراطية المعاصرة (١) تبيح اللواط والزنى ...

الديمقراطية نظام يقوم على إطلاق الحريات، التي هي أشبه بالسيارات التي تنطلق دون فرامل، فالإنسان في ظل هذا النظام يزنى ويزنى به ولا اعتراض عليه لأنها حرية شخصية!!! ويكفر بالله ويرتد على الملأ بلا رادع لأنها حرية رأى وتعبير وفكر...!!! ويتملك بالربا بلاحياء لأنها حرية تملك.. ويتباهون بالفساد في أشنع صورته باسم الحرية والديمقراطية التي أوصلت الإنسان إلى أسفل سافلين.

لقد سار عدد كبير من طلبة الجامعات ولاسيما طلبة جامعة «اكسفورد» مع خمسمائة من كبار الشخصيات البريطانية، بينهم أساقفة وقساوسة وأساتذة الجامعات مطالبين بإباحة الشذوذ الجنسي، ولبي «مجلس العموم» البريطاني رغبة قادة الفكر والتوجيه في بريطانيا، بأغلبية ١٦٤ صوتاً ضد ١٠٧ أصوات.

هذه هي الديمقراطية بأغلبيتها المدمرة، وللأسف تابعنا هؤلاء حذو النعل بالنعل وتركنا ديننا (٢) وراءنا ظهرياً واستبدلنا بشرع الله نظم وديناميات ومناهج كفرية، فأصبحنا في واد وديننا في واد آخر ويقابل ذلك أعداء يدركون سر قوتنا، وبيدلون مزيداً من المكائد والمؤمرات لتخريب مجتمعاتنا وتقطيع أوصالها فتفككت الأسر وشاع التبرج والاختلاط وصار الزوج عند قطاعات بمثابة قيد للحرية فانتشر الزنى ونوادى العراة وظهر الشذوذ الجنسي وإدمان المخدرات والخمور وانتشرت جبوب منع الحمل وأصبح القتل والاعتصاب والانتحار من الأمور العادية وقد ساعد على ذلك الدور السيئ الذي تقوم به أجهزة الإعلام من إذاعة وصحافة وتلفزيون، لقد عمل أعداء الإسلام على تحرير المرأة... لكن بمن؟! إنهم حرروها من عقيدتها ودينها... حرروها من أخلاقها وحياتها... حرروها من بيتها وأولادها... فانطلقت تكشف ما أمر الله به أن يُستر تراحم الرجل في المصنع والجامعة... في مجتمع أصبح الاختلاط شعاره، والتعاسة مصيره.

(١) راجع كتابنا الديمقراطية في الميزان.

(٢) قال فرويد: «إن الإنسان لا يحقق ذاته بغير الإشباع الجنسي وكل قيد من دين أو أخلاق أو تقاليد هو قيد باطل.. ومدمر لطاقة الإنسان.. وهو كبت غير مشروع..!! لقد أراد هذا اليهودي مجتمعاً بلا دين بلا أخلاق.. بلا عقيدة وتم له ذلك في ظل الحضارة المادية ونظمها الإلحادية.

إن الإسلام هو أملنا الوحيد في التخلص من هذه المعاناة وتلك اللوثة التي تهدد العالم بالدمار الشامل وهو الطريق الوحيد لإصلاح الدنيا مما حل بها من عللٍ وأدواء به نستمطر الرحمة ونستدفع النقمة ونُرْضَى مولانا وخالقنا حكموا إسلامكم ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل .
وطبقوا شرع ربكم ولا تتبعوا سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع،
واسلكوا سبيل الاستقامة وإياكم وصراط المغضوب عليهم والضالين .

الديمقراطية اللوطية تطارد المتطهرين

الديمقراطية لوثة في العقل وانتكاس في الفطرة وطمس في البصيرة ونظام من النظم الأرضية الوضعية الفاجرة، وبينما هي تبيح اللواط والزنى بزعم الحرية الشخصية وتقنن الكفر والإلحاد والزندقة بزعم حرية الرأي والفكر نراها تطارد مظاهر الطهر والعفاف وتحارب معانى الإيمان والتدين بزعم أنه لديمقراطية لأعداء الديمقراطية !!! وكأن هذه الحريات الديمقراطية لا يُسمح بها إلا للمارقين والمفسدين في الأرض !!

فالديمقراطية أشبه شئً بصنم العجوة الذى كان المشركون يصنعونه فإذا جاع الواحد منهم أكله ، وقوم لوط فى سفههم وفجورهم لم يكتفوا بالصدود والإعراض عن دعوة نبيهم، وإنما هددزه بالإخراج من قريتهم ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ {الشعراء: ١٦٧} بل لم يخلصوا في بيان سبب التهديد والطرده والإبعاد فقالوا : ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ {النمل: ٥٦} .

وآل لوط كانوا يتطهرون عن الشرك والكفر ويجتنبون الفواحش والبغى والإثم وصدعوا بالحق فأمروا القوم بالمعروف ونهوه عن المنكر فكان جزاؤهم التهديد بالطرده، وهذا هو منطق الطغيان والإجرام فى كل عصر ووقت .

قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ {إبراهيم: ١٣} وقال سبحانه حاكياً عن فرعون وشيعته : ﴿أَتَدْرِي مَوْسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْأَهْلِيَّةَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ {الأعراف: ١٢٧}

وقال قوم شعيب له: ﴿ولولا رهطك لرجمناك وماأنت علينا بعزير﴾ .

وقال تعالى عن نبينا - عليه الصلاة والسلام :

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ {الأنفال: ٣٠} وقال: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنِينَ﴾ {التوبة: ٤٠} الآية وقال جل وعلا: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ {البروج: ٨} وقد هاجر الصحابة - رضي الله عنهم - مرتين إلى الحبشة ومرة إلى المدينة فراراً بدينهم .

وقد صدق القوم في وصف نبي الله لوط ومن آمن معه بأنهم ﴿أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ {النمل: ٥٦} ولعلمهم قالوا ذلك على سبيل الاستخفاف والاستهزاء والسخرية، بل لانستبعد أن تُستهجن معاني التطهر وتبعث الكلمة على النفرة بعد حين، وخصوصاً عند من سفهت نفسه .

يقول صاحب كتاب منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله جـ (١) ص ١٦٤ مانصه: «إن الذي لاتعرفه عن الطغاة أنهم يقلبون الحقائق، ويلصقون بالدعاة أعمالاً قبيحة، ويزعمون أنهم دعاة إصلاح، أما قوم لوط، فقد قالوها صريحة واضحة مجلجلة: لامقام لمن يتطهر في أرضنا !! ولا تؤمن بشئ اسمه الشرف أو العفة!!» .

إن طغاة عصرنا يشبهون قوم لوط في جوانب كثيرة من أهمها : مطاردة الدعاة إلى الله، وتشجيع دعاة الفاحشة، والتعاون مع المجرمين وتجار المخدرات والخمور، وإسناد أرفع المناصب للملاحدة والمنحرفين والشاذين من الناس ورحم الله من قال :

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد

ويختلف هؤلاء الطغاة عن قوم لوط في جانب واحد، فهم لايسمون الأمور تسمياتها، ولهذا فهم يزعمون بأنهم رواد إصلاح ونهضة، أما الدعاة إلى الله فهم مجرمون وقطاع طرق لم ينفرد قوم لوط بوصف نبيهم لوط ومن آمن به بقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ {النمل: ٥٦} .

فقديماً قال قوم شعيب له : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَمِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧].

ومازلنا نسمع على سبيل الاستخفاف والتقص كلمة: سُنين، حنبلى، الجهاد ... ولايبعد أن يسلك الطغاة والمنحرفون مسالك متعددة و متنوعة فى الصد عن سبيل الله والتنفير من طاعة الله .

تهمة لانفيتها وشرف لاندعيه

أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يتابع الأنبياء والمرسلين فيما كانوا عليه من هدى فقال جل وعلا : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ ﴾ [الأنعام: ٩٠] والامة مأمورة بذلك فى شخص رسول الله ﷺ ، ولذلك فنحن نحسن التأسى، ونقوم بواجب الدعوة إلى الله، ونقول للناس : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٦٥] ونذكركم بما قاله نبي الله لوط - عليه السلام - ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الشعراء: ١٣١] وننهاهم عن الفواحش مآظهر منها وماطن، لايبعد أن نتهم ويقال عنا ﴿ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦] فحيثذ لايسعنا إلا أن نقول: تهمه لانفيتها وشرف لاندعيه، فالواجب علينا أن نتطهر من الدنس دقه وجله ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٨] .

وإذا كان هؤلاء الذين تلبسوا بالشرك والمعاصى يريدون منا أن نخجل من إظهار شعائر الدين، أو أن نتوارى بمعانى الإيمان، فهذا الكيد إنما يزيدنا إصراراً واستمساكاً بدعوتنا، وأن نصدع بما نؤمر ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَئَا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿ [الحجر: ٩٤-٩٥] بل ويكون شأننا كما قال القائل: كن كالشجر يقذف بالحجر فيلقى الثمر .

إن من تعامل مع الله وأخلص أمره لله لايستحشه المدح والثناء كما لايشنيه الاستخفاف والاستهزاء فهو سائر فى طريقه، عمله فى الأرض ونظره فى السماء، عليه البلاغ المبين، وقلوب العباد بيد الله يصرفها كيف يشاء، فضلاً وعدلاً ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

قد يترك الدعاء إلى الله دخول البرلمان ويتجنبون ترويع الأبرياء ولا يتورطون في مسالك الغلو في التكفير، ومع ذلك سيتهمون حتماً لامحالة بأنهم قالوا للناس :
﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ {الاعراف: ٦٥}.

فهنيئاً لهم، فهم على درب الأنبياء يسرون وإلا فما هي تهمة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب . عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام .

وما هي تهمة صاحب يس ومؤمن آل فرعون وأصحاب الأخدود . . .

تهمة تتكرر من مبطلين يصرون على باطلهم فهل يترك أهل الحق دعوتهم !!!

كان أويس بن عامر رحمه الله يقول : نامرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر فيشتموا آباءنا ويسبوا أعراضنا فوالله لاندعهم حتى نقوم بحق الله فيهم .



الخاتمة

دعوة الأنبياء والمرسلين ترسم الطريق لكل من جاء بعدهم في علو الهمة والصدق والإخلاص والتجرد، وشأن نبي الله لوط - عليه السلام - كشأن إخوانه الأنبياء، عندما وجه دعوته لقومه، قال لهم :

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ {الشعراء: ١٠٩} واجه الإساءة بالإحسان، والكفر بالإيمان، والفاحشة وفعل المنكرات بدعوتهم قولاً وفعلاً للتطهر والعفاف فازدادوا غياً وسفهاً وقالوا: ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ {العنكبوت: ٢٩}، وشابهوا في ذلك قريش عندما قالت: ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

{الأنفال: ٣٢} .

وهكذا يحدث الكفر والضلال طمساً للقلب والبصيرة فينحرف اللسان ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ {الحج: ٤٦} ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ {الاسراء: ٧٢} يتخيل ويتصور ممن كان عنده مسكة من عقل فيرجع عن غيه ويسلم وجهه، قبل حلول العذاب ولكن هؤلاء يبدو أن نفوسهم الأمانة بالسوء حدثتهم بأن لوطاً ليس صادقاً ولن يحل بهم عذاب، أو تنزل بهم قارعة، ولن تتغير أحوالهم، وسوف تستمر لهم الأيام كما يريدون، وهنا دعا نبي الله لوط - عليه السلام - ربه ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ {العنكبوت: ٣٠} قالها لوط بعد أن ازدادت جرأة قومه، وتمادوا في فجورهم قالها يشكو ضعف قوته وقلة حيلته وهوانه على قومه، قالها بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة، قالها وهو مؤمن بأن الله لن يتخلى عنه ولن يخذله ولن يضيعه، فلم ترهبه صولة الباطل ولا كثرة أهله ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ {الروم: ٤٧}، ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ {غافر: ٥١}، ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ {المجادلة: ٢١} علق قلبه بالله وأتاب إليه وتوكل عليه، وشابه نبي الله نوح في قوله: ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ {القمر: ١٠} فكيف يشقى أو يهلك مع الدعاء،

بل كانت الإجابة معه، فقد اترفوا أكبر الظلم بكفرهم بالله، وظلموا أنفسهم بفعل الفاحشة والصد عن سبيل الله، وظلموا نبيهم لوط ومن آمن معه وكل ذلك عجل بدمارهم في الدنيا، ثم هم يوم القيامة من المقبوحين المعذبين

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَجِيلٍ مُّنْضُودٍ (٨٢) مَسُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ ﴾ {هود: ٨٢-٨٣}

وقال: ﴿ فَجِئْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ {الشعراء: ١٧٠-١٧٣} لم يكن مطر رحمة وإنما مطر عذاب، طالما استنكفوا عن معاني الرحمة والطهر، وطويت بذلك صفحتهم في الدنيا، وختمت قصتهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ {الشعراء: ١٧٤-١٧٥}

ويقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ {النمل: ٥٩}

وبقيت العظة والعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

كان بعض العلماء يقول: أنتم تنتظرون المطر وأنا أنتظر حلول العذاب . ولم يكن متشائماً، بل رأى مقدمات الشرف فخاف نتائج العذاب .

ونسأل الله أن يجعل صممتنا فكراً ونطقنا ذكراً ونظرنا عبراً، وأن يتوفنا مسلمين ويلحقنا بال صالحين إنه سبحانه ولى ذلك والقادر عليه

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتبه

سعيد عبد العظيم

قصة

سليمان

عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

{آل عمران: ٢: ١٠}.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ {النساء: ١}.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ {الأحزاب: ٧٠}.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

تعيش الأمة فترة عصيبة في تاريخها، تتطلب وقفة صدق، ونصيحة خالصة لإبراء الذمة بين يدي الله، فاليهود وهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا لم يكتفوا بانتزاع الحق من أهله، والاستيلاء على المقدسات في غفلة من أصحابها، بل استطاعوا أن ينتزعوا الإعراف بدولة إسرائيل من المسلمين، وأن يقيموا علاقات طبيعية معهم، ويفرضوا سياسة الأمر الواقع في صورة سلام ذليل مهين، أصبح بمقتضاه، من لا يملك يعطى من لا يستحق.

وقد جاءت هذه الدولة ثمرة لأمر عديدة، فهي ثمرة الجهد اليهودي المنظم، وثمره الأمم المتحدة المشبوهة، وثمره الخيانة لبعض زعماء العرب، وهي ثمرة التآمر الماسوني الصهيوني الذي أقصى السلطان عبد الحميد وجاء بأتاتورك والحرب العالمية الأولى، وهي ثمرة التآمر البريطاني ووعده بلفور، ثم هي انتقام رباني بسبب نسياننا لدينتنا، فما تمكن اليهود من رقابنا إلا بعد أن صار ديننا وراءنا ظهرياً، واستبدلنا شرع الله بنظم وضعية، وأشربنا حب الدنيا وكرهية الموت، فما كان يضيرنا تحالف اليهود مع الأمريكان، إن نحن وثقنا وصلتنا بخالق الأرض والسموات.

﴿وإن تصبروا وتّقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠].

﴿وإن تصبروا وتّقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ [آل عمران: ١٨٦].

﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة: ٢١].

و من كان الله معه فمن عليه، معه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل .

﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ [النحل: ١٢٨].

ولكن ضيعنا أمر الله، فتلاعب بنا أعداء الإسلام، وصرنا كاليستيم على موائد اللثام، فالتقوى زائلة، والصبر ضعيف، والضعفاء مهملون، وهل تصرون وترزقون إلا بضعفائكم .

والمتبع للأحداث يجد أن اليهود لا يكتفون باغتصاب فلسطين، بل يسعون جاهدين لإقامة الدولة اليهودية العالمية، التي تمتد من النيل إلى الفرات، وتكون عاصمتها القدس، فقد عقدوا مؤتمر بال بسويسرا عام ١٨٩٧م بزعامه الصحفي اليهودي هرتزل، وطالبوا في هذا المؤتمر بإقامة هذه الدولة، وحددوا عام ١٩٤٧م لإقامة الوطن القومي في فلسطين، كما تم تحديد عام ١٩٩٧م لإقامة الدولة العالمية .

وهم يبنقون في تصوراتهم من التوراة المحرفة، و التلمود الذي كتبه بأيديهم، كما يصدرون عن بروتوكولات حكماء صهيون، فهي دولة عقائدية في نشأتها وأهدافها وتوسعاتها، والعلم المرفوع عليها وتصريحات ساستها وزعمائها، عقائدية في حربها وسلمها .

وقد جرت محاولات عديدة لهدم المسجد الأقصى، وكان آخرها شق ما يسمى بنفق البراق تحت المسجد تمهيداً لهدمه لإقامة هيكل سليمان على أنقاضه، وحتى يصبح الحلم بإقامة دولة إسرائيل الكبرى واقعا ملموسا ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

فمن هو سليمان الذي يحرص اليهود على إقامة هيكله؟ وما هي قصته؟ وهل يسلم لهم هذا الادعاء؟

هذا ما نحاول أن نجيب عليه، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

كتبه

سعيد عبد العظيم

نسب سليمان عليه السلام

هو سليمان بن داود من سبط يهوذا بن يعقوب، وينتهي نسبه إلى إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ويعقوب هو المسمى «إسرائيل» عليه السلام، وهو أحد الرسل الذين نزلت عليهم الكتب السماوية بعد موسى عليه السلام، أما داود فقد أعطاه الله الزبور كما قال تعالى: ﴿وَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾

{الإسراء: ٥٥}.

وجمع له سبحانه وتعالى بين النبوة والملك، وأعطاه خيري الدنيا والآخرة، فكان نبيا ملكا كما كان ولده سليمان عليه السلام .

وقد كان نبى الله سليمان عليه السلام عظيم الحكمة، ولذلك يسميه أهل الكتاب «سليمان الحكيم» ولا يلقبونه بالنبى أصلاً

ذكره فى القرآن

ذكر اسم سليمان عليه السلام فى ست عشرة آية، ووردت قصته فى مواضع كثيرة من كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ {البقرة: ١٠٢}.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ {النساء: ١٦٣}.

وقال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

{الأنعام: ٨٤}.

وقال جل وعلا: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ {الأنبياء: ٧٨-٧٩}.

وقال : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿﴾ [الأنبياء : ٨١-٨٢] .

وقال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (١٦) وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَنُوتَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿﴾ [النمل : ١٥-١٩] .

وقال عز وجل : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوًّا شَهَرَ وُورًا حَاهَا شَهْرٌ وَأَسَنَّا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَنْزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُنْذِرْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَاثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ سُكْرًا وَقَلِيلًا مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١٣) فَلَمَّا قُضِيَنا عَلَيْهِ الْمَوْتُ مَا دَلَّهِمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿﴾ [سبأ : ١٢-١٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِداوودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٣٠) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ (٣٢) رَدُّوْهَا عَلَيَّ فَفُطِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (٣٦) وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ ﴾ (٣٧) وَآخِرِينَ مَقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ ﴿﴾ [ص : ٣٠-٤٠] .

ثناء القرآن عليه

جمع الله تبارك وتعالى لنبيه سليمان عليه السلام بين الملك والنبوة، كما جمعها لوالده داود عليه السلام، وكان ملكه واسعا وسلطانه عظيما، وقد أثنى عليه سبحانه وتعالى في عدة مواضع من كتابه فوصفه بأنه من عباده المحسنين .

قال تعالى : ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٤].

وأثنى عليه بالعلم والفهم والحكمة فقال : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

ووصفه سبحانه بأنه من عباده الشاكرين فقال : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [سبأ: ١٣].

وقد حقق سليمان مقام العبودية فكان نعم العبد المطيع لربه، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠] الأواب : هو المطيع ولما كان الجزاء من جنس العمل أثابه سبحانه، وجعل له المكانة العالية عنده فقال : ﴿ وَإِن لَّهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ ﴾ [ص: ٤٠].

وراثه سليمان لداود في الملك

والنبوة لا في المال

قال تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ ﴾ [النمل: ١٦] هي وراثه الحكم والنبوة، لا وراثه المال إذ أن الأنبياء لا تورث، وما تركوه صدقة كما صح الخبر بذلك .

قال ابن كثير: أى ورثه فى النبوة والملك، وليس المراد ورثه فى المال لأنه كان له بنون غيره، وفى الحديث الشريف: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه»^(١) صدقة فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم بل تكون أموالهم صدقة على الفقراء اهـ .

(١) مسلم (١٧٥٧) ، أحمد (٢٥٧٢٨).

قال الكلبي: كان لداود عليه السلام تسعة عشر ولداً، فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه، ولو كانت وراثته مال لكان كل أولاده فيه سواء.

وقال ابن العربي قال: فلو كانت وراثته مال لانقسمت على العدد، فخص الله سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبوة، وزاده من فضله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، ولا يجوز القول بأن الوراثة كانت في المال بالنسبة لنبي الله سليمان أو غيره من الأنبياء عليهم السلام لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنا معشر الأنبياء لا نورث»^(١)

قال القرطبي: فهو عام ولا يخرج منه شيء إلا بدليل، ونقل قول مقاتل: كان سليمان أعظم ملكاً من داود وأفضى منه، وكان داود أشد تعبداً من سليمان.

قال غيره: ولم يبلغ أحد من الأنبياء ما بلغ ملكه، فإن الله سبحانه وتعالى سخر له الإنس والجن والطير والوحش، وآتاه ما لم يؤت أحداً من العالمين، وورث أباه في الملك والنبوة، وقام بعده بشريعته، وكل نبي جاء بعد موسى ممن بعث أو لم يبعث فإنما كان بشريعة موسى إلى أن بعث المسيح عليه السلام ففسخها.

بين العبد الرسول والنبي الملك

النبوة اصطفاً واجتباءً، لا تنال بالكسب والإجتهد، بل هي نعمة إلهية.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

وقد أجمعت الأمة على تفضيل الأنبياء على غيرهم من الصديقين والشهداء والصالحين، والأنبياء يتفاضلون ويتفاوتون فيما بينهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] وقد أجمعت الأمة على أن الرسل أفضل من الأنبياء، وهم كذلك يتفاضلون فيما بينهم قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

(١) رواه مالك والبخاري ومسلم وأبي داود من حديث عائشة رضي الله عنها، ومسلم وأبي داود والنسائي من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

وأفضل الرسل والأنبياء خمسة: محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام - وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل: ﴿فأصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

والمشهور عند العلماء أن النبي يوحى إليه ولا يؤمر ببلاغ، فإن كلفه الله تعالى بإبلاغ وحيه إلى الناس يكون نبيا رسولا .

والتميز بين الأنبياء قد يحدث برفع درجة من فضل منهم أو باجتهاده في عبادة الله والدعوة إليه، وقيامه بالأمر الذي وكل إليه أو بإعطائه خيرا لم يعطه غيره .

والتميز قد يكون لأسباب أخر، فالنبي قد يكون نبيا لا غير، وقد يكون نبيا ملكا، وقد يكون عبداً رسولاً .

فى ذلك يقول ابن تيمية: فالنبي الذى كذب ولم يتبع ولم يطع، هذا نبى وليس بملك، أما الذى صدق واتبع، وأطيع، فإن كان لا يأمر إلا بما أمره الله به فهو عبد نبى ليس بملك، وإن كان يأمر بما يريد مباحا له فهو نبى ملك، كما قال الله لسليمان: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩].

فالنبي الملك هنا قسيم العبد الرسول، كما قيل للنبي ﷺ: «إختر إما عبداً رسولاً، وإما نبياً ملكاً»^(١)

وحال العبد الرسول أكمل من حال النبى الملك، كما هو حال نبينا محمد ﷺ، فإنه كان عبدا رسولا، مؤيدا مطاعا متبوعا، وبذلك يكون له مثل أجر من اتبعه، ويتنفع به الخلق، ويرحموا به، ويرحم بهم، ولم يختر أن يكون ملكا، لئلا ينقص لما فى ذلك من الاستمتاع بالرياسة والمال عن نصيبه فى الآخرة، فالعبد الرسول أفضل عند الله من النبى الملك، ولهذا كان أمر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم أفضل عند الله من داود وسليمان ويوسف . اهـ .

(١) رواه أحمد (٧١٢٠)، ورواه ابن حبان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه والطبراني بإسناد حسن، البيهقي في الزهد من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

بعض مظاهر النعمة وصور المنة

على سليمان عليه السلام

ورث سليمان داود في العلم والنبوة والخلافة في الأرض، وبالإضافة إلى ذلك فقد أكرمه الله تعالى بنعم عظيمة، وخصه بمزايا عديدة، ومنز كبيرة، ومن جملة ذلك:

أولاً: آتاه الله الحكمة علي حداثة سنه

قال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿﴾ [الأنبياء: ٧٨-٨٨].

ذكر المفسرون: أن زرعاً دخلت فيه غنم لقوم ليلاً فأكلته وأفسدته، فجاء المتخاصمون إلى داود وعنده سليمان، وقصوا عليه القصة فحكم داود بالغنم لصاحب الزرع عوضاً عن حرثه الذي أتلفته الغنم ليلاً، فلما خرج الخصمان على سليمان وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم وهو ابن إحدى عشرة سنة فقال: بم قضى بينكما نبي الله داود؟

فلما علم قال: انصرفا معي، فأتى أباه فقال: يا نبي الله إنك حكمت بكذا وكذا، وإنى رأيت ما هو أرفق بالجميع. قال: وما هو؟ قال: ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فيتفجع بالبانها وسمونها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرع إلى حاله التي أصابته الغنم في السنة المقبلة، رد كل واحد منهما ماله إلى صاحبه. فقال داود: وفقت يا بني لا يقطع الله فهمك، وقضى بما قضى به سليمان، قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما.

قال الكلبي: قوم داود الغنم والكرم الذي أفسدته الغنم فكانت القيمتان سواء، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم.

وهكذا قال النحاس، وأما في حكم سليمان فقد قيل: كانت قيمة ما نال من الغنم وقيمة ما أفسدت الغنم سواء أيضاً.

ومما يدل على حكمة سليمان، وجودة رأيه في الحكم والقضاء، ما ورد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما، فتنازعتا في الآخر، فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك، وقالت الصغرى: بل إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود فحكم به للكبرى، فخرجتا على سليمان، فقال: اتوني بسكين أشقه بينكما نصفين لكل واحدة منكما نصفه، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به لها»^(١) وذلك لما رأى الصغرى تندفع بعاطفة الأمومة تجاه الصبي، بينما سكتت الكبرى ولم تهتم.

اجتهاد الأنبياء

يجوز للأنبياء الإجتهد في الوقائع التي تعرض عليهم، وهم يحكمون وفق ما يبدو لهم، طالما لم ينزل الوحي في هذه الواقعة، وهذا قول المحققين من العلماء، فإذا حدث خطأ في إصابة الحق نهوا عليه.

ومن ذلك عدم إصابة نبي الله داود في الحكم، وتوفيق الله لإبنه سليمان في تلك المسألة.

ومن ذلك سؤال المرأة لرسول الله ﷺ عن العدة فقال لها: «اعتدى حيث شئت» ثم قال لها: «إمكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله»^(٢)

وقال له رجل: «أرأيت إن قتلت صابراً محتسباً أيحجزني عن الجنة شيء؟» فقال: «لا» ثم دعاه فقال: «إلا الدين كذا أخبرني جبريل عليه السلام»^(٣)

ومن ذلك قبول النبي ﷺ الفداء من أسرى بدر ونزول قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّىٰ يَشْخَرَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وروت أم سلمة زوج النبي ﷺ أن النبي ﷺ سمع خصومة بيباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: «إنما أنا بشر، وإنه يأتييني الخصم، فلعل بعضكم أن

(١) رواه الشيخان والنسائي.

(٢) رواه الترمذي (١٢٠٤) ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث الفريعة بنت مالك.

(٣) رواه أحمد والبخاري من حديث جابر بن عبد الله.

يكون الحن بحجته من بعضهم، فأحسب أنه صادق، فأقضى له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها. (١)

وفي هذا الحديث دليل على أن الأنبياء قد يخطئون في إصابة الحق في القضاء.

اجتهاد العلماء والقضاة

روى مسلم وغيره عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ قال : «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر» (٢)

وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الحكم قبل الإجتهد، وقال الأصوليون: يجب على المجتهد أن يجدد النظر عند وقوع النازلة ولا يعتمد على اجتهاده السابق.

وإنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالماً بالإجتهد والسنن والقياس، وقضاء من مضى، فأما من لم يكن محلاً للإجتهد فهو متكلف لا يعذر بالخطأ في الحكم، بل يخاف عليه أعظم الوزر .

قال ابن المنذر: إنما يؤجر على اجتهاده في طلب الصواب لا على الخطأ، ومما يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

قال الحسن: أثنى على سليمان ولم يذم داود.

وقال أيضا : لولا هذه الآية لرأيت القضاة هلكوا، ولكنه أثنى على سليمان صوابه، وعذر داود باجتهاده.

وحكى ابن القاسم أنه سأل مالكا عن اختلاف الصحابة، فقال: مخطئ ومصيب، وليس الحق في جميع أقاويلهم.

وهذا قول أكثر الفقهاء، أن الحق في واحد من أقاويل المجتهدين، فهم يقولون: ما الحق إلا واحد، والمخطئ مأجور على اجتهاده وبذله وسعه، فإذا أصاب الحكم كان له أجران، أجر على اجتهاده وأجر على إصابته الحق، ولا يصح القول بأن كل مجتهد مصيب.

(١) رواه البخاري (٢٤٥٨) ورواه مالك ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦) ، وأبو داود من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

ثم حكم الحاكم وقضاء القاضى وفتوى المفتى لا تجعل الحرام حلالا ولا الحلال حراما، ويجب على القاضى أو المجتهد الرجوع عما حكم به إذا تبين له الحق فى غيره، وقد يما قالوا: وما كل خلاف جاء معتبرا، فهناك خلاف سائغ معتبر، لا يفسد للود قضية، كاختلاف الصحابة فى الصلاة فى بنى قريظة فقد تخوف ناس فوت الوقت فصلوا دون بنى قريظة، وقال الآخرون: لا نصلى إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت، قال عمر رضي الله عنه فما عنف النبي ﷺ واحدا من الفريقين.

وكانوا يتناظرون فى المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والأخوة الإيمانية، أما من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة خلافا لا يعذر فيه، فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية .

القول فى الحرث والحكم فى هذه الواقعة فى شرعنا

عمل جمهور الأئمة بحديث البراء: «أن ناقة للبراء دخلت حائط رجل فأفسدت فيه، فقاضى رسول الله ﷺ أن على أهل الحوائط البساتين حفظها بالنهار، وان ما أفسدت المواشى بالليل ضامن مضمون على أهلها» (١).

قال أبو عمر: وهذا الحديث وإن كان مرسلا، فهو حديث مشهور أرسله الأئمة وحدث به الثقات، واستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقبول، وجرى فى المدينة العمل به، وحسبك باستعمال أهل المدينة وسائر أهل الحجاز لهذا الحديث. ١. هـ.

وقد فرق الحديث بين الإلتاف الحاصل بالليل والنهار، وذلك أن أهل المواشى لهم ضرورة إلى إرسال مواشيهم ترعى بالنهار، والأغلب عندهم أن من عنده زرع يتعهده بالنهار، ويحفظه عمن أراده، ففجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزروع، لأنه وقت التصرف فى المعاش. فإذا جاء الليل ورد أهل المواشى مواشيهم إلى مواضعهم ليحفظوها، فإذا فرط صاحب الماشية فى ردها إلى منزله، أو فرط فى ضبطها وحبسها عن الإنتشار بالليل حتى أتلفت شيئا، فعليه ضمان ذلك.

(١) رواه أبو داود من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

من وتين هذا يتضح أن على أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم وزروعهم بالنهار، ثم الضمان في المثل بالمثلات، وبالقيمة في ذوات القيم.

ذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الشعبي «أن شاة وقعت في غزل حائك فاختموا إلى شريح، فقال الشعبي: انظروه فإنه سبألهم ليلا وقعت فيه أو نهارا، ففعل ثم قال: إن كان بالليل ضمن، وإن كان بالنهار نم ضمن، ثم فرأ شريح: ﴿إِذْ نَفَسْتُمْ فِيهِ غَمِّ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٨] قال: والنفس بالليل والهمل بالنهار.

اللهم يا مفهم سليمان فهمنا، فالفهم نعمة

ذكر الإتيام ابن القيم مراتب الهداية أثناء تفسيره لسورة الفاتحة، فأوصلها إلى عشرة مراتب وهي بإختصار:

- (١) ترتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة .
- (٢) ترتبة الوحي المختص بالأنبياء .
- (٣) إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشرى .
- (٤) ترتبة التحديث، وهذه دون ترتبة الوحي الخاص وتكون دون ترتبة الصديقين، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه .
- (٥) ترتبة الإفهام .
- (٦) ترتبة البيان العام .
- (٧) البيان الخاص .
- (٨) الإسماع .
- (٩) ترتبة الإلهام .
- (١٠) الرؤيا الصادقة .

فاعتبر الإتيام ترتبة الإفهام هي الخامسة وسط تراتب الهداية تستدلا بقوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمِّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمْنَا آتِينَ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿[الأنبياء: ٧٨-٧٩] .

قال ابن القيم : فذكر هذين النبيين الكريمين ، فأثنى عليهما بالعلم والحكم ، وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة .

وقال على بن أبي طالب وقد سئل : «هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟» فقال : «لا ، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهما يؤته الله عبداً في كتابه ، وما في هذه الصحيفة ، وكان فيها العقل ، وهو الديات وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر» . (١)

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه : «والفهم فيما أدلى إليك» .

فالفهم نعمة من الله على عبده ، ونور يقذفه الله في قلبه ، يعرف به ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه ، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره ، مع استوائهما في حفظه وفهم أصل معناه .

قالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية ، ومنشور الولاية النبوية ، وفيه تفاوت مراتب العلماء ، حتى عد ألف بواحد .

فانظر إلى فهم ابن عباس وقد سأله عمر ، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] . وما خص به ابن عباس من فهمه منها : أنها نعى الله سبحانه نبيه إلى نفسه ، وإعلامه بحضور أجله ، وموافقة عمر له على ذلك ، وخفائه عن غيرهما من الصحابة ، وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنا . وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله؟! لولا الفهم الخاص .

ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس فيحتاج مع النص إلى غيره ، ولا يقع الإستغناء عن النصوص في حقه ، وأما في حق صاحب الفهم فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها . هـ .

اللهم يا معلم إبراهيم الخير علمني ويا مفهم سليمان فهمني .

(١) رواه البخاري والترمذي والنسائي عن علي ، وبنحوه لأبي داود والنسائي عن علي رضي الله عنه .

ثانياً: تسخير الريح لسليمان

قال تعالى : ﴿ وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨١].

أى وسخرنا لسليمان الريح فى حال كونها عاصفة أى شديدة الهبوب، وكانت تجرى بأمره - عليه السلام - .

وقد بين سبحانه فى غير هذا الموضع وزاد بيان قدر سرعتها، وذلك فى قوله : ﴿ وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوهاً شَهْرٌ وَرَوَّاحهاً شَهْرٌ ﴾ [سبأ: ١٢] وقوله : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَاب ﴾ [ص: ٣٦].

فتسخير الريح لسليمان من نعم الله عليه، حيث كانت تنقله إلى أى أطراف الدنيا شاء، وتقطع به المسافات الشاسعة البعيدة فى وقت يسير .

قال الحسن : كان يغدو من دمشق فينزل باصطخر فيستغدى، ويذهب رائحا منها فيبيت بكابل، وبين دمشق واصطخر مسيرة شهر، وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر .

وذكر ابن كثير : أنه كان له بساط تحمله الريحو فيه الدورَ المبنية والخيام والأمتعة والخيول والجمال والرجال وغير ذلك من الحيوانات والطيور، فإذا أراد سفر حملته الريح .

والأرض التى بارك ربنا فيها هى الشام، ويروى أنها كانت تجرى به وبأصحابه إلى حيث أراد ثم ترده إلى الشام .

وما ورد فى النصوص، وقاله العلماء فى تسخير الريح، لا يبعد، فإن الله قادر على كل شئ لا يعجزه شئ، والرياح مأمورة، تسير وفق أمر ربها، والمعجزات والكرامات ثابتة، وضابطها الإستقامة .

وبذلك فرق أهل السنة والجماعة بين الكرامة الرحمانية، وبين الخارقة الشيطانية، فمن كان مستقيماً على شرع الله لا يبعد أن يطير فى الهواء أو أن يمشى على الماء، وشواهد ذلك كثيرة .

الجمع بين كون الريح عاصفة ورخاء وبين كونها تجري إلى الأرض المباركة وحيث أصاب

وصف الله الريح في سورة الأنبياء بأنها عاصفة، أى شديدة الهبوب، ووصفها في سورة «ص» بأنها تجري بأمره رخاء، وقد أجيب على ذلك بأنها عاصفة في بعض الأوقات، ولينة رخاء في بعضها بحسب الحاجة، كأن تعصف ويشد هبوبها في أول الأمر حتى ترفع البساط الذى عليه سليمان وجنوده، فإذا ارتفع سارت به رخاء حيث أصاب.

أو أنها كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة، على ما قال: ﴿عُدُّوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحَهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢] فكان جمعها بين الأمرين: أن تكون رخاء في نفسها، وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان.

وقد خص سبحانه جري الريح بسليمان إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين، وذلك في سورة الأنبياء، وفي سورة «ص» قال: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِ رُخَاءٍ حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] ولا تعارض فقد كانت تجري بأمره حيث أراد من أقطار الأرض ثم ترده إلى الشام لأن مسكنه فيها، وهى الأرض المباركة المذكورة فى سورة الأنبياء، ذكر معناه الشنقيطى والقرطبى وغيرهما.

معجزات لرسول الله ﷺ مماثلة

لمعجزات نبي الله سليمان

ما من معجزة ثابتة لنبي من الأنبياء إلا وقد ثبت ما هو أعظم منها لرسول الله صلوات الله سلام عليهم أجمعين، ومن ذلك تسخير الريح لسليمان.

يقول ابن كثير فى «شمائل الرسول ﷺ» ص ٥٥٧: أما تسخير الريح لسليمان فقد قال الله تعالى فى شأن الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

وقد تقدم في الحديث الذي رواه مسلم من طريق شعبة عن الحاكم عن مجاهد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «نُصرت بالصبأ، وأهلكت عاد بالدبور»^(١) ورواه مسلم من طريق الأعمش عن مسعود بن مالك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ مثله، وثبت في الصحيحين: «نُصرت بالرعب مسيرة شهر»^(٢).

ومعنى ذلك أنه ﷺ كان إذا قصد قتال قوم من الكفار ألقى الله الرعب في قلوبهم قبل وصوله إليهم بشهر، ولو كان مسيرة شهراً .

فهذا في مقابلة: ﴿ غَدُوهاَ شَهْرٌ وَرَوَّاحُهاَ شَهْرٌ ﴾ [سبأ: ١٢] بل هذا أبلغ في التمكين والنصر والتأييد والظفر، وسخرت الرياح تسوق السحاب لإنزال المطر الذي امتن الله به حين استسقى رسول الله ﷺ في غير ما موطن كما تقدم .

وقال أبو نعيم: فإن قيل: فإن سليمان سخرت له الرياح، فسارت به في بلاد الله، وكان غدوها شهر ورواحها شهراً، قيل: ما أعطى محمد ﷺ أعظم وأكبر، لأنه سار في ليلة واحدة من مكة إلى بيت المقدس مسيرة شهر، وعُرج به في ملكوت السموات مسيرة خمسين ألف سنة، في أقل من ثلث ليلة، فدخل السموات سماءً سماءً، ورأى عجائبها، ووقف على الجنة والنار، وعُرض عليه أعمال أمته، وصى بالأنبياء وبملائكة السموات، واخترق الحُجب، وهذا كله في ليلة قائماً، أكبر وأعجب اهـ .

ثالثاً: تسخير الجن لسليمان

وهذه نعمة بينة، ذكرها سبحانه في موضع الإمتان علي نبيه سليمان فقال: ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يُغْوِصونَ لَهُ وَيَعْمَلونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُم حَافِظِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

أى أنه سبحانه سخر لسليمان من يغوصون له من الشياطين، أى يغوصون له في البحار فيستخرجون له منها الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان.

(١) رواه البخاري (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠)، أحمد (١٩٥٦).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥). مسلم (٥٢١) النسائي (٤٣٢)، أحمد (٢٧٣٧).

والغوص: النزول تحت الماء، والغواص: الذى يغوص البحر ليستخرج منه اللؤلؤ ونحوه، وقد ذكر جل وعلا فى هذه الآية الكريمة أيضاً أن الشياطين المسخرين له يعملون له عملاً دون ذلك، أى سوى ذلك الغوص المذكور، أى كبناء المدائن والقصور، وعمل المحارِبِ والتماثيل والجفان والقدور الراسيات، وغير ذلك من اختراع الصنائع العجيبة.

وقوله فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أى من أن يزيغوا عن أمره أو يبدلوا أو يغيروا، أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه، وهذه المعانى التى تضمنتها هذه الآية الكريمة، جاءت مبينة فى غير هذا الموضع، كقوله فى الغوص والعمل سواء: ﴿والشياطين كل بناء وغواص﴾ الآية، وقوله فى العمل غير الغوص: ﴿ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه﴾ وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَاثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾، كقوله فى حفظهم ممن أن يزيغوا عن أمره: ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢] وقوله: ﴿وَأَخْرَيْنَا مَقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٨].

هذا التسخير لم يكن لأحد إلا سليمان

لم يكن تسخير الجن لأحد من الأنبياء غير سليمان - عليه السلام - وهذه نعمة كبيرة فقد سُخِّرَ له الشياطين تعمل ما يشاء من محارِبِ وتماثيل، وجفان كالجواب، وقدور راسيات فمن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة، أو كلمة نحوها، ليقطع على الصلاة فأمكننى الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى يصبحوا وينظروا إليه، فذكرت دعوة أخى سليمان: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يُبَغِي لَأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾

[ص: ٣٥].

قال روح: فرده الله خاسئاً^(١) ولمسلم عن أبى الدرداء نحوه، قال: «ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح يلعب به ولدان أهل المدينة».

(١) البخاري (٤٦١)، مسلم (٥٤١)، أحمد (٧٩٠٩).

وقد روى الإمام أحمد بسند جيد عن أبي سعيد «أن رسول الله ﷺ قام يصلى صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: لو رأيتموني وإبليس، فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين، الإبهام والتي تليها، ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان أهل المدينة».

معجزات مماثلة لرسول الله ﷺ

أنزل الملائكة^(١) المقربين لنصرة عبده ورسوله ﷺ في غير ما موطن، يوم أحد ويوم الأحزاب ويوم حنين، وذلك أعظم وأبهر، وأجل وأعلى من تسخير الشياطين، وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسائيد أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وصُفدت الشياطين»^(٢) وفي رواية: «مردة الجن»، فهذا من بركة ما شرعه الله له من صيام شهر رمضان وقيامه، ومن ذلك دعاء رسول الله ﷺ لغير ما واحد ممن أسلم من الجن فشفى، وفارقهم خوفاً منه ومهابة له، وامثالاً لأمره صلوات الله وسلامه عليه.

وقد بعث الله نقرأ من الجن يستمعون القرآن فأمنوا به وصدقوه، ورجعوا إلى قومهم فدعاهم إلى دين محمد ﷺ وحذروهم مخالفته، لأنه كان مبعوثاً إلى الإنس والجن، فأمنت طوائف من الجن كثيرة، ووفدت إليه منهم وفود كثيرة، وقرأ عليهم سورة الرحمن، وأخبرهم بما لمن آمن منهم من الجنان، وما لمن كفر من النيران، وشرع لهم ما يأكلون، وما يطعمون دوابهم^(٣) فدل على أنه بين لهم ما هو أهم من ذلك وأكبر.

وقد امتنعت الغول كل الإمتناع خوفاً من المثل بين يديه ﷺ، وكانت الغول تسرق التمر من جماعة من أصحابه ﷺ، وأرادوا إحضارها إليه، ثم افتدت منهم بتعليمهم قراءة آية الكرسي التي لا يقرب قارئها الشيطان^(٤).

(١) شمائل الرسول ﷺ لابن كثير.

(٢) رواه مسلم (١٠٧٩) ومالك في الموطأ والنسائي من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

(٣) قصة وفود الجن وسماعهم القرآن رواها مسلم والترمذي وأبو داود من حديث ابن مسعود رضى الله عنه.

(٤) الترمذي من حديث أبو أيوب رضى الله عنه والبخاري من حديث أبي هريرة رضى الله عنه.

والغول هي الجن المبتدى بالليل في صورة مرعبة .

ومن ذلك حماية جبريل له عليه الصلاة والسلام غير مرة من أبي جهل^(١)، ومقاتلة جبريل وميكائيل عن يمينه وشماله يوم أحد^(٢)

حكم استخدام الجن

بعض الناس قد يتوصل للتعامل مع الجن، ومنهم من يسلك المسالك المحرمة في سبيل ذلك كمناداة الغائب، وتعلق القلب بالجنى من دون الله في جلب النفع ودفع الضر .

وقد يحصل طاعة من الجن لأحد من الإنس فلا يكون على سبيل التسخير، وإنما برضى الجنى .

وهذا الأمر على صور ذكرها ابن تيمية فقال :

«فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه، ويأمر الإنس بذلك، فهذا من أفضل أولياء الله تعالى، وهو في ذلك من خلفاء الرسول ﷺ ونوابه .

من كان يستعمل الجن في أمور مباحة له فهو كمن استعمل الإنس في أمور مباحة له، وهذا كأن يأمرهم بما يجب عليهم وينهاهم عما حُرِّم عليهم ويستعملهم في مباحات له، فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك، وهذا إذا قُدِّرَ أنه من أولياء الله، فغايته أن يكون في عموم أولياء الله مثل النبي الملك مع العبد الرسول كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ومن كان يستعمل الجن فيما ينهى الله عنه ورسوله إما في الشرك، وإما في قتل معصوم الدم أو في العدوان عليهم بغير القتل كتمريضه وإنسائه العلم وغير ذلك ومن الظلم، وإما في فاحشة كجلب من يطلب منه الفاحشة، فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان .

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه الشيخان من حديث سعد رضي الله عنه .

ثم إن استعان بهم على الكفر فهو كافر، وإن استعان بهم على المعاصي فهو عاص : إما فاسق، وإما مذنب غير فاسق، وإن لم يكن تام العلم بالشريعة، فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات مثل أن يستعين بهم على الحج، أو يطيروا به عند السماع البدعي، أو أن يحملوه إلى عرفات، ولا يحج الحج الشرعى الذى أمره الله به ورسوله، وأن يحملوه من مدينة إلى مدينة، ونحو ذلك فهذا مغرور قد مكروا به اهـ.

هل صنعوا لسليمان التماثيل المحرمة؟

وهل يجوز التصوير؟

قال تعالى : ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ {سبأ: ١٣} .

والحروب : هو المكان المرتفع المعظم أو هو الموضع الذى يُصلى فيه .

قال مجاهد : المحارِب دون القصور .

والتماثيل : هو كل ما صُوّر على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان، وقيل : كانت من زجاج ونحاس ورخام تماثيل أشياء ليست بحيوان وقيل غير ذلك .

وجفان كالجواب، قال مجاهد : كحياض الإبل، أو الحفرة الكبيرة تكون فى الجبل فيها ماء المطر .

وقدور راسيات : هى قدور النحاس أو قدور تُعمل من الجبال .

ولا يجوز لأحد الإستدلال بهذه الآية لإباحة التماثيل والتصاوير، إذ يحتمل أن تكون التماثيل لغير ذوات الأرواح، وعلى افتراض أنها لذوات الأرواح، فهذا شرع من قبلنا ولا يجوز العمل به طالما خالف شرعنا حتى قال ابن عطية عن التصوير : « وما أحفظ عن أحد من أئمة العلم من يجوزه، وذكر النووى فى شرحه لصحيح مسلم، أن قول جماهير العلماء سلفاً وخلفاً على حرمة تصوير ما لا ظل له » .

ويستدل على حرمة التصوير وصناعة التماثيل بعدة استدلالات منها :

{١} عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة » (١).

ويباح من ذلك ماله مصلحة راجحة كالبطاقات وجوازات السفر والتصوير للطب والجغرافيا وتعقب المجرمين... أما ما كان للذكرى وما شابه ذلك فلا يجوز .

{٢} روت عائشة رضي الله عنها: «أنها نصبت ستراً فيه تصاوير، فدخل رسول الله ﷺ فنزعه» (٢) وعنهما: «أنه ﷺ لم يكن يترك في بيته شيئاً فيه تصاوير إلا نقضه» (٣).

وهذا يعم التصاوير المرسومة باليد أو الملتقطة بالفوتوجراف، وسواء كانت معلقة على الجدران أو في الثياب أو في الألبومات...

وعن علي رضي الله عنه: « أن النبي ﷺ أمره أن لا يدع صورة إلا طمسها » (٤)

{٣} روى الدارقطني وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الله إذا حرم شيئاً حرم ثمنه » وورد النهي عن ثمن الأصنام، ولذلك قال أهل العلم: إن بيع الصور منهى عنه وثمرتها حرام.

{٤} في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه - قال: سمعت النبي ﷺ يقول: « إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون » (٥) وفيه حديث ابن عمر وأبي هريرة، والأحاديث في تحريم التصوير كثيرة، ولفظ المصورون يشمل جميع أنواع التصوير، وقد استثنى بعض أهل العلم لعب البنات لأن أم المؤمنين عائشة كان عندها لعب البنات وحصان له جناحين .

(١) رواه البخاري (٥٩٥١)، مسلم (٢١٠٨)، النسائي (٥٣٦١)، أحمد (٥٧٣٣).

(٢) رواه مسلم (٢١٠٧)، النسائي (٥٣٥٥).

(٣) رواه البخاري (٥٩٥٢) في اللباس. بلفظ «تصاليب» بدلاً من تصاوير

(٤) رواه مسلم (٩٦٩) في الجنائز وأبو داود (٣٢١٨) في الجنائز. والترمذي (٤٩) في الجنائز

(٥) رواه البخاري (٥٩٥) في اللباس. ومسلم (٢١٠٩) في اللباس والزينة

قال المُرزني عن الشافعي : إن دُعِيَ رجل إلى عرس فرأى صورة ذات روح أو صوراً ذات أرواح، لم يدخل إن كانت منصوبة، وإن كانت توطأ فلا بأس، وإن كانت صور شجر.

رابعاً : أسأل الله له عين القطر

والقطر : هو النحاس المذاب، قيل : كان النحاس يتدفق له مذاباً من عين خاصة كتدفق الماء، فيصنع منه ما شاء، قال تعالى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ {سبأ: ١٢}.

قال ابن عباس رضي الله عنهما ما في تفسير القطر : بأنه النحاس، وعين القطر كانت باليمن أنبعها الله له، فكان يأخذ منها ما يحتاج إليه للبنيات وغيرها.

وقال البعض : ولعل ذلك كان في أرض بركانية.

وهذه معدودة ضمن نعم الله على عبده سليمان، وقد وردت عقب ذكر تسخير الريح له قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ غَدُوهاَ شَهْرٍ وَرَوَّاحُهاَ شَهْرٍ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ {سبأ: ١٢} فكما أن الله لأبيه داود الحديد ﴿ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ {سبأ: ١٠} فقد أسأل له سبحانه النحاس .

خامساً : تعليمه منطق الطير

كان من نعم الله على سليمان، أن علمه منطق الطير، وسائر لغات الحيوان، فكان يفهم ما تقول وربما تحدث معها كما كان الأمر مع الهدهد والنملة . . .

قال تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهاَ النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ {النمل: ١٦} ومن المعلوم أن النمل أمة والكلاب أمة . . . وما من أمة من هذه الأمم إلا وبينها لغة تخاطب ووسائل تفاهم، أودع ذلك فيها الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى، وقد أطلع سبحانه نبيه سليمان - عليه السلام - على منطق الطير كرامة له بل قال ابن العربي : من قال إنه لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان عظيم، وقد اتفق الناس على أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم ويخلق له فيه القول من النبات، فكان كل نبت يقول له : أنا شجر كذا، أنفع من كذا وأضر من كذا فما ظنك بالحيوان اهـ .

طرائف وعجائب ونصائح مهداة من الطير

قال مقاتل : كان سليمان جالساً ذات يوم إذ مر به طائر يطوف، فقال لجلسائه: أتدرون ما يقول هذا الطائر؟ إنها قالت لى : السلام عليك أيها الملك المسلط والنبى لبنى إسرائيل، أعطاك الله الكرامة، وأظهرك على عدوك، إنى منطلق إلى أفراخى ثم أمر بك الثانية، وإنه سيرجع إلينا الثانية ثم رجع، فقال: إنه يقول: السلام عليك أيها المسلط، إن شئت أن تأذن لى كيما اكتسب على أفراخى حتى يشبوا ثم آتيك، فافعل بى ما شئت، فأخبرهم سليمان بما قال، وأذن له فانطلق .

وقال فرقد السبخى : مر سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذيله، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا البلبل ؟ قالوا : لا يابى الله . قال: إنه يقول : أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء .

ومر بهدهد فوق شجرة وقد نصب له صبي فخأ، فقال له سليمان : إحذر يا هدهد، فقال: يابى الله، هذا صبي لا عقل له فأنا أسخر به، ثم رجع سليمان فوجده قد وقع فى حباله الصبى وهو فى يده، فقال: هدهد ما هذا ؟ قال : ما رأيتها حتى وقعت فيها يابى الله، قال : ويحك، فأنت ترى الماء تحت الأرض، أما ترى الفخ!! قال : يابى الله إذا نزل القضاء عمى البصر .

وقال كعب : صاح ورشان عند سليمان بن داود، فقال: أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا قال: إنه يقول : لدوا للموت وابنوا للخراب .

وصاحت فاخنة، فقال : أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: إنها تقول: ليت هذا الخلق لم يُخلقوا، وليتهم إذ خُلِقوا علموا لماذا خُلِقوا .

وصاح عنده طاوس، فقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول: كما تدين تدان .

وصاح عنده هدهد، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا: لا . قال: فإنه يقول: من لا يرحم لا يُرحم . وصاح صرد عنده، فقال: أتدرون ما يقول ؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول: استغفروا الله يامذنبين، فمن ثم نهى رسول الله ﷺ عن قتله .

وقيل : إن الصُّرْدَ هو الذى دل آدم على مكان البيت، وهو أول من صام، ولذلك يقال للصُّرْدِ الصوام، روى عن أبى هريرة .

وصاحت عنده طيطوى، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: إنها تقول: كل حى ميت، وكل جديد بال . وصاحت خُطَافَة عنده، فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: إنها تقول: قدموا خيراً تجدوه، فمن ثمَّ نهى رسول الله ﷺ عن قتلها .

وقيل: إن آدم خرج من الجنة فاشتكى إلى الله الوحشة، فأنسه الله تعالى بالخطاف، وألزمها البيوت، فهى لا تفارق بنى آدم أنساً لهم .

قال : ومعها أربع آيات من كتاب الله عز وجل : ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ﴾ [الحشر: ٢١] إلى آخرها وتمد صوتها بقوله ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

وهدرت حمامة عند سليمان فقال: أتدرون ما تقول ؟ قالوا: لا، قال: إنها تقول: سبحان ربى الأعلى عدد ما فى سمواته وأرضه .

وصاح قُمْرَى عند سليمان، فقال أتدرون ما يقول ؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول: سبحان ربى العظيم المهيمن .

وقال كعب : وحدثهم سليمان، فقال: الغراب يقول: اللهم العن العشار {المكاس وجابى الضرائب دون حق}، والحداة تقول «كل شئ هالك إلا وجهه» والقطاة تقول من سكت سلم، والبيغاء تقول ويل لمن الدنيا همه، والصفدع يقول: سبحان ربى القدوس، والبازى يقول: سبحان ربى ويحمده، والسرطان يقول: سبحان المذكور بكل لسان فى كل مكان .

وقال مكحول : صاح دُرَّاج عند سليمان، فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا، قال: إنه يقول: ﴿الرحمن على العرش استوي﴾ وقيل : إن الديك إذا صاح قال : اذكروا الله يا غافلين، وأن النسرة إذا صاح قال : يا ابن آدم عيش ما شئت فأحرك الموت، وإذا صاح العقَّار قال : فى البعد من الناس الراحة، وإذا صاح القنبر، قال : إلهى العن مَبْغُضَى آل محمد، وإذا صاح الخطاف قرأ: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ إلى آخرها فيقول : ﴿ولا الضالين﴾ ويمد بها صوته كما يمد القارئ .

وما أحسن ما قيل من ذلك، لو كان مرفوعاً لرسول الله ﷺ، فهي أشبه بالإسرائيليات التي صحت معانيها، ولا يصح نسبتها لرسول الله ﷺ .

قصة سليمان مع النملة

كان جند سليمان مؤلفاً من الإنس والجن والطير، وقد نظم لهم أعمالهم ورتب لهم شئونهم، وجعل عليهم من يرد ويزع من تقدم منهم ويكفونهم ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض قال تعالى : ﴿ وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطُّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل: ١٧].

تذكر كتب التفسير : أن ملكه كان عظيماً ملأ الأرض، وانقادت له المعمورة كلها، وقد قص علينا القرآن الكريم قصته عندما خرج بجنده فمر على وادي النمل، فسمع غلّة تتكلم مع بنى جنسها ناصحة لهم، وفهم سليمان كلامها واعتذارها فتبسّم ضاحكاً من قولها، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنِكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ١٨] وهذا دليل على أنه كان فى موكبه راكباً فى خيوله وفرسانه، كما ذكر ابن كثير فى «البداية والنهاية» .

وروى عن السدى أنه قال : أصاب الناس قحط على عهد سليمان عليه السلام، فأمر الناس فخرجوا للإستسقاء، فإذا بنملة قائمة على رجليها، باسطة يديها وهى تقول : «اللهم إنا خلق من خلقك، ولا غنى لنا عن فضلك»، فقال: ارجعوا فقد سقيتم من أجل هذه النملة.

وفى القصة فوائد منها :

أدب النملة وشفقتها

فهم سليمان ما خاطبت به النملة أسراب النمل حين أمرتهم بالدخول إلى مساكنهم لئلا يتحطموا تحت وطأة الأقدام، وهذا من تمام نصحتها وشفقتها على بنى جنسها، ثم عندت عن سليمان وجنده بذلك الإعتذار اللطيف لحسن ظنها بسليمان وجنده، فلم يدفعها الخوف إلى التهور في القول والجور في الحكم بل قالت: ﴿ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ [النمل: ١٨] أي من عدل سليمان فضله وفضل جنوده لا يحطمون غملة فما فوقها إلا بالأا يشعروا.

وهذا دليل على أدب النملة وحسن خطابها وتمييزها بين الأشرار والأبرار . قال القرطبي : «فالنملة أثنت على سليمان، وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه منهم لا يشعرون إن حطموكم، ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم، فنفت عنهم الجور، ولذلك نهى عن قتلها» وهي المسألة التالية .

النهى عن قتل النمل

روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «أن غملة قرصت نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفي أن قرصتك غملة أهلكت أمة من الأمم تسبح»^(١) وفي طريق آخر : «فها غملة واحدة»^(٢) فإن كان النمل مؤذياً أو مفسداً، ولم يندفع أذاه إلا بقتله جاز ذلك، وهذا شبيه بدفع الصائل.

وروى عن إبراهيم : ما آذاك من النمل فاقتله، وقوله ﷺ : « ألا غملة واحدة»^(٣) دليل على أن الذى يؤذى يؤذى ويقتل، وكلما كان القتل لنفع أو دفع ضرر فلا بأس به عند العلماء .

وفى الحديث دليل على أن النمل أمة من الأمم، وله تسبيح، ولكن لا يعلم كفيته إلا الله، وقد خرق جل وعلا العادة لنبى سليمان ففهمه منطق النملة، وهذا معجزة له، وتبسم من قولها، وهذه هي المسألة التالية .

(١) رواه البخاري (٣٠١٩) مسلم (٢٢٤١)، والنسائي (٤٣٥٨) وأبي داود (٥٢٦٦) وابن ماجه (٣٢٢٥)، أحمد (٨٩٧٦).

(٢)(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة .

فتبسم ضاحكاً من قولها

في الصحيح عن جابر بن سمرّة وقيل له : « أكنت تجالس النبي ﷺ ، قال : نعم كثيراً، كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلى فيه الصبح - أو الغداة - حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم » (١).

فكان النبي ﷺ في أكثر أحواله يتبسم، وكان أيضاً يضحك في أحوال أخرى ضحكاً أعلى من التبسم وأقل من الاستغراق الذي تبدو فيه اللّهوات، وكان في النادر عند إفراط تعجبه ربما ضحك حتى بدت نواجذه.

وقد كره العلماء الإكثار من الضحك كما قال لقمان لابنه : يا بني إياك وكثرة الضحك فإنه يميمت القلب. وقد قيل : إن تبسم سليمان سرور بهذه الكلمة من النملة، ولذلك أكد التبسم بقوله : ﴿ ضاحكاً ﴾

هداية الحيوانات

قال القرطبي : « لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول، وقد قال الشافعي : الحمام أعقل الطير .

قال ابن عطية : والنمل حيوان فطن قوى شمام جداً يدخر ويتخذ القرى ويشق الحب قطعتين لثلا ينبت، ويشق الكريزة بأربع قطع، لأنها تنبت إذا قسمت شقين ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقى سائره عدّة .

قال ابن العربي : وهذه خواص العلوم عندنا، وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لها» اهـ.

والنمل من أحرص الحيوان، وضرب بحرصه المثل، وهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر، أو بالسمع، وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائداً يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلصة من الحب شيئاً

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم .

لنفسها دون صواحباتها، ويتميز النمل بعلو الهمة وشدة الحرص والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها .

وقد ذكر ابن القيم في كتابه «شفاء العليل» هداية النمل فقال: وهذه النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شئ.

أعطى رسول الله ﷺ مثل معرفة

منطق الطير وأكثر منه

قال أبو نعيم : فإن قيل : سليمان عليه السلام كان يفهم كلام الطير والنملة كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ [النمل: ١٦] الآية وقال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلِيًّا وَادَّ النَّمْلُ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَبَيَّسَمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا ﴾ [النمل: ١٨-١٩] .

قيل : قد أعطى محمد ﷺ مثل ذلك وأكثر منه، فقد تقدم ذكرنا لكلام البهائم والسباع، وحين الجذع، ورغاء البعير، وكلام الشجر، وتسبيح الحصى والحجر، ودعائه إياه واستجابته لأمره، وإقرار الذئب بنبوته، وتسبيح الطير لطاعته، وكلام الظبي وشكواها إليه، وكلام الضب وإقراره بنبوته، وما فى معناه اهـ. (١)

قال ابن كثير فى «شمال الرسول»: وكذلك أخبره ذراع الشاة بما فيه من السم، وكان ذلك بإقرار من وضعه فيه من اليهود (٢)

وقال عليّ ﷺ : إنى لأعرف حجراً كان يسلم علىّ بمكة قبل أن أبعث، إنى لأعرفه الآن (٣)

قال على : خرجت مع رسول الله ﷺ فى بعض شعاب مكة، فما مر بحجر ولا شجر ولا مدر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله، فهذا النطق سمعه رسول الله ﷺ وعلى ﷺ اهـ. (٤)

وهذا كله أبلغ مما حدث لنبي الله سليمان عليه السلام.

(١) كل ما ذكر ورد بأسانيد صحاح وحسان فى الصحيحين والسنن والمسانيد من الحديث وانظر كتب الشمال .

(٢) رواه أبو داود حديثاً جابراً بن جابر .

(٣) رواه مسلم والترمذي من حديث جابر بن سمرة .

(٤) رواه الترمذي من حديث عليّ بن أبي طالب .

قصة نبي الله سليمان مع الهدد

قال ابن عباس وغيره: كان الهدد مهندساً يدل سليمان عليه السلام على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه أمر سليمان عليه السلام الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان عليه السلام يوماً بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدد فلم يره فقال: ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠].

روى أن نافع بن الأزرق الخارجي قال لابن عباس: كيف يرى الهدد باطن الأرض، ولا يرى الفخ حين يقع فيه؟ فقال له ابن عباس: إذا جاء القدر عمى البصر . ولا يقدر على هذا الجواب إلا عالم بالقرآن كما قال ابن العربي .

ثم إن سليمان لما افتقد الهدد قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢١] يعني تنف ريشه كما قال ابن عباس، وقال غير واحد من السلف: تنف ريشه وتشميسه ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ [النمل: ٢١] يعني قتله ﴿لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١] بعذر بين واضح.

قال البعض: فعل سليمان هذا بالهدد إغلاظاً على العاصين، وعقاباً على إخلاله بنوبه ورتبته، وكان الله أباح له ذلك كما أباح ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع.

قال سفيان بن عيينة وعبد الله بن شداد: لما قدم الهدد قالت له الطير: ما خلفك؟ فقد نذر سليمان دمك، فقال: هل استثنى؟ قالوا: نعم، قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١].

قال نجوت إذا . قال مجاهد: إنما دفع الله عنه ببره بأمه .

وهذه القصة لا تخلو من دروس عديدة تتعلق بالتبث، وعدم إنفاذ الوعيد والعقوبة إلا بعد ثبوت التهمة، وقيمة الصدق وبر الوالدين، فالطاعة نجاة والمعصية هلكة.

كما أن فيها دلالة واضحة على المسألة التالية .

تفقد الإمام أحوال رعيته

فى تفقد سليمان للطير دليل واضح على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم .

فإن سليمان على الرغم من كثرة إنشغاله من جهة، وصغر الهدهد من جهة أخرى، إلا أنه لم يخف على سليمان حاله، فكيف بما هو أعظم من ذلك .

وهذا الإهتمام لم يكن قاصراً على سليمان عليه السلام، فإن عمر رضي الله عنه كان على سيرته، وكان يقول: لو أن شاة عثرت بوادى الفرات لسئل عنها عمر يوم القيامة لم لم يمهد لها الطريق .

فما ظنك بحاكم تضيع على يديه البلاد والعباد !!

وكان عمر يتفقد أحوال رعيته بالليل والنهار، وكان يراجع أحوال أمرائه بنفسه كما فى الصحيح عن ابن عباس: «أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرغ قرية بوادى تبوك لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، وكان خروجه ذلك بعد ما فتح بيت المقدس سنة سبع عشرة» .

فينبغى على الإمام أن يتفقد أحوال رعيته، ومباشرة ذلك بنفسه، والسفر إلى ذلك وإن طال، ورحم الله ابن المبارك حيث يقول :

وأجبار سوء ورهبانها

وهل أفسد الدين إلا الملوك

قصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ

قصة نبي الله سليمان عبارة عن مشاهد كثيرة، فقد عرف القرآن مظاهر النعمة وصور المنة على سليمان .

كما قص علينا ما كان منه - عليه السلام - مع النملة والهدهد، وانتقلت الآيات للحديث عن ملكة سبأ وقومها.

قال تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: ٢٢] أى أن الهدهد غاب زماناً يسيراً ثم جاء فقال لسليمان: اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك، وجئتك من سبأ بسبأ يقين، أى بخبر صدق حق يقين، وسبأ هم حمير وهم ملوك اليمن.

ثم قال الهدهد : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٣] وهذه المرأة هى بلقيس، وكان معها مائة ألف، وتحت كل قيل: مائة ألف مقاتل على قول ابن عباس، وكانت بلقيس من بيت مملكة، وأولو مشورتها ثلثمائة واثني عشر رجلاً، وكانت بأرض يقال لها: مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء، قال ابن كثير: وهذا القول هو أقرب على أنه كثير على مملكة اليمن، والله أعلم .

رأى الهدهد بلقيس قد أوتيت الكثير من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن، ولها عرش عظيم، يعنى سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللالى .

ثم هم لم يؤدوا شكر هذه النعم، ولذلك تعجب الهدهد وقال : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: ٢٤].

أى لا يعرفون سبيل الحق التى هى إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧].

لقد ضلت عقول القوم وسفهت أحلامهم، عندما صرفوا العبادة لغير ربهم،
 بما جعل الهدهد ينطق ويقول: ﴿الْأَيُّ سَاجِدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾

النمل: ٢٥-٢٦.

فهو سبحانه يعلم كل خبيثة في السماء والأرض، وما جعل فيها من أرزاق
 المطر والنبات، كما يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، فلا
 إله غيره، ولا معبود بحق سواه، لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذي ليس
 في المخلوقات أعظم منه .

يقول ابن كثير: ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود
 له نهى عن قتله كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه
 قال: «نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد
 والصرذ»^(١) وإسناده صحيح اهـ .

ويستوقفنا هنا عدة مسائل نذكرها باختصار

الأنبياء لا تعلم الغيب

المسافة ليست بعيدة بين سليمان وبلقيس ملكة سبأ، وقد ذكرنا أن نبي الله
 سليمان سخرت له الجن والريح، وكان ملكه عريضاً، وعلى الرغم من هذا
 التمكين، إلا أنه لم يعلم بخبر ملكة سبأ وحالة قومها إلا من الهدهد، قال:
 ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ النمل: ٢٢-٢٣.

وهذا دليل واضح على أن الأنبياء لا تعلم الغيب، ولسان حالهم ينطق كما
 قالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ البقرة: ٣٢ فهو سبحانه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا
 يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ الجن: ٢٦-٢٧ وقال تعالى:
 ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ الأعراف: ١٨٨،
 ولعل الله أخفى ذلك عن سليمان لمصلحة، كما أخفى على يعقوب مكان

(١) رواه من حديث ابن عباس أبي داود (٥٢٦٧)، وابن ماجه (٣٢٢٤)، وأحمد (٣٠٥٧)، والدارمي (١٩٩٩).

يوسف، وكم من أشياء مخلوقة وموجودة مع عدم رؤيتها لها كالجنة والنار وأجوج ومأجوج والدجال مما دلت عليه نصوص الشريعة، فلا سبيل لإنكار وجود ذلك بزعم التطور والتقدم العصري .

والأمر كما يقولون : من علم حجة على من لم يعلم، وإذا جاء شرع الله بطل نهر معقل فهل من يعقل، وإلا فالميكروبات كانت موجودة ولم يشاهدها إلا بعد اختراع الميكروسكوب، فهل كان من العقل والحكمة إنكار وجود الميكروبات!!

الحكمة ضالة المؤمن والحق مقبول

من كل من جاء به

قال الهدهد لسليمان: ﴿ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ {النمل: ٢٢} ففي هذه القصة دليل على أن الصغير يقول للكبير، والمتعلم للعالم عندي ما ليس عندك، إذا تحقق ذلك وتيقنه كما قال القرطبي: هذا عمر بن الخطاب مع جلالته - رضى الله عنه - وعلمه لم يكن عنده علم بالإستئذان، وكان علم التيمم عند عمار وغيره، وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالوا: لا يتيمم الجنب . وكان حكم الإذن فى أن تنفر الحائض عند ابن عباس، ولم يعلمه عمر ولا زيد ابن ثابت، وكان غسل رأس المحرم معلوماً عند ابن عباس وخفى عن المسور بن مخرمة .

قال ابن السمعاني: «متى ثبت الخبر، صار أصلاً من الأصول، ولا يحتاج إلى عرضه على أصل آخر لأنه إن وافقه فذاك وإن خالفه لم يجوز رد أحدهما لأنه رد للخبر بالقياس وهو مردود بالإتفاق، فإن السنة مقدمة على القياس» اهـ.

وقد قرر علماء الحديث، أن زيادة الثقة مقبولة طالما معه زيادة علم، فالحق يُصار إليه وهو مقبول من كل من جاء به، ويجب على الكل سواء كانوا حكماً أم محكومين أن يكونوا أسرى الشريعة، يدورون مع إسلامهم حيث دار، فلا اعتداد بقول يخالف شرع الله، ولا ثقافة ونحلة نصادم بها دين الله.

لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة

روى البخارى من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى - بعد موت أبيها - قال : «لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة» (١)
قال القرطبي: قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا نص فى أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيه .

ونقل عن محمد بن جرير الطبرى أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية، ولم يصح ذلك عنه، ولعله نقل عنه كما نقل عن أبى حنيفة أنها إنما تقضى فيما تشهد فيه، وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق، ولا بأن يكتب لها مسطور بأن فلانة مقدمة على الحكم، وإنما سبيل ذلك التحكم والإستابة فى القضية الواحدة، وهذا هو الظن بأبى حنيفة وابن جرير .

وقد روى عن عمر أنه قدم امرأة على حِبة السوق، ولم يصح فلا تلتفتوا إليه، فإنما هو من دسائس المبتدعة فى الأحاديث . . .

قال ابن العربي: فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجلس، ولا تخالط الرجال، ولا تفاوضهم مفاوضة النظير للنظير، لأنها إن كانت فتاة حرم النظر إليها وكلامها، وإن كانت بَرزَة { الكهلة } لم يجمعها والرجال مجلس واحد تزدهم فيه معهم، وتكون مناظرة لهم، ولن يفلح قط من تصور هذا ولا من اعتقده . هـ

وهذا أبلغ رد على من انبهر بزيف النظم الديمقراطية المعاصرة، وراح يبرر بالإسلام ويرقع به عوج الحياة .

ومن عجيب أمر هؤلاء المفتونين بالعنف الغربى، تكذيب بعضهم بهذا الحديث الذى رواه البخارى !!!!

(١) رواه من حديث أبى بكر: البخارى (٤٤٢٥)، والترمذى (٢٢٦٢) والنسائى (٥٣٨٨) .

سجدة التلاوة في سورة النمل

قرأ البعض ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ {النمل: ٢٥} بالتشديد، وهذه قراءة أبي عمرو وعاصم وحزمة، وقرأها البعض ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ بالتخفيف.

قال الزمخشري: فإن قلت أسجدة التلاوة واجبة في القرائتين جميعاً أم في إحداهما؟ قلت: هي واجبة فيهما جميعاً، لأن مواضع السجدة إما أمرٌ بها، أو مدحٌ لمن أتى بها، أو ذمٌ لمن تركها، وإحدى القرائتين أمر بالسجود والأخرى ذمٌ للترك. اهـ.

وقد ذهب جمهور العلماء إلى استحباب السجود كما قال النووي وغيره، وقد سجد النبي ﷺ في الإنشاق كما ثبت في البخاري وكذلك فعل في النجم، وقد ورد أن عمر قرأ بسورة النمل فسجد ثم قرأ بها في الجمعة التي تليها فلم يسجد، وقال إنا نمر بأية السجدة، فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا إثم عليه، وكان ذلك بحضرة الصحابة رضي الله عنهم.

واستحباب السجود إنما هو في حق القارئ والمستمع، أما في الصلاة فيكون المأموم تبعاً لإمامه في السجود وعدمه، وبالنسبة للسجدة في سورة النمل، إنما تكون بعد قراءة قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ {النمل: ٢٦}.

المؤمن لا ينسى دينه مهما كانت الزخارف والزينات

بعد أن قال الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ {النمل: ٢٣} عقب ذلك بقوله: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٢٤) ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ {النمل: ٢٤-٢٥}.

رأى الهدهد امرأة ملكت على مدائن اليمن، ذات ملك عظيم، وسرير عظيم، ولكنها كانت كافرة من قوم كفار، فلم يفتن الهدهد بسبب هذه النقوش الدنيوية وهذه الزخارف المادية، ولم ينس واجب العبودية، بل تعجب من هؤلاء الذين جحدوا نعمة ربهم عليهم، وسجدوا لغيره سبحانه بعد أن انطمست فطرتهم وأظلمت عقولهم.

وشأن المؤمن كشأن هذا الهدهد في محبته الخير، وجريان معاني الإيمان والتوحيد منه مجرى الدم من العروق، واستعلائه على فتن الشهوات والشبهات، واعتصامه بجناب الله في كل آن وحين .

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ {الفرقان: ٦٣} فهم قد علموا الغاية التي من أجلها خلقوا، كما أيقنوا أن الدنيا ظل زائل وعارية مسترجعة ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ {غافر: ٣٩} كما أنها سجن المؤمن وجنة الكافر ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ {محمد: ١٢} .

قال سليمان سننظر فهل في ذلك تجريح لعدالة الهدهد ؟

لما سمع سليمان خبر أهل سبأ وملكتهم قال للهدهد: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ {النمل: ٢٧} أى صدقت فى إخبارك هذا أم كذبت فى مقاتلتك لتتخلص من الوعيد الذى أوعدتك .

قال القرطبي فى تفسيره الآية: فيها دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدراً العقوبة عنهم فى ظاهر أحوالهم بياطن أعدارهم، لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه، وإنما صار صدق الهدهد عذراً لأنه أخبر بما يقتضى الجهاد، وكان سليمان حجب إليه الجهاد .

وفى الصحيح: «ليس أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل»^(١) وقد قبل عمر عذر النعمان بن عدى ولم يعاقبه . ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة كما فعل سليمان، فإنه لما قال الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ {النمل: ٢٣} لم يستفزه الطمع، ولا اسجره حب الزيادة فى الملك إلى أن يعرض له حتى قال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ {النمل: ٢٤} فغاضه حيثئذ ما سمع، وطلب الإنتهاء إلى ما أخبر، وتحصيل علم ما غاب عنه من ذلك، فقال: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ {النمل: ٢٧} .

(١) رواه مسلم والدارمي عن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه .

ونحو منه ما رواه الصحيح عن المسور بن مخرمة، حين استشار عمر الناس في إملاص المرأة، وهي التي يضرب بطنها فتلقى جنينها، فقال المغيرة بن شعبه «شهدت النبي ﷺ قضى فيه بغرة عبد أو أمة» فقال عمر: ايتنى بمن يشهد معك، قال: فشهد له محمد بن مسلمة . وفي رواية فقال: لا تبرح حتى تأتى بالمخرج من ذلك، فخرجت فوجدت محمد بن مسلمة فجئت به فشهد^(١). ونحوه حديث أبي موسى في الإستئذان وغيره^(٢) اهـ .

قواعد هامة تتعلق بقبول الخبر ورده

قال الحافظ ابن حجر في «شرح النخبة»: «اتفق العلماء على وجوب العمل بكل ما صح، ولو لم يخرج الشيخان» واختار ابن الصلاح في الصحيحين، أن صحة الحديث توجب القطع به، قال السخاوي في «فتح المغيث»: «وسبقه إلى القول بذلك في الخبر المتلقى بالقبول الجمهور من المحدثين والأصوليين وعمامة السلف، بل وكذا غير واحد من السلف».

وفي «حصول المأمول من علم الأصول»: «اعلم أنه لا يضر الخبر الصحيح عمل أكثر الأمة بخلافه، لأن قول الأكثر ليس بحجة، وكذا عمل أهل المدينة بخلافه، خلافاً لمالك وأتباعه، لأنهم بعض الأمة، ولجواز أنهم لم يبلغهم الخبر، ولا يضره عمل الراوي له بخلافه، خلافاً لجمهور الحنفية وبعض المالكية، لأننا متبعون بما بلغ إلينا من الخبر، ولم نتعبد بما فهمه الراوي، ولم يأت من قدم عمل الراوي على روايته بحجة تصلح للإستدلال بها، ولا يضر كونه مما تعم به البلوى، خلافاً للحنفية وأبي عبد الله البصرى، لعمل الصحابة والتابعين بأخبار الأحاد في ذلك، ولا يضره كونه في الحدود والكفارات، خلافاً للكرخي من الحنفية، ولا وجه لهذا الخلاف فهو خبر عدل في حكم شرعى، ولم يثبت في الحدود والكفارات دليل يخصها من عموم الأحكام الشرعية، ولا يضره أيضاً كونه زيادة على النص القرآنى، أو السنة القطعية، خلافاً للحنفية، فقالوا: إذا أورد بالزيادة كان نسخاً لا يقبل، والحق القبول، لأنها زيادة غير منافية للمزيد فكانت مقبولة ... اهـ .

(١) البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه ونحوه رواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي من حديث أبي سعيد رضي الله عنه .

ويلزم قبول الصحيح وإن لم يعمل به أحد، قال الشافعي: «ليس لأحد دون رسول ﷺ أن يقول إلا بالاستدلال، ولا يقول بما استحسنت، فإن القول بما استحسنت شئ يُحدثه لا على مثال سبق».

ولا يضر صحة الحديث تفرد صحابي به كما بينه ابن القيم في «إغاثة اللهفان». وللعالم أن يخص بالعلم قوماً دون قوم، كراهة أن لا يفهموا، ذكره البخاري، وقال النووي في «شرح مقدمة مسلم»: «نبه مسلم - رحمه الله تعالى - على القاعدة العظيمة التي يبنى عليها معظم أحكام الشرع، وهو وجوب العمل بخبر الواحد، فينبغي الإهتمام بها، والإعتناء بتحقيقها». اهـ.

تمكين يستثمر في الدعوة مع مراعاة حدود الأدب

الخلافة موضوعة لإقامة الدين وسياسة الدنيا به، فينبغي على من مكن له في الأرض أن يسعى في نشر دين الله، وتعبيد الخلائق لله ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمُ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١] ولا يجوز للإنسان أن يتجاوز الحدود، ولا أن يطغى اعتداداً بقدرته وتمكينه، فلا بد من مراعاة حدود الأدب.

وهذا يستفاد من قصة سليمان مع ملكة سبأ وقومها، وذلك أن سليمان - عليه السلام - كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها، وأعطاه ذلك الهدهد فحمله، قيل: في جناحه كما هي عادة الطير، وقيل: بمنقاره، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلوة التي كانت تختلى فيها بنفسها، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها ثم تولى ناحية أدباً ورياسة، إمثالاً لأمر نبي الله سليمان ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَاَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَاَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨].

أمره بالتولى حسن أدب ليستنحي حسب ما يتأدب به مع الملوك، بمعنى: وكن قريباً حتى ترى مراجعتهم، قاله وهب بن منبه.

فتحيرت بلقيس مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته فإذا فيه ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠-٣١] فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء

دولتها ومملكتها ثم قالت لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَّي أُُنْفِي إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٩] تعنى بكرمه ما رأته من عجب أمره، كون طائر ذهب به فألقاه إليها ثم تولى عنها أدباً، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ولا سبيل لهم إلى ذلك .

لقد خلقنا لغاية محدودة، ونحن أصحاب دعوة عالمية، وقد أوجب علينا سبحانه إبلاغ الحق للخلق، فلا بد من استخدام كل الوسائل المستطاعة والمقدورة كالسفارات ووسائل الإعلام والتعليم... لتأدية هذه المهمة، كما يجب على الحاكم والمحكوم أن يرتفع لمستوى إسلامه ويجتهد نفسه لخدمة هذا الدين، فهذا شرف وأى شرف، بل هذه المهمة أشرف وأجل المهمات، وتستحق أن تتقدم على كثير من المصالح الإقتصادية والعمرائية .

آداب تراعى فى كتابة الرسائل والخطابات

{١} كل كلام لا يبدأ فيه بيسم الله الرحمن الرحيم فهو أجزم، وقال ميمون بن مهران كان رسول الله ﷺ يكتب باسمك اللهم حتى نزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [النمل: ٣٠] قال العلماء: لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام .

{٢} اتفقوا على كتب بسم الله الرحمن الرحيم فى أول الكتب والرسائل، وعلى ختمها، لأنه أبعد من الريبة، وعلى هذا جرى الرسم، وبه جاء الأثر عن عمر بن الخطاب أنه قال : أيما كتاب لم يكن مختوماً فهو أغلف، وقال أنس: لما أراد النبي ﷺ أن يكتب إلى العجم قيل له : إنهم لا يقبلون إلا كتاباً عليه ختم، فاصطنع خاتماً ونقش على فصه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وكأنى أنظر إلى ويصه وبياضه فى كفه (١) .

{٣} كان رسم المتقدمين إذا كتبوا أن يبدؤوا بأنفسهم من فلان إلى فلان، وبذلك جاءت الآثار، وروى الربيع عن أنس قال : « ما كان أحد أعظم حرمة من النبي ﷺ وكان أصحابه إذا كتبوا بدؤوا بأنفسهم » وهذا على خلاف فعل أهل

(١) رواه الترمذي (٢٧١٨)، والبخاري (٥٨٧٥).

فارس فإنهم كانوا إذا كتبوا بدءوا بعظمائهم، وفي حديث ابن عمر أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان يبايعه من عبد الله لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين، إنى أقر لك بالسمع والطاعة ما استطعت، وإن بنى قد أقروا لك بذلك

{٤} هذا الكتاب الكريم الذى بعث به سليمان كان فى غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، ومن المعلوم أن النبى ﷺ أوتى فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، ومن ذلك رسالته ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، ومن طالع رسائل كثير من الأولين وجد فيها الوجازة مع وضوح العبارة، ومن ذلك رسالة هارون الرشيد لنقفور فقد كتب له يقول : أما بعد، فمن هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، فإن الأمر ما ترى لا ما تسمع.

{٥} قيل : وصفت بلقيس الكتاب بأنه كريم، لما تضمن من لين القول والموعظة فى الدعاء إلى عبادة الله عز وجل، وحسن الإستعطاف والإستلطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً ولا ما يغير النفس، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق على عادة الرسل فى الدعاء إلى الله عز وجل، ألا ترى إلى قول الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله لموسى وهارون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه: ٤٤] فأحسنوا التأسى فى رسائلكم وكتاباتكم .

أفتونى فى أمرى

لما قرأت بلقيس على قومها كتاب سليمان، إستشارتهم فى أمرها، وما قد نزل بها، ولهذا قالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل: ٣٢] أى حتى تحضرون وتشيرون والملاء هم أشرف القوم، والفتوى هى الجواب فى الحادثة .

وقد قصدت بالإنقطاع إليهم، واستطلاع رأيهم تطيب قلوبهم، فأخذت بحسن الأدب مع قومها ومشاورتهم فى أمرها، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها فى كل أمر يعرض، فكيف فى هذه النازلة الكبرى، قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً هم أهل مشورتها، كل رجل منهم على عشرة آلاف

المشاورة من الأمر القديم وهي من عزائم الأحكام

قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ ﴾ [الشورى: ٣٨] وكان النبي ﷺ دائم المشاورة لأصحابه فيما لم ينزل فيه الوحي ، وفي ذلك تعويد للأمة أن يسلكوا نفس السبيل ، فما خاب من استخار الخالق واستشار المخلوق ،

والمشاورة من الأمر القديم ، وخاصة في الحرب ، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل: ٢٢] لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم ، وإمضاءهم على الطاعة لها ، وما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم ، ففيها استعانة بالآراء ومدارة للأولياء ، وربما كان في استبدادها برأيها وهم في طاعتها ، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم وشدة مدافعتهم ، ألا ترى إلى قولهم في جوابهم ﴿ نَحْنُ أَوْلُوأ قُوَّةٍ وَأَوْلُوأ بِأَسِّ شَدِيدٍ ﴾ [النمل: ٣٣] قال ابن عباس : كان من قوة أحدهم أنه يركض فرسه حتى إذا احتد ضم فخذيه فحبسه بقوته .

وينبغي التنبيه إلى أن الشورى في الأنظمة الديمقراطية المعاصرة تختلف عن الشورى في الإسلام^(١) ، فالذين يستشارون في الإسلام لا يجوز لهم مصادمة النصوص الشرعية وهذا يتطلب معرفة بالشرع والواقع ، بعكس النظم الديمقراطية التي تكتفى برأى الأغلبية حتى لو جعلت الحرام حلالاً والحلال حراماً!!

هكذا يكون الرجال تحت ولاية وقوامة المرأة

﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوأ قُوَّةٍ وَأَوْلُوأ بِأَسِّ شَدِيدٍ ﴾ [النمل: ٣٣] فالمراد قوة الأجسام وقوة الآلات ، والمراد بالبأس النجدة والثبات في الحرب ، أى منوا إليها بعددهم وقوتهم ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا : ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل: ٣٣] أى نحن ليس لنا عاقبة ولا بنا بأس إن شئت أن تقصديه وتحاربيه فما لنا عاقبة عنه ، وبعد هذا فالأمر إليك مرى فينا رأيك نمثله ونطيعه

(١) راجع كتابنا «الديمقراطية في الميزان» .

ويرى بعض المفسرين أن الملائة أحسنوا إجابة بلقيس، يقول القرطبي: فراجعها الملائة بما يقر عينها، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلموا الأمر إلى نظرها، وهذه محاوره حسنة من الجميع اهـ .

وشبيه به ما ذهب إليه الرازي قال: وحاصل الجواب أن القوم ذكروا أمرين: أحدهما: إظهار القوة الذاتية والعرضية ليظهر أنها إن أرادتهم للدفع والحرب وجدتهم بحيث تريد .

والآخر: قولهم: ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣] وفي ذلك إظهار الطاعة لها إن أرادت السلم، ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا، والله أعلم

قال الحسن البصري - رحمه الله - فوضوا أمرهم إلي علة تضطرب ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم رأياً منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه، وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعاً، فقالت لهم: إنني أخشي أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه، ويخلص إلي واليكم الهلاك والدمار دون غيرنا، ولذا قالت: ﴿إِنَّ الْمَلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤].

لقد كانت بلقيس من الذكاء والفطنة بمكان، بل رأى بعض النساء قد يفوق الكثيرين حنكة ودراية، ولكن هذا لا يعطى المرأة الحق في أن تكون قوامه البيت لها فضلاً عن أن تختص بالإمارة العامة والحكم من دون الرجال، لما رواه البخاري عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»^(١) ولعل من جملة مثالب تولية المرأة إمرة الرجال أن تورثهم الخنوعة والميوعة، يشهد لذلك قول الملائة حين استشارتهن بلقيس فأجابوا: ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٤] هذا هو الذي أشار إليه الحسن بقوله: فوضوا أمرهم إلي علة تضطرب ثدياها .

(١) رواه من حديث أبي بكره البخاري (٤٤٢٥)، والترمذي (٢٢٦٢)، والنسائي (٥٣٨٨).

الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وللمسلمين شأن آخر

لما عرضت بلقيس الواقعة على أكبر قومها وقالوا ما تقدم، أظهرت رأيها وهو أن الملوك إذا دخلوا قرية بالقهر أفسدوها أى خربوها وأذلوا أعزتها ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤] فذكرت لهم عاقبة الحرب . قال ابن عباس : أى إذا دخلوا بلداً أفسدوه أى ربوه، وقصدوا من فيها من الولاة والجنود، فأهانوهم غاية الهوان إما بالقتل أو بالأسر .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٤] فقد اختلفوا أهو من كلامها أو من كلام الله تعالى كالصوب لها، قال ابن عباس: قالت بلقيس: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ قال الرب عز وجل ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٤] .

وما قالته بلقيس يصدق على الأعم الأغلب من الأحوال، ويشهد لذلك ما فعله التتار والصليبيون . . . عندما دخلوا ديار المسلمين، ولا يصح التعميم فى كل حال، فقد دخل النبي ﷺ مكة عام الفتح، وقال لأهلها: اذهبوا فأنتم الطلقاء، ورد المفتاح لعثمان بن طلحة، وقال: من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، واستقبل أهل مصر عمرو بن العاص عندما جاء لفتحها، وأعانوا على الرومان الذين كانوا على دينهم، وأحسن معاملة أهلها، كما تذكر كتب التاريخ والسير فتكون بلقيس قد أخبرت عن علمها، والأحكام أغلبية .

الهدية تقع موقعا من الناس

عدلت بلقيس إلى المصالحة والمهادنة والمسالمة والمخادعة والمصانعة، فقالت ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥] أى سأبعث إليه بهدية تليق بمثله وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك منا ويكف عنا أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه فى كل عام ولنلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا

قال قتادة : ما كان أعقلها فى إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس، وقال ابن عباس وغير واحد : قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما في نفسها، لأن سليمان - عليه السلام - قال لها في كتابه: ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلِيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١] وهذا لا تقبل فيه فدية، ولا يؤخذ عنه هدية، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل، وهى الرشوة التى لا تحمل، وأما الهدية للتعجب والتواصل فإنها جائزة، وكان النبى ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ولا يقبل الصدقة، وكذلك كان سليمان عليه السلام، وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

والهدية مندوب إليها، وهى مما تورث المودة وتذهب العداوة، وقد أهدت الأماصرة والقياصرة إلى رسول الله ﷺ، فقبل من البعض ورد على البعض الآخر، ومدار ذلك على تحقيق المصلحة، ودفع المضرة والمفسدة.

وبوّب البخارى «باب إهداء الأخ المشرك، باب إهداء الأب المشرك» كما بوّب أبو عمر بن عبد البر «باب إهداء الأخ المشرك وإن كان حريباً»

فالهديّة من شأنها أن تزيل حزازات النفوس، وتكسر حدة العداوة، وهى داخلة ضمن قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

نبى الله سليمان لا ينشغل بالدنيا عن الدين

امتلك الدنيا مؤمنان وكافران، المؤمنان سليمان وذو القرنين، والكافران بختنصر والنمرود.

وقد سُخرت الريح والجن لسليمان - عليه السلام - وآتاه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وهو نبى مصطفى ومجتبى، يعرف مهمته ودوره، وقد حُب إليه الجهاد فى سبيل الله، فلما بعثت إليه بلقيس بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلى وغير ذلك، قال منكرأ عليهم: ﴿أَتَمْدُونِي بِمَالٍ﴾ أى أتصانعوننى بمال لا تركمكم على شرككم وملككم ﴿فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ﴾ [النمل: ٣٦] أى الذى أعطانى الله من الإسلام والملك والنبوة خير مما أنتم فيه ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦] أى أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف.

وورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة ، فلما رأت رسلها ذلك قالوا : ما يصنع هذا بهديتنا .

وفى هذا جواز تهيو الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد ، كما ذكر ابن كثير ثم قال سليمان : ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ [النمل: ٣٧] أى بهديتهم ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ [النمل: ٣٧] أى لا طاقة لهم بقتالهم ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً ﴾ [النمل: ٣٧] أى ولنخرجهم من بلدتهم سبأ أذلة قد سلبوا ملكهم وعزهم ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [النمل: ٣٨] أى مهانون مدحورون ، فلما رجعت إليها رسلها بهديتها ، وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هى وقومها ، وأقبلت تسير إليه فى جنودها خاضعة ذليلة معظمة لسليمان ، ناوية متابعته فى الإسلام ، ولما تحقق سليمان - عليه السلام - قدومهم عليه ووفودهم إليه فرح بذلك وسره .

ما فائدة الإتيان بالعرش قبل مجئ بلقيس؟

علم نبي الله سليمان أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودماؤهم فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٣٨] أو هكذا قال عطاء الخرساني والسدى وزهير بن محمد : ﴿ قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٢٣] فتحرم على أموالهم بإسلامهم ، وهذا قول أكثر العلماء ، ولأنها لو أسلمت لحظر عليه مالها. فلا يؤتى به إلا بإذنها .

وقيل : أراد أن يختبر صدق الهدد فى قوله : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٣] قاله الطبرى ، وعن قتادة : أحب أن يراه لما وصفه الهدد .

وقيل : خافت الجن أن يتزوج بها سليمان عليه السلام فيولد له منها ، فلا يزالون فى السخرة والخدمة لنسل سليمان ، فقالت لسليمان : فى عقلها خلل ، فأراد أن يمتحنها بعرشها .

وقال ابن زيد : استدعاه ليربها القدرة التى هى من عند الله ، ويجعله دليلاً على نبوته ، لأخذه من بيوتها دون جيش ولا حرب ﴿ ومسلمين ﴾ على هذا التأويل بمعنى مستسلمين ، وهو قول ابن عباس ، وقال ابن زيد أيضاً : أراد أن يختبر عقلها ، ولهذا قال : ﴿ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي ﴾ [النمل: ٤١] .

الجن وظاهرة الأطباق الطائرة

كُثر الرصد هنا وهناك لأطباق طائرة تظهر وتختفي، دون أن يستطيع أحد اللحاق بها، وعلى الرغم من ادعاءات التطور التي نعيشها إلا إننا لم نستطيع التعرف على هوية المخلوقات الموجودة فيها، ولا يبعد أن تكون هذه المخلوقات من عالم الجن والشياطين ويفسر ذلك عدة أمور منها :

{١} أن الجن عنده المقدرة على الحركة والانتقال، بل ولديه سرعات خيالية تفوق ما يعرفه البشر فقد تعهد عفريت من الجن لنبي الله سليمان بإحضار عرش ملكة اليمن إلى بيت المقدس في مدة لا تتجاوز قيام الرجل من جلوس : ﴿ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٍّ أَمِينٌ ﴾ [النمل: ٣٩] قال ابن عباس : أي قوى على حمله أمين على ما فيه من الجوهر .

{٢} للجن قدرة على التشكل والتلون، فقد جاء الشيطان المشركين يوم بدر في صورة سراقبة بن مالك، ووعد المشركين بالنصر، وفيه أنزل : ﴿ وَإِذْ زَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٨] . وعندما عاين الملائكة ولي هاربا : ﴿ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَاتِ نَكَصَ عَلَيَّ عَقْبِيهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ [الأنفال: ٤٨] .

وأتى الشيطان لأبي هريرة في صورة رجل يحثو من مال الصدقة، فلما هم برفعه لرسول الله ﷺ علمه آية الكرسي وقال: وإذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال لأبي هريرة : لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير، قال النبي ﷺ : «أما أنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قال: لا، قال: ذاك الشيطان»^(١). وقد يتشكل الشيطان في صورة حية أو حمار أو كلب أو قط .

{٣} الجن عنده القدرة على التصنيع بدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذِ ابْنُ رِيحٍ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذَرَهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [١٢] يعملون له ما يشاء من محارِبٍ وتمائيلٍ وجفانٍ كالجوابِ وقُدُورٍ رَأْسِيَّاتٍ ﴿ [سبأ: ١٣-١٤] .

{٤} سبقهم الإنسان في مجالات الفضاء، الجن عنده المقدرة على الوصول إلى أماكن متقدمة في السماء، قال تعالى حاكياً عن الجن : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصْدًا ﴾ [الجن: ٨-٩].

وقد كانت الجن تسترق السمع للتعرف على خبر السماء، فلما بعث رسول الله ﷺ زادت الحراسة في السماء.

ووصف سفيان بيده، وفرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض، وربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمى بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقيها إلى الأرض، قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر فيكذب معها مائة كذبة، فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا بكذا وكذا، فوجدناه حقاً للتي سمعت من السماء^(١).

الذي عنده علم من الكتاب أسبق وأسرع

لما سمع سليمان - عليه السلام - قول العفريت، قال: أريد أعجل من ذلك

قال ابن كثير: ومن هنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمه ما وهب الله له من الملك، وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها، لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجته بالأغلاق والأقفال والحفظ، فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ [النمل: ٤٠] قال ابن عباس وأكثر المفسرين: على أن الذي عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا، وهو من بنى إسرائيل، وكان صديقاً يحفظ اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب.

وقال محمد بن المنكدر : إنما هو سليمان - عليه السلام - أما إن الناس يرون أنه كان معه اسم، وليس ذلك كذلك، إنما كان رجل من بنى إسرائيل عالم آتاه الله علماً وفقهاً قال : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل : ٤٠] قال : هات، قال : أنت نبى الله ابن نبى الله فإن دعوت الله جاءك به، فدعا الله سليمان فجاءه الله بالعرش .

وقال السنخعى : إنه جبريل - عليه السلام -، قال ابن عطية : والذي عليه الجمهور من الناس أنه رجل صالح من بنى إسرائيل اسمه آصف بن برخيا، روى أنه صلى ركعتين، ثم قال لسليمان: يا نبى الله امدد بصرك فمد بصره نحو اليمن فإذا بالعرش، فما رد سليمان بصره إلا وهو عنده أ.هـ .

والدعاء الذى دعا به آصف هو : يا حى يا قيوم كما روى عن عائشة، أو هو : يا إلهنا وإله كل شئ، إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ابتنى بعرشها، فمثل بين يديه كما يقول الزهرى .

وقال مجاهد : دعا فقال : يا إلهنا وإله كل شئ يا ذا الجلال والإكرام، وقد سبق أن ذكرنا أن الكرامة ثابتة وضابطها الإستقامة، ولا يبعد ما حدث على يد عبد صالح ليس بنبى، وما أكثر الكرامات التى وردت فى الكتاب والسنة وجاءت بها الآثار

دواعى تغيير صفة عرش بلقيس

لما جئ سليمان - عليه السلام - بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، فقال : ﴿ نَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٤١] .

قال ابن عباس : نزع منه فصوصه ومرافقه، وقال مجاهد : أمر به فغير ما كان فيه أحمر جعل أصفر، وما كان أصفر جعل أحمر، غير كل شئ عن حاله، وقال عكرمة : زادوا فيه ونقصوا، وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره، وزادوا فيه ونقصوا .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ ﴾ [النمل: ٤٢] أى عرض عليها عرشها وقد غير ونكر وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعده مسافته عنها، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته، وإن غير وبُدل ونكر، ﴿ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ [النمل: ٤٢] أى يشبهه ويقاربه، وهذا غاية فى الذكاء والحزم.

قال عكرمة : كانت حكيمة فقالت : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ [النمل: ٤٢] وقال مقاتل : عرفته ولكن شبهت عليهم كما شبَّهوا عليها، ولو قيل لها : أهذا عرشك لقاتل : نعم هو .

وقوله : ﴿ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٤٢] قال مجاهد : يقوله سليمان، وقوله تعالى : ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَافِرِينَ ﴾ [النمل: ٤٣] هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام فى قول مجاهد وسعيد ابن جبير وقاله ابن جرير أيضاً، فالذى صدها ومنعها من عبادة الله وحده أنها كانت من قوم كافرين .

ثم قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون فى قوله: ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ ضمير يعود إلى سليمان أو إلى الله عز وجل تقديره ومنعها ﴿ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [النمل: ٤٣] أى صدها عن عبادة غير الله ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَافِرِينَ ﴾ [النمل: ٤٣] والقول الأول أصح، فهى إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح .

وقوله : ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا ﴾ [النمل: ٤٤] وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصرًا عظيمًا من قوارير أى من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذى لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشى وبينه .

واختلفوا فى السبب الذى دعا سليمان - عليه السلام - إلى هذا الصنيع، فقال الفراء وغيره : إنما أمر بتكثيره لأن الشياطين قالوا له : إن فى عقلها شيئاً فأراد أن يمتحنها، وقيل : خافت الجن أن يتزوج بها سليمان فيولد له منها ولد، فيسبقون مسخرين لآل سليمان أبداً، فقالوا لسليمان : إنها ضعيفة العقل، ورجلها كرجل الحمار، فقال : ﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ﴾ [النمل: ٤١] لتعرف عقلها .

وكان لسليمان ناصح من الجن، فقال: كيف لى أن أرى قدميها من غير أن أسألها كشفها؟ فقال: أنا أجعل فى هذا القصر ماء، وأجعل فوق الماء زجاجاً، تظن أنه ماء فترفع ثوبها فتري قدميها، فهذا هو الصرح الذى أخبر الله تعالى عنه، ذكره القرطبي.

وقيل: إنه عزم على تزوجها واصطفائها لنفسه، وساء ما علمه عن رجلها، فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا، وهذا قول محمد بن كعب القرظي وغيره، ونقله ابن كثير فى تفسيره، وقيل: اتَّخَذَتِ النُّورَةَ والحمامات من يومئذ، وكانت النورة لإزالة الشعر بدلاً من الموس. وقال وهب بن منبه: قال لها: ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ ليربها ملكاً هو أعز من ملكها وسلطاناً هو أعظم من سلطانها.

المال والتقدم والذكاء والفتنة المزعومة ليست قرينة الهداية

الهداية هى أعظم نعم الله على عباده، والفضل المبين الذى يمتُّ به على من يشاء من خلقه، ويخطئ من يظن أن المال والتقدم والذكاء والفتنة المزعومة قرينة الهداية، فإن بلقيس كانت من الذكاء والفتنة بمكان، فقد قادت قومها، وكانت صاحبة دراية وحنكة ومشورة، مما جعل الملائ ينصاعون لأمرها، وأقامت حضارة، وكانت فى رغد من العيش، وأوتيت من كل شئ، ومع ذلك كله كانت كافرة تعبد الشمس من دون الله!! مما جعل الهدهد يتعجب منها ومن قومها ويقول: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ {النمل: ٢٥}.

لقد كان الهدهد أعقل وأذكى منها ومن قومها.

إن العقل السليم والفتنة المستقيمة هى التى تستجيب للوحى المنزل، وتحرص على طاعة الله، لقد كانت بلقيس وقومها إلى الغباء والجهل أقرب منها إلى الذكاء والفتنة، وشأنها فى ذلك كشأن فرعون وقارون وهامان وصاحب الجنتين... وكشأن حضارة القرن العشرين المزعومة، فهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ {الروم: ٧} لا بأس بأخذ ما هم عليه من تطور زراعى وصناعى وظيفى... أما علوم الهداية فلا تؤخذ إلا من الكتاب والسنة.

ما قيمة عقل لم يدل صاحبه على آيات الله؟

وما قيمة الدنيا إذا انسلخت عن دين ربها وكفرت بخالقها؟ ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة . فما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾ . إن الحياة بغير الله سراب .
وما قيمة ذكاء ثعلبي يستطيع به الإنسان قهر الآخرين وإخضاعهم، في الوقت الذي لا يستطيع فيه قهر نفسه وإخضاع هواه لشرع مولاه ؟ !
سفهت العقول، وضلت الأفهام عندما عظمت ما حقره الله ورسوله .

الناس على دين ملوكهم، والمرء بقرينه يقتدى

الناس تبع لعلمائهم وأمرائهم - قديماً وحديثاً، في الأعم الأغلب، ولذلك قال ابن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأجبار سوء ورهبانها

قال تعالى : ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣] فكان القوم على شاكلة بلقيس، وهم على شاكلتها في الشرك وعبادة الشمس من دون الله، فالمرء على دين خليله، ومثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، والطيور على أشكالها تقع، فالحمام مع الحمام، والثعالب مع الثعالب . . .

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

ونزلت بشأن عقبة ابن أبي معيط، فقد كان يعامل النبي ﷺ معاملته حسنة على الرغم من كفره، فلما أتى صاحبه وقرينه من الشام أغراه بإيذاء رسول الله ﷺ ففعل .

وقد كان الإمام ابن القيم يقول : نحن في زمان لا يصلح أن يولى علينا فيه أمثال عمر بن عبد العزيز ولا معاوية بن أبي سفيان، فضلاً عن الشيخين أبي بكر وعمر، فنحن على قدر حكامنا وهم على قدرنا ﴿وَكَذَلِكَ نُورِكُمْ بَعْضُ الظَّالِمِينَ بَعْضاً﴾ [الأنعام: ١٢٩].

ثم انظر كيف كان اقتراب بلقيس من سليمان سبب رحمة وسعادة لها، فإنها لما رأت ما آتاه الله، وجماله ما هو فيه وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله تعالى، وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله عز وجل .

وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ [النمل: ٤٤] أى بما سلف من كفرها وشركها ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤] أى متابعة لدين سليمان فى عبادته لله وحده لا شريك له الذى خلق كل شئ فقدره تقديراً .

شكر سليمان . عليه السلام . لربه جل وعلا

أخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان - عليهما السلام - من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة والصفات الجميلة، وما جمع لهما من سعادة الدنيا والآخرة والملك والتمكين التام فى الدنيا، والنبوة والرسالة فى الدين، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ١٥] .

كتب عمر بن عبد العزيز: «إن الله لم ينعم على عبده نعمة، فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ١٥] فأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان عليهما السلام .

ثم انظر لشكر سليمان عندما رأى عرش بلقيس مستقراً عنده ﴿ قال هذا من فضل ربي ﴾ أى هذا من نعم الله على ﴿ ليبلونى ﴾ أى ليختبرنى ﴿ أشكر أم أكفر ﴾ ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠] كقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الجاثية: ١٥] .

وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠] أى هو غنى عن العباد وعبادتهم، كريم فى نفسه، وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها جعل غايته أن يسعى فى قطع الناس عنه فقال : ﴿ لَأَتَيْنَهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ

وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴿الأعراف: ١٧﴾ ووصف سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ ﴿سبأ: ١٣﴾.

سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقول : اللهم اجعلني من القليل، فقال عمر : ما هذا الدعاء ؟ فقال الرجل : أردت قوله تعالى : ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ ﴿سبأ: ١٣﴾ فقال عمر رضي الله عنه : كل الناس أعلم منك يا عمر .

وروى أن سليمان - عليه السلام - كان يأكل الشعير ويطعم أهله الخشكار إما خشن من الطحين {ويطعم المساكين الدرهم {الدقيق الأبيض}، وروى أنه ما شبع قط، فقليل له في ذلك فقال : أخاف إن شبعت أن أنسى الجوع، وهذا من الشكر ومن القليل .

قال تعالى : ﴿اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾ ﴿سبأ: ١٣﴾ وهذا يتطلب العدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السر والعلانية .

ولما كان الشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح، فالقلب للمعرفة والمحبة، واللسان للثناء والحمد، والجوارح لإستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه، وقد تجمعت هذه المعاني في نبي الله سليمان، لذلك أثنى عليه سبحانه ووصفه بالشكر في أكثر من موضع من كتابه لاعترافه بالنعمة باطناً وتحدثه بها ظاهراً، واستعانته بها على طاعة الله .

بناء سليمان لبيت المقدس والهيكل (١)

قام سليمان بن داود بعمارة بيت المقدس، تنفيذاً لوصية أبيه داود - عليه السلام - بعد أربع سنين من توليه الملك، وأنفق في ذلك أموالاً كثيرة، وانتهى من بنائه بعد سبع سنين، وأقام السور حول مدينة {أورشليم} أي مدينة القدس .

وقد روى « أن سليمان لما بنى بيت المقدس، سأل ربه عز وجل خلافاً ثلاثة فأعطاه اثنتين : سألته حكماً يصادف حكمه، فأعطاه إياه، وسألته ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسألته أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه»^(١).

قال ابن كثير : بعد أن أورد تلك الرواية فنحن نرجو أن تكون الثالثة لنا وأن الله قد أعطانا إياها. اهـ .

ولما انتهى من بناء بيت المقدس بنى { الهيكل } أى القصر الملكى، قال المؤرخون: وقد أتم بناءه فى مدة ثلاث عشرة سنة، وأنشأ مذبح القربان، وكان له اهتمام عظيم بالإصلاح والعمران، وكان له أسطول بحرى، قالوا : وكانت السفن تجلب له من الهند الذهب والفضة والبضائع .

اهتمامه . عليه السلام . بالخيل

عُرِضَ عَلَى سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي حَالِ مَمْلَكَتِهِ وَسُلْطَانِهِ الْخَيْلَ الصَّافِيَاتِ، قَالَ مُجَاهِدٌ، وَهِيَ كَالَّتِي تَقِفُ عَلَى ثَلَاثِ وَطَرَفِ حَافِرِ الرَّابِعَةِ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَاتُ الْجِيَادُ ﴾ [ص: ٣١] وَالْجِيَادُ السَّرَاعُ، وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ، وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّمِيمِيِّ قَالَ: كَانَتْ عَشْرِينَ فَرَسًا ذَاتَ أَجْنَحَةٍ .

وورد عنه أيضاً : أنها كانت عشرين ألف فرس فعقرها، قال ابن كثير: وهذا أشبه، وساق حديث أبى داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : «قدم رسول الله صلوات الله عليه من غزوة تبوك أوحبير وفى سهوتها ستر، فهبت ريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة رضي الله عنها لعب، فقال رسول الله صلوات الله عليه : ما هذا يا عائشة؟ قالت رضي الله عنها : بناتي، ورأى بينهن فرساً له جناحان من رفاع فقال صلوات الله عليه : ما هذا الذى أرى وسطهن قالت فرس قال: وما هذا الذى عليه قالت: جناحان. قال: «فرس له جناحان؟» قالت: أما سمعت أن سليمان - عليه الصلاة والسلام - كانت له خيل لها أجنحة، قالت: فضحك صلوات الله عليه حتى رأيت نواجذه^(٢)

(١) رواه أحمد (٢٧٧٦٢) ، والنسائي (٦٩٣) وابن ماجه (١٤٠٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٣٢).

وقوله تبارك وتعالى : ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب، وذلك ثابت في الصحيحين (١).

ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال، والخيل تراد للقتال، فلما نسى سليمان الصلاة بسبب اشتغاله بالخيل، قال ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣].

قال الحسن البصرى : والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك، ثم أمر بها فعقرت، وكذا قال قتادة، وقال السدى : ضرب أعناقها وعراقبها حباً لها، وهذا القول اختاره ابن جرير قال : لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة، ويهلك مالا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها .

اختلاف العلماء هنا سائغ وفعل الصوفية غير سائغ

اختلف العلماء فيما فعله سليمان بالخيل، والسبب أنه لا نص في المسألة، فتكلم كل واحد بما آراه إليه اجتهاده، وهذه صورة من صور الخلاف السائغ المعبر، الذي لا يفسد للود قضية .

قال ابن كثير : وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضباً لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة، ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله عز وجل ما هو خير منها، وهو الريح التي تجرى بأمره رخاء حيث أصاب غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل ...

وساق الحديث الذي رواه الإمام أحمد : «إنك لا تدع شيئاً إتقاء الله تعالى إلا أعطاك الله عز وجل خيراً منه» . اهـ.

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن جابر بن عبد الله، والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه وللنسائي عن أبي سعيد رضي الله عنه.

وابن جرير له وجهه القوي، ومعه قول ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن
أما غير السائغ والمعتبر فهوما تفعله الصوفية في تقطيع ثيابهم وتخريقها، ولا
يجوز لهم بحال الإستدلال بفعل سليمان .

قال القرطبي : وقد استدل الشبلي وغيره من الصوفية في تقطيع ثيابهم
وتخريقها بفعل سليمان هذا، وهذا استدلال فاسد لأنه لا يجوز أن ينسب إلى
نبي معصوم أنه فعل الفساد.

والمفسرون اختلفوا في معنى الآية، فمنهم من قال : مسح على أعناقها وسوقها
إكراماً لها، وقال : أنت في سبيل الله، فهذا إصلاح . ومنهم من قال : عرقها
ثم ذبحها، وذبح الخيل وأكل لحمها جائز

وعلى هذا فما فعل شيئاً عليه فيه جناح، فأما إفساد ثوب صحيح لا لغرض
صحيح فإنه لا يجوز .

ومن الجائز أن يكون في شريعة سليمان جواز ما فعل ولا يكون في شرعنا،
وقد قيل : إنما فعل بالخيال ما فعل بإباحة الله وعز وجل له ذلك . وقد قيل : إن
مسحه إياها وسُمها بالكى، وجعلها في سبيل الله، فالله أعلم . اهـ .

فتنة سليمان ونسج اليهود للأوهام

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص : ٣٤] .

ذكر البعض حكايات وخرافات حول «خاتم سليمان»، وضياعه في البحر ففقد
سليمان ملكه !! وجلس الشيطان بدل سليمان على كرسى الملك !! وأن الشيطان
تسلط على نساء نبيه فوطئنهن وهن حيض إلى غير ذلك من افتراءات
وسفاهات اليهود قبحهم الله .

قال الألوسي : ومن أقبح ما فيها زعم تسلط الشيطان على نساء نبيه حتى
وطئنهن وهن حيض، الله أكبر !! هذا بهتان عظيم وخطب جسيم .

وقال أبوحيان في تفسيره : نقل المفسرون في هذه الفتنة، وإلقاء الجسد أقوالاً
يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وهي

إما من أوضاع اليهود أو الزنادقة، ولم يبين الله الفتنة ما هي، ولا الجسد الذي لقاها على كرسى سليمان. اهـ .

وقال النسفي : وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن في بيت سليمان عليه السلام، فمن أباطيل اليهود .

وقال ابن كثير : وقد أورد بعض المفسرين آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف، وأكثرها أوكلها متلقاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة .

وقد ذكر بعض المفسرين كالرازي أن الفتنة المذكورة هي فتنته في جسده حيث أن سليمان ابتلى بمرض شديد حتى صار لشدة المرض كأنه جسد بلا روح .

﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص: ٣٤] أى رجع إلى حالة الصحة، وحكى النقاش وغيره: أن أكثر ما وطئ سليمان جواريه طلباً للولد، فولد له نصف إنسان، فهو كان الجسد الملقى على كرسيه .

وقد مال إلى هذا الرأي البيضاوى^(١) والنسفي^(٢) وغيرهما، وأن هذه هي الفتنة، والله أعلم .

قوة سليمان ومحبته الجهاد وعمله بمبدأ تعدد الزوجات

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سليمان لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل: إن شاء الله، فطاف عليهن جميعاً، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيم الذى نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون»^(٣) .

وفى الحديث دليل على عظم قوة سليمان، ومحبته الجهاد فى سبيل الله، وأهمية تعليق مثل هذه الأمور على مشيئة الله، مع الأخذ بأسباب تحقيقها، وفيه دليل على إباحة تعدد الزوجات لنبى الله سليمان .

(١)(٢) من كتب التفسير بالرأى، وأفضل التفاسير، التفسير بالمأثور كتفسير الطبري وابن كثير.

(٣) رواه البخاري (٦٦٣٩)، ومسلم (١٦٥٤)، والنسائي (٣٨٣١).

فالتعدد نظام موجود قبل بعثة النبي ﷺ ، وهذا معلوم من قصص الأنبياء كداود وسليمان وغيرهم وعلي نبينا الصلاة والسلام، وقد كان التعدد معمولاً به في الجاهلية، فقد أسلم غيلان الثقفي وتحتة عشرة نسوة، فأمره النبي ﷺ أن يُمسك أربعة ويفارق ستة^(١)

وقد استدل البعض بالحديث على أن عدم استثناء سليمان {قوله: إن شاء الله} كان هوفنتته المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ {ص: ٣٤}، والله أعلم .

إتهام اليهود لسليمان بعمل السحر

يزعم اليهود وأتباعهم الذين يستخدمون الجن بواسطة السحر أن نبي الله سليمان كان يستخدم الجن به، وقد ذكر غير واحد من علماء السلف أن سليمان لما مات كتبت الشياطين كتب سحر، وجعلتها تحت كرسيه، وقالوا: كان سليمان يستخدم الجن بهذه، فقال بعضهم: لولا أن هذا حق جائز ما فعله سليمان، فأنزل الله قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ {البقرة: ١٠١} ثم بين أنهم اتبعوا ما كانت تتلوه الشياطين على عهد ملك سليمان، وبرأ سليمان من السحر والكفر ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ {البقرة: ١٠٢} .

قال محمد بن اسحاق : لما ذكر رسول الله ﷺ سليمان في المرسلين، قال بعض أحبارهم : يزعم محمد أن ابن داود كان نبياً! والله ما كان إلا ساحراً، فأنزل الله هذه الآية، وفيها تبرئة من الله لسليمان، ولم يتقدم في الآية أن أحد نسب سليمان إلى الكفر، ولكن اليهود نسبتة إلى السحر، ولما كان السحر كفرة صاروا بمنزلة من نسبه إلى الكفر، وهذه عادة اليهود في اتهام الأنبياء، فقد أدوا موسى من قبل فبراه الله مما قالوا، وكان عند الله وجيهاً، فلا يبعد إيدائهم لنبي الله سليمان واتهامهم إياه بالسحر !! .

(١) رواه الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنه .

وفاته . عليه السلام . دليل على أن الجن لا تعلم الغيب

كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء، وأنهم يعلمون ما في غد، فجعل الله موت نبيه سليمان دليلاً على كذب دعواهم .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَاتِهِ فَلَمَّا خُرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾

{سبأ: ١٤} .

روى ابن كثير عن وهب بن منبه أنه قال : إن سليمان عليه السلام قال لملك الموت: إذا أمرت بقبض روحى فأعلمنى، فأتاه فقال : يا سليمان قد أمرت بك، فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحاً من قوارير له باب، فقام يصلى فاتكأ على عصاه. فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه، والجن تعمل بين يديه، وينظرون إليه ويحسبون أنه حى، قال: فبعث الله دابة الأرض إلى منسأته [يعنى عصاه] فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا، خر على الأرض فلما رأت الجن ذلك تبينوا أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين . اهـ .

قال ابن مسعود : أقام حولاً، والجن تعمل بين يديه حتى أكلت الأرض منسأته فسقط .

وما زال البعض يعتقد أن الجن تعلم الغيب، ويحاول أولياء الشيطان من العرافين والكهان تأكيد هذا الزعم .

فالغيب علمه عند الله، لا يظهر الله عليه إلا من شاء من عباده الصالحين : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ (٢٦) إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدِ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] .

وفى الحديث : «من أتى عرافاً أو كاهناً، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد» (١) .

(١) رواه أحمد (٩٢٥٢) .

وثبت في الحديث «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» (١)

فلا تصدق قارئى الكف والفتجان، وضاربي الرمل والودع، ولا تسأل من يتعامل مع الجن من العرافين والكهان فقد خاب السائل والمسئول .



(١) رواه مسلم (٢٢٣٠)، وأحمد (٢٢٧١١ ، ٢ - ١٦٢).

الخاتمة

نحن أحق بنبي الله سليمان - عليه السلام - من اليهود، فقد أبطلوا نبوته، ونسبوه إلى السحر، ووصفوه بما يتنزه أحدهم عنه، وهذا لا يُستغرب منهم، فقد نسبوا لله جلا وعلا صفات النقص والعيب ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ [المائدة: ٦٤].

وهذا ديدنهم مع جميع الأنبياء والمرسلين، بل لا نغالي عندما نقول: نحن أحق بجميع الأنبياء كموسى وعيسى ممن يزعمون اتباعهم، وقد غيروا شرائعهم وبدلوا دينهم، فالاتباع الحق والمحبة الصادقة تستوجب إسلام الوجه لله، والدخول في دين الله ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] وهذا هو دين سليمان وجميع الأنبياء، ولذلك قالت بلقيس: ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤].

لقد ترك اليهود دين سليمان - عليه السلام - واكتفوا بإقامة هيكله، وذهبوا يحاولون هدم المسجد الأقصى من أجل ذلك !! لإقامة دولتهم العالمية، عقائد فاسدة وهزيلة، برروا بها لأنفسهم اغتصاب البلاد والعباد، ولوأنهم آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً - لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً .

إن الحق لا يمكن أن يضيع مهما جاول اليهود التزييف، حتى لو وقفت خلفهم الأمم المتحدة وأمريكا وقوى الأرض، فالله غالب على أمره و متم نوره ولو كره الكافرون، وكلنا يقين بأنه سيتم إجلاؤهم بإذن الله، وسيفتح بيت المقدس، ويستنطق ربنا جل وعلا الحجر فيقول: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودى خلفى تعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود. (١)

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا خبر الصادق المصدوق - صلوات الله وسلامه عليه - ولتعلمن نبأه بعد حين، وقل عسى أن يكون قريباً
 اللهم مكّن لدينك وكتابك وسنة نبيك، واجعلنا اللهم من حزبك المفلحين
 وجندك الغالبين، وتوفنا مسلمين غير خزايا ولا مفتونين، وآخر دعوانا أن الحمد
 لله رب العالمين .



قصة

ذی النون

عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار .

من رحمة الله بخلقه، أن ركب فى العباد عقولاً، وأودع فيهم فطراً، ولم يكتف سبحانه بالميثاق الذى أخذه عليهم وهم فى ظهر أبيهم آدم .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

بل أنزل لهم الكتب، وأرسل لهم الرسل، وقال: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ {النساء: ١٦٥} فهم يبشرون من آمن بالجنة وينذرون من كفر بالعذاب .

وهؤلاء الرسل الكرام، هم سفراء الله إلى عباده، فمن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم .

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ {المائدة: ٦٧} ومهمتهم تعبيد الخلائق لله جل وعلا ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رُسُلًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ {النحل: ٣٦} ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ {الأنبياء: ٢٥} .

وما من نبي إلا وقال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ {المؤمنون: ٢٣}.
وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ {الشعراء: ١٠٨}.

الرسول هم الأسوة، والتقدوة في إبلاغ الرسالة، وتأدية الأمانة، والنصح للأمة، وهدايتها بوحى الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ {الشورى: ٥٢}.

وقد بعث كل نبي بلسان قومه ليعين لهم، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، فتعاهد الأنبياء من تابعهم بالوحى المنزل تربية وتركية، كما قال تعالى في حق نبيه ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ {الجمعة: ٢}.

وفى المقابل كان منهم السعى الخبيث فى تقويم الإنحراف، وتفنيده العقائد الزائفة، وإقامة الحججة لله على الخلائق، وذلك لأنه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى .

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَنْزِلَ وَنَخْزِي﴾ {طه: ١٣٤}.

وذكر سبحانه حالة المخالفين يوم القيامة، وما تقوله لهم خزنة جهنم: ﴿قَالُوا أَوْ لَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ {غافر: ٥٠}.

وقد حكم الأنبياء أمهم بشرع الله، وساسوا شعوبهم بدين الله كما جاء فى الحديث: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي» (١)

وقال تعالى عن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾

{المائدة: ٤٤}.

(١) رواه البخارى (٣٤٥٥) ومسلم (٢٨٤٢) وابن ماجه (٢٨٧١).

وأوجب سبحانه على عباده طاعة الأنبياء والمرسلين ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ {النساء: ٨٠} وهذه الطاعة هي طريق نيل رضوان الله ومحبته ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ {آل عمران: ٣١}.

وهذه النبوة لا يتأهلها العبد بكسب واجتهاد فى طاعة الله، أو بوفرة مال وجاه وسلطان بل هى فضل من الله تعالى واصطفاء واجتباء ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ {الأنعام: ١٢٤} ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ {مريم: ٥٨}، ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ {الحج: ٧٥}.

وهم وإن كانوا من جملة البشر، إلا أن الله أعدهم إعداداً خاصاً لتحمل أعباء الرسالة، ولذلك قال سبحانه عن نبيه موسى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ {طه: ٤١}.

وقال عن نبيه ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ {الضحى: ٦-٨}.

ولم يبعث الله رسولا من النساء ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾

{الأنبياء: ٧}.

والرسل أكمل الناس أجساماً، وأعظمهم أخلاقاً، وخيارهم نسباً، امتن عليهم سبحانه بالعقول الراجحة، والذكاء الفذ، واللسان الميسن، وغير ذلك من المواهب والقدرات التى لا بد منها لتحمل تبعات الرسالة، وهم قبل ذلك أتم الناس عبودية لله تعالى، وتوقيراً لمصدر الأمر، أو ابين محبتين منيين، ومنهم نبي الله يونس، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وهذا أوان الشروع فى المقصود، وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين .

خبره فى القرآن

ذَكَرَ نَبِيُّ اللَّهِ يُونُسَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - فِي سُورَةِ النَّسَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ [النساء: ١٦٣].

وَفِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ حِجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيَّ قَوْمَهُ نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٢) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكَلَّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٢-٨٦].

وَقَدْ سُمِّيَتْ سُورَةٌ بِاسْمِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهِيَ سُورَةُ يُونُسَ ، وَذَكَرَ فِيهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً أَمَتٌ فَتَنْفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

وَجَاءَ ذَكَرُهُ أَيْضًا فِي سُورَةِ الصِّافَّاتِ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتَ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَأَمَنُوا فَمَتَعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٨].

وَقَدْ ذَكَرَ بِالْوَصْفِ فِي مَوْضِعَيْنِ حَيْثُ لَقِبَهُ اللَّهُ (بِذِي النُّونِ).

وَالنُّونُ هُوَ الْحُوتُ وَذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سَبَّحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وَيَلْفِظُ صَاحِبُ الْحُوتِ فِي سُورَةِ الْقَلَمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [القلم: ٤٨-٥٠].

فَيَكُونُ قَدْ ذَكَرَ فِي الْقُرْآنِ سِتِّ مَرَّاتٍ ، أَرْبَعٌ مَرَّاتٍ بِالْإِسْمِ ، وَمَرَّتَيْنِ بِالْوَصْفِ .

قصته كما جاءت في كتب التفسير

أرسل الله تعالى نبيه يونس - عليه السلام - إلى أهل (نينوى) من أرض الموصل بالعراق، وكانوا يعبدون الأصنام، ولهم صنم يسمونه عشتار، فذهب يونس - عليه السلام - من بلاد الشام إلى (نينوى) فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه، ولم يستجيبوا لدعوته، فبقى معهم يذكرهم ويعظهم، ولكنه لم يلق منهم إلا آذانا صماً، وقلوباً غلفاً، فضاقت بهم ذرعاً، ثم أوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا .

فلما طال ذلك عليه من أمرهم، خرج من بين أظهرهم غاضباً عليهم، متوعداً لهم بالعذاب بعد ثلاث، ويظهر أن قومه توعدوه أيضاً وغضبوا منه ولاحقوه، فأبق فأراً منهم، فخرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى بالخروج، وظن أن الله تعالى لن يؤاخذة على هذا الخروج ولن يضيق عليه بسبب تركه للقرية وهجره لأهلها قبل أن يؤمر بالخروج، فذهب مغاضباً لقومه لا لربه .

قال ابن مسعود ومجاهد وطائفة من السلف : فلما خرج من بين أظهرهم، وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان منهم مع نبيهم، فلبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجو إلى الله عز وجل وتضرعوا، وبكى الرجال والنساء والكبار والصغار، وجارت الأنعام والدواب، وكانت ساعة عظيمة هائلة، فكشف الله بحوله وقوته ورافته ورحمته عنهم العذاب .

أما يونس - عليه السلام - فإنه حين ترك قومه، سار حتى وصل إلى شاطئ البحر، فوجد سفينة على سفر، فطلب من أهلها أن يركبوه معهم، فتوسموا فيه خيراً فأركبوه، ولما توسطوا البحر هاج بهم واضطرب، فقالوا : إن فينا صاحب ذنب .

فاستهموا فيما بينهم على أن من وقع عليه السهم ألقوه في البحر، فوقع السهم على يونس، فسألوه عن شأنه، وعجبوا من أمره وهو التقى الصالح، فحدثهم بقصته، فأشفقوا أن يلقوه في البحر، وأرادوا الرجوع به إلى الساحل، فأشار عليهم بأن يلقوه في اليم ليسكن عنهم غضب الله، أو أنهم لم يجدوا بداً من إلقائه .

وكانوا قد كرروا الإستهام، فخرج السهم فى كل مرة على يونس - عليه السلام فألقوه فالتقمه حوت عظيم بأمر الله، وسار به فى الظلمات فى حفظ الله، لم يمسه بسوء، والحوت فى ذلك مأمور، لا يسعه إلا طاعة الله، وكان يونس - عليه السلام وهو فى بطن الحوت يسبح الله ويستغفره، وينادى فى الظلمات الثلاث - ظلمة الليل وظلمة بطن الحوت وظلمة البحر - أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين .

فاستجاب الله له ونجاه من الغم، ثم أوحى الله إلى الحوت أن يقذف به فى العراء على ساحل البحر، فألقى به وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، فأكل منها واستظل بظلها، وعافاه الله من سقمه وتاب عليه، وأرسله إلى قومه مرة ثانية، فعاد إليهم فوجدهم مؤمنين بالله، ينتظرون عودته ليأتروا بأمره، فلبث فيهم يعلمهم ويدلهم على الله، ويرشدهم إلى الصراط المستقيم .

وكان عدد القوم الذين بعث إليهم يونس - عليه السلام - مائة وعشرين ألفاً على رواية ابن عباس - وقد متع الله أهل (نينوى) فى مدينتهم مدة إقامة يونس فيهم آمنين مطمئنين إلى حين ما أقاموا الدين، ثم لما غيروا غير الله عليهم، وكانت قصتهم عبرة للمعتبرين، وعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

لا تفضلونى على يونس بن متى

أجمعت الأمة على أن الرسل أفضل من الأنبياء، وكما فضل الله بعض النبيين على بعض، وكذلك الرسل متفاضلون فيما بينهم .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾

{الإسراء: ٥٥}.

وقال : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبِنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ {البقرة: ٢٥٣}.

وأفضل الرسل والأنبياء خمسة : محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وقد وردت الأحاديث تنهى عن تفضيل بعض النبيين على بعض .

فمن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدرى عن الرسول ﷺ : « لا تخيروا بين الأنبياء »^(١).

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تفضلوا بين الأنبياء »^(٢)

وفى الحديث : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى »^(٣)

ولا تعارض بين هذه الأحاديث، وبين الآيات القرآنية التى تدل على أن الله فضل بعض الأنبياء على بعض، وبعض المرسلين على بعض .

قال القاضى عياض ما ملخصه : « إذا تقرر من دليل القرآن، وصحيح الأثر وإجماع الأمة، كونه أكرم البشر وأفضل الأنبياء، فما معنى الأحاديث الواردة بنهيه عن التفضيل، كقوله ﷺ : « لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » .

وقوله ﷺ : « لا تفضلوا بين الأنبياء » .

وفى رواية : « لا تخيرونى على موسى » .

فاعلم أن للعلماء فى هذه الأحاديث تأويلات :

(أحدها) أن نهيه عن التفضيل كان قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم فهى عن التفضيل إذ يحتاج إلى توقيف، وإن من فضل بلا علم فقد كذب .

(الوجه الثانى) : أنه قاله ﷺ على طريق التواضع ونفى التكبر والعجب، وهذا لا يسلم من الاعتراض .

(الوجه الثالث) : ألا يفضل بينهم تفضيلاً يؤدي إلى تنقص بعضهم أو الغض منه .

(الوجه الرابع) : منع التفضيل فى حق النبوة والرسالة، فإن الأنبياء فيها على حد واحد إذ هى شئ واحد لا يتفاضل، وإنما التفاضل فى زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والرتب والألطف، وأما النبوة فى نفسها فلا تتفاضل، وإنما التفاضل بأمور آخر زائدة عليها، ولذلك منهم رسل، ومنهم أولوا عزم من

(١) رواه البخارى (٢٤١٢) ومسلم (٢٣٧٤) وأبو داود (٤٦٦٨) وأحمد (١٠٨٧٢) .

(٢) رواه البخارى (٣٤١٥) .

(٣) رواه البخارى (٣٣٩٦) ومسلم (٢٣٧٧) والترمذى (١٨٣) وأحمد (٢١٦٨) وأبو داود (٤٦٦٩) .

الرسول، ومنهم من رفع مكاناً علياً، ومنهم من أوتى الحكم صبيّاً، وأوتى بعضهم الزبور، وبعضهم البينات، ومنهم من كلم الله، ورفع بعضهم درجات .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء: ٥٥] .

وقال : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] .

قال بعض أهل العلم : والتفضيل المراد هنا فى الدنيا، وذلك بثلاثة أحوال :

أن تكون آياته ومعجزاته أبهر وأشهر، أو تكون أمته أذكى وأكثر، أو يكون فى ذاته أفضل وأظهر، وفضله فى ذاته راجع إلى ما خصه الله به من كرامته واختصاصه من كلام أو خلة أو رؤية أو ما شاء الله من أطفاه وتحف ولايته واختصاصه .

وقد يتوجه على هذا الترتيب .

(وجه خامس) : وهو أن يكون « أنا » راجعاً إلى القائل نفسه أى لا يظن أحد وإن بلغ فى الذكاء والعصمة والطهارة ما بلغ أنه خير من يونس لأجل ما حكى الله عنه، فإن درجة النبوة أفضل وأعلى، وإن تلك الأقدار، لم تحط عنها حبة خردل ولا أدنى اهـ (١) .

قال ابن حجر : « قال العلماء : فى نهيهِ عن التفضيل بين الأنبياء : إنما نهى عن ذلك من يقول برأيه، لا من يقوله بدليل، أو من يقوله بحيث يودى إلى تنقيص المفضول، أو يودى إلى الخصومة والتنازع، أو المراد لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضول فضيلة » (٢)

ونقل بعض أهل العلم أنه قال : « الأخبار الواردة فى النهى عن التخيير إنما هى فى مجادلة أهل الكتاب، وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة، لأن المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الإزدراء بالآخر، فيفضى إلى الكفر، فأما إذا كان التخيير مستنداً إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان فلا يدخل فى النهى » .

(١) الشفا .

(٢) فتح الباري .

وكان الإزدراء الذى تخوف منه القائل هو ما ورد فى صحيح البخارى وغيره عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: « استبَّ رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم والذى اصطفى محمداً صلوات الله عليهم على العالمين - فى قسم يقسم به - فقال اليهودى: والذى اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده، فلطم اليهودى، فذهب اليهودى عند ذلك إلى النبى صلوات الله عليهم فأخبره الذى كان من أمره وأمر المسلم فقال: لا تخيرونى على موسى . . . الحديث ^(١) . . .

يونس من المرسلين والفرق بين النبى والرسول

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٩] وهو من جملة الرسل الذين قصهم الله علينا فذكرهم بأسمائهم، وعددهم خمسة وعشرون .

وهم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦] .

وقد جمعت هذه الآيات ثمانية عشر رسولا، ويجب الإيمان بسبعة آخرين المذكورين فى عدة آيات وهم محمد وآدم وهود وصالح وشعيب وإدريس وذو الكفل صلوات الله عليهم أجمعين، ومن الرسل من لم يقصصه سبحانه كما قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤] وقد أخبرنا رسول الله صلوات الله عليهم بعدة الأنبياء والمرسلين، فعن أبى ذر قال: (قلت: يارسول الله، كم المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشر جمًّا غفيرا). وفى رواية أبى أمامة، قال أبو ذر: «قلت: يارسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرا» ^(٢) .

(١) رواه البخاري (٣٤٠٨) ومسلم (٢٣٧٣) وأحمد (٧٥٣٢) .

(٢) رواه أحمد (٢١٠٣٦، ٢١٠٤٢) ، وقال الألباني: إسناده صحيح .

والواجب علينا الإيمان بالأنبياء والرسل جميعاً: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

والإيمان بالرسل من أصول الإيمان الذي ندين به، ومن لم يؤمن بالرسل فقد ضل وخسر: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

والأنبياء هم أشرف الخلق، وهم الأعلام التي يهتدى بها الناس فتصلح دنياهم وأخراهم، والرسل بعثهم الله برسالة معينة كالتوراة والإنجيل والقرآن، فهم مكلفون بحملها وتبليغها ومتابعتها.

ولا يصح قول من ذهب إلى أنه لا فرق بين الرسول والنبى، ويدل على بطلان هذا القول ما ورد فى عدة الأنبياء والرسل، والشائع عند العلماء أن الرسول أعم من النبى.

فالرسول هو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبى من أوحى إليه ولم يؤمر بالبلاغ، وعلى ذلك فكل رسول نبى وليس كل نبى، رسولا كما جاء فى «شرح العقيدة الطحاوية» واختار البعض: أن الرسول من أوحى إليه بشرع جديد، والنبى هو المبعوث لتقرير شرع من قبله.

يونس. صاحب الحوت. ذى النون

اتفق المؤرخون على أن نبى الله يونس - هو يونس بن متى، قالوا: (ومتى) هى أمه، ولم ينسب إلى أمه من الرسل غير (يونس وعيسى) عليهما السلام، ويسمى عند أهل الكتاب (يونان بن أمثاي)، ويونس عليه السلام من بنى إسرائيل، وقد وصف بـ (صاحب الحوت)، و(ذى النون) والنون هو الحوت، وذلك لدخوله فى بطنه عندما ألقى فى اليم.

قال تعالى عن نبيه يونس: ﴿فَالْتَمَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (١٤٢) ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٤٣) ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٢-١٤٤].

وقد يُعرف الإنسان باسمه أو بوصفه كالمسيح عيسى - عليه السلام -، وقد يغلب أحدهما على الآخر ولا يُعرف الإنسان إلا به كالأسود والأعمش والأعرج، ولا غيبة في ذلك طالما على سبيل التعريف، والمصلحة لا تتحقق إلا بذلك .

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الألقاب المتواطئ عليها بين الناس (١)

فأجاب : وأما الألقاب فكانت عادة السلف الأسماء والكنى، فإذا كنوه بأبى فلان، تارة يكون الرجل بولده، كما يكونون من لا ولد له، إما بالإضافة إلى اسمه أو اسم أبيه، أو ابن سميّه، أو بأمر له تعلق به .

كما كنى النبي ﷺ عائشة بابن اختها عبد الله، وكما يكون داود أبا سليمان، لكونه باسم داود عليه السلام الذى اسم ولده سليمان، وكذلك كنية إبراهيم أبو إسحاق، وكما كنوا عبد الله بن عباس أبا العباس، وكما كنى النبي ﷺ أبا هريرة باسم هريرة كانت معه، وكان الأمر على ذلك فى القرون الثلاثة . . . ثم بعد هذا أحدثوا الإضافة إلى الدين وتوسعوا فى هذا .

ولا ريب أن الذى يصلح مع الإمكان : هو ما كان السلف يعتادونه من المخاطبات والكنيات، فمن أمكنه ذلك فلا يعدل عنه إن اضطر إلى المخاطبة، لاسيما وقد نهى عن الأسماء التى فيها تزكية، كما غير النبي ﷺ اسم بره، فسامها زينب، لثلاث تزكى نفسها، والكنية عنه بهذه الأسماء المحدثه خوفاً من تولد شر إذا عدل عنها، فليقتصر على مقدار الحاجة، ولقبوا بذلك لأنه علم محض لا تلمح فيه الصفة، بمنزلة الأعلام المنقولة، مثل أسد و كلب وثور .

ولا ريب أن هذه المحدثات التى أحدثها الأعاجم، وصاروا يزيدون فيها فيقولون: عز الملة والدين، وعز الملة والحق والدين، وأكثر ما يدخل فى ذلك من الكذب المبين، بحيث يكون المنعوت بذلك أحق بضد ذلك الوصف، والذين يقصدون هذه الأمور فخراً وخيلاء يعاقبهم الله بنقيض قصدهم، فيذلهم، ويسلط عليهم عدوهم، والذين يتقون الله ويقومون بما أمرهم به من عبادته، وطاعته، يعزهم وينصرهم .

(١) مجموع الفتاوى ج (٢٦) ص ٣١٤ .

كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ {غافر: ٥١} .

وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

{المنافقون: ٨} .

وقد ذكر ابن القيم فى كتاب « تحفة المودود بأحكام المولود » جواز تكنية الذكر والأُنثى والصغير والكبير، وقال ص ١٣٤ :

« ويجوز تكنية الرجل الذى له أولاد بغير أولاده، ولم يكن لأبى بكر ابن اسمه بكر، ولا لعمر ابن اسمه حفص، ولا لأبى ذر ابن اسمه ذر، ولا لخالد ابن اسمه سليمان، وكان يكنى أبا سليمان، وكذلك أبو سلمة، وهو أكثر من أن يحصى، فلا يلزم من جواز التكنية أن يكون له ولد، ولا يكنى باسم ذلك الولد» . ١ هـ .

وينبغى أن يعلم أن باب الإخبار أوسع من باب الإنشاء، فقد نخبر ونقول عبد شمس وعبد مناف . . . لأن الأمر لا يُعرف إلا بهذه التسمية، أما إذا أردنا أن ننشئ اسماً فينبغى أن يكون صحيحاً لعلنا أنه لا يجوز تعبيد المخلوقات لغير الله .

رسالته . عليه السلام . قبل أن يلتقمه الحوت

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ {الصافات: ١٤٧} قد يوهم أن بعثته - عليه السلام - كانت بعد أن نبذه الحوت، وقد روى عن ابن عباس مثل ذلك، ولا يصح، وأجود منه وأصح كما قال القرطبى فى تفسيره ما رواه عمرو بن ميمون قال : حدثنا عبد الله بن مسعود فى بيت المال عن يونس النبى ﷺ قال : « إن يونس وعد قومه العذاب وأخبرهم أن يأتيهم إلى ثلاثة أيام، ففرقوا بين كل والدة وولدها، وخرجوا فجاروا إلى الله عز وجل واستغفروا، فكف الله عز وجل عنهم العذاب» .

وغدا يونس عليه السلام ينتظر العذاب فلم ير شيئاً - وكان من كذب ولم تكن له بيعة قُتل - فخرج يونس مغاضباً، فأتى قوماً فى سفينة فحملوه وعرفوه، فلما دخل السفينة ركدت السفينة والسفن تسير يميناً وشمالاً، فقالوا: ما لسفيتكم؟ فقالوا: لا ندرى .

فقال يونس عليه السلام: إن فيها عبداً أبقاً من ربه عز وجل، وإنها لن تسير حتى تلقوه . قالوا : أما أنت يابى الله فإننا لا نلتيك . قال : فافترعوا فمن قُرع فليقع، فافترعوا، ففرعهم يونس فأبوا أن يدعوه، قال: فافترعوا ثلاثاً فمن قُرع فليقع، فافترعوا ففرعهم يونس ثلاث مرات أو قال : ثلاثاً فوقع .

وقد وكل الله به عز وجل حوتاً فابتلعه وهو يهوى به إلى قرار الأرض فسمع يونس عليه السلام تسبيح الحصى : ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنَا سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] قال : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت .

قال : ﴿فَبَدَأَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصفات: ١٤٥] قال : كهيئة الفرخ المعوط الذى ليس عليه ريش .

قال : وأنبت الله عليه شجرة من يقطين فنبتت، فكان يستظل بها ويصيب منها، فبيست فبكى عليها، فأوحى الله عز وجل إليه : أتبكى على شجرة بيست ولا تبكى على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم؟! قال : وخرج رسول الله يونس، فإذا هو بـغلامٍ يرعى، قال : ياغلام من أنت ؟ قال : من قوم يونس . قال : فإذا جئت إليهم، فأخبرهم أنك قد لقيت يونس .

قال : إن كنت يونس، فقد علمت أنه من كذب قُتل إذا لم تكن له بينه، فمن يشهد لى ؟ قال : هذه الشجرة وهذه البقعة . قال : فمرهما؟ قال لهما يونس: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له . قالتا : نعم .

قال : فرجع الغلام إلى قومه، وكان فى منعة وكان له إخوة، فأتى الملك، فقال: إني قد لقيت يونس وهو يقرأ عليك السلام . قال: فأمر به أن يقتل، فقالوا: إن له بينة فأرسلوا معه، فأتى الشجرة والبقعة فقال لهما: نشدتكما بالله عز وجل أنشهدان أنى لقيت يونس؟ قالتا: نعم، قال: فرجع القوم مذعورين يقولون له: شهدت له الشجرة والأرض، فأتوا الملك فأخبروه بما رأوا . قال عبد الله : فتناول الملك يد الغلام فأجلسه فى مجلسه، وقال : أنت أحق بهذا المكان منى . قال عبد الله: فأقام لهم ذلك الغلام أمرهم أربعين سنة .

قال أبو جعفر النحاس : فقد تبين فى هذا الحديث أن يونس كان قد أرسل قبل أن يلتقمه الحوت بهذا الإسناد الذى لا يؤخذ بالقياس، وفيه أيضاً من الفائدة أن قوم يونس آمنوا وندموا قبل أن يروا العذاب، لأن فيه أنه أخبرهم أنه يأتيهم العذاب إلى ثلاثة أيام، ففرقوا بين كل والدة وولدها، وضجوا ضجة واحدة إلى الله عز وجل، وهذا هو الصحيح فى الباب.

هل بلغت دعوته المائة ألف أو يزيدون ؟

كيف وصلت دعوته - عليه السلام - لهذا العدد الكبير؟! فى وقت لم تكن فيه وسائل الإتصال ميسورة - مقارنة بعصرنا - ولم تكن الدنيا أشبه بقرية صغيرة، كما هو مشاهد الآن، وهل التقى مع كل واحد من المائة ألف أو يزيدون بعينه، أم أقام الحجة على البعض، وبلغ الشاهد منهم الغائب، فصدق بذلك أنها دعوة للجميع؟

وللإجابة على ذلك نقول : لا يخفى على أحد علو همة الأنبياء والمرسلين فى إيلاغ الحق للخلق، فقد كان نبي الله نوح - عليه السلام - يدعو قومه سراً وجهاً، وليلاً ونهاراً، حتى قيل : كان يدخل لهم فى بيوتهم، قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح : ٥-١٠].

وكانت دعوتهم للقريب والبعيد كحالة نبي الله إبراهيم مع أبيه وقومه والنمرود، وفى حلهم وترحالهم، وفى رخائهم وشدتهم كحالة نبي الله موسى وعيسى ويوسف - عليهم السلام - وكان رسول الله ﷺ وهو سيد الدعاة إلى الله - يعرض نفسه على القبائل، ويلقى الوفود فى مواسم الحج، ويرتحل إلى الطائف وغيرها، ويلقى الرجال فى دار الأرقم بن أبى الأرقم، ويصعد على الصفا وينادى فى قومه حتى عم وخص، وواصل فى ذلك الليل بالنهار جهاداً وهجرة فى سبيل الله عز وجل .

ولو أضفنا إلى ذلك معانى التأيد والتوفيق والتسديد والإخلاص التى كانوا عليها - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - لم نستبعد معنى البعثة لمثل هذا العدد الضخم وأكثر منه .

وقد كانت بعثة النبي ﷺ للإنس والجن والعرب والعجم والناس كافة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات .

ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية فى رسالة (الأمر بالمعروف) معنى جليلاً، وهو أنه لا يشترط أن تصل الدعوة إلى كل فرد بعينه، فهذا من التكليف بما لا يطاق، فإذا قام الداعى إلى الله بحقه - نصحاً وبيانا - وعلم الناس بدعوته، وجب عليهم أن يسعوا إليه، ولا يجب عليه هو أن يسعى لأحاديثهم، بل هذا لا يجب على الأنبياء والمرسلين، إذ لا تكليف إلا بمسئع ومقدور ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

استمرار الدعوة مع التأكد من عدم التأثير

فى تفسير قوله تعالى : ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩].

يقول العلماء : معنى الآية : فذكر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع فذكر أيضاً، فالمحذوف فى الآية مفهوم مثل : ﴿سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] ومن المعلوم أنها تقى البرد كذلك .

ويرى الإمام النووى أن المرء مسئول عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى لو علم أن أمره ونهيه لا يفيد ولا يعود بطائل، فيقول : « قال العلماء : ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكونه لا يفيد فى ظنه ! بل يجب عليه فعله، فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد قدمنا أن الذى عليه الأمر والنهى، لا القبول كما قال الله عز وجل : ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾

[المائد: ٩٩].

ويرى الغزالى أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى هذه الحالة يستحب ولا يجب، فيقول : « إن يعلم أنه لا يفيد إنكاره، ولكنه لا يخاف، فلا تجب عليه الحسبة لعدم فائدتها، ولكن تستحب لإظهار شعائر الإسلام، وتذكير الناس بأمر الدين»^(١)

(١) إحياء علوم الدين (٢ / ٢٨) .

وسواء قلنا بالوجوب أو بالإستحباب، فالدعوة مع التأكيد من عدم التأثير مشروعة على كل حال، وخصوصاً وأن القلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء، ووقت الإستجابة للدعوة لا يعلمه إلا الله، وحتى إن لم يستجب الأفراد، ويقوم المجتمع الإسلامى، الذى يدين بدين الله، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يخلو من فوائد كإعذار النفس بالبلاغ وإقامة الحججة لله على الخلائق.

والأثر الذى ننشده ولا نراه اليوم قد يظهر غداً بإذن الله، فلا يصح اليأس ولا القنوط من رحمة الله . وفى ذلك يقول الإمام محمد : « وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يسعه الإقدام، وإن كان يعلم أن القوم يقتلونونه وأنه لا يتفرق جميعهم بسببه، لأن القوم هناك مسلمون معتقدون لما يأمرهم به، فلا بد من أن فعله ينكى فى قلوبهم وإن كانوا لا يظهرون ذلك»^(١)

بل المشاهد أن التأثير قد يحدث حتى مع الكافر المعاند الذى يظهر إصراراً وثباتاً على باطله، فقد يتزلزل ويستريب فيما هو عليه، ويراجع نفسه، ولا نستبعد أن يُسلم، فما هو عليه من كفر وضلال أوهى من بيت العنكبوت، ولا أدل على ذلك من مشركى قريش، وغيرهم ممن دخل فى الإسلام، فالتأثير والنكايه فى القلوب لا تقتصر على المسلمين.

شبهة وجواب

استدل البعض على إسقاط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذا لم يلمس تأثيره ببعض الأحاديث مثل : « اتممروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام»^(٢).

وحديث : «يوشك أن يأتى زمان يغربل الناس فيه غربلة، تبقى حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا، فكانوا هكذا، وشبك بين أصابعه فقالوا : كيف بنا يارسول الله ؟ فقال : تأخذون ما تعرفون، وتذرون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم، وتذرون أمر عامتكم»^(٣).

(١) شرح السير الكبير (٣/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٢) رواه الترمذي (٣٠٥٨) وأبو داود (٤٣٤١) وابن ماجه (٤٠١٤).

(٣) رواه أحمد (٧٠٢٣) وأبو داود (٤٣٤٢) وابن ماجه (٣٩٥٧).

كما استدلوها بما رواه أنس بن مالك قال : « قيل : يا رسول الله متى ندع الإتيار بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال : إذا ظهر فيكم ما ظهر في بنى إسرائيل ، إذا كانت الفاحشة في كباركم ، والملك في صغاركم ، والعلم في أراذلكم »^(١)

والذى تفيده هذه النصوص هو إباحة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فى الأحوال المذكورة ، فليس هذا الترك واجباً أو مندوباً ، ولا يخفى أن الأمر يتفاوت تفاوتاً عظيماً مكاناً وزماناً وشخصاً ، فلا يجوز تعميم الترك ، والأصل القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإستثناء إنما يجوز فى الحالات المذكورة فى الأحاديث .

ولذلك قال بعض العلماء فى شرح الأحاديث السابقة : هذا رخصة فى ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كثر الأضرار وضعف الأخيار ، وذكروا أنها لا تدل على نفس الوجوب عند فوات الشرط بلزوم المفسدة وانتفاء الفائدة .

وقال الجصاص فى شرح الحديث الأول : « يعنى - والله أعلم - إذا لم يقبلوا ذلك واتبعوا أهواءهم وآرائهم ، فأنت فى سعة من تركهم » .

وقد وردت النصوص تبين أفضلية من خالط الناس لأمرهم بالمعروف ونهيمهم عن المنكر ، فى الحديث : « المؤمن الذى يخالط الناس ، ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذى لا يخالطهم ، ولا يصبر على أذاهم »^(٢) .

كما أن البعض ممن علت همته لا يكتفى بتأدية الفرائض فقط أو الإهتمام بنفسه فحسب ، بل يسعى فيما هو أبعد من ذلك .

كما ورد فى الحديث : « من خير معاش الناس رجل ممسك عنان فرسه فى سبيل الله يطير على منته ، كلما سمع هبعة أو فزعة طار عليه ، يبتغى القتل والموت مظانه ، أو رجل فى غنيمة فى رأس شعفة من هذه الشعف أو بطن واد من هذه الأودية ، يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعبد ربه حتى يأتبه اليقين ، ليس من الناس إلا فى خير »^(٣) .

(١) رواه أحمد (١٢٥٣١) وابن ماجه (٤٠١٥) .

(٢) رواه أحمد (٥٠٠٢) والترمذي (٢٥٠٧) وابن ماجه (٤٠٣٢) .

(٣) رواه مسلم (١٨٨٩) وابن ماجه (٣٩٧٧) .

ترك الدعوة خوف الضرر

قيل إن نبي الله يونس - عليه السلام - خرج من بين ظهراني قومه غاضباً عليهم، متوعداً لهم بالعذاب بعد ثلاث، ويظهر أن قومه توعدوه أيضاً، وغضبوا منه، ولاحقوه، فأبق فأراً منهم.

وقد ورد في الحديث : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فليسانه فإن لم يستطع فبقلمه، وذلك أضعف الإيمان »^(١)، ورأس المعروف الإيمان بالله تعالى، وأكبر منكر هو الكفر بالله جل وعلا .

وقد رتب النبي ﷺ الإنكار على الإستطاعة، وبالتالي فهو يسقط في حالات العجز وخوف المكروه والضرر، يقول الغزالي :

« لا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسى بل يلتحق به ما يخاف عليه مكروهاً يناله، فذلك في معنى العجز »^(٢)

ويقول ابن بطال : « والنصيحة لازمة على قدر الطاقة إذا علم الناصح أنه يقبل نصحه ويطاع أمره، وأمن على نفسه المكروه، فإن خشى أذى فهو في سعة »^(٣)

وليس اللوم من الضرر لقوله تعالى : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابن كثير : « أى لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله وإقامة الحدود وقتال أعدائه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصددهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم ولا عدل عادل . »

وعن عبادة بن الصامت أنه قال : « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكروه وأن لا ننازع الأمر أهله أن نقول بالحق حيثما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم »^(٤).

(١) رواه مسلم. (٤٩) والترمذي (٢١٧٢) والنسائي (٥٠٠٨) وابن ماجه (١٢٧٥).

(٢) إحياء علوم الدين (٢ : ٢٨٠) .

(٣) شرح صحيح مسلم (١ : ٥٤) .

(٤) رواه البخاري (٧١٩٩) .

قال القرطبي : «أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البر أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه، وأنه إذا لم يلقه بتغييره إلا اللوم الذى لا يتعدى إلى الأذى، فإن ذلك لا ينبغى أن يمنعه من تغييره».

وغلبة الظن فى حصول الضرر تقوم مقام اليقين، كما ذكر الغزالي وغيره، أما مجرد التجويز بحدوث الضرر للأمر الناهى، فلا يسقط الوجوب لأن ذلك ممكن فى كل حسبة، وترك الدعوة خوف الضرر رخصة، والعزيمة فى مواطن إظهار الدين أفضل حتى وإن فقد الإنسان كل ما يملكه كما قال النبى ﷺ : «ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»^(١).

قال الخطابى : «إنما صار ذلك أفضل الجهاد لأن من جاهد العدو كان متردداً بين رجاء وخوف لا يدرى هل يَغلب أو يُغلب، وصاحب السلطان مقهور فى يده، فهو إذا قال الحق وأمره بالمعروف فقد تعرض للتلف، وأهدف نفسه للهلاك، فصار ذلك أفضل أنواع الجهاد ومن أجل غلبة الخوف»^(٢).

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما يجب، أحياناً يستحب وأحياناً يحرم كما لو كان سيفوت معروفًا أكبر أو يستجلب منكرًا أعظم، أو كان سيثبت المنكر ويأتى بمنكر آخر، أو سيتلف نفسه فى غير مصلحة شرعية أو سيستجلب الضرر والأذى على الأهل والإخوان والأصدقاء، وعلى كل حال فشرع الله مصلحة كله، والواجب علينا أن ندور مع نصوص الشريعة حيث دارت ولا نكتفى بالنوايا الطيبة فلا بد من صحة العمل.^(٣)

(١) رواه البيهقي.

(٢) معالم السنن (٤ : ٣٥٠).

(٣) راجع كتابنا «تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد».

هل خروجه . عليه السلام . دون إذن

يطعن فى عصمته ؟

كان يونس - عليه السلام - قد أئذر قومه ، وحذرهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا ، فتمادوا فى ضلالهم وكفرهم ، فأوعدهم بالعذاب العاجل ، فلما تأخر عنهم العذاب خرج المستور منهم ليتوارى عن أنظارهم ، خشية أن يهزؤوا منه ويسخروا ، ويتهموه بالكذب على الله حيث أخبرهم بنزول العذاب ولم ينزل ، وكان خروجه دون أن ينتظر الإذن من ربه ، فعوتب - عليه السلام - فى ذلك ، وكان ما قصه علينا ربنا جل وعلا من ركوبه البحر والتقام الحوت له ، فهل خروجه ذلك يُعد ذنباً يقدر فى عصمته؟ .

يقول ابن تيمية : «القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام ، وجميع الطوائف ، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام ، كما ذكر أبو الحسن الأمدى أن هذا قول أكثر الأشعرية ، وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء ، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول» . (١)

ومن المعلوم أن الأنبياء لا يقرون على الذنب ، ولا يؤخرون التوبة ، فالله عصمهم من ذلك وهم بعد التوبة أكمل منهم قبلها ، وقد قال البعض : «كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة» وقالوا : «لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه» والهفوات التى تبدر من الأنبياء - عليهم السلام - لا تنافى الكمال ولا تُعد نقصاً لأنهم يتابعونها بالاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله ، ولديهم من كثرة الحسنات ما تنجبر أمامها الهفوات كما هو الحال بالنسبة لنبى الله يونس - عليه السلام - ، وكونهم أسوة البشر وقدوة الخلق إنما ينصب على الإسراع فى التوبة عند وقوع الذنب ، وعدم التسويف والتأخير ، والحذر من المخالفات التى نبه الشرع عليها .

قال القرطبي فى تفسيره : «واختلف العلماء هل وقع من الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين - صغائر من الذنوب، بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر، ومن كل رذيلة فيها شين ونقص إجماعاً .

فقال جمهور الفقهاء: إنهم معصومون من الصغائر كلها كعصمتهم من الكبائر أجمعها، لأننا أمرنا باتباعهم، فى أفعالهم وآثارهم وسيرهم، أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الإقتداء بهم، إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القرية والإباحة، أو الحظر والمعصية... ولا يصح أن يؤمر المرء بامثال أمر لعله معصية .

وقال (أبو إسحاق الإسفراينى) من علماء أهل السنة : لا يقع من الأنبياء ذنوب، لأنهم معصومون من الكبائر والصغائر، وذلك مقتضى دليل المعجزة، وقال بعضهم بوقوع الصغائر منهم ولا أصل لهذه المقالة، والذى عليه الأكثر أن ذلك غير جائز عليهم .

وقال بعض المتأخرين : الذى ينبغى أن يقال : أن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم، وتنصلوا منها، وأشفقوا منها وتابوا، وكل ذلك ورد فى مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك لا يزرى بمناصبهم، وإنما وقعت على جهة الخطأ والنسيان، فهى بالنسبة إلى غيرهم حسنات، وفى حقهم سيئات .

ولقد أحسن الجنيد حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين، إذ قد يؤاخذ الوزير، بما يثاب عليه الأجير .

قال القرطبي: «وهذا هو الحق، فهم - صلوات الله وسلامه عليهم - وإن كان قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهم، ولا قدح فى رتبهم، بل تلافاهم واجتباهم، وهداهم وزكاهم، واختارهم واصطفاهم صلوات الله عليهم وسلامه» (١)

وقد أجمعت الأمة الإسلامية على أن مثل هذه الذنوب التي نسبها اليهود والنصارى إلى أنبياء الله كالزنى والسرقه والمخادعة وصناعة الأصنام وعبادتها . . . لا يمكن أن تقع من أحد من الأنبياء والرسل بحال من الأحوال، وأنهم معصومون من ذلك كما ذكر الأشقر في «الرسل والرسالات» .

تعرض نبي الله يونس للبلاء

ألقى نبي الله يونس فى البحر، والتقمه الحوت، يقول سبحانه: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٢) لَلَبْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُعْثُونَ﴾ [الصفات: ١٤٣-١٤٤] وهذا نوع من الإبتلاء شديد، قال تعالى: ﴿الْم (١) أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣] .

قال مجاهد وغيره : نزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هى سيرة الله فى عباده إختباراً للمؤمنين وفتنة .

وقال ابن عباس : يريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، كسلمة بن هشام، وعياش بن أبى ربيعة، والوليد بن الوليد، وعمار بن ياسر وياسر أبوه وسمية أمه، وعدة من بنى مخزوم، وغيرهم، فكانت صدورهم تضيق لذلك، وربما استنكر أن يمكن الله الكفار من المؤمنين .

وقد بين سبحانه أنه ابتلى الماضين ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣] فإبراهيم ألقى فى النار وهاجر، وقتل نبي الله زكريا ويحيى، وسجن نبي الله يوسف، وضح عن الرسول ﷺ : «أن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوته» (١)

وروى البخارى عن خباب بن الأرت قال : «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد برده له فى ظل الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصر لنا ألا تدعوا لنا؟! فقال: كان الرجل من قبلكم ، يحفر له فى الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار

(١) رواه أبو يعلى وغيره، وصححه الألبانى .

فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمه وعصب، وما يصده ذلك عن دينه، واللّه ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللّه والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(١).

وعن سعد بن أبى وقاص قال: «قلت لرسول اللّه ﷺ: أى الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلماً اشتد بلاءه، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة»^(٢).

ودخل أبو سعيد الخدرى على رسول اللّه ﷺ وهو يوعك، فوضع يده على الرسول ﷺ، فوجد حره بين يديه فوق اللحاف، فقال: «يا رسول اللّه، ما أشدها عليك قال: إنا كذلك يضعف علينا البلاء، ويضعف لنا الأجر. قلت: يا رسول اللّه أى الناس أشد بلاءً؟ قال: الأنبياء، ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليستلى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة التى يحويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدهم بالرخاء»^(٣).

وروى عبد الرحمن بن زيد أن عيسى عليه السلام كان له وزير، فركب يوماً فأخذه السبع، فقال عيسى: يارب وزيرى فى دينك، وعونى على بنى إسرائيل، وخليفتى فيهم سلطت عليه كلباً فأكله، قال: نعم كانت له عندى منزلة رفيعة لم أجد عمله يبلغها، فابتليته بذلك لأبلغه تلك المنزلة.

وقال وهب: قرأت فى كتاب رجل من الحواريين: إذا سلك بك سبيل البلاء فقرّ عيناً، فإنه سلك بك سبيل الأنبياء والصالحين، وإذا سلك بك سبيل الرخاء فابك على نفسك، فقد خولف بك عن سبيلهم.

والابتلاء فيه تربية للمؤمنين، وصقل معادنهم، وتمحيص ما فى قلوبهم، وهو بمثابة التطهير للصف المؤمن من أذعياء الإيمان من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض.

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٢) رواه أحمد (٢٦٥٣٩) والترمذي (٢٣٩٨).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤) والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

كما أن فى الإبتلاء، رفع درجات المؤمنين، ومضاعفة حسناتهم، وتكفير خطاياهم حتى يمشى أحدهم على الأرض، وما عليه خطيئة كما فى الحديث : «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة» (١).

فاصبر لحكم ربك

توجه الخطاب من الله تعالى لنبىه ﷺ أمراً إياه بالصبر فقال : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ [القلم: ٤٨] أى لقضاء ربك، والحكم هنا القضاء .

وقيل : فاصبر على ما حكم به عليك ربك من تبليغ الرسالة، وقال ابن بحر : فاصبر لنصر ربك .

قال قتادة : أى لا تعجل، ولا تغضب فلا بد من نصرك، ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ [القلم: ٤٨] يعنى يونس عليه السلام، أى لا تكن مثله فى الغضب والضجر والعجلة .

قال قتادة : إن الله تعالى يُعزى نبيه ﷺ ويأمره بالصبر، ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت، والإنسان يحتاج إلى الصبر لامثال الأوامر ولترك النواهي وحتى يقف مع البلاء بحسن الأدب، والصبر واجب حتم على المؤمن، والرضا فضل مندوب إليه .

يقول ابن القيم - رحمه الله - :

والصبر على البلاء ينشأ من أسباب عدة :

أولها : شهود جزائها وثوابها .

ثانيها : شهود تكفيرها للسيئات ومحورها لها .

ثالثها : شهود القدر السابق الجارى بها وأنها مقدره فى أم الكتاب قبل أن يُخلَق، فلا بد منها، فجزعه لايزيده إلا بلاء .

(١) رواه الترمذى (٢٣٩٩) ، وأحمد (٧٧٩٩) .

رابعها: شهود حق الله عليه فى تلك البلوى، وواجهه فيها الصبر بلا خلاف بين الأمة أو الصبر والرضا على أحد القولين، فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه فى تلك البلوى، فلا بد له منه وإلا تضاعفت عليه .

خامسها : شهود ترتبها عليه بذنبه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى: ٣٠] فهذا عام فى كل مصيبة دقيقة وجليلة، فشغله شهود هذا السبب بالإستغفار الذى هو أعظم الأسباب فى دفع تلك المصيبة، قال على بن أبى طالب : «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة» .

سادسها : أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضى رضاه بما رضى له به سيده ومولاه، فإن لم يوف قدر المقام حقه، فهو لضعفه، فلينزل إلى مقام الصبر عليها، فإن نزل عنه كان مقام الظلم وتعدى الحق .

سابعها : أن يعلم أن هذه المصيبة دواء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرعه ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه، فيذهب نفعه باطلاً .

ثامنها : أن يعلم أن فى عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم، ما لا تحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كرامة هذا الدواء ومرارته، فلينظر إلى عاقبته وحسن تأثيره .

قال الله تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

قال تعالى : ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩] .

تاسعها : أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبين حيثنذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟! فإن ثبت اصطفاه واجتباؤه وخلع عليه خلع الإكرام وألبسه ملابس الفضل وزجعه أوليائه وحزبه خدماً له وعوناً له، وإن انقلب على وجهه ونكص على عقبه طرد وصُفِع قفاه وأقصى وتضاعفت عليه المصيبة وهو لا يشعر فى الحال بتضاعفها وزيادته، ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة فى حقه صارت مصائب .

كما يعلم الصابر أن المصيبة فى حقه صارت نعماً عديدة وما بين هاتين المنزلتين إلا صبر ساعة، وتشجيع القلب فى تلك الساعة، والمصيبة لا بد أن تقلع عن هذا وهذا، ولكن تقلع عن هذا بأنواع الكرامات والخيرات، وعن الآخر بالحرمان والخذلان لأن ذلك تقدير العزيز العليم، وفضل الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

عاشرها : أن يعلم أن الله يربى عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته فى جميع الأحوال، فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال، وأما عبد السراء والعافية الذى يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، فليس من عبده الذين اختارهم لعبوديته، فلا ريب أن الإيمان الذى يثبت على محل الإبتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية .

فالإبتلاء كبير العبد ومحك إيمانه، فإما أن يخرج تبراً أحمر، وإما أن يخرج رغلاً محضاً، وإما أن يخرج فيه مادتان ذهبية ونحاسية، فلا يزال به البلاء حتى يخرج المادة النحاسية من ذهبه ويبقى ذهباً خالصاً اهـ .

إن الدنيا دار رحيل وانتقال، وهى بالبلاء محفوفة : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧] وإن الله بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح فى اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط، فمن رضى فله الرضى ومن سخط فعليه السخط .

والإنسان ممتحن فى غناه وفقره وصحته ومرضه، وهو محتاج للصبر فى كل أحواله بل البلاء قد يصبر عليه المؤمن والكافر أما العافية فلا يصبر عليها إلا الصديقون . وكلما قويت معانى الإيمان، قويت معانى الصبر، وعلى العبد أن يستشعر أنه ملك لله وإليه راجع ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٣٥] يُحْسِنُ التَّاسَى بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الاحقاف: ٣٥] .

خرج . عليه السلام . مغاضباً لمن ؟

قوله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ {الأنبياء: ٨٧} أى واذكر (ذا النون) معناه صاحب الحوت، كما صرح الله بذلك فى «القلم» فى قوله: ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ {القلم: ٤٨}، وإنما أضافه إلى الحوت لأنه التقمه .
كما قال تعالى : ﴿ فَالتَّمَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ {الصفات: ١٤٢} .
وقوله فى هذه الآية الكريمة : ﴿ مُغَاضِبًا ﴾ .

قال الشنقيطى فى تفسيرها : «أى فى حال كونه مغاضباً لقومه» .

ومعنى المفاعلة فيه : أنه أغضبهم بمفارقته وتخوفهم حلول العذاب بهم، وأغضبوه حين دعاهم إلى الله مدة فلم يجيبوه، فأوعدهم بالعذاب ثم خرج من بينهم على عادة الأنبياء عند نزول العذاب قبل أن يأذن الله له فى الخروج، قاله أبو حيان فى البحر وقال أيضاً : وقيل معنى ﴿ مُغَاضِبًا ﴾ غضبان، وهو من المفاعلة التى لا تقتضى اشتراكاً، نحو عاقبت اللص وسافرت أهـ .

قال : واعلم أن قول من قال : ﴿ مُغَاضِبًا ﴾ أى مغاضباً لربه كما روى عن ابن مسعود، وبه قال : الحسن والشعبى وسعيد بن جبير، واختاره الطبرى والقتبى، واستحسنه المهدوى والقرطبى يجب حمله على معنى القول الأول، أى مغاضباً من أجل ربه .

قال القرطبى بعد أن ذكر هذا القول عن ذكرنا : وقال النحاس : وربما أنكر هذا من لا يعرف اللغة، وهو قول صحيح، والمعنى : مغاضباً من أجل ربه كما تقول : غضبت لك أى من أجلك، والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عصى أهـ .

والمعنى على ما ذكره : مغاضباً قومه من أجل ربه، أى من أجل كفرهم به، وعصيانهم له، وغير هذا لا يصح فى الآية أهـ . ما ذكره الشنقيطى فى «أضواء البيان» .

وقد نقل القرطبى فى تفسيره أن هذه المغاضبة كانت صغيرة، ولم يغضب على الله، ولكن غضب لله إذ رفع العذاب عنهم .

وقال ابن مسعود : أبق من ربه أى من أمر ربه حتى بالعود إليهم بعد رفع العذاب عنهم، فإنه كان يتوعد قومه بنزول العذاب، فتضرعوا فرفع عنهم ولم يعلم يونس بتوبتهم، فلذلك ذهب مغاضباً، وكان من حقه ألا يذهب إلا بإذن محدد، ونقل قول من قال : أنه غضب على قومه من أجل كفرهم بربه، أو أنه إنما خرج مغاضباً للملك الذى كان على قومه

إلى أن قال: قال القشيري: والأظهر أن هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه، وبعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلمهم، فإنه كره رفع العذاب عنهم، قلت: هذا أحسن ما قيل فيه

وقيل : إنه كان من أخلاق قومه قتل من جربوا عليه الكذب، فخشى أن يقتل فغضب، وخرج فاراً على وجهه حتى ركب فى سفينة فسكنت ولم تجر. فقال أهلها: أفيكم أبق؟ فقال: أنا هو، وكان من قصته ما كان، وابتلى بطن الحوت تمحيصاً من الصغيرة كما قال فى أهل أحد : ﴿ حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

إلى قوله : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [آل عمران: ١٤١] فمعاصى الأنبياء مغفورة، ولكن قد يجرى تمحيص ويتضمن ذلك زجراً عن المعادة .

قد نسب الرازى فى تفسيره القول بأن يونس ذهب مغاضباً لربه لأكثر المفسرين، واكتفى ابن كثير فى تفسيره بذكر قول الضحاك: وأن يونس عليه السلام ذهب مغاضباً لقومه . والله أعلم إذ رد العلم إليه أسلم .

معنى : (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ)

بين سبحانه حالة نبيه يونس فى خروجه مغاضباً لقومه أو من أجل ربه فقال: ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وهذه الآية فيها وجهان للتفسير لا يكذب أحدهما الآخر كما قال الشنقيطى:

الأول : أن المعنى ﴿ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أى لن نضيق عليه فى بطن الحوت .

ومن إطلاق «قدر» بمعنى ضيق فى القرآن :

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الرعد: ٢٦] أى ويضيق الرزق

على من يشاء .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ ﴾ {الطلاق: ٧} الآية . وقوله : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ {الطلاق: ٧} أى ومن ضيق عليه رزقه .

الوجه الثانى : أن معنى ﴿ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ لن نقضى عليه ذلك ، وعليه فهو من القدر والقضاء ومنه قوله تعالى : ﴿ فَالتقى الماء على أمرٍ قد قدر ﴾ {القمر: ١٢} أى قدره الله والعرب تقول : قدر الله لك الخير يقدره قدرأ ومنه على أصح القولين «ليلة القدر» لأن الله يقدر فيها الأشياء كما قال تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ {الدخان: ٤} والقدر بالفتح ، والقدر بالسكون : ما يقدره الله من القضاء أما قول من قال : أن ﴿ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ {الأنبياء: ٨٧} من القدرة ، فهو قول باطل بلا شك ، لأن نبي الله يونس لا يشك فى قدرة الله على كل شئ كما لا يخفى .

وقد نسب ابن كثير معنى ﴿ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أى نضيق عليه فى بطن الحوت إلى ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم قال : واختاره ابن جرير مستدلاً عليه بمثل ما ذكرنا .

والمعنى الثانى الذى ذكره لقوله تعالى : ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أى نقضى عليه ، ونسبه لعطية العوفى .

وقال القرطبي : قيل : معناه استزله إبليس ، ووقع فى ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعاقبته .

وهذا قول مردود مرغوب عنه لأنه كفر روى عن سعيد بن جبير حكاه عنه المهدي والشعبي عن الحسن .

ثم ذكر القرطبي القولين اللذين نقلناهما عن ابن كثير والشنقيطى وقال : قلت : وهذان التأويلان تأولهما العلماء فى قول الرجل الذى لم يعمل خيراً قط لأهله إذا مات فحرقوه «فوالله لئن قدر الله على» الحديث .

فعلى التأويل الأول يكون تقديره : والله لئن ضيق الله على ، وبالغ فى محاسبتى وجزائى على ذنوبى ليكون ذلك ، ثم أمر أن يحرق بإفراط خوفه .

وعلى التأويل الثانى : أى لئن كان سبق فى قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذى جرم على جرمه ليعذبني الله على إجرامى وذنوبى عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين غيرى، وحديثه خرجة الأئمة فى الموطأ وغيره . والرجل كان مؤمناً موحداً .

وقد جاء فى بعض طرقه «لم يعمل خيراً إلا التوحيد» وقد قال حين قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] وقد قيل : أن معنى ﴿ فَظَنَّ ﴾ أن لئن نُقَدِرَ عَلَيْهِ ﴿ الاستفهام وتقديره : أفنن أ . ه .

قضية العذر بالجهل

الواجب علينا حمل الناس على أحسن محاملهم، فقد ورثوا الإسلام وجهلوا معانيه، ولم تقم عليهم الحجة الرسالية قياماً تتأكد معه أن يحى من حى عن بينة، وأن يهلك من هلك عن بينة، والأصل فى الناس البراءة لا الإتهام، فإذا ثبت عقد الإسلام بيقين فلا نرحزه بشك، والإنسان يدخل فى الإسلام بنطقه بالشهادتين وذلك بإتفاق العلماء، ومن قواعد أهل السنة أن تقبل من الناس علانيتهم ونكل سرائرهم إلى الله، ونحسن الظن بالناس ونسى الظن بأنفسنا .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : أيها الناس إن الوحي قد انقطع، فمن أظهر لنا خيراً أمناءه وقربناه ليس لنا فى سريرته الله يتولاه فى سريرته، ومن أظهر لنا شراً لم نؤمنه ولم نقر به، وإن قال : إن نيته حسنة .

وقد سلك البعض مسالك الخوارج والمعتزلة فى عدم العذر بالجهل، وقد تفاوتوا فيما بينهم بين مقل ومستكثر، فمنهم من كفر عموم الخلق إلا من كان على شاكلته - فى البدعة والضلالة، ومنهم من كفر الناس لجهلهم قضية من قضايا التوحيد !!

بل منهم من كفر من خالفه فى مسألة فقهية، وهؤلاء كلهم جهال، ولو أخذوا بلازم كلامهم لأخرجناهم من الملة، وعلى الرغم من غربة الحال وانحراف الأوضاع عن كتاب الله وسنة رسول الله عليه السلام، فقد زعم البعض من هؤلاء أن الحجة قد قامت بكلماته !! - وما هى إلا شبهات أضافها لشبهات المخالف -، ومنهم من قال: إن الحجة قد قامت بإذاعة القرآن الكريم!!! . . . إلى غير ذلك مما يدل على جهل

عريض، أدى إلى الجرأة والتسرع في تكفير الأمة متناسين قوله تعالى: ﴿ولا يجرمكم شأن قوم علي أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوي﴾ [المائدة: ٨].

قال الشوكاني: «إن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار، فإنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية من طريق جماعة من الصحابة أن «من قال لأخيه ياكافر فقد باء بها أحدهما»^(١).

وفى لفظ آخر: «من دعا رجلاً بالكفر، أو قال عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه»^(٢) ففي هذه الأحاديث، وما ورد موردها أعظم زاجر، وأكبر واعظ عن التسرع في التكفير، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صِدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦].

فلا بد من شرح الصدر بالكفر، وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، فلا اعتبار بما يقع من طوارق عقائد الشر، لاسيما مع الجهل بمخالفاتها لطريقة الإسلام.

ولا اعتبار بصدور فعل كفرى لم يرد به فاعله الخروج من الإسلام إلى ملة الكفر، ولا اعتبار بلفظ تلفظ به المسلم يدل على الكفر، وهو لا يعتقد معناه.

لقد قطع غلاة التكفير ما أمر الله به أن يوصل، وهدموا معاني الأخوة الإيمانية، وأدخلوا الكثيرين في دائرة اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى، إذ لم يعذروا العباد فيما عذرهم فيه ربهم، ولم يتبهوا لعوارض الأهلية التي نطقت بها نصوص الشريعة وتكلم بها العلماء، وقد ظن هذا الفريق أنه يحسن الصنع، ويجاهد بذلك في سبيل الله، وأن الغيرة على حرمان الشريعة لا تظهر إلا بذلك، وكيف يدخل في الإسلام من ليس من أهله بزعمه!! كما استأنس فريق من هؤلاء بتكفير بعض العلماء لبعض الأشخاص، والفارق كبير والبون شاسع بين تكفير من قامت عليه الحججة الرسالية - التي يكفر مخالفها - بحيث انتفت شبهاته ودرأت معاذيره على يد عالم أو ذى سلطان مطاع، وبين تكفير الأغرار بشبهات وأهواء ضالة مضلة، ولما كانت قضية العذر بالجهل يتناولها الغالي والجافي والناس فيها بين إفراط وتفريط، كان لابد من توضيح عدة مسائل تتعلق بهذه القضية.

(١) رواه البخاري (٦١٠٤) ومسلم (٦٠) والترمذي (٢٦٣٧) وأحمد (٥٨٧٨) واللفظ له.

(٢) رواه مسلم (٦١) وأحمد (٢٠٩٥٤).

(١) بعض أدلة الكتاب على قضية العذر بالجهل

المسألة الأولى : بعض أدلة القرآن :

والأدلة على ذلك كثيرة منها :

(١) قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] قال ابن كثير : «إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسل إليه» .

(٢) قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩] .

قال ابن تيمية : ولا يثبت الخطاب إلا بعد البلوغ لقوله تعالى : ﴿ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الأنعام: ١٩] .

وقوله : ﴿ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥] .

ومثل هذا في القرآن متعدد، بين سبحانه أنه لا يعاقب أحداً حتى يبلغه ما جاء به الرسول ﷺ ، ولا يعذبه الله على ما لم يبلغه، فإنه إذا لم يعذبه على ترك الإيمان إلا بعد بلوغ الحجة، فإنه لا يعذبه على بعض شرائعه إلا بعد البلوغ أولى وأحرى، وهذه سنة رسول الله ﷺ لمستفيضة في أمثال ذلك .

فإنه قد ثبت في الصحاح أن طائفة من الصحابة ظنوا أن قوله تعالى : ﴿ الخيط الأبيض من الخيط الأسود ﴾ هو الحبل الأبيض من الحبل الأسود، فكان أحدهم يربط في رجله حبلًا ثم يأكل حتى يتبين هذا من هذا، فبين النبي ﷺ أن المراد بياض النهار وسواد الليل، ولم يأمرهم بالإعادة، وكذلك عمر بن الخطاب وعمار أجنيا، فلم يصل عمر حتى أدرك الماء، وظن عمار أن التراب يصل إلى حيث يصل الماء، فتمرغ كما تمرغ الدابة، ولم يأمر أحداً منهم بالقضاء، بل أمره بالتيمم في المستقبل .

وكذلك المستحاضة قالت : إنى أستحاض حيضة شديدة تمنعنى الصلاة والصوم، فأمرها بالصلاة زمن دم الإستحاضة، ولم يأمرها بالقضاء .

ولما حرم الكلام في الصلاة تكلم معاوية بن الحكم السلمي في الصلاة بعد التحريم جاهلاً بالتحريم فقال له : «إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام

الآدميين» ولم يأمره بإعادة الصلاة، ولما زيد في صلاة الحضر حين هاجر إلى المدينة، كان من كان بعيداً عنه مثل من كان بمكة وبأرض الحبشة يصلون ركعتين، ولم يأمرهم النبي ﷺ بإعادة الصلاة .

ولما فرض شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة، ولم يبلغ الخبر إلى من كان بأرض الحبشة من المسلمين، حتى فات ذلك الشهر ولم يأمرهم بإعادة الصيام اهـ. (١)

وما ذكره شيخ الإسلام يدل دلالة واضحة على أن حكم الخطاب لا يثبت في حق المكلف إلا بعد البلاغ .

(٣) قوله تعالى : ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

(٤) قوله تعالى : ﴿كَلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الملك: ٨-٩].

(٥) قوله تعالى : ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

(٦) قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].

(٧) قوله تعالى : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دَرَأْسَتِهِم لَغَافِلِينَ﴾ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَةَ يَدَيْكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً﴾ [الأنعام: ١٥٥-١٥٧].

ومراجعة سريعة لتفسير هذه الآيات يتبين لك رحمة الله بخلقه، وأنه سبحانه لم يكتف بأن ركب في العباد عقولاً وأودع فيهم فطراً، بل أنزل لهم الكتب، وأرسل لهم الرسل يقيمون حجج الله وبياناته على العباد، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وما من أمة إلا خلا فيها نذير، فما أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين كما ورد في الخبر، فكيف لا نحب ما أحبه الله؟! وكيف لا نعذر من عذره الله!؟

(٢) بعض أدلة السنة على العذر بالجهل

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلّى الله عليه وآله قال : « كان رجل يسرف على نفسه ، لما حضره الموت قال لبنيه : إذا أنا مت ، فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح ، فوالله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحدٌ ، فلما مات فعل به ذلك ، فأمر الله الأرض فقال : اجمعي ما فيك منه ، ففعلت ، فإذا هو قائم ، فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : يارب خشيتك فغفر له »^(١) ، ويروى أيضاً عن أبي سعيد رضى الله عنه ، وفيه : « فجمعه الله عز وجل ، فقال : ما حملك ؟ قال : مخافتك ، فتلقاه برحمته »^(٢) .

قال ابن تيمية : « وكنت دائماً أذكر الحديث الذى فى الصحيحين فى الرجل الذى قال : « إذا ما مت فأحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني فى اليم ، فوالله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحدٌ من العالمين ، ففعلوا به ذلك فقال الله له : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : خشيتك فغفر له » .

فهذا الرجل شك فى قدرة الله ، وفى إعادته إذا ذُرِيَ بل اعتقد أنه لا يعاد ، وهذا كفر باتفاق المسلمين لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك ، وكان مؤمناً يخاف الله أن يعاقبه فغفر له بذلك ، والتأول من أهل الإجتهد الحريص على متابعة الرسول صلّى الله عليه وآله أولى بالمغفرة من مثل هذا » اهـ .

(٢) عن أبي واقد الليثي قال : « خرجنا مع رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى حنين ، ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها ، وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها : « ذات أنواط » ، فمررتنا بسدرة فقلنا : يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم والذي نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨] لتركبن سنن من كان قبلكم »^(٣)

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى كتاب « التوحيد » :

(١) رواه البخاري (٣٤٨١) ومسلم (٢٧٥٦) وأحمد (٧٥٩١) ومالك (٥٦٨) .

(٢) رواه البخاري (٣٤٧٨)

(٣) رواه أحمد (٢١٣٩٠) والترمذي (٢١٨٠) وقال : حسن صحيح .

(الخامسة) أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل .

(السابعة) أن النبي ﷺ لم يعذرهم بل رد عليهم بقوله : «الله أكبر إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم» فغلظ الأمر بهذه الثلاث .

(الحادية عشرة) أن الشرك فيه أكبر وأصغر لأنهم لم يرتدوا بهذا .

(٣) عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً : «يُدرس الإسلام كما يُدرس وشى الثوب، حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة ولا نُسك ولا صدقة، وليسرى على كتاب الله عز وجل في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية، وتبقى طوائف من الناس - الشيخ الكبير والعجوز - يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها» .
قال صلة بن زفر لحذيفة : ما تغنى عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ماصلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة ؟ فأعرض عنه حذيفة ثم ردها ثلاثاً، كل ذلك يُعرض عنه حذيفة ثم أقبل عليه في الثالثة فقال : تنجيهم من النار، تنجيهم من النار، تنجيهم من النار^(١) .

(٤) روى عبد الله بن أبي أوفى قال : «لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ ، فقال : ما هذا يا معاذ ؟ قال : أتيت الشام فوافيتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن أفعل ذلك لك، فقال رسول الله ﷺ : لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها ولو سألتها نفسها وهي على قتب لم تمنعه»^(٢) .

وقد استدل الشوكاني في «نيل الأوطار» بهذا الحديث على قضية العذر بالجهل، وقال : من سجد جاهلاً لغير الله لا يكفر .

(٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما «أن رجلاً جاء رسول الله ﷺ وقال له : ما شاء الله وشئت . فقال ﷺ : أ جعلتني لله نداً ؟ ما شاء الله وحده»^(٣) .

(١) رواه ابن ماجه (٤٩ - ٤٠) والحاكم، وصححه الالبانى .

(٢) رواه ابن ماجه (١٨٥٣) وابن حبان، وحسن الالبانى إسناده .

(٣) رواه أحمد (٢٥٥٧) .

(٦) حديث الربيع بنت معوذ، وفيه قول الجارية : وفينا نبي يعلم ما فى غد، وقول النبي ﷺ : «دعى هذه وقولى بالذى كنت تقولين»^(١) رواه البخارى، وفى رواية ابن ماجه : «ما يعلم ما فى غد إلا الله»^(٢) فعلمهن ﷺ ولم يكفرهن .

(٧) إذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات، كما فى حديث النوية التى زنت ولم يُقَمِّ عمرالحد عليها، فأولى ثم أولى أمر التكفير، وقد كان الإمام مالك - رحمه الله - يقول : لو احتمل المرء الكفر من تسعة وتسعين وجهاً، واحتمل الإيمان من وجه لحمته على الإيمان تحسیناً للظن بالمسلم .

(٣) بعض أقوال أهل العلم

(١) قال الشافعى - رحمه الله - : لله تعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيه ﷺ أمته، لا يسع أحداً من خلق الله قامت عليه الحجة ردها لأن القرآن نزل بها وصح عن رسول الله ﷺ القول بها فيما روى عنه العدول، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر، أما قبل ثبوت الحجة عليه فمعدور بالجهل لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالرؤية والفكر، ولا يكفر بالجهل، بها أحد إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها، وتثبت هذه الصفات وينفى عنه التشبيه كما نفى التشبيه عن نفسه تعالى فقال سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

(٢) قال الخطابى : «فإن قيل : كيف تأولت أمر الطائفة التى منعت الزكاة على الوجه الذى ذكرت وجعلتهم أهل بغى ؟ وهل إذا أنكرت طائفة من المسلمين فى زماننا فرض الزكاة وامتنعوا عن آدائها يكون حكمهم حكم أهل البغى ؟ قلنا : لا فإن من أنكرك فرض الزكاة فى هذه الأزمان كان كافراً بإجماع المسلمين، والفرق بين هؤلاء وأولئك أنهم إنما عذروا لأسباب وأمور لا يحدث مثلها فى هذا الزمان، منها قرب العهد بزمان الشريعة الذى كان يقع فيه تبديل الأحكام بالنسخ .

ومنها أن القوم كانوا جهالاً بأمور الدين، وكان عهدهم بالإسلام قريباً، فدخلتهم الشبهة فعذروا .

(١) رواه البخاري (٥١٤٧) .

(٢) رواه ابن ماجه (١٨٩٧) .

فأما اليوم، وقد شاع دين الإسلام، واستفاض علم وجوب الزكاة حتى عرفها الخاص والعام، واشترك فيه العالم والجاهل، فلا يعذر أحد بتأويل يتأوله في إنكارها، وكذلك الأمر في كل من أنكر شيئاً مما أجمعت الأمة عليه من أمور الدين إذا كان علمه منتشرأ كالصلوات الخمس، وصوم شهر رمضان، والإغتسال من الجنابة، وتحريم الزنا، والخمر، ونكاح ذوات المحارم، ونحوها من الأحكام إلا أن يكون رجلاً حديث عهد بالإسلام، ولا يعرف حدوده، فإنه إذا أنكر شيئاً منها جهلاً به لم يكفر، وكان سبيله سبيل أولئك القوم في بقاء اسم الدين عليه .

فأما ما كان الإجماع فيه معلوم من طريق علم الخاصة كتحریم المرأة على عمتها وخالتها، وأن القاتل عمدأ لا يرث، وأن للجدة السدس، وما أشبه ذلك من الأحكام، فإن من أنكرها لا يكفر بل يعذر فيها لعدم استفاضة علمها في العامة .

(٣) قال ابن تيمية : إني من أعظم الناس نهياً أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة وفاسقاً أخرى وعاصياً أخرى، وإني أقر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية .

(٤) قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب^(١) : «إذا كنا لانكفر من عبد الصنم الذى على قبر عبد القادر (الجيلانى)، والصنم الذى على قبر أحمد البدوى وأمثالها، لأجل جهلهم وعدم من يفهمهم، فكيف نكفر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا ولم يكفر ويقاتل؟! سبحانك هذا بهتان عظيم» .

(٥) قال القرطبي : فكما أن الكافر لا يكون مؤمناً إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافراً من حيث لا يقصد الكفر ولا يختاره بالإجماع .

(١) صيانة الإنسان عن وساوس الشيطان دحلان (٤٤٩) .

والنقول فى هذا المعنى كثيرة، تستند لنصوص الكتاب والسنة، وكلها تعم المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية - قضايا التوحيد ومسائل الفقه - وهى بمثابة الرد البليغ على من لا يعذر بالجهل من الخوارج وأشباههم، وقديماً قالوا : ما احتج صاحب بدعة على بدعته بدليل إلا وكان فى هذا الدليل ما يرد عليه ويُدحض بدعته، والخوارج وأشباههم جهال بمعانى التوحيد قبل غيرها ولكنهم يكيلون بمكيالين، وهذا يصح فى المقطوع بكفره كفرعون . . .

أما فىمن تكفيره موضع اجتهاد، فلا يجوز تطبيق هذه المقولة على من اختلفنا معه، وقد اختلف الإمام أحمد والشافعى - رحمهما الله - فى تكفير تارك الصلاة، فهل كفر أحدهما الآخر!!؟

ومن باب أولى وأحرى عدم المؤاخذة قبل الإنذار، وأنه لا اعتبار بصدور فعل كفرى لم يُرد به فاعله الخروج عن الإسلام إلى ملة الكفر، ولا اعتبار بلفظ تلفظ به المسلم يدل على الكفر وهو لا يعتقد معناه، كما قال الشوكانى : من سجد جاهلاً لغير الله لم يكفر .

وقال ابن العربى : فالجاهل والمخطئ من هذه الأمة، ولو عمل من الكفر والشرك ما يكون صاحبه مشركاً أو كافراً، فإنه يعذر بالجهل والخطأ حتى يتبين له الحججة التى يكفر تاركها بياناً واضحاً ما يلتبس على مثله، وينكر ما هو معلوم بالضرورة من دين الإسلام، مما أجمعوا عليه إجماعاً قطعياً يعرفه كل من المسلمين من غير نظر وتأمل ولم يخالف فى ذلك إلا أهل البدع. (١)

المسألة الثانية : معنى العذر بالجهل

توهم البعض ، أن العلماء يكفرون كل من قالوا عنه لا يعذر بجهله !! وهذا خطأ ، وقد سئل الشيخ ابن باز - رحمه الله - عن اعتاد حلق اللحية ، هل يعذر بجهله؟ فقال : لا يعذر بالجهل ، فهل معنى ذلك تكفير حليق اللحية ؟

وسبق أن نقلنا كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب - في حديث ذات أنواط- ، وقوله في المسألة السابعة : إن النبي ﷺ لم يعذرهم ، وذلك لأنه ﷺ عنهم على مقالتهم ، وإلا فالشيخ - رحمه الله - يرى في المسألة (الحادية عشرة) أنهم لم يرتدوا .

وكان الإمام أحمد - رحمه الله - يقول لعلماء وقضاة الجهمية : «أنا لو قلت قولكم لكفرت ، ولكنى لا أكفركم لأنكم عندي جهال» .

وقد يكون الإنسان معذوراً بجهله ويأثم في ذات الوقت لتقصيره في طلب العلم ، فإن هذا العذر لا يكون عذراً إلا مع العجز عن إزالته ، وإلا فمتى أمكن الإنسان معرفة الحق فقصّر فيه لم يكن معذوراً كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ، ومن الناس من يعذر بجهله فلا يأثم ولا يعاقب ولا يخرج من ملة الإسلام إذا أتى بشئ من الكفر العملى أو اعتقد كفراً جاهلاً به .

يقول ابن تيمية : «فإن من نشأ ببادية أو كان حديث عهد بالإسلام ، وفعل شيئاً من المحرمات غير عالم بتحريمها لم يأثم ولم يُحد ، وإن لم يستند في استحلاله إلى دليل شرعى» .

وقال النووى فى «شرح مسلم» : «اعلم أن مذهب أهل الحق أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنوب ، ولا يكفر أهل الأهواء والبدع ، وأن من جحد ما يُعلم من دين الإسلام ضرورة حكم بردته وكفره إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة ونحوه ممن يخفى عليه ، فيعرف ذلك ، فإن استمر حكم بكفره ، وكذلك فمن استحل الزنا أو الخمر أو القتل أو غير ذلك من المحرمات التى يُعلم تحريمها ضرورة .

ومن الناس من يختبرون ويمتحنون يوم القيامة كأهل الفترة الذين لم تبلغهم دعوة نبي ، وهناك مسائل لا تُقبل فيها دعوى الجهل كمسائل الكفر المجرد ، وذلك

لقيام الحجّة فيها على كل أحد، كسب الله ورسوله، وإلقاء المصحف فى القاذورات، ونحو ذلك .

وكذلك لا يعذر من أعرض عن فهم الحق بعد بيانه أو عاند بعد قيام الحجّة عليه .
يقول ابن القيم - رحمه الله - : (١)

الأصل الثانى : أن العذاب يستحق بسببين :

أحدهما : الإعراض عن الحجّة، وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها .

الثانى : العناد لها بعد قيامها، وترك إرادة موجبها .

فالأول كفر إعراض، والثانى كفر عناد، وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجّة وعدم التمكن من معرفتها، فهذا الذى نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل اهـ .

والحاصل أن الناس يتفاوتون تفاوتاً عظيماً فى هذه المسألة، والواجب علينا أن ننزل الحكم الشرعى على الواقع المساوى له، فإذا استشكل علينا الأمر رددنا العلم لعالمه، وخصوصاً فيما تؤخذ به الأموال، وتُستحل به الفروج، وتُفقد به الأهلية ويُخلد به الإنسان فى نيران الجحيم .

المسألة الثالثة : المعلوم من الدين بالضرورة

يقول العلماء : من جحد شيئاً من المعلوم من الدين بالضرورة يكفر ويخرج من ملة الإسلام، ويضربون لذلك أمثلة كفرضية الصلاة . . . وكذلك الحكم فىمن استحل الحرام المجمع على تحريمه كاستحلال الزنا والخمر، فإنه يكفر بلا خلاف .

وقد أدى الجهل بالمصطلحات العلمية - كالمعلوم من الدين بالضرورة - إلى وقوع كثير من صور الغلو، وإلا فالمعلوم من الدين بالضرورة فى زمن قد يكون مجهولاً فى زمن آخر، والمعلوم فى مكان أو عند شخص قد يكون مجهولاً فى مكان آخر أو عند شخص آخر .

(١) طريق الهجرتين (٤١٢) .

وقد ثبت أن عبد الرحمن بن حاطب كانت له نوبية صامت وصلت، وهي أعجمية لا تفقه، وكانت ثيباً فحملت، فأرسل إليها عمر بن الخطاب فسألها: أحبلت؟ قالت: نعم من مرعوش بدرهمين، فاستشار عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف، فقال على وعبد الرحمن: وقع عليها الحد (أى الرجم). فقال عثمان: أراها تستهل به كأنها لا تعلمه، وليس الحد إلا على من علمه، فقال عمر لعثمان: صدقت والذى نفسى بيده ما الحد إلا على من علمه.

فهذه المرأة كانت فى زمن الصحابة رضي الله عنهم وهى تجهل هذا الحد.

والفارق كبير بين دار الإسلام ودار الحرب فى انتشار واشتهار الأحكام الشرعية.

فى (الوجيز) (١٠٨) تحت عنوان «الجهل فى دار الحرب» ما نصه:

القاعدة أن العلم فيها لا يفترض إذ هى ليست دار علم بالأحكام الشرعية بل دار جهل بها، على هذا إذا أسلم شخص هناك، ولم يعلم حقيقة وجوب العبادات عليه كالصلاة ونحوها فلم يؤدها، فإنها لا تلزمه قضاء إذا علمها وكذلك إذا شرب الخمر جهلاً منه بحرمتها، فلا إثم عليه ولا عقاب لأن المؤاخظة ولزوم التكليف ينشآن ببلوغ الخطاب إليه حقيقة أو تقديراً بشهرته فى محله، وليست دار الحرب بالدار التى تشيع فيها الأحكام وتشتهر. أ. هـ.

فالواجب علينا أن نتنبه، فالشئ قد يكون معلوماً فى عصر الصحابة، وأمره ليس كذلك الآن، وقد يكون معروفاً مشهوراً فى السعودية، أما فى أدغال أفريقيا فلم يسمعوا به، فكيف نسوى بين العالم والجاهل.

ومن المعلوم أن الفتوى تختلف زماناً ومكاناً وشخصاً.

المسألة الرابعة : تتمات وأصول للرد على الغلاة

الإيمان قول وعمل، أو هو قول باللسان وإقرار بالجنان وعمل بالأركان، وهو عبارة عن شعب وشعب، الإيمان تسمى إيماناً، والطاعات كلها من شعب الإيمان لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أى صلاتكم التى كنتم تصلونها إلى بيت المقدس، والإيمان يزيد وينقص، وزيادته بالطاعات ونقصانه بالمعاصى والزلات، وأهله يتفاضلون ويتفاوتون فيه، كما دلت على ذلك النصوص الشرعية .

وقد نحكم للإنسان بالإسلام ويعلم الله كفره، وليس لنا إلا ذلك، لأننا لم نؤمر أن نشق عن الصدور أو أن ننقب عن القلوب، ومن المعلوم أن النبي ﷺ لم ينه عن ذبائح المنافقين، وكانوا يتزوجون من المسلمين .

وقد يجتمع في الإنسان إيمان وكفر، أو إيمان وشرك، أو إيمان ونفاق، قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

وقد يتواجد في الإنسان خصلة من خصال المنافقين كالكذب أو إخلاف الوعد... مع إيمانه، وبحسب غلبة أحدهما على الإنسان يؤول أمره إليه .

وقد اتفق العلماء على أن شرع الله فيه كفر دون كفر، وشرك دون شرك، وفسق دون فسق، وظلم دون ظلم، ونفاق دون نفاق .

ففي الحديث : «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»^(١)، وقال ﷺ : «لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٢).

ومجرد الإقتال لا يوجب التكفير، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩].

فأثبت لهم سبحانه الإيمان مع الإقتال، كما ثبت أيضاً أن البعض لما قال لأخيه: يا ابن السوداء، قال له النبي ﷺ : «إنك امرؤ فيك جاهلية»، فأين هذا السبب وهذا الإقتال، من فسق إبليس ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] وكفر فرعون وقارون وأبى جهل .

(١) رواه البخاري (٤٨)، مسلم (٦٤)، الترمذي (١٩٨٣)، النسائي (٤١٠٥)، ابن ماجه (٦٩)، أحمد (٣٦٣٩).

(٢) رواه البخاري (١٣١)، مسلم (٦٥)، النسائي (٤١٣١)، ابن ماجه (٣٩٤٢)، أحمد (١٨٦٨٦).

قال القاسمى: حيثما وقع فى حديث من فعل كذا فقد أشرك أو فقد كفر، لا يراد به الكفر المخرج من الملة، والشرك الأكبر المخرج عن الإسلام الذى تجرى عليه أحكام الردة، والعياذ بالله تعالى .

وقد قال البخارى: «باب كفران العشير وكفر دون كفر».

ومن المسائل الهامة التى تدعو الحاجة لبيانها، مسألة الفرق بين النوع والمعين، وهى كثيراً ما تلتبس على الناس، إذا سمعوا أن من فعل كذا أو قال كذا فهو كافر، فإذا ما وجدوا إنساناً فعل أو قال ذلك سارعوا بتكفيره دون تريث أو تثبت .

وفى ذلك يقول ابن تيمية: «إن القول قد يكون كفراً فيطلق القول بتكفير صاحبه، ويقال: من قال كذا فهو كافر، لكن الشخص المعين الذى قاله لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التى يكفر تاركها، وهذا كما فى نصوص الوعيد، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد، فلا يشهد لمعين من أهل القبلة بالنار لجواز أن لا يلحقه الوعيد لفوات شرط أو ثبوت مانع، فقد لا يكون التحريم بلغه، وقد يتوب من فعل المحرم، وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة ذلك المحرم، وقد يتلى بمصائب تكفر عنه، وقد يشفع فيه شفيح مطاع .

وهكذا الأقوال التى يكفر قائلها، قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون بلغته ولم تثبت عنده أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون قد عرضت له شبهات ويعذر الله بها، فمن كان من المؤمنين مجتهداً فى طلب الحق وأخطأ، فإن الله يغفر له خطأه كائناً ما كان، سواء كان فى المسائل النظرية أو العملية، هذا الذى عليه أصحاب النبى ﷺ وجماهير أئمة الإسلام^(١).

بعض أوجه القراءات. معناها وفائدتها

قرأ عمر بن عبد العزيز والزهرى : ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ {الأنبياء: ٨٧} بضم النون وتشديد الدال من التقدير، وحكى هذه القراءة الماوردى عن ابن عباس، وقرأ عبيد بن عمير وقتادة والأعرج : ﴿ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ بضم الياء مشدداً على الفعل المجهول .

وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبى اسحق والحسن وابن عباس أيضاً « يُقَدَّرُ عَلَيْهِ » بياء مضمومة وفتح الدال مخففاً على الفعل المجهول .

وعن الحسن أيضاً : ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ وقرأ الباقون « نَقْدَرُ » بفتح النون وكسر الدال، وكله بمعنى التقدير، وحكى القاضى منذر بن سعيد : أن بعضهم قرأ « أظنن » بالالف .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ {الأنبياء: ٨٨} قراءة العامة بنونين وقرأ ابن عامر « نَجِيَّ » بنون واحدة وجيم مشددة وتسكين الياء . وقرأ محمد بن السميعة وأبو العالية ﴿ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى نجي الله المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ {الصفات: ١٤٧} قرأ جعفر بن محمد ﴿ يَزِيدُونَ ﴾ بغير همز .

قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ {القلم: ٤٩} قراءة العامة « تداركه » . وقرأ ابن هرْمَزُ والحسن « تَدَارَكَهُ » بتشديد الدال، وقرأ ابن عباس وابن مسعود « تداركته » ، وهو خلاف المرسوم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَنَتْ فَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُنُسُّ ﴾ {يونس: ٩٨} فى مصحف أبى وابن مسعود « فهلا » وقراءة العامة (قوم) ويجوز « إلا قوم يونس » ، قال أبو إسحق الزجاج : يكون المعنى غير قوم يونس .

والقراءات جمع قراءة، وهى مذهب من مذاهب النطق فى القرآن يذهب به إمام من الأئمة القراء مذهباً يخالف غيره، ويرجع عهد القراء الذين أقاموا الناس على طرائقهم فى التلاوة إلى عهد الصحابة، وهى تختلف عن الأحرف السبعة وضوابط القراءة الصحيحة :

(١) موافقة القراءة للعربية بوجه من الوجوه .

(٢) أن توافق القراءة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً .

(٣) أن تكون القراءة صحيحة الإسناد، ولا يعول على قول بعض النحاة بتخطئة القراءة الصحيحة بزعم مخالفتها لقواعدهم النحوية، فالقراءة الصحيحة بمثابة الحكم على القواعد اللغوية والنحوية، لا أن نجعل هذه القواعد حكماً على القرآن .

والجمهور على أن القراءات السبع متواترة، وأن غير المتواتر المشهور لا تجوز القراءة به في الصلاة ولا في غيرها .

قال النووي في «شرح المهذب» : لا تجوز القراءة في الصلاة ولا غيرها بالقراءة الشاذة، لأنها ليست قرآناً، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر والقراءة الشاذة ليست متواترة، ومن قال غيره فغالط أو جاهل، فلو خالف وقرأ بالشاذة أنكر عليه قراءته في الصلاة وغيرها .

وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة من قرأ بالشواذ، نقل ابن عبد البر إجماع المسلمين على أنه لا يجوز القراءة بالشواذ، ولا يصلى خلف من قرأ بها .

ولإختلاف القراءات الصحيحة فوائد منها :

(١) الدلالة على صيانة كتاب الله، وحفظه من التبديل والتحريف، مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة .

(٢) التخفيف عن الأمة وتسهيل القراءة عليها .

(٣) إعجاز القرآن في إيجازه، حيث تدل كل قراءة على حكم شرعى دون تكرار اللفظ .

(٤) بيان ما يحتمل أن يكون مجملاً في قراءة أخرى كقراءة «يطهرن» في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] .

قرئ بالتشديد والتخفيف، فقراءة التشديد مبينة لمعنى قراءة التخفيف، عند الجمهور، فالحائض لا يحل وطؤها لزوجها بالطهر من الحيض، أى بإنقطاع الدم، حتى تطهر بالماء .

والقراء السبع المشهورون هم :

- (١) أبو عمرو بن العلاء (٢) ابن كثير
 (٣) نافع المدني (٤) ابن عامر الشامي
 (٥) عاصم الكوفي (٦) حمزه الكوفي
 (٧) الكسائي الكوفي .

القرعة ومشروعيتها

ذكر الطبراني : «أن يونس عليه السلام لما ركب فى السفينة أصاب أهلها عاصف من الريح، فقالوا : هذه بخطيئة أحدكم . فقال يونس -وعرف أنه هو صاحب الذنب- : هذه خطيئتي فألقوني فى البحر، وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١] .

فقال لهم : قد أخبرتكم أن هذا الأمر بذنبي، وأنهم أبوا عليه حتى أفاضوا بسهامهم» .

الثانية : ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ وأنهم أبوا أن يلقوه فى البحر حتى أعادوا سهامهم .

الثالثة : ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ فلما رأى ذلك ألقى نفسه فى البحر، وذلك تحت الليل فابتلعه الحوت . وهذا يدل على أن القرعة كانت معمولاً بها فى شرع من قبلنا .

قال ابن العريبي : وقد وردت القرعة فى الشرع فى ثلاثة مواطن :

الأول : كان النبي ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه .

الثانى : أن النبي ﷺ رفع إليه أن رجلاً أعتق ستة أعبد لا مال له غيرهم، فأقرع بينهم، فاعتق اثنين وأرق أربعة .

الثالث : أن رجلين اختصما إليه فى مواريث قد درست فقال : «اذهبا وتوخيا

الحق، واستهما، وليحلل كل واحد منكما صاحبه» .

فهذه ثلاثة مواطن، وهى القَسَم فى النكاح والعتق والقسمة، وجريان القرعة فيها لرفع الإشكال وحسم داء التشهى، واختلف علماؤنا فى القرعة بين الزوجات فى الغزو على قولين، الصحيح منهما الإقراع، وبه قال فقهاء الأمصار، وذلك أن السفر بجميعهن لا يمكن، واختيار واحدة منهن إثارة فلم يبق إلا القرعة .

وكذلك فى مسألة الأعبء الستة، فإن كل اثنين منهما ثلث، وهو القدر الذى يجوز له فيه العتق فى مرض الموت، وتعيينهما بالتشهى لا يجوز شرعاً فلم يبق إلا القرعة .

وكذلك التشاجر إذا وقع فى أعيان الموارىث لم يميز الحق إلا القرعة، فصارت أصلاً فى تعيين المستحق إذا أشكل .

قال : والحق عندى أن تجرى فى كل مشكل، فذلك أبين لها، وأقوى لفصل الحكم فيها، وأجلى لرفع الإشكال عنها، ولذلك قلنا: إن القرعة بين الزوجات فى الطلاق كالقرعة بين الإماء فى العتق .

السفينة لا تخف برمى الرجال فما سبيل استبقائها ؟

قال القرطبى فى تفسيره : «الإقتراع على إلقاء آدمى فى البحر لا يجوز . وإنما كان ذلك فى يونس وزمانه مقدمة لتحقيق برهانه، وزيادة فى إيمانه، فإنه لا يجوز لمن كان عاصياً أن يقتل أو يرمى به فى النار أو البحر، وإنما تجرى عليه الحدود والتعزير على مقدار جنايته .

وقد ظن بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم، فاضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة تضرب عليهم، فيطرح بعضهم تخفيفاً، وهذا فاسد، فإنها لا تخف برمى بعض الرجال، وإنما ذلك فى الأموال، ولكنهم يصبرون على قضاء الله» .

وقد ورد ما يدل على جواز إفساد بعض المال إذا كان فيه سلامة لأكثره، وارتكاب أخف الضررين لدفع أضرهما، ومن جملة ما يُستدل به قوله تعالى : ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ

يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ [الكهف: ٧٩] فخرق السفينة وإن كان ضرراً ومفسدة إلا أنه أخف ضرراً ومفسدة من أخذها كلها لو سلمت من الخرق .

قال ابن حجر فى «فتح البارى» : «وأما من استدل به على (بفعل الخضر بالسفينة والغلام والجدار) على جواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما معظمة كخصاء البهيمة للسمن وقطع أذنها للتميز، ومن هذا مصالحة ولى اليتيم السلطان على بعض مال اليتيم خشية ذهابه بجميعة فصحيح، لكن فيما لا يعارض نصوص الشرع، فلا يسوغ الإقدام على قتل النفس ممن يتوقع منه أن يقتل أنفساً كثيرة قبل أن يتعاطى شيئاً من ذلك، وإنما فعل الخضر ذلك لإطلاع الله تعالى عليه» .

وقال القرطبي : «فى خرق السفينة دليل على أن للولى أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صالحاً مثل أن يخاف على ريعه ظالماً فيخرب بعضه» .

وقال أبو يوسف : «يجوز للولى أن يصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض» .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد سئل عن راعى أبقار، رأى بقرة مريضة فخشى عليها أن تفوت على صاحبها، فذبحها هو أو بعض من رآها، فهل على الراعى ضماناً ؟ .

فأجاب : «لا يلزم الراعى شئ إذا لم يكن منه تفريط ولا عدوان، بل إن كان الأمر كما ذكروا لا يلزم فى ذبحها شئ، فإنهم قد أحسنوا فيما فعلوا، فإن ذبحها خير من تركها حتى تموت . وقد فعل مثل هذا راع على عهد النبي ﷺ، ولم ينكر النبي ﷺ ذلك، ولا بين أنه ضامن، وهو نظير خرق صاحب موسى السفينة ليستفج بها أهلها مرقوعة، فإن ذلك خير لهم من ذهابها بالكلية، ومثل هذا لو رأى الرجل مال أخيه المسلم يتلف بمثل هذا، فأصلحه بحسب الإمكان، كان مأجوراً عليه وإن نقصت قيمته، فناقص خير من تالف، فكيف إذا كان مؤتمناً كالراعى ونحوه»^(١) اهـ .

تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة

خرج الترمذى من حديث أبى هريرة عن النبي ﷺ : «من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد، فليكثر الدعاء فى الرخاء»^(١)، وخرج ابن أبى حاتم وغيره

(١) راجع كتابي: «أخطاء شائعة فى البيوع وحكم بعض المعاملات الهامة» (٦٥ - ٦٧) .

من رواية أبى يزيد الرقاش عن أنس يرفعه : « أن يونس عليه الصلاة والسلام لما دعا فى بطن الحوت ، قالت الملائكة : يارب هذا صوت معروف من بلاد غريبة ، فقال الله عز وجل : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : ومن هو ؟ قال : عبدى يونس ، قالوا : عبدك يونس الذى لم يزل يُرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة ؟ قال : نعم ، قالوا : يارب أفلا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال : بلى ، قال : فأمر الله الحوت فطرحه بالعرء . »

وقال الضحاك بن قيس : اذكروا الله فى الرخاء يذكركم فى الشدة ، إن يونس عليه الصلاة والسلام كان يذكر الله تعالى ، فلما وقع فى بطن الحوت قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسِيحِينَ (١٤٢) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصفافات: ١٤٣-١٤٤] وإن فرعون كان طاغياً ناسياً لذكر الله ، فلما أدركه الغرق ، قال : آمنت ، فقال الله تعالى : ﴿ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩١] .

وقال سلمان الفارسى : إذا كان الرجل دعاء فى السراء ، فنزلت به ضراء فدعا الله تعالى قالت الملائكة : صوت معروف فشفعوا له ، وإذا كان ليس بدعاء فى السراء فنزلت به ضراء فدعا الله تعالى قالت الملائكة : صوت ليس بمعروف ، فلا يشفعون له .

وقال رجل لأبى الدرداء : أوصنى . فقال : اذكر الله فى السراء يذكرك الله عز وجل فى الضراء ، وعنه أنه قال : ادع الله فى يوم سرائك لعله أن يستجيب لك فى يوم ضرائك .

وأعظم الشدائد التى تنزل بالعبد فى الدنيا ، وما بعده أشد منه إن لم يكن مصير العبد إلى خير ، فالواجب على المؤمن الإستعداد للموت وما بعده فى حال الصحة والتقوى والأعمال الصالحة .

قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدِمَتْ لَعَدَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٨-١٩] .

فمن ذكر الله في حال صحته ورخائه واستعد حينئذ للقاء الله عز وجل بالموت وما بعده، ذكره الله عند هذه الشدائد فكان معه فيها، ولطف به وأعانه وتولاه وثبته على التوحيد فلقبه وهو عنه راض، ومن نسى الله في حال صحته ورخائه ولم يستعد حينئذ للاقائه نسيه الله في هذه الشدائد، بمعنى أنه أعرض عنه فأهمله، فإذا نزل الموت بالمؤمن المستعد له أحسن الظن بربه، وجاءته البشرى من الله فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه، والفاجر بعكس ذلك وحينئذ يفرح المؤمن ويستبشر بما قدمه مما هو قادم عليه، ويندم المفرط ويقول: يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله.

قال أبو عبد الرحمن السلمى قبل موته : كيف لا أرجو ربي، وقد صمت له ثمانين رمضاناً ؟ .

وقال أبو بكر بن عياش لابنه عند موته : أتري الله يضيع لأبيك أربعين سنة يختم القرآن كل ليلة . وختم آدم بن أبي إياس القرآن وهو مسجى للموت ثم قال : بحبى لك إلا رفقت بى فى هذا المصرع ، كنت أملك لهذا اليوم كنت أرجوك لا إله إلا الله ، ثم قضى . ولما احتضر زكريا بن عدى رفع يديه وقال : اللهم إني إليك لمشتاق .

وقال قتادة فى قول الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق : ٢] قال : من الكرب عند الموت، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية : ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة، وهذا كله ذكره الحافظ ابن رجب فى شرح حديث ابن عباس رضي الله عنه قال : «كنت خلف النبى صلى الله عليه وسلم يوماً، فقال لى : يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفوك بشئ لن ينفوك إلا بشئ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ لن يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف» .^(١)

وفى رواية غير الترمذى : «احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»^(١).

كان من المسيحين ففرج الله كربه

قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصفافات: ١٤٣-١٤٤] قيل لولا ما تقدم له من العمل فى الرخاء قاله الضحاك بن قيس وأبو العالية ووهب ابن منبه وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير والضحاك وعطاء بن السائب والسدى والحسن وقتادة : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ [الصفافات: ١٤٣] يعنى المصلين، وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك، وقال بعضهم : كان من المسيحين فى جوف أبيه، وقيل : المراد ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ هو قوله عز وجل : ﴿ فَنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين (٨٧) فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨] قاله سعيد بن جبير وغيره .

وروى الطبرى من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أراد الله - تعالى ذكره - حبس يونس فى بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخذش لحماً ولا تكسر عظماً، فأخذه ثم هوى به إلى مسكنه من البحر، فلما انتهى به أسفل البحر سمع يونس حساً، فقال فى نفسه : ما هذا ؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه وهو فى بطن الحوت إن هذا تسييح دواب البحر، قال : فسبح وهو فى بطن الحوت : قال : فسمعت الملائكة تسيحه، فقالوا : ياربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة . قال : ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر . قالوا : العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح . قال : نعم . فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت بقذفه فى الساحل كما قال تعالى : ﴿ وهو سقيم ﴾ [الصفافات: ١٤٥] وكان سقمه الذى وصفه به الله - تعالى ذكره - أنه ألقاه الحوت على الساحل كالصبي المنفوس قد نشر اللحم والعظم » اهـ .

ومن المعلوم أن الذكر من أجل الطاعات وأفضل القربات، بل ما شرعت الفرائض والواجبات إلا إقامة لذكر الله، ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه: ١٤] ولذلك لا يبعد تفسير من قال : ﴿ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ [الصفافات: ١٤٣]

أَيِّ الْمُصَلِّينَ، وَقَدْ حَكِي لَنَا سُبْحَانَهُ عَنِ الْكُونِ مِنْ حَوْلِنَا فَقَالَ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغْ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] فلا يبعد سماع يونس - عليه السلام - تسبيح دواب البحر، وأفضل الذكر ما اجتمع عليه القلب واللسان، ثم ماخرج من القلب، ثم ماكان باللسان، وأفضل الكلام كلام الله تعالى ثم كلمات أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ثم الذكر، ثم الدعاء بالوارد المسنون، ثم الدعاء بمعناه، ثم ماكان بالأعجميه، كما بين ابن تيمية.

ويدخل في معنى الذكر: ذكر أسماء الله عز وجل وصفاته، ومدحه والثناء عليه بها نحو: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، والخبر عن الله عز وجل بأحكام أسمائه وصفاته، نحو: الله عز وجل يعلم ماكان، وما يكون، وما لم يكن لوكان كيف يكون. وكذلك ذكر الأمر والنهي وآلائه وإحسانه.

والذكر هو باب الله الأعظم المفتوح بين العبد وربّه، قال الحسن البصرى: تفقدوا الخلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة وفي الذكر وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وفي الحديث: «مثل الذى يذكر ربه، والذى لا يذكر ربه، مثل الحى والميت»^(١) وأخرج البخارى تعليقا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الشیطان جائم على قلب ابن آدم إذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس له».

وكان البعض يقول: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها، وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفة وذكره.

فاحرص رحمك الله على طاعة الله، وإدامة ذكره فى عسرك ويسرك، ومشطك ومكرهك، ورخائك وشدتك، ولا تنس حفظ أذكار الشروق والغروب والنوم ويسائر الأذكار الموظفة، فإنها نافعة لك بإذن الله - فى الدنيا والآخرة - قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [الرعد: ١٥٢] وقال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وإن ثقل عليك الأمر، فأكثر من ذكر الموت والقبور والآخرة، واسأل الله أن يرزقك لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وجسداً على البلاء صابراً، وادعوه سبحانه، بدعاء نبيه صلى الله عليه وسلم: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك»^(٢).

(١) رواه البخاري (٦٤٠٧)، مسلم (٧٧٩)، اللفظ للبخاري

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٠).

فوائد الذكر

ذكر الإمام ابن القيم - رحمه الله - فى كتابه «الوابل الصيب» فوائد كثيرة للذكر، منها :

- (١) أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره .
 - (٢) أنه يرضى الرحمن عز وجل .
 - (٣) أنه يزيل الهم والغم عن القلب .
 - (٤) أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط .
 - (٥) أنه يقوى القلب والبدن .
 - (٦) أنه ينور الوجه والقلب .
 - (٧) أنه يجلب الرزق .
 - (٨) أنه يكسوا الذاكرا المهابة والحلاوة والنضرة .
 - (٩) أنه يورثه المحبة التى هى روح الإسلام، وقطب رحى الدين، ومدار السعادة والنجاة .
 - (١٠) أنه يورثه المراقبة حتى يدخل فى باب الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه .
 - (١١) أنه يورثه الإنابة، وهى الرجوع إلى الله عز وجل .
 - (١٢) أنه يورثه القرب منه سبحانه .
 - (١٣) أنه يفتح له باباً عظيماً من أبواب المعرفة، وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة .
 - (١٤) أنه يورثه الهيبة لربه عز وجل، وإجلاله لشدة استيلائه على قلبه، وحضوره مع الله تعالى .
 - (١٥) أنه يورثه ذكر الله تعالى له كما قال تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾
- {البقرة: ١٥٢}
- (١٦) أنه يورثه حياة القلب .
 - (١٧) أنه قوت القلب والروح، فإذا فقد العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه

وبين قوته

(١٨) أنه يورث جلاء القلب من صدته، وصدأ القلب بأمرين : بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين بالإستغفار والذكر.

(١٩) أنه يحط الخطايا ويذهبها، فإنه من أعظم الحسنات، والحسنات يذهب السيئات .

(٢٠) أنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى .

(٢١) ومنها أنه سبب لنزول الرحمة والسكينة كما قال ﷺ : «وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فىمن عنده»^(١)

(٢٢) والذكر سبب لاشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل .

(٢٣) الذكر شفاء لقسوة القلب، قال رجل للحسن : يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبى، قال : أذبه بالذكر .

وقال مكحول : ذكر الله شفاء، وذكر الناس داء .

(٢٤) الذكر يعطى الذاكر قوة فى قلبه وفى بدنه، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه، وقد علم النبى ﷺ ابنته فاطمة وعلياً عليهما السلام أن يسبحا كل ليلة إذا أخذوا مضاجعهما ثلاثاً وثلاثين، ويحمدا ثلاثاً وثلاثين، ويكبرا أربعاً وثلاثين، لما سأله الخادم، فعلمها ذلك وقال : «إنه خير لكما من خادم»^(٢).

(٢٥) كثرة الذكر أمان من النفاق، قال تعالى فى المنافقين : ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

(٢٦) أن الله عز وجل يباهى بالذاكرين ملائكته .

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري (٣٧٠٥)، مسلم (٢٧٢٧).

(٢٧) الذكر أفضل من الدعاء، الذكر ثناء على الله عز وجل، والدعاء سؤال العبد حاجته، والذكر يجعل الدعاء مستجاباً، فالدعاء الذى تقدمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد .

(٢٨) أن دور الجنة تبنى بالذكر، فإذا أمسك الذاكر عن الذكر أمسكت الملائكة عن البناء .

(٢٩) أن عمال الآخرة فى مضمار السباق، والذاكرين هم أسبقهم فى ذلك المضمار

(٣٠) أن مدمن الذكر يدخل الجنة وهو يضحك .

(٣١) أن ذكر الله عز وجل يسهل الصعب، ويسر العسير، ويخفف المشاق، وهو من أكبر العون على طاعته، يحببها إلى العبد ويسهلها عليه، ويلذذها، ويجعل قرة عينه فيها، ونعيمه وسروره بها، بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل .

(٣٢) أن الذكر أصل مولاته عز وجل ورأسها، والغفلة أصل معاداته ورأسها

(٣٣) أن إدامته تنوب عن التطوعات، وتقوم مقامها، سواء كانت بدنية أو مالية أو بدنية مالية تجمع التطوع .

وهذه الفوائد التى ذكرناها، وغيرها مما ذكره الإمام ابن القيم فى «الوابل الصيب» لها دلائلها من الكتاب والسنة، فراجع الكتاب، فإنه نافع لك بإذن الله .

إذا سألت فاسأل الله

حزى بالعبد أن ينيب إلى ربه، ويتوجه إليه، ويتوكل عليه فى كل أحواله، بحيث لا يتعلق قلبه بأحد سواه فى جلب النفع ودفع الضر، فهو سبحانه المعطى المانع، النافع الضار، كما أنه جل وعلا هو الذى يجيب المضطر ويكشف الضر، فلا يليق بالمخلوق الضعيف أن يتعلق بحوله وطوله، أو بذكائه وفطنته، أو يضعف أمام مخلوق مربوب مثله، وما خاب من رجا الله تعالى ودعاه وسأله من فضله .

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] والدعاء هو العبادة.

وفى الحديث : «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»^(١).
وفى الترمذى عن ابن مسعود مرفوعاً : «سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يسأل»^(٢).

وفيه أيضاً عن أبى هريرة مرفوعاً : «من لا يسأل الله يغضب عليه»^(٣).
وفى حديث آخر: «يسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع»^(٤).
وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً : منهم أبو بكر الصديق وأبو ذر وثوبان، وكان أحدهم يسقط السوط أو خطام ناقته، فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبي ﷺ : «إن الله عز وجل يقول : هل من داع فاستجيب له دعاءه ؟ هل من سائل فأعطيه سؤاله ؟ هل من مستغفر فأغفر له»^(٥)
فمن الذى دعاه سبحانه فلم يجبه ؟ وسأله فلم يعطه ؟ واستغفره فلم يغفر له ؟ .

واعلم أن سؤال الله عز وجل دون خلقه هو المتعين، لأن السؤال فيه إظهار الذل من السائل، والمسكنة والحاجة والإفتقار، وفيه الإعتراف بقدرة المستول على رفع هذا الضرر، ونيل المطلوب وجلب المنافع ودرء المضار، ولا يصلح الذل والإفتقار إلا لله وحده لأنه حقيقة العبادة .

وكان الإمام أحمد يدعو ويقول : اللهم كما صنت وجهى عن السجود لغيرك، فصنه عن المسئلة لغيرك، ولا يقدر على كشف الضرر وجلب النفع سواك .

كما قال : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس : ١٠٧] وقال : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يَمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : ٢]

(١) رواه الترمذى (٢٥١٦).

(٢) رواه الترمذى (٣٥٧١).

(٣) رواه الترمذى (٣٣٧٣).

(٤) رواه الترمذى (٣٩٧٣).

(٥) رواه البخارى (٧٤٩٤) ومسلم (٧٥٨) والترمذى (٤٤٦) (٣٤٩٨) وأبو داود (١٣١٥).

والله سبحانه يحب أن يُسأل، ويُرغب إليه فى الحوائج، ويلجّ فى سؤاله ودعائه، ويغضب على من لا يسأله، ويستدعى من عباده سؤاله، وهو قادر على إعطاء خلقه كلهم سؤالهم من غير أن ينقص من ملكه شئ، والمخلوق بخلاف ذلك كله يكره أن يسأل، ويحب أن لا يسأل لعجزه وفقره وحاجته .

ولهذا قال وهب بن منبه لرجل كان يأتى الملوك: ويحك تأتى من يخلق عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويوارى عنك غناه، وتدع من يفتح لك بابه بالليل ونصف النهار، ويظهر لك غناه، ويقول: ادعنى أستجب لك .

ثم من ترك الإستعانة بالله واستعان بغيره، وكله الله إلى من استعان به، فصار مخذولاً، ومن وكل إلى نفسه، فقد وكل فى الحقيقة إلى ضعف وعورة ونقص .

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : لا تستعن بغير الله، فيكلك الله إليه .

ومن كلام بعض السلف : يارب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو غيرك!؟

وعجبت لمن يعرفك كيف يستعين بغيرك!؟

إن نبي الله يونس -عليه السلام- لم يدع إلا الله، ولم يستعن بغير الله، ولم يتعلق قلبه بأحد سواه، بل كان ذاكراً لله فى رخائه وشدته، ولم يلتفت لحواله وطوله وهو فى بطن الحوت، بل توجه لربه بتضرع وتذلل، وقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ {الأنبياء: ٨٧} .

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين

اسم الله الأعظم

دعوة ذى النون وهو فى بطن الحوت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ {الأنبياء: ٨٧} يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه، والصبر عليهم.

وقيل فى الخروج من غير أن يؤذن له، وقد نزه ربه عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفسه اعترافاً واستحقاقاً، ومثل هذا قول آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ {الأعراف: ٢٣} إذ كانا السبب فى وضعهما أنفسهما فى غير الموضع الذى أنزلا فيه .

روى أبو داود عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال : «دعاء ذى النون فى بطن الحوت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ {الأنبياء: ٨٧} لم يدع به رجل مسلم فى شئ قط إلا استجيب له» .

قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما : «ذلك أنه ذهب به الحوت فى البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع يونس تسبيح الحصى فى قراره، فعند ذلك وهنالك قال : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

وقوله : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ {الأنبياء: ٨٧} أى أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ {الأنبياء: ٨٨} أى إذا كانوا فى الشدائد، ودعونا منيين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء فى حال البلاء، فقد جاء الترغيب فى الدعاء به عن سيد الأنبياء .

وروى ابن جرير عن سعد بن أبي وقاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اسم الله الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى، قال: قلت: يارسول الله، هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هى ليونس ابن متى خاصة، ولجماعة المؤمنين عامة إذا دعوا بها ألم تسمع قول الله عز وجل : ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ {الأنبياء: ٨٧-٨٨} فهو شرط من الله لمن دعاه به» .

وروى ابن أبي حاتم عن كثير بن معبد قال : سألت الحسن، فقلت : يا أبا سعيد اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطي ؟ قال : ابن أخى، أما تقرأ القرآن قول الله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿﴾ ابن أخى، هذا اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطي .

وهذا هو فعل الله بعبده يونس، فقد حفظه ورعى له حق تعبده، وحفظ أمام ما سلف له من الطاعة .

قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤] وهذا أيضاً هو فعله سبحانه إذا أنابوا إليه، ودعوه بهذا الدعاء، فلم تكن الإجابة ليونس - عليه السلام - فقط بل للمؤمنين عامة، ولذلك قال سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم .

قال الأستاذ أبو إسحاق : صحب ذو النون الحوت أياماً قلائل، فإلى يوم القيامة يقال له ذو النون، فما ظنك بعبد عبده سبعين سنة، يبطل هذا عنده ألا يظن به ذلك .

الدعاء

الدعاء هو العبادة، ومن سره أن يستجيب الله له عند الشدائد، فليكثر الدعاء فى الرخاء، ولن يهلك مع الدعاء أحد، فإنه ينفع مما نزل وما لم ينزل، ولا يغنى حذر من قدر، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة .

وقد ورد فى الحديث أنه : «ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له فى الآخرة وإما أن يرفع عنه من سوء مثلها»^(١) .

والإنسان كما يستدفع قدر الجوع بقدر الأكل، وقدر العطش بقدر الشرب، فكذلك يستدفع قدر البلاء بقدر الدعاء، فكلاهما من قدر الله .

وكان كعب الأبحار يقول : أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تعظهن أمة قبلها إلا نبى :
 كان إذا أرسل الله نبياً قال له : أنت شاهد على أمتك، وجعلهم شهداء على الناس
 ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] وكان يقال له : ليس عليك فى الدين
 من حرج، وقال لهذه الأمة : ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]
 وكان يقال له: أدعنى استجب لك، وقال لهذه الأمة : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾
 {غافر: ٦٠}.

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «من لم يسأل الله يغضب عليه»^(١).
 رأى أحد العلماء رجلاً يتردد على أحد الملوك فقال له : يا هذا تذهب إلى من
 يسد دونك بابه، ويظهر لك فقره، ويخفى عنك غناه، وتترك من يفتح لك بابه،
 ويظهر لك غناه، ويقول : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.
 والدعاء يقطع بقبوله مع توفر شروطه، وانتفاء الموانع .

آداب الدعاء

(١) تجنب الحرام مأكلاً ومشرباً وملبساً لقول النبى ﷺ : «إن الله طيب
 لا يقبل إلا طيباً، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى :
 ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال تعالى : ﴿يَا
 أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
 تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى
 السماء: يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى
 بالحرام فأنى يستجاب لذلك»^(٢).

(٢) أن يجزم بالدعاء، ويوقن بالإجابة لقوله ﷺ : «لا يقل أحدكم إذا دعا
 اللهم اغفر لى إن شئت، اللهم ارحمنى إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا مكره»^(٣).

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٤).

(٢) رواه مسلم (١٠١٥).

(٣) رواه البخاري (٦٣٣٩)، مسلم (٢٦٧٩)، الترمذي (٣٤٩٧) وأبو داود (١٤٨٣).

(٣) التوسل إلى الله بالعمل الصالح الذى يتوسم فيه الإخلاص، لحديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، كما فى الصحيحين وغيرهما .

(٤) أن يلح فى الدعاء، ويكرره ثلاثاً، وذلك لحديث ابن مسعود رضى الله عنه : «كان رسول الله ﷺ إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً»^(١) .

(٥) أن يدعوا مستقبلاً القبلة، ويرفع يديه، ولا يدعوا بإثم ولا بقطيعة رحم، ويكون على طهارة تامة، ولا يتكلف السجع، ويدعوا بالمأثور، فهو الأفضل أو بمعناه، ويتذلل فى دعائه للحديث : «إن الله حبي كريم يستحي إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صفراً خائبين»^(٢) .

(٦) الثناء على الله تعالى، وأن يسأل الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وقد اختلف العلماء فى تعيين اسم الله الأعظم على نحو أربعين قولاً، لكن أرجح ما ورد فى تعيين الإسم الأعظم أحاديث منها :

(١) «اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»^(٣) وقال : صحيح على شرطهما من حديث عبد الله بن بريدة عن ابنه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : اللهم إنى أسألك . . . فقال : «لقد سألت الله تعالى باسمه الأعظم، الذى إذا سئل به أعطى، وإذا دُعى به أجاب»^(٤) .

(٢) «اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم»^(٥) الحديث أخرجه أصحاب السنن الأربعة وابن حبان، وصححه، ولفظ ابن ماجه عن أنس بن مالك قال : سمع النبى ﷺ رجلاً يقول : اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد . . . فقال رسول الله ﷺ : «لقد دعا الله باسمه الأعظم، الذى إذا دُعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى» .

(١) رواه مسلم (١٧٩٤) .

(٢) رواه الترمذي (٣٥٥٦) .

(٣) رواه الترمذي (٣٤٧٥)، أبى داود (١٤٩٣) .

(٤) رواه ابن ماجه (٣٨٥٧)، والترمذي (٣٤٧٥) .

(٥) رواه النسائي (١٣٠٠)، وأبى داود (١٤٩٥) وابن ماجه (٣٨٥٨) .

(٣) لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين .

(٧) أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة، كيوم عرفة، وشهر رمضان، ويوم الجمعة، ووقت الحر، وجوف الليل، وثالث الليل الآخر لقول النبي ﷺ : «ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول : من يدعوني فأستجب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»^(١) .

وأن يغتنم كذلك الأحوال الشريفة عند زحف الصفوف في سبيل الله، وعند نزول المطر، وكذلك حال السجود للحديث : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثرُوا من الدعاء»^(٢) .

(٨) أن يفتح الدعاء بالحمد والثناء على الله، ثم يصلى على نبيه ﷺ ، ويختم بالصلاة والحمد لله كذلك، ولا يعجل، ولا يقول : دعوت ولم يستجب لى، لقول النبي ﷺ : «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول : دعوت فلم يستجب لى»^(٣) .

(٩) أن يعظم الرغبة فى ربه عز وجل، لقوله ﷺ : «إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شئ»^(٤) رواه مسلم، وعليه أن يصلح باطنه بالإستجابة لأمر الله، والإقبال عليه سبحانه بكل طاعة يحبها، والبعد عما تسخطه، ويتوب إلى الله توبة نصوحاً .

(١٠) يخفض صوته لحديث : «أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصماً ولا غائباً»^(٥) ، ويعترف بذنبه للحديث : «ظلمت نفسى واعترفت بذنبي فاغفر لى ذنوبى جميعها»^(٦) ، ويحرص على التلبس بالعمل الصالح بين يدي دعاءه كالصدقة والصلاة، لقول النبي ﷺ : «من كانت له حاجة إلى الله عز وجل أو إلى أحد

(١) رواه البخاري (١١٤٥)، مسلم (٧٥٨)، والترمذي (٤٤٦)، وأبي داود (١٣١٥)، وابن ماجه (١٣٦٦).

(٢) رواه مسلم (٤٨٢)، والنسائي (١١٣٧)، وأبي داود (٨٧٥)، وأحمد (٩١٦٥).

(٣) البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥)، وأبي داود (١٤٨٤)، وابن ماجه (٣٨٥٣)، ومالك (٤٩٥)، وأحمد (٨٩٠٣).

(٤) رواه مسلم (٢٦٧٩).

(٥) رواه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤)، وأحمد (١٩٠٢٦).

(٦) رواه مسلم (٧٧١)، والترمذي (٣٤٢٢)، والنسائي (٨٩٧)، وأبي داود (٧٦٠)، وأحمد (٧٣١).

والدارمي (١٢٣٨).

من بنى آدم، فليتوضأ وليحسن الوضوء، ثم ليصل ركعتين، ثم ليثن على الله تعالى بما هو أهله، ويصلى على النبي ﷺ» .

(١١) يبدأ بنفسه، للحديث: «إذا ذكر أحداً، فدعا له بدأ بنفسه»^(١) وقال: حسن صحيح غريب، ولا يخص نفسه إذا كان إماماً لحديث: «لا يؤم رجل قوماً، فيخص نفسه بالدعاء دونهم، فقد خانهم»^(٢) ويحضر قلبه، ولا يدعو بأمر قد فرغ منه، لقول النبي ﷺ: «لن يعجل الله شيئاً قد أجله» .

(١٢) لا يدعو بمستحيل، لقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] ولا يتحجر واسعاً لقول النبي ﷺ: «لقد تحجرت واسعاً» لما سمع الأعرابي يقول: «اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً» وهو ثابت فى الصحيح .

ويسأل حاجته كلها للحديث: «ليسأل أحدكم حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع»^(٣) .

(١٣) يؤمن الداعى والمستمع لما روى عن النبي ﷺ لمن سمعه يدعو: «وجب إن ختمه بأمين»^(٤)

(١٤) لم يثبت خبر ولا أثر فى مسح الوجه باليدين داخل الصلاة، أما خارجها فقد تنازع العلماء فيه، والأشبه بالصحة جواز ذلك لثبوت الخبر عن رسول الله ﷺ، وقد وصفه الحافظ ابن حجر بأنه من جملة الحسن لغيره، وتابعه ابن عثيمين من المعاصرين .

دفع إيهام الإضطراب

قوله تعالى: ﴿فَبَدَّدْنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصفافات: ١٤٥] هذه الآية الكريمة فيها التصريح بنبذ يونس بالعرء، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

وقد جاءت آية أخرى يتوهم منها خلاف ذلك وهى قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾ [القلم: ٤٩] .

(١) رواه الترمذي (٣٣٨٥) .

(٢) رواه الترمذي (٣٥٧)، وأحمد (٢١٩٠٩) .

(٣) رواه الترمذي (٣٩٧٣) .

(٤) رواه أبو داود (٩٣٨) .

ودفع التوهم سهل يسير بإذن الله، بأن يقال : لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء فى حال كونه مذموماً، لكنه تداركته نعمة ربه، فنبذ بالعراء غير مذموم كما أفاده الشنقيطى وغيره .

أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم: ٤٨] .

قال ابن عباس : نهاه أن يتشبه بصاحب الحوت، حيث لم يصبر صبر أولى العزم . فلا يتوهم أن الله نهى نبيه ﷺ عن التشبه بيونس عليه السلام فى ندائه وقد أثنى الله سبحانه عليه فى هذا النداء، فأخبر أنه نجاه به، فقال سبحانه : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] .

فلا يمكن أن ينهى عن التشبه به فى هذه الدعوة، وهى النداء الذى نادى به ربه، وأما نهى عن التشبه به فى السبب الذى أفضى به إلى هذه المناذاة، وهى مغاضبته التى أفضت به إلى حبسه فى بطن الحوت، وشدة ذلك عليه حتى نادى ربه وهو مكظوم، كما أفاده الإمام ابن القيم - رحمه الله - فى «التفسير القيم» .

فمعنى ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ [القلم: ٤٨] نهى أن يشبه به فى الحال التى أفضت به إلى صحبته الحوت وإلجائه إلى النداء، وهو ضعف العزيمة وعدم الصبر لحكمه تعالى، أما نداء يونس - عليه السلام - فمحمود يُتأسى به فيه، وقد أثنى الله على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم إياه كشف ما بهم من ضر، فلم يتعلق النهى عن التشبيه به فيما يثنى به عليه ويمدحه به، والشكوى إليه سبحانه لا تنافى الصبر الجميل، والله تعالى يبتلى عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاؤه .

وقد ذم الله سبحانه من لم يتضرع إليه، ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَا هُمْ بِالْأَسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٢] ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا هُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦] والعبء أضعف من أن يتجلد على ربه، والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد عليه، بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه، وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه، ويجب من يشكو ما به إليه .

الخاتمة

اعلم أن من كان داؤه المعصية، فشفأؤه الطاعة، ومن كان داؤه الغفلة، فشفأؤه اليقظة، ومن كان داؤه كثرة الأشغال، فشفأؤه فى تفرغ الحال .

فاستعد بالله من فضول الأعمال والهموم، فكل ما شغل العبد عن الرب فهو مشغوم، ومن فاته رضى مولاه فهو محروم، كل العافية فى الذكر والطاعة، وكل البلاء فى الغفلة والمخالفة، وكل الشفاء فى الإنابة والتوبة، وانظر كيف تُسلم بدنك للطبيب العالمى فلان حتى ولو كان نصرانياً، وكذلك البلاد تسلم اقتصادها للخبير الإقتصادى حتى ولو كان ملحداً زنديقاً، والواحد من هؤلاء قد يصدق وقد يكذب، وقد يصيب وقد يخطئ، وقد ينصح وقد يغش، فما بالنا لا نُسلم أمرنا لخالقنا ورازقنا ومحيينا ومميتنا، وكيف لا نوقر مصدر الأمر، ونكون طوع إشارة ورهين أمر !!!

لقد ضرب لنا الأنبياء والمرسلون ومن تابعهم بإحسان أروع المثل فى ذلك، فنبى الله نوح بنى السفينة على اليابسة وهو يعلم أن الله مجريها ومرساها، ونبى الله إبراهيم ترك هاجر وولده الوحيد إسماعيل بأرض قاحلة لا زرع فيها ولا ماء - نزولاً على أمر الله، وهو يعلم أن الله لا يضيع أهله وأولياءه، وأمر يذبح ابنه إسماعيل فاستسلما لأمر الله وقال له الإبن البار : ﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] .

وأوحى الله إلى أم موسى فما تخلفت عما ألقى فى روعها : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧] .

من الذى دعاه فلم يجبه، ومن الذى سأله فلم يعطه، ومن الذى أوقع حاجته به فلم ينله مطلوبه .

كان على بن الحسين رحمه الله يقول : اللهم إني أعوذ بك أن تُحسِّن فى لوامع العيون عليّتى، وتقبج فى خفيات الغيوب سريرتى . اللهم كما أسأت وأحسنت إليّ، فإذا عدتُ فعدتُ إليّ .

اللهم ارزقنى مواساة من قترت عليه رزقك بما وسعت على من فضلك .

وقال يوماً لمن كان معه : إنى اتكأت على هذا الحائط وأنا حزين، فإذا رجل حسن الوجه حسن الثياب ينظر فى تجاه وجهى، ثم قال : يا على بن الحسين ما لى أراك كثيراً حزيناً، على الدنيا فهى رزق حاضر يأخذ منه البر والفاجر، فقلت : ما عليها أحزن لأنها كما تقول . فقال : على الآخرة، فهى وعد صادق يحكم فيها ملك قادر، فقلت : ما على هذا أحزن لأنه كما تقول، فقال : فعلام حزنك، فقلت : ما أتخوف من الفتنة، يعنى فتنة ابن الزبير . فقال لى : يا على هل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه؟ قلت : لا . قال : ويخاف الله فلم يكفه؟ قلت : لا . ثم غاب عنى .

اللهم إنا نسألك نفساً مطمئنة تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، اللهم إنا نسألك باسمك الطاهر الطيب المبارك الأحب إليك الذى إذا دُعيتَ به أُجبتَ، وإذا سُئلتَ به أعطيتَ، وإذا استرَحمتَ به رَحمتَ، وإذا استفرجتَ به فرجتَ، أن تغفر سيئاتنا، وتبدلها لنا بحسنات يا أرحم الراحمين .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين،

والحمد لله رب العالمين

قصة

يوسف

عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

{آل عمران: ١٠٢}.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ {النساء: ١}.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ {الأحزاب: ٧١}.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

كلما قويت حاجة الناس إلى الشئ ومعرفته يسر الله أسبابه كما يسر ما كانت حاجتهم إليه في أبدانهم أشد .

فلما كانت حاجتهم إلى النفس والهواء أعظم منها إلى الماء كان مبدولاً لكل أحد في كل وقت، ولما كانت حاجتهم إلى الماء أكثر من حاجتهم إلى القوت كان وجود الماء أكثر لذلك فلما كانت حاجتهم إلى معرفة الخالق أعظم كانت آياته ودلائل ربوبيته وقدرته وعلمه ومشيئته وحكمته أعظم من غيرها .

ولما كانت حاجتهم إلى معرفة صدق الرسل بعد ذلك أعظم من حاجتهم إلى غير ذلك أقام الله من دلائل صدقهم وشواهد نبوتهم وحسن حال من اتبعهم

وسعادته ونجاته وبيان ما يحصل له من العلم النافع والعمل الصالح، وقبح حال من خالفهم وشقاوتهم وجهله وظلمه ما يظهر لمن تدبر ذلك ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فما أقبح الغفلة عن طاعة من لا يغفل عن برك، وعن ذكر من أمرك بذكره، إن الله عز وجل وسم الدنيا بالوحشة ليكون أنس المطيعين به، فأنزلها المؤمن منزلتها، فإن هي أقبلت عليه قال لا مرحباً ولا أهلاً، والله ما أراك جئت بخير وما فيك من خير إلا أن تُطلب بك الجنة، ويُفتدى بك من النار، فإن هي أدبرت قال: عليك العفاء، وعلى من يتبعك، الحمد لله الذي خار لي وصرف عني فتتك وشغلك.

فما أعظم البصيرة في دين الله، بحيث يدرك الإنسان طبيعة هذه الدار، وطبيعة أهلها، وحقيقة مكته وإقامته، والغرض من خلقه وإيجاده فيها، والسبيل والطريق الذي يجب عليه أن يسلكه حتى يلقي ربه، وتنتهي فترة إختباره في هذه الدار بسلام، فأن يُلهم العبد رشده في ذلك كله، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومن رحمته سبحانه أن اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس، وجعل الأنبياء والمرسلين أسوة البشر وقادة الخلق وأشد الناس بلاءً وأعظمهم بصيرة في دين الله، قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقد جاءت هذه الآية الكريمة في خواتيم سورة يوسف وارتبطت بالآيات قبلها وبعدها، كما ارتبطت بموضوع السورة كله، وفيها بيان هذا السبيل المستقيم وهذا الطريق القويم الذي لا عوج فيه ولا شك ولا شبهة، يسير فيه الموفقون المسددون، يقتفون آثار نبيهم ﷺ، وينزهون الله سبحانه عما لا يليق بالوهيته، ولا يتلبسون بدنس المشركين، فهم على هدى من الله ونور يعرفون طريقهم جيداً، لا ينهرون بكثرة زائفة، ولا يتابعون أغلبية منحرفة، لما عندهم من بصيرة العلم النافع والعمل الصالح ولذلك ورد قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ

أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿يوسف: ١٠٦﴾ فاعرف الحق تعرف أهله، واعرِف الباطل تعرف من أتاه.

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول: لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً، إن آمن، وإن كفر كفر، فوطن نفسك على العزم وكن على بصيرة، حتى وإن كثر الشر والفساد من حولك، واعلم أن الجنة سلعة غالية وقد حُفَّت بالمكانه، وما أكثر العوائق والمحن التى ستعترضك، وأنت فى طريقك إلى الله فاستلهم العظات والعبر مما حدث مع الأنبياء والمرسلين .

وقد قص علينا سبحانه فى سورة يوسف، الكثير من المحن التى تعرّض لها نبي الله يوسف عليه السلام: محنة كيد الإخوة، ومحنة الحب والخوف والترويع فيه، ومحنة الرق وهو يتقل كالسِّلعة من يد إلى يد، ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة، ومحنة السجن بعد رغد العيش فى قصر العزيز ثم محنة الرخاء والسلطان هذه المحن والابتلاءات التى صبر عليها يوسف - عليه السلام - وزاول دعوته إلى الإسلام من خلالها، وخرج منها كلها متجداً خالصاً منياً متضرعاً إلى ربه: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] فالبصيرة بطبيعة الطريق مطلوبة، فهذه الدار بالبلاء محفوفة، وأهلها يتقلون من ابتلاء إلى آخر، فمن الذى سيثبت ويقيم واجب العبودية، فى عسره ويسره ومنشطه ومكرهه؟ ومن الذى سينقلب على عقبه القهقرى؟

تلك سنة الله فى الدعوات، لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى تُعْتَصِر النفوس وتتعلق القلوب بخالقها، فلا التفات لقوى الأرض، إذ هى عاجزة، والأمر كله بيد الله هو سبحانه الذى يجيب المضطر ويكشف الضر، ويجعل من بعد عسر يسراً، ومن كل بلاء عافية.

ولذلك تختم السورة بقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مِنْ نَشْءٍ وَلَا يُرَدُّ بِأَسْنَاءِ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى

قَصَصَهُمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿يوسف: ١١٠-١١١﴾.

أى أنها منحة فى صورة المحنة، ومن تدبر قصة نبي الله يوسف، وجد فيها من الآيات البينات، ما صلح أن يكون تسلية وتبسيماً لرسول الله ﷺ وأصحابه الكرام وهم يواجهون الشدائد والمحن فى مكة بل والمدينة، وفيها أيضاً ما يصلح أن يكون عظة وعبرة لنا ولغيرنا، فتدبرها ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرانا التى إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

سعيد عبد العظيم

ملاح عامة لسورة يوسف

(١) سورة يوسف إحدى السور المكية التي تناولت قصص الأنبياء، قال ابن عباس وقتادة: إلا أربع آيات منها .

وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله «يوسف بن يعقوب» وملاقاه عليه السلام من أنواع البلاء، ومن ضروب المحن والشدائد، من إخوته ومن الآخرين، في بيت عزيز مصر، وفي السجن، وفي تآمر النسوة، حتى نجاه الله من ذلك الضيق والمقصود بها تسلية النبي ﷺ بما مر عليه من الكرب والشدة، وملاقاه من أذى القريب والبعيد .

(٢) نزلت سورة يوسف على رسول الله ﷺ بعد سورة «هود» في تلك الفترة الحرجة العصيبة من حياة الرسول ﷺ، حيث توالى الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين، وكانت أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها قد توفيت، وكذلك عمه أبو طالب، الذى كان يستدفع عنه كثيراً من الأذى على الرغم من كفره، وبوفاتهما اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، حتى عُرف ذلك العام بـ «عام الحزن» .

(٣) فى تلك الفترة العصيبة من حياة رسول الله ﷺ والمؤمنين، وفى أجواء الوحشة والغربة، والانقطاع فى جاهلية قريش، تنزل هذه السورة تسلياً وتخفيفاً بذكر قصص المرسلين، وما تعرضوا له، وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين، فيها عبرة لمن يعقل، وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل، وفيها أيضاً ألوان من الشدائد فى الجب وفى بيت العزيز وفى السجن، وألوان الاستيئاس من نصرة الناس ثم كانت العاقبة خيراً للذين اتقوا - كما هو وعد الله الصادق الذى لا يخيب .

(٤) جو السورة يحمل الأناقة والرحمة والرأفة والحنان ويبعث على الطمأنينة لمن سار على درب الأنبياء، فلا بد من الفرج بعد الضيق ومن اليسر بعد العسر ولهذا قال عطاء: «لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها» وقال خالد بن معدان: «سورة يوسف ومريم مما يتفككه بهما أهل الجنة فى الجنة» .

(٥) سورة يوسف يتوافق فيها المطلع والختام، كما توافق المطلع والختام في القصة وتجيئ التعقيبات في أول القصة وآخرها، وبين ثناياها، متناسقة مع موضوع القصة وطريقة أدائها، وقد بدأت القصة وانتهت في سورة واحدة، فهي رؤياً تتحقق رويداً رويداً، ويوماً بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة، فلا تتم وتكتمل العبرة بها إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها، بعكس غيرها من قصص المرسلين فقد أفردت حلقات قصة نبي الله نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وصالح وهود في مواضع كثيرة من سور القرآن الكريم، وكل حلقة تفي بالغرض منها كاملاً في موضعها أما قصة يوسف فتقتضى أن تتلى كلها متواليه حلقاتها ومشاهدها من بدئها إلى نهايتها .

(٦) قال القرطبي: قال العلماء: وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وقررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بالفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر، والإعجاز لمن تأمل .

(٧) بدأت السورة بالأحرف المقطعة (الر) وتقرير أنها آيات الكتاب المبين، ثم تقرير أن الله أنزل هذا الكتاب قرآناً عربياً، والسورة يبدو عليها الطابع المكي واضحاً في موضوعها وفي جوها، وقد عرضت شخصية يوسف - عليه السلام - وهي الشخصية الرئيسية في القصة عرضاً كاملاً في كل مجالات حياتها، كما تعرضت للابتلاءات المتنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها . . . ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء، وابتلاءات الفتنة بالشهوة والفتنة بالسلطان، وابتلاءات الفتنة بالإنفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقياً متجرداً في وقفته الأخيرة، متجهاً إلى ربه داعياً منياً .

(٨) أخرج يوسف - عليه السلام - من حضن أبيه - على غير جريرة ارتكبتها، ليواجه هذه الابتلاءات كلها ثم لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين، وكذلك فإن قريشاً تُخرج رسول الله ﷺ من أحب بلاد الله إلى الله، وأحب بلاد الله

لنفسه ﷺ، وما نقموا منه إلا أن يقول ربى الله فسيوجهه إلى المدينة وفيها يكون النصر والتمكين، وكما التقى يوسف بأبيه بعد طول غياب فإن رسول الله ﷺ، يدخل مكة مرة ثانية ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] فلا بد من صبر جميل ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧] والنصر عقبى الصابرين .

سبب النزول

روى سعيد بن جبیر أنه تعالى لما أنزل القرآن على رسول الله ﷺ وكان يتلوه على قومه، فقالوا: يارسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم، فقالوا: لو حدثتنا فنزل ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا﴾ [الزمر: ٢٣] فقالوا: لو ذكرتنا فنزل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦].

وقال النحاس: يروى أن اليهود قالوا: سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر وعن خبر يوسف، فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقاً لما فى التوراة، وفيه زيادة ليست عندهم، فكان هذا للنبي ﷺ، إذ أخبرهم ولم يكن يقرأ كتاباً ولا هو فى موضع كتاب بمنزلة إحياء عيسى عليه السلام الميت .

تسميتها بأحسن القصص

قصة يوسف - عليه السلام - سلوى للقلب وبلسم للجروح، وقد ذكرت حلقاتها فى سورة يوسف متتابعة بإسهاب وإطناب، ولم تكرر فى مكان آخر كسائر قصص الرسل، لتشير إلى إعجاز القرآن فى المجمال والمفصل، وفى حالتى الإيجاز والإطناب، فسبحان الملك العلى الوهاب وقد وصفت هذه القصة بأحسن قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقد يكون الحسن عائداً إلى حسن البيان فألفاظ القصة فصيحة بالغة فى

الفصاحة إلى حد الإعجاز، ألا ترى أن هذه القصة مذكورة في كتب التواريخ مع أن شيئاً منها لا يشابه هذه السورة في الفصاحة والبلاغة، أوهى أحسن القصص لما فيها من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها، فإن إحدى الفوائد التي في هذه القصة أنه لا دافع لقضاء الله تعالى، ولا مانع من قدر الله تعالى، وأنه تعالى إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة فلو أن أهل العالم اجتمعوا عليه لم يقدروا على دفعه، وفيها دلالة على أن الحسد سبب للخذلان والنقصان، وأن الصبر مفتاح الفرج كما في حق يعقوب عليه السلام فإنه لما صبر فاز بمقصوده وكذلك في حق يوسف - عليه السلام .

قال القرطبي: «واختلف العلماء لم سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأقصيص؟

ف قيل: لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة، وبيانه قوله في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

{يوسف: ١١١}

وقيل: سماها أحسن القصص بحسن مجاوزة يوسف عن إخوته، وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم - بعد التقائهم - عن ذكر ما تعاطوه، وكرمه في العفو عنهم، حتى قال: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ {يوسف: ٩٢}

وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والأنعام والطيور، وسير الملوك والممالك، والتجار والعلماء والجهال، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن، وفيها ذكر التوحيد والفقهاء والسير وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعايشة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا .

وقيل: لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما .

وقيل: أحسن هنا بمعنى أعجب، وقال بعض أهل المعاني: إنما كانت أحسن القصص لأن كل من ذُكرَ فيها كان مآله السعادة انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته، وامرأة العزيز، قيل: وللملك أيضاً أسلم بيوسف وحسن إسلامه، ومستعبر الرؤيا الساقى، والشاهد فيما يقال، فما كان أمر الجميع إلا إلى خير». اهـ.

الأحرف المقطعة ودلالاتها

بدأت سورة يوسف بالأحرف الثلاثة (الر)، وقد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور :

فمنهم من قال: هي مما استأثر الله بعلمه فردوا علمها إلى الله ولم يفسروها حكاه القرطبي في تفسيره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضی الله عنهم أجمعين .

ومنهم من فسرها واختلف هؤلاء في معناها، فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم إنما هي أسماء السور، وعليه إطباق الأكثر، فبعض مجاهد أنه قال: الم، وحم، والمص، وصر، فواتح افتتح الله بها القرآن .

وقيل: هي اسم من أسماء الله تعالى، فقال الشعبي: فواتح السور من أسماء الله تعالى، وكذلك قال سالم بن عبد الله .

قال ابن كثير: مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً . . . يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر، وهي نصف الحروف عدداً والمذكور منها أشرف من المتروك وبيان ذلك من صناعة التصريف . . . لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سدى، ومن قال من الجهلة أن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأ كبيراً، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا: ﴿أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين، وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه وإلا فالوقف حتى يتبين ١ هـ.

أما الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور، فقد حكى ابن جرير عن بعضهم أنها ذُكرت ليُعرف بها أوائل السور، وقال آخرون: بل ابتدى بها لتفتح لاستماعها أسماع المشركين، وكلاهما ضعفه ابن كثير قال: وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطاره .

ولعل الأشبه بالصحة أن هذه الحروف إنما ذُكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في كشفه ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية وأبو الحجاج المزي .

قال الزمخشري: ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدى والتبكيث كما كررت قصص كثيرة، وكررت التحدى بالصریح في أماكن، قال: وجاء منها على حرف واحد كقوله: (ص ن ق) وحرفين مثل (حم) وثلاثة مثل (الم) وأربعة مثل (المر والمص) وخمسة مثل (كهيعص و حم عسق) لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ما هو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك .

قال ابن كثير: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الإنتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالإستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة، ولهذا يقول تعالى:

﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴿البقرة: ٢﴾، ﴿الْم ١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِأَحْقِّ مَصْدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿آل عمران: ٣﴾، ﴿الْمَص ١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴿الأعراف: ٢﴾، ﴿الر ١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴿إبراهيم: ١﴾، ﴿الْم ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿السجدة: ٢﴾ ﴿حَم ١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿فصلت: ١﴾، ﴿حَم ١﴾ عَسَقٌ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿الشوري: ٣﴾.

وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، والله أعلم .

قرآناً عربياً للعالمين يحرم ترجمته ويجب تعلم لغته

يقول تعالى: ﴿الرَّتْلِكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] إشارة إلى الإعجاز، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب المعجز في بيانه، الساطع في حججه وبراهينه، الواضح في معانيه، الذي لا تشبهه حقائقه، ولا تلتبس دقائقه، وقد أنزله سبحانه بلغة العرب، كتاباً عربياً من هذه الأحرف العربية، لكي تعقلوا وتدرِكوا أن هذا الكلام المعجز ليس من صنع البشر وإنما هو كلام رب العالمين، ووحيه المنزل على رسوله الأمين، وقد تحدى به سبحانه الإنس والجن على مر العصور وكر الدهور، أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، فما استطاعوا مواجهة التحدى .

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] فالقرآن هو أعظم معجزات رسول الله ﷺ وقد تعدت رسالته الإنس إلى الجن، والعرب إلى العجم وإن كان قومه عرباً وهو ﷺ نبي عربي والقرآن نزل بلسان عربي مبين ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الاحقاف: ٢٩].

ومن المعلوم أن العرب هم أفضل الأجناس، واللغة العربية هي أشرف اللغات، ولا يجوز قراءة القرآن بغير العربية، سواء قدر عليها أو لم يقدر عند الجمهور، وقال غير واحد: إنه يمتنع أن يترجم سورة أو ما يقوم به الإعجاز، وقد كره كثير من الفقهاء في الأدعية التي في الصلاة والذكر، أن يدعى الله أو يذكر بغير العربية، فاللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون .

وأما الخطاب بغير العربية من غير حاجة في أسماء الناس والشهور، كالتواريخ ونحو ذلك فهو منهي عنه مع الجهل بالمعنى بلا ريب، كما ذكر ابن تيمية، وأما مع العلم به فكلام أحمد بين في كراهته أيضاً، فإنه كره آذرماء ونحوه ومعناه:

ليس محرماً، وقد استدل بنهى عمر عن رطانة الأعاجم، وعن عطاء قال: لا تعلموا رطانة الأعاجم ولا تدخلوا عليهم كنائسهم، فإن السخط ينزل عليهم، وقال عمر: ما تعلم رجل الفارسية إلا خبّ ولا خبّ (خلع) إلا نقصت مروءته .

وقد ورد أن التكلم بغير العربية لغير ضرورة يورث النفاق، وذكر ابن تيمية فى اقتضاء الصراط المستقيم، أن اعتياد اللغة يؤثر فى العقل والخلق والدين، تأثيراً قوياً بيناً، ويؤثر أيضاً فى مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق قال: وأيضاً فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وذكر أن اعتياد الخطاب بغير العربية التى هى شعار الإسلام ولغة القرآن، حتى يصير ذلك عادة للمصر وأهله، ولأهل الدار، وللرجل مع صاحبه، ولأهل السوق، أو للأمرء أو لأهل الديوان، أو لأهل الفقه، فلا ريب أن هذا مكروه، فإنه من التشبه بالأعاجم وهو مكروه .

معجزة الإخبار عن الغيوب الماضية

والمستقبل بما يطابق الحق

يقول تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: 3] أى نحن نحدثك يا محمد ونرؤى لك أخبار الأمم السابقة، بأصدق كلام وأحسن بيان، وقد كنت من قبل أن نوحى إليك هذا القرآن لمن الغافلين عن هذه القصة، لم تخطر ببالك، ولم تفرح سمعك، لأنك أمدى لا تقرأ ولا تكتب قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمُبْتَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقد أخبر النبى ﷺ بغيوب كثيرة ماضية ومستقبله، فحدثت ووقعت وفق خبر الصادق المصدوق - صلوات الله وسلامه عليه - ولم يدع معرفة الغيب، ولا نسب هذه الأخبار لنفسه، ﷺ .

ومن جملة ذلك ما تعنتت به قريش - فى أول البعثة - وأرسلت إلى يهود المدينة يسألونهم عن أشياء يسألون عنها رسول الله ﷺ، فقالوا: سلوه عن

الروح، وعن أقوام ذهبوا في الدهر فلا يدري ما صنعوا، وعن رجل طواف في الأرض بلغ المشارق والمغارب، فلما رجعوا سألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] وأنزل سورة الكهف، وفيها إجابة ما سألوا عنه، وكذلك لما سأله اليهود عن يعقوب وبنيه وما كان من شأن نبي الله يوسف، نزلت سورة يوسف . . . وغير ذلك كثير، وهذا الإخبار هو الواقع في الواقع، وإنما يوافق من الكتب التي بأيدي أهل الكتاب، ما كان منها حقاً، وأما ما كان محرفاً مبدلاً فذاك مردود، فإن الله بعث محمد ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب ليبين للناس ما اختلفوا فيه من الأخبار والأحكام، قال تعالى بعد ذكر التوراة والإنجيل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ومن جملة الأخبار المستقبلية، الإخبار عن ظهور الدين، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] وهكذا وقع وعم هذا الدين وغلب وعلا على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها، وثبت في الصحيح «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده». «والذي نفسى بيده لتفتقن كنوزهما في سبيل الله»^(١).

وقد كان ذلك في زمن الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم وأرضاهم .
ومن ذلك قصة الصحيفة التي تعاقدت فيها بطون قريش .
ومن ذلك إخباره عن فتح مدائن كسرى وقصور الشام وغيرها من البلاد يوم حفر الخندق .
ومن ذلك أخبار الفتن وأمارات الساعة التي حدثت كما أخبر .

ومنها البشارة لعبد الله بن سلام أنه يموت على الإسلام وقد مات رضى الله عنه على أكمل أحواله وأجملها .

(١) البخاري (٣١٢٠) فرض الخمس، مسلم (٢٩١٨) في الفتن، والترمذي (٢٢١٦) في الفتن، وأحمد (٧١٤٤).

والإخبار عن العشرة بأنهم من أهل الجنة وبأنه لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة، ولم ينقل أن أحداً من هؤلاء رضى الله عنهم عاش إلا حميداً، ولا مات إلا على السداد والاستقامة والتوفيق .

وهذا باب عظيم لا يمكن استقصاء جميع ما فيه لكثرتها.

قص الله ورسوله علينا فكيف نستبدل

الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص، كقصص الأنبياء والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها، وعاقبة المؤمنين والمكذبين كقصص نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ويوسف ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن هذا القصص ما يتعلق بالحوادث الغابرة وأشخاص لم تثبت نبوتهم كقصة طالوت وجالوت وأهل الكهف وقارون وذو القرنين وأصحاب الأخدود، ثم القصص الذى يتعلق بالحوادث التي وقعت فى زمن رسول الله ﷺ كغزوة بدر وأحد فى سورة آل عمران وغزوة حنين وتبوك فى التوبة، والهجرة والإسراء وهذا القصص فيه إيضاح أسس الدعوة إلى الله وتبسيق قلب رسول الله ﷺ والمؤمنين على دين الله وتقوية الثقة بنصرة الحق وجنده وخذلان الباطل وأهله.

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَنْبِتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ١٢٠).

كما أن فيه تصديق الأنبياء السابقين وإظهار صدق رسول الله ﷺ فى دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال، هذا بالإضافة إلى مقارنته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البيئات والهدى، وتحديه لهم بما كان فى كتبهم قبل التحريف والتبديل كقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران: ٩٣).

والقصة لا تقتصر على القرآن، فقد قص النبي ﷺ على أمته الكثير من القصص، كقصة الأقرع والأبرص والأعمى، وقصة الساحر والملك والغلام

والقصة فى القرآن والسنة حقيقة لا خيال، ومن شأنها أن ترسخ المعانى الإيمانية فى النفوس، مما لاحتاج معه للقصص الخيالى المكذوب، فضلاً عن الحكايات المبتذلة التى تورث الشعوذة والخرافات وتحرف الطباع عن استقامتها .

وتعتبر القصة من أفضل وسائل الدعوة إلى الله، حيث تنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويسر، وتترسل مع سياقها المشاعر فلا تمل ولا تكد، ويرتاد العقل عناصرها فيجنى من حقلها الأزهير والثمار، وهذا مشاهد بالنسبة للكبير والصغير والرجل والمرأة، بعكس الدروس التلقينية والإلقائية، التى تخلو من القصة، فإن عناصرها تُستوعب بصعوبة وشدة وإلى أمد قصير، ولذا كان الأسلوب القصصى أجدى نفعاً وأكثر فائدة .

وليست القصة حكاية عاطفية خالية من الأهداف، لقطع الوقت، فما من قصة فى الكتاب والسنة إلا وفيها فوائد تتعلق بالتوحيد والفقه والتفسير واللغة والتاريخ ويبقى أن ننظر فى كل قصة، نظر إعتبار وتدبر وتأمل ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] .

وقد قص الله ورسوله علينا أحسن القصص فينبغى علينا أن نتابع كتاب ربنا ونحسن التأسي بنبينا ﷺ، فنقص على أنفسنا وعلى الدنيا من حولنا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] فمن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم .

قال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] يقول تعالى : اذكر لقومك يا محمد فى قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه . . .

فضائل يوسف - عليه السلام -

عن أبي هريرة قال: «قيل يارسول الله من أكرم الناس؟ قال أتقاهم، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألونى خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا»^(١).

قال النووى فى شرحه: «هكذا وقع فى مسلم نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله، وفى روايات للبخارى كذلك وفى بعضها نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله، وهذه الرواية هى الأصل وأما الأولى فمختصرة منها فإنه يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام فنسبه فى الأولى إلى جده، ويقال: يوسف بضم السين وكسرهما وفتحها مع الهمز وتركه فهى ستة أوجه، قال العلماء: وأصل الكرم كثرة الخير، وقد جمع يوسف عليه السلام مكارم الأخلاق مع شرف النبوة مع شرف النسب، وكونه نبياً ابن ثلاثة أنبياء متناسلين أحدهم خليل الله عليه السلام، وانضم إليه شرف علم الرؤيا وتمكنه فيه، ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة وحياطته للرعية وعموم نفعه إياهم وشفقته عليهم وإنقاذه إياهم من تلك السنين والله أعلم.

قال العلماء: لما سئل عليه السلام أى الناس أكرم أخبر بأكمل الكرم وأعمه فقال: «أتقاهم لله»، وقد ذكرنا أن أصل الكرم كثرة الخير، ومن كان متقياً كان كثير الخير وكثير الفائدة فى الدنيا وصاحب الدرجات العلى فى الآخرة، فلما قالوا: «ليس عن هذا نسألك، قال: يوسف» الذى جمع خيرات الآخرة والدنيا وشرفهما، فلما قالوا: «ليس عن هذا نسأل»، فهم عنهم أن مرادهم قبائل العرب، قال: «خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا»، ومعناه أن أصحاب المروءات ومكارم الأخلاق فى الجاهلية إذا أسلموا وفقهوا فهم خيار الناس.

قال القاضى: وقد تضمن الحديث فى الأجوبة الثلاثة أن الكرم كله عمومه وخصوصه ومجمله ومبانه إنما هو الدين من التقوى والنبوة والأعراق فيها والإسلام مع الفقه . . . أ. ه .

(١) رواه البخارى (٣٣٥٣) فى أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٣٧٨) فى الفضائل وأحمد (٩٢٨٤).

الكريم ابن الكريم ابن الكريم

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم»^(١).

نبى الله يوسف - عليه السلام - من ذرية إبراهيم عليه السلام، ومن سلالة النبوة، ومن أشهر أنبياء بنى إسرائيل، وقد وصفه الله تعالى بالصديقية، ولهذا يسمى (يوسف الصديق)، وقد ذكره الله تعالى فى مجموعة الرسل الكرام الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً، وأثنى عليه سبحانه لعفته ونزاهته وصره واستقامته، وأبوه يعقوب عليه السلام هو أبو الأسباط الإثنى عشر، وإليه ينسب شعب بنى إسرائيل، ويسمى يعقوب (إسرائيل) قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاَّبِي نِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ [آل عمران: ٩٣] وقد جاء عند أهل التوراة أن الله سماه (إسرائيل) ومعناه فى العبرية (روح الله) ويعقوب هو ابن اسحاق - عليهما السلام - وهو المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١١٧) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٍ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣] فهو الولد الثانى لإبراهيم الذى بشرت به الملائكة الأطهار خليل الرحمن، ومن نسله جاء أنبياء بنى إسرائيل .

وأمة هى سارة، وقد وُلد له (العيص) ويسميه أهل الكتاب (عيسو) والثانى يعقوب - عليه السلام - وإليه ينتسب اليهود من بنى إسرائيل، وقد دُفن إسحاق ويعقوب فى الخليل، فى المغارة التى دُفن فيها إبراهيم - عليه السلام - ويتهى نسب يوسف إلى إبراهيم - عليهما السلام، فمن إبراهيم تنفرع شجرة النبوة، حيث جاء رسول الله ﷺ من نسل إسماعيل - (ابن إبراهيم الأكبر) - وجاء أنبياء بنى إسرائيل من نسل إسحق (الابن الأصغر لإبراهيم) عليه السلام، وقد خص الله تبارك وتعالى إبراهيم - عليه السلام - بخصائص ومزايا فريدة، فجعله أباً للأنبياء، وإماماً للأتقياء، وقدوة للمسلمين، واختاره من بين الرسل والأنبياء بالخلّة والاصطفاء، فهو خليل الرحمن، كان مثلاً للعبودية والطاعة والإذعان

(١) رواه البخاري (٣٣٩٠) فى أحاديث الأنبياء، وأحمد (٥٦٧٩).

لأوامر الله، ولهذا جعله الله قدوة للأنبياء، بل جعله أمة بمفرده قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وقد ورد عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم - عليه السلام - يكنى (أبا الضيفان) وذلك لكثرة ضيوفه، فقد كان إبراهيم عليه السلام كريماً مضيافاً، لا ينزل به أحد إلا أحسن ضيافته وأكرم نزله، يبحث دائماً عن من يأكل معه وكان سخى النفس يذبح لضيوفه الشاة والنعم .

وقد ذكر القرآن الكريم قصته مع ضيوفه (الملائكة) حين جاءوا لإهلاك قوم (لوط)، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَغْلَامٍ عَليمٍ﴾ [الذاريات: ٢٤] فهذه الآيات تدل على كرم إبراهيم الخليل، ومنه تتعلم آداب الضيافة، ولقد اقتبس العرب هذه الخصلة الحميدة من إسماعيل بن إبراهيم الذي عُرف بالجلود كما نشأ يوسف - عليه السلام - كريماً، فهو الكريم ابن الكريم (يعقوب) ابن الكريم (إسحاق) ابن الكريم (إبراهيم) ذرية بعضها من بعض، ومن يشابه أباه فما ظلم .

يوسف، عليه السلام، أكرم الناس

هكذا جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة، وذلك عندما سُئل رسول الله ﷺ: من أكرم الناس .

والكرم أصل المحاسن كلها كما قال بعض الحكماء، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام، وسخاؤها بما يملك على الخاص والعام، وجميع خصال الخير من فروعه، والجلود والسخاء والإيثار بمعنى واحد، وقيل: من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومن أثر غيره بالحاضر، وبقي هو في مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار، وأنفع الجود بذل المال وصرفه في وجه استحقاقه، وقد ندب الله تعالى إليه في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وقد ورد عن حذيفة العدوى أنه قال: انطلقت يوم اليرموك اطلب ابن عم لى فى القتلى، ومعى شئ من الماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى، فقلت له: أسقيك، فأشار إلى أن نعم، فسمع برجل يقول: آه، فأشار إلى ابن عمى أن أنطلق إليه أسقيه، فإذا هو هشام بن العاص . قلت أسقيك، فأشار إلى أن نعم، فسمع آخر يقول: آه، فأشار إلى أن انطلق إليه. فجيئته فإذا هو قد مات . فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات .

ومن عجائب ما ذكر فى الإيثار: ما حكاه أبو محمد الأزدي قال: لما احترق المسجد بمرور وظن المسلمون أن النصارى أحرقوه، فأحرقوا خاناتهم، فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات، وكتب رقاعاً فيها القطع والجلد والقتل ونثرها عليهم فمن وقع عليه رقعة فعل به ما فيها، فوقع رقعة فيها القتل بيد رجل فقل: والله ما كنت أبالي لولا أم لى، وكان بجانبه بعض الفتيان فقال له: فى رقتى الجلد، وليس لى أم فخذ أنت رقتى وأعطني رقتك، ففعل، فقتل ذلك الفتى وتخلص هذا الرجل . وقيل لقيس بن سعد: هل رأيت قط أسخى منك . قال: نعم نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له: إن نزل بنا ضيفان، فجاء بناقة فنحراها، وقال: شأنكم، فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحراها وقال: شأنكم فقلنا: ما أكلنا من التى نحرت البارحة إلا القليل، فقال: إني لا أطعم ضيفانى البائت، فبقينا عنده أياماً، والسماء تمطر، وهو يفعل كذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار فى بيته، وقلنا للمرأة: اعتذرى لنا إليه ومضينا فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا: قفوا أيها الركب اللثام، أعطيتمونا ثمن قرانا، ثم أنه لحقنا وقال: خذوها وإلا طعتكم برمحي هذا، فأخذناها وانصرفنا .

قال أكثم بن صيغى: صاحب المعروف لا يقع، وإن وقع وجد له متكأ، وقيل للحسن بن سهل: لا خير فى السرف، فقال: لا سرف فى الخير، فقلب اللفظ، واستوفى المعنى .

وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة، لأنه إن كان كريماً أصون عرضه، أو لثيماً أصون عنه عرضى . وأكرم العرب فى الإسلام

طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه، جاء إليه رجل فسأله برحم بينه وبينه، فقال: هذا حائطى بمكان كذا وكذا وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم يراح إلى بالمال العشية، فإن شئت فالمال، وإن شئت فالحائط (البستان) .

وقال زياد بن جرير: رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف فى مجلس، وإنه ليخيظ إزاره بيده .

وذكر أبو على القالى فى كتاب «الأمالى»، أن رجلاً جاء إلى معاوية رضى الله عنه، فقال له: سألتك بالرحم التى بينى وبينك إلا ما قضيت حاجتى، فقال له معاوية: أمن قریش أنت ؟ قال: لا، قال: فأى رحم بينى وبينك، قال: رحم آدم عليه السلام، قال: رحم مجفوة والله لاكونن أول من وصلها ثم قضى حاجته .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: من كانت له إلى حاجة فليرفعها إلى فى كتاب لأصون وجهه عن المسألة .

وقال بعض العرب لولده: يابنى لا تزهدن فى معروف، فإن الدهر ذو صروف فكم راغب كان مرغوباً إليه وطالب كان مطلوباً ما لديه وكن كما قال القائل:

وعد من الرحمن فضلاً ونعمة عليك إذا ما جاء للخير
طالب ولا تمنعن ذا حاجة جاء راغباً فإنك لا تدرى متى أنت راغب

وقال يحيى البرمكى: أعط الدنيا وهى مقبلة، فإن ذلك لا ينقصك منها شيئاً، وأعط منها وهى مدبرة فإن منعك لا يبقى عليك منها شيئاً، فكان الحسن بن سهل يتعجب من ذلك ويقول: لله دره ما أطبعه على الكرم وأعلمه بالدنيا .

وقال المهلب: عجبت لمن يشتري الممالك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بفعاله ...

غار قوم على طئ فركب حاتم فرسه، وأخذ رمحه ونادى فى جيشه، وأهل عشيرته، ولقى القوم فهزمهم وتبعهم، فقال له كبيرهم: يا حاتم هب لى رمحك فرمى به إليه، فقيل لحاتم: عرضت نفسك للهلاك ولو عطف عليك لقتلك . فقال: قد علمت ذلك، ولكن ماجواب من يقول: هب لى، ولما مات عظم على طئ موته فادعى أخوه أنه يخلفه، فقالت له أمه: هيهات شتان والله ما بين

خلفتكما وضعته فبقى والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقمت إحدى ثديي طفلاً من الجيران، وكنت أنت ترضع ثدياً ويدك على الآخر فأنى لك ذلك .

يروى أن عبد الله بن جعفر كان جواد كريماً، أتاه سائل يوماً وقال: ابن سبيل، فتزل عبد الله عن راحلته ودفع له حقيبة فيها من مطارف الخبز وأربعة آلاف درهم، وأعطاه سيفه وقال له: هذا سيف على إياك أن تغلب عليه، فاتاه الحسن والحسين، وكان عبد الله زوجاً لزينب بنت علي يقولان: له أنفق ولا تسرف، فقال لهما: بأبي وأمي أتتما، إن الله عودنى أن يتصدق علىّ وعودته أن أتصدق على عباده، وأخاف أن أقطع النفقة فيقطع عني .

والحكايات في ذكر الأجواد والكرماء والأسخياء، وأهل المعروف، أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر ففى مثل هذه المناقب فليتنافس المتنافسون، ولمثلها فليعمل العاملون، فإن فيها عز الدنيا وشرف الآخرة، وخلود جميل الذكر، فقدم لنفسك كما قدموا، تذكروا بالصالحات كما ذكروا، وادخروا لنفسك كما ادخروا، واعلم أن المأكول للبدن، والموهوب للمعاد، والمتروك للعدو فاختر لنفسك أى الثلاث شئت .

أكرمهم اتقاهم

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وفى هذه الآية ما يدل على أن التقوى هى المراعى عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ، دون الحسب والنسب .

وفى الترمذى عن سمره عن النبى ﷺ قال: «الحسب المال والكرم التقوى»^(١).

وفى الحديث: «من أحب أن يكون أكرم الناس فليستق الله» والتقوى معناها مراعاة حدود الله تعالى أمراً ونهياً، والإنصاف بما أمرك أن تتصف به، والتتزه عما نهاك عنه .

وفى الخبر من رواية أبى هريرة عن النبى ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: إنى جعلت نسباً وجعلتم نسباً، فجعلت أكرمكم أنقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان، وأنا اليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم، أين المتقون، أين المتقون» .

(١) رواه الترمذى (٣٢٧١) فى تفسير القرآن، وابن ماجه (٤٢١٩) فى الزهد، وأحمد (١٩٥٩٦).

وروى الطبرى من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

« إن أوليائى المتقون يوم القيامة وإن كان نسب أقرب من نسب، يأتى الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون: يا محمد فأقول هكذا وهكذا» وأعرض فى كل عطفه. وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ جهاراً غير سرّ يقول: «إن آل أبى فلان ليسوا لى بأولياء إنما ولىّ الله وصالح المؤمنين»^(١).

وقال النبى ﷺ: «إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى» ولذلك كان أكرم البشر على الله تعالى .

وهذا الذى لحظ مالك وغيره فى الكفاءة فى النكاح .

روى سهل بن سعد: «أن النبى ﷺ مر عليه رجل فقال: ما تقولون فى هذا ؟ فقالوا: حرى إن خطب أن يُنكح وإن شفع أن يُشفع وإن قال أن يُسمع . قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: ما تقولون فى هذا، قالوا: حرى إن خطب ألا يُنكح، وإن شفع ألا يُشفع، وإن قال ألا يُسمع، فقال رسول الله ﷺ: هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»^(٢).

قال القُشبرى أبو نصر: وقد يعتبر النسب فى الكفاءة فى النكاح وهو الإتصال بشجرة النبوة أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو بالمرموقين فى الزهد والصلاح .

والتقىُّ المؤمن أفضل من الفاجر النسيب، فإن كانا تقيين فحيثذ يقدم النسيب منهما، كما يقدم الشاب على الشيخ فى الصلاة إذا استويا فى التقوى . اهـ.

وقد اجتمعت الكمالات لنبى الله يوسف - عليه السلام - النبوة والملك والحسب والنسب فهو من أتقى الخلق لله تعالى، وأكرم الناس كما قال رسول الله ﷺ .

(١) رواه مسلم (٢١٥) فى الإيمان، وأحمد (١٧٣٤٨).

(٢) رواه البخارى (٥٠٩١) فى النكاح، وابن ماجه (٤١٢١) فى الزهد.

الرؤيا حالة شريفة

تبدأ السورة بهذه الرؤيا التي رآها نبي الله يوسف - عليه السلام - ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

ويأتى تعبيرها مرحلة بعد مرحلة وخطوة بعد أخرى، حتى يكتمل المشهد قرب نهاية السورة: ﴿وَرَفَعَ أَبَوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

وبين البداية والنهاية تدور أحداث القصة بما فيها من عظات وعبر والرؤيا حالة شريفة ومنزلة رفيعة.

روى البخارى عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات، قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة»^(١).

وفى الحديث: «لم يبق بعدى من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصالح أو ترى له»^(٢).

وقال: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً»^(٣) وحكم ﷺ أنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، وروى: «من سبعين جزءاً» وروى من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «جزء من أربعين جزءاً من النبوة» ومن حديث ابن عمر: «جزء من تسعة وأربعين جزءاً» ومن حديث العباس: «جزء من خمسين جزءاً من النبوة» ومن حديث أنس: «من ستة وعشرين» وعن عبادة بن الصامت: «من أربعة وأربعين من النبوة» وقد أخرج مسلم فى صحيحه حديث الستة والأربعين وحديث السبعين .

قال المازرى: والأكثر والأصح عند أهل الحديث «من ستة وأربعين» .

قال الطبرى: والصواب أن يقال: إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول، فأما قوله:

(١) رواه البخاري (٦٩٩٠) فى التعبير.

(٢) موطأ مالك (١٧٨٣) فى الجامع .

(٣) رواه مسلم (٢٢٦٣) فى الرؤيا.

« إنها جزء من سبعين جزءاً من النبوة » فإن ذلك قول عام فى كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل مسلم رآها فى منامه على أى أحواله كان، وأما قوله: «إنها من أربعين - أو - ستة وأربعين» فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التى ذكرت عن الصديق - رضى الله عنه - أنه كان بها .

فمن كان من أهل إسباج الوضوء فى السبرات (شدة البرد)، والصبر فى الله على المكروهات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فرؤياه الصالحة - إن شاء الله - جزء من أربعين جزءاً من النبوة، ومن كانت حاله فى ذاته بين ذلك فرؤياه الصادقة بين الجزئين ما بين الأربعين إلى الستين، لا تنقص عن السبعين، وتزيد على الأربعين .

والى هذا المعنى أشار أبو عمر بن عبد البر فقال: اختلاف الآثار فى هذا الباب فى عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندى اختلاف تضاد وتدافع - والله أعلم - لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدين المتين، وحسن اليقين .

فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد فمن خلصت نيته فى عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة أقرب، كما أن الأنبياء يتفاضلون، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] .

وقد علل البعض كون الرؤيا الصادقة جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة قالوا: إن النبى ﷺ كان فى بداية أمره لا يرى رؤيا إلا وجاءت مثل فلق الصبح واستمر على ذلك ستة أشهر، فلو قسنا هذه المدة بالمقارنة بمدة الوحي ٢٣ سنة لوجدناها ١ : ٤٦،

وأعترض على هذا التعليل بأن سائر الأحاديث فى الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى بالإضافة إلى ما رواه أبو سلمة عن ابن عباس وعائشة أن مدة الوحي كانت عشرين سنة، والله أعلم .

لماذا كانت الرؤيا الصادقة جزءاً من النبوة؟

الرؤيا فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران، وقلب الأعيان، والاطلاع على شئ من علم الغيب كما قال ﷺ: «إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة»^(١).

وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله، وأنها من النبوة، قال ﷺ: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان»^(٢) وأن التصديق بها حق، ولها التأويل الحسن، وربما أغنى بعضها عن التأويل، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن في إيمانه.

وفي الحديث: «إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن»^(٣) ولا خلاف في هذا بين أهل الدين والحق من أهل الرأي والأثر، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشرذمة من المعتزلة.

رؤيا الكافر والفاسق قد تصدق أحياناً

وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة، كمنام رؤيا الملك الذي رأى سبع بقرات، ومنام الفتيتين في السجن، ورؤيا بُخْتَنَصْر التي فسرها دانيال في ذهاب ملكه، ورؤيا كسرى في ظهور النبي ﷺ، ومنام عاتكة عمه رسول الله ﷺ في أمره وهي كافرة.

وقد ترجم البخاري «باب رؤيا أهل السجن»، وقد ذكرنا أن الرؤيا الصادقة جزء من النبوة، فكيف وقعت هذه المنامات الصادقة للكافرين والفاجرين؟

والجواب على ذلك: أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم في بعض الأوقات لا تكون من الوحي ولا من النبوة، إذ ليس كل من صدق في حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوة، فالكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق، لكن ذلك على الندور والقلة، فكذلك رؤيا هؤلاء.

(١) رواه مسلم (٤٧٩) في الصلاة، والنسائي (١٠٤٥) في التطبيق، وأبي داود (٨٧٦) في الصلاة، وابن ماجه (٢٨٩٩) في تعبير الرؤيا.

(٢) رواه البخاري (٥٧٤٧) في الطب، ومسلم (٢٢٦) الرؤيا، والترمذي (٢٢٧٧) في الرؤيا، وأبي داود (٥٠٢١) في الأدب.

(٣) رواه البخاري (٧٠١٧) في التعبير، ومسلم (٢٢٦٣) في الرؤيا، والترمذي (٢٢٧٠) في الرؤيا، وابن ماجه (٣٩١٧) في تعبير الرؤيا.

قال المهلب: إنما ترجم البخارى بهذا لجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوة إضافة رؤيا المؤمن إليها إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءاً من النبوة .

أقسام الرؤيا

ورد في الحديث أن الرؤيا ثلاثة: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله تعالى، والرؤيا من تخويف الشيطان، والرؤيا مما يحدث بها الرجل نفسه، وروى عوف بن مالك عن رسول الله ﷺ قال: «الرؤيا ثلاثة منها أهويل الشيطان ليحزن ابن آدم، ومنها ما يهتم به في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» قال: قلت: سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، سمعته من رسول الله ﷺ (١).

والرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام وكان تأويلها موافقاً لما في اللوح المحفوظ، والتي هي من خبر الأضغاث هي الحلم وهي المضافة إلى الشيطان، وإنما سُميت ضغثاً، لأن فيها أشياء متضادة، قال معناه المهلب . والرؤيا التي هي مما يحدث المرء نفسه، كأن ينشغل أثناء نهاره في تعلم قيادة السيارات فينام، فيرى نفسه بارعاً في ذلك، أو يكون كثير التفكير في موت أبيه بسبب مرضه فينام فيرى أباه قد مات .

الرؤيا ليست من أدلة استنباط الأحكام

رؤيا الأنبياء حق ووحى، كما وردت الأخبار ولذلك لما قال نبي الله ابراهيم لابنه: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: ٢٠-١] تطيباً لنفسه، ما كان من إسماعيل إلا الاستجابة والبر بأبيه فقال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ٢٠-١].

(١) رواه ابن ماجه (٣٩٠٧) في تعبير الرؤيا.

وكان النبي ﷺ لا يرى رؤيا إلا وجاءت مثل فلق الصبح، أما بالنسبة لغير الأنبياء فالرؤيا ثلاثة، وقد تكون حلماً أو رؤيا تحزين من الشيطان، أو رؤيا مما يحدث المرء نفسه، فكيف يُعمل بها؟! وكيف تصبح دليلاً من أدلة استنباط الأحكام!؟

ولذلك وجب عرض الرؤى على الضوابط الشرعية، فمن رأى أنه يقتل أو يزنى لا يجوز له مواجهة ذلك، ومن رأى غيره في المنام يفعل مثل هذه الأشياء لا يجوز له إتهامه بها، فلا بد من إعمال الضوابط الشرعية .

وقد اتفق العلماء على أن من رأى النبي ﷺ في منامه، فقال له: هذا اليوم هو أول يوم من رمضان، أنه لا يعمل بهذه الرؤيا المنامية، إذ مدار ثبوت الأمر على الرؤية بالعين البصرية .

وقد أخطأت الصوفية عندما اعتمدت المنامات والكشوفات والفتوحات في استنباط الأحكام، إذ الواجب الرد إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، ولذلك وضع الإمام البخاري منهج الاستنباط عند أهل السنة في التبويبات الفقهية في صحيحه فبدأ بكتاب الوحي ثم كتاب الإيمان والعلم ليدل على أن العلم والإيمان مردهما للوحي وبهذا المنهج افترق أهل السنة عن الصوفية والمعتزلة وغيرهم من الفرق .

حقيقة الرؤيا

اختلف العلماء في حقيقة الرؤيا ف قيل: هي إدراك في أجزاء لم تحلها آفة، كالنوم المستغرق وغيره، ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا في آخر الليل لقلة غلبة النوم فيخلق الله تعالى للرئائي عالماً ناشئاً، ويخلق له الذى يراه على ما يراه ليصح الإدراك .

قال ابن العربي: ولا يرى فى المنام إلا ما يصح إدراكه فى اليقظة، ولذلك لا يرى فى المنام شخصاً قائماً قاعداً بحال، وإنما يرى الجائزات المعتادات .

وقيل: إن لله ملكاً يعرض المرئيات على المحل المدرك من النائم فيمثل له صوراً محسوسة، فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع فى الوجود، وتارة تكون لمعانى معقولة غير محسوسة .

قال عمر رضى الله عنه: ألا أخبركم، إن الإنسان إذا نام عرج بروحه إلى السماء فما رأى قبل أن يصل إلى السماء فذلك حلم وما رأى بعد أن يصل إلى السماء فذلك الذى يكون .

وفى قول ابن سيرين بيان أن ليس كل ما يراه الإنسان يكون صحيحاً ويجوز تعبيره، إنما الصحيح منه ما كان من الله تعالى، وما سوى ذلك أضغاث أحلام لاتأويل لها .

قال المازرى: مذهب أهل السنة فى حقيقة الرؤيا أن الله تعالى يخلق فى قلب النائم اعتقادات كما يخلقها فى قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة وقال البعض: أضاف الرؤيا المحبوبة إلى الله إضافة تشريف بخلاف المكروهة وإن كانتا جميعاً من خلق الله تعالى وتدييره وبيادته ولا فعل للشيطان فيهما لكنه يحضر المكروهة ويرتضيها ويسر بها، والله أعلم .

الرؤيا الصالحة مبشرة أو منذرة

روى البخارى عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»^(١). وهذا الحديث بظاهره يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك، فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لاتسر رائيتها، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقاً به ورحمة، ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه، فإن أدرك تأولها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك .

ورد فى صحيح مسلم وغيره، أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت سوداء نائرة الرأس تخرج من المدينة إلى مهيبة (الجحفة، ميقات أهل الشام)، فأولتها الحمى»^(٢) و «رأيت سيفى قد انقطع صدره وبقراً تنحر فأولتها رجل من أهل بيتى يُقتل والبقر نفر من أصحابى يُقتلون» و «رأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة» و «رأيت فى يدى سوارين فأولتهما كذابين يخرجان بعدى» .

(١) رواه البخاري (٦٩٩٠) فى التعبير .

(٢) رواه البخاري (٧٠٣٨) فى التعبير، والترمذي (٢٢٩٠).

وقد رأى الشافعي وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حنبل تدل على محنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك .

فالرؤيا الصالحة الواردة في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤] وفي حديث البخاري، يغلب عليها البشارة وقد تكون منذرة ومحذرة أحياناً .

رؤيا الصغير

استنكر البعض أن تكون للصغير رؤيا، إذ لا حكم لفعله ومن المعلوم أن يوسف عليه السلام - كان صغيراً وقت رؤياه، وقد قال له أبوه: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥] وقد تحقق ما رآه يوسف - عليه السلام - بعد ذلك، فلا اعتراض .

والرؤيا إدراك حقيقة، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيقي في اليقظة وإذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى في المنام . وقد روى أن يوسف عليه السلام - كان ابن اثنتي عشرة سنة .

لا يعبر الرؤيا إلا من أحسنها

ينبغي أن يكون المعبر ذا حذاقة وفطنة صدوقاً في كلامه حسناً في أفعاله مشتهراً بالديانة والصيانة، وأن يكون عارفاً بالأصول في علم التعبير، وأن يميز رؤية كل أحد بحسب حاله وما يليق به وما يناسبه، ولا يساوي الناس فيما يرونه، ويعتبر في تعبيره على ما يظهر له من آيات القرآن وتفسيره ومن حديث رسول الله ﷺ وما ينقله العلماء في كتبهم وقد يقع بوادر ويعتمد على تعبيرها من الألفاظ الجليلة الظاهرة بين الناس كبحر ليس له شاطئ .

لا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح

حكى نبي الله يوسف، ما رآه على أبيه يعقوب، فقال له:

﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥] وهذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها .

روى أبو رزين العُقيلي أن النبي ﷺ قال: «الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة والرؤيا معلقة برجل طائر مالم يحدث بها صاحبها فإذا حدث بها وقعت فلا تحدثوا بها إلا عاقلاً أو محبباً أو ناصحاً»^(١)

وقيل للمالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أبالنبوة يُلعب وقال مالك: لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيراً أخبر به، وإن رأى مكروهاً فليقل خيراً أو ليصمت، قيل: فهل يعبرها على الخير وهي عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما تأولت عليه؟ فقال: لا، ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة.

ماذا يفعل من رأى ما يجب وما يكره في نومه؟

عن أبي قتادة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الرؤيا الصالحة من الله والرؤيا السوء من الشيطان، فمن رأى رؤيا فكرهَ منها شيئاً فلينبث عن يساره وليتعوذ بالله من الشيطان لا تضره ولا يخبر بها أحداً، فإن رأى رؤيا حسنة فليُشِر ولا يخبر إلا من يحب»^(٢).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة، والرؤيا ثلاثة: فرؤيا صالحة بشرى من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء نفسه فإن رأى أحداً ما يكره فليقم فليصل ولا يحدث بها الناس، قال: وأحب القيد وأكره الغلِّ والقيد ثبات في الدين - فلا أدري هو في الحديث أم قاله ابن سيرين» رواه مسلم.

وروى البخاري عن أبي سلمة قال: لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت أبا قتادة يقول: وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحداً ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب، وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدث بها أحداً فإنها لا تضره»^(٣) قال أبو قتادة: إنني كنت لأرى الرؤيا هي أثقل على من الجبل، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئاً.

(١) الترمذي (٢٢٧٨) وأحمد (١٥٧٥٠).

(٢) البخاري (٦٩٩٥)، مسلم (٢٢٦١) في الرؤيا،

(٣) البخاري (٧٠٤٤) في التعبير، ومسلم (٢٢٦١) في الرؤيا، وأحمد (٢٢٠١٩).

وروى جابر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرها فليصق عن يساره ثلاثاً وليتعوذ بالله من الشيطان ثلاثاً وليتحول عن جنبه الذي كان عليه»^(١).

قال القرطبي: قال علماؤنا: وهذا كله ليس بمعارض، وإنما هذا الأمر بالتحول، والصلاة زيادة، فعلى الرائي أن يفعل الجميع، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع، لأنه إذا صلى تضمن فعله للصلاة جميع تلك الأمور، لأنه إذا قام إلى الصلاة تحول عن جنبه، وإذا تمضمض تفلَّ وبصقَ وإذا قام إلى الصلاة تعوذ ودعا وتضرع لله تعالى في أن يكفيه شرها في حال هي أقرب الأحوال إلى الإجابة، وذلك السحر من الليل.

التحذير من الكذب في الرؤيا

لا ينبغي لأحد أن يكذب رؤياه، ويزعم أنه رأى غير ما رأى فإن الرؤيا وحى يوحيه الله له في المنام، وفي الحديث: «من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولم يفعل»^(٢).

ومعنى الحلم هو معنى الرؤيا، لكن غلب استعمال الرؤيا في المحبوبة والحلم في المكروهة.

حكم من رأى النبي ﷺ في نومه

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي»^(٣).

وروى عنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة أو لكأني رآني في اليقظة لا يتمثل الشيطان بي»^(٤) وقال: فقال أبو سلمة: قال أبو قتادة: قال رسول الله ﷺ: من رآني فقد رأى الحق»^(٥).

(١) رواه مسلم (٢٢٦٢) في الرؤيا، وأبو داود (٥٠٢٢) في الأدب وابن ماجه (٣٩٠٨) في تعبير الرؤيا، وأحمد (١٤٣٦٦).

(٢) رواه البخاري (٧٠٤٢) في التعبير، والترمذي (٢٢٨٣) في الرؤيا.

(٣) رواه البخاري (١١٠) في العلم، ومسلم (٢٢٦٦) في الرؤيا واللفظ له وابن ماجه (٣٩٠١) في تعبير رؤيا.

(٤) رواه البخاري (٦٩٩٣) في التعبير، ومسلم (٢٢٦٦) في الرؤيا.

(٥) رواه البخاري (٦٩٩٦) في التعبير، ومسلم (٢٢٦٧) في الرؤيا.

وفى الحديث: «من رأى فى المنام فقد رأى فى الشيطان لا يتمثل فى صورتى»^(١).

وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى فى النوم فقد رأى إنه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل فى صورتى، وقال: إذا حلم أحدكم فلا يخبر أحداً بتلعب الشيطان به فى المنام»^(٢).

قال ابن الباقلانى معناه أن رؤياه صحيحة ليست بأضغاث ولا من تشبهات الشيطان ويؤيد قوله رواية «فقد رأى الحق» أى الرؤية الصحيحة .

وقد اشترط البعض أن يرى الإنسان النبى ﷺ على صفته المعروفة له فى حياته التى وردت بها السنن، وأن لا تشتمل الرؤيا على مخالفة شرعية كدعوة لمواقعة الفاحشة مثلاً .

قال النووى فى شرحه لصحيح مسلم: قال القاضى ويحتمل أن يكون قوله ﷺ «فقد رأى أو فقد رأى الحق فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى» المراد به إذا رآه على صفته المعروفة له فى حياته فإن رأى على خلافها كانت رؤيا تأويل لارؤيا حقيقة، قال النووى: وهذا الذى قاله القاضى ضعيف بل الصحيح أنه يراه حقيقة سواء كان على صفته المعروفة أو غيرها أ . ه .

وقد اتفق العلماء على جواز رؤية الله تعالى فى المنام وصحتها . وذكر البعض أن الشيطان يتمثل فى الرؤيا بكل شئ إلا بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، والله أعلم .

البحث على علم الرؤيا والسؤال عنها

عن سمرة بن جندب قال: «كان النبى ﷺ إذا صلى الصبح أقبل عليهم بوجهه فقال: هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا»^(٣).

(١) رواه البخاري (١١٠) فى العلم .

(٢) رواه مسلم (٢٢٦٨) فى الرؤيا، وأحمد (١٤٣٦٥) .

(٣) رواه البخاري (٧٠٤٧) فى التعبير، ومسلم (٢٢٧٥) فى الرؤيا والترمذي (٢٢٩٤) فى الرؤيا، واللفظ له .

والبارحة هي الليلة الماضية، وفي هذا الحديث استحباب السؤال عن الرؤيا والمبادرة إلى تأويلها وتعجيلها أول النهار، قبل أن يتشعب الذهن بأشغاله في معاش الدنيا، ولأن عهد الرائي قريب لم يطرأ عليه ما يهوش الرؤيا عليه، ولأنه قد يكون فيها ما يستحب تعجيله كالحث على خير أو التحذير من معصية ونحو ذلك، كما أن فيه استحباب إقبال الإمام المصلي بعد سلامه على أصحابه وفيه إباحة الكلام في العلم وتفسير الرؤيا .

وعن ابن عباس «أن رسول الله ﷺ كان مما يقول لأصحابه: من رأى منكم رؤيا فليقصها أعبرها له...» (١) الحديث رواه مسلم، وفيه الحث على علم الرؤيا والسؤال عنها وتأويلها.

قال النووي: قال العلماء: وسؤالهم محمول على أنه ﷺ يعلمهم تأويلها وفضيلتها واشتمالها على ما شاء الله تعالى من الإخبار بالغيب .

وقد كان النبي ﷺ يُفسر الرؤى كما كان نبي الله يوسف - عليه السلام - يُعبرها وقد اشتهر البعض كأبي بكر رضي الله عنه من الصحابة وابن سيرين من التابعين بتعبير الرؤى بل كان أبو بكر يُعبر بحضرة رسول الله ﷺ، كما في الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس وفيه قول أبي بكر رضي الله عنه: «يارسول الله بأبي أنت والله لتدعني فلاعبرنّها قال رسول الله ﷺ: عبرها، قال أبو بكر: أما الظلة فظلة الإسلام، وأما الذي ينظف من السمن والعسل فالقرآن حلوته ولينه، وأما مايتكفف الناس من ذلك فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السيب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه تأخذ به فيعليك الله به ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به ثم يوصل له فيعلو به، فأخبرني يارسول الله بأبي أنت أصبت أم أخطأت قال رسول الله ﷺ: أصبت بعضاً وأخطأت بعضاً، قال: فوالله يارسول الله لتحدثني ماالذي أخطأت؟ قال: لاتقسم» (٢).

(١) رواه مسلم (٢٢٦٩) في الرؤيا.

(٢) رواه مسلم (٢٢٦٩).

قال النووي: وفي هذا الحديث جواز عبر الرؤيا، وأن عابرها قد يصيب وقد يخطئ، وأن الرؤيا ليست لأول عابر على الإطلاق وإنما ذلك إذا أصاب وجهها، وفيه أنه لا يستحب إبرار المقسم إذا كان فيه مفسدة أو مشقة ظاهرة .

رؤيا يوسف - عليه السلام -

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه، روى هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة وقيل ثمانين سنة وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره وإخوته بين يديه .

﴿وَاخْرُؤُوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾

[يوسف: ١٠٠].

وقد جاء في حديث تسمية هذه الأحد عشر كوكباً، عن جابر قال: «أتى النبي ﷺ رجل من يهود يقال له بستانة اليهودي فقال له: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبي ﷺ ساعة فلم يجبه بشئ ونزل عليه جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها، قال: فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال: «هل أنت مؤمن إذا أخبرتك بأسمائها؟» فقال: نعم قال: «جربان والطارق والذبال وذو الكتفات وقابس ووثاب وعمودان والفليق والمصبح والفروح وذو الفراغ والضياء والنور» فقال اليهودي: إى والله إنها لأسماؤها»^(١).

وفي رواية أبي يعلى: قال رسول الله ﷺ: «لما رآها يوسف قصها على أبيه يعقوب فقال له أبوه هذا أمر مشئت يجمعه الله من بعد - قال - والشمس أبوه والقمر أمه» تفرد به الحكم بن ظهير وقد ضعفه الأئمة وتركه الأكثرون .

(١) رواه البيهقي وأبو يعلى والبخاري وابن أبي حاتم.

وقد فسر البعض السجود في الرؤيا بتواضعهم ليوسف - عليه السلام - ودخولهم تحت أمره، والأصل في الكلام حمله على حقيقته ولا مانع أن يرى في المنام أن الشمس والقمر والكواكب سجدت له .

قال وهب: رأى يوسف - عليه السلام - وهو ابن سبع سنين أن إحدى عشرة عصا طوالاً كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدائرة، وإذا عصا صغيرة وثبت عليها حتى ابتلعته فذكر ذلك لأبيه فقال إياك أن تذكر هذا لأخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لا تذكرها لهم فيكيدوا لك كيداً .

وقد أعاد نبى الله يوسف لفظ الرؤيا فقال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [يوسف: ٤] ثم قال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]

وقد أجاب القفال عن هذا التكرار فقال: ذكر الرؤية الأولى لتدل على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر، والثانية لتدل على مشاهدة كونها ساجدة له وقال بعضهم: إنه لما قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ فكانه قيل له: كيف رأيت؟ فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ .

وقد أخرج الشمس والقمر لفضلهما على الكواكب، لأن التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف كما فى قوله: ﴿وَمَلَأْنَاهُ رُؤْسَهُ وَجَبْرِيْلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨]

وقد ذكر البعض أن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب، والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين، قالوا: والسبب فى ذلك أن رحمة الله تقتضى أن لا يحصل الإعلام بوصول الشر إلا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل، وأما الإعلام بالخير فإنه يحصل متقدماً على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب نوقع حصول ذلك الخير أكثر وأتم، والله أعلم إذ رد العلم إليه أسلم .

نهى يعقوب ليوسف عن حكاية الرؤيا لإخوته

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرا خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً، فخشى يعقوب - عليه السلام - أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيبغون له الغوائل، ولهذا قال له: ﴿يَا بَنِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥] أي يحتالوا لك حيلة يردونك ويهلكونك فيها .

ما ينطوي عليه النهي من معان :

(١) قضاء الحوائج بالكتمان :

أمر يعقوب يوسف - عليهما السلام - بكتمان خبر الرؤيا، فقال: ﴿يَا بَنِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥] فلما علم إخوته بها حل به ما حل .

وفى الحديث: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود» .
وقال على رضى الله عنه: سرك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره .

فينبغي على الإنسان كتمان السر وتحصينه والحذر من إفشائه، ففى ذلك خطر كبير، ومن المعلوم أن حفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار، لأن أحرار الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، وأحرار الأسرار بارز يذيعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق، وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال، فإن الرجل يستقل بالحمل الثقيل فيحمله ويمشى به، ولا يستطيع كتم السر، وإن الرجل يكون سره فى قلبه فيلحقه من القلق والكره ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه وسكن خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً .

وقال عمر بن عبد العزيز: القلوب أوعية، والشفاه أقالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره .

ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان أوثق لها، وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزائنها كان أضيع لها، وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه، ولو كتمه أمن من سطوته .

وقال أنو شروان: من حصن سره فله بتحسينه خصلتان، الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات .

وقيل: كلما كثرت خزان الأسرار زادت ضياعاً، وقيل: انفرد بسرك لا تودعه حازماً فيزل، ولا جاهلاً فيخون .

وقيل كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال، وكما أنه لاخير فى آنية لا تمسك ما فيها، فكذلك لاخير فى إنسان لايمسك سره .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: ما أفشيت سرى إلى أحد قط فأفشاء فلمته إذ كان صدرى به أضيق .

وقال الأحنف بن قيس: يضيق صدر الرجل بسره، فإذا حدث به أحداً قال اكتمه على .

و قال صالح بن عبد القدوس: لا تودع سر ك إلى طالبه، فالطالب للسر مضيع، ولا تودع مالك عند من يستدعيه، فالطالب للوديعة خائن .

وقيل لأعرابي: ما بلغ من حفظك للسر، قال: أفرقه تحت شغاف قلبى ثم أجمعه، وأنساه كأنى لم أسمعته وكان يقال: أحزم الناس من لا يفشى سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر فيفشي عليه .

وقالوا: قلوب الأحرار قبور الأسرار .

وقيل: الطمأنينة إلى كل أحد قبل الإختبار حمق .

والإستعانة على قضاء الحوائج بالكتمان لا يتنافى مع إظهار النعمة عند من تؤمن عداوته وغائلته لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] .

(٢) نصيحة وليست غيبة محرمة

فى هذه الآية دليل على أن مباحاً أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلاً فى معنى الغيبة، لأن يعقوب - عليه السلام - قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيداً، والغيبة المحرمة، هى ذكرك أخاك بما فيه من خلفه وبما يكره، وهذه هى التى تعتبر كبيرة من الكبائر بإتفاق العلماء عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟

قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: وإن كان في أخى ما أقول، قال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبت، وإن لم يكن فيه فقد بهته»^(١).

وعن عائشة - رضی الله عنها - قالت: «قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، قال بعض الرواة تعنى قصيرة، فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»^(٢).

قال معاوية بن قرة: أفضل الناس عند الله أسلمهم صدرأ، وأقلهم غيبة، وقال الأحنف: فيّ خصلتين: لا أغتاب جليسي إذا غاب عني، ولا أدخل في أمر قوم لا يدخلونني فيه .

وقيل للربيع بن خيثم ما نراك تعيب أحداً؟ فقال: لست عن نفسي راضياً فأنتفرغ لدم الناس .

وأول من إغتاب إبليس لعنه الله إغتاب آدم عليه السلام - وقيل: لا تأمن من اغتاب عندك غيرك أن يغتابك عند غيرك، وقيل للحسن البصرى: إن فلاناً اغتابك، فأهدى إليه طبقاً من رطب، فأناه الرجل وقال له: إغبتك فاهديت إلى . ، فقال الحسن: أهديت إلى حسناتك فأردت أن أكافئك .

وعن ابن المبارك قال: لو كنت مغتاباً أحداً، لاغبت والديّ لأنهما أحق بحسناتي . واعلم أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة، كذلك يحرم على السامع استماعها، فإن قال للمغتاب بلسانه اسكت وقلبه يشتهي سماع ذلك، فذلك نفاق كما قال بعض العلماء .

والغيبة كما تكون بالقول، تكون بالفعل والإشارة . . . والتعريض بها كالتصريح ويستثنى من ذلك أمور تدعو لها الضرورة والمصلحة الحقيقية . كقول النبي ﷺ: «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فضراب للنساء»^(٣) وذلك في الشهادة، وكقول هند بنت عتبة عن زوجها: «إن أبا سفيان رجل شحيح

(١) رواه مسلم (٢٥٨٩) في كتاب البر والصلة - والأدب.

(٢) رواه أبي داود (٤٨٧٥) في الأدب، والترمذي (٢٥٠٢) صفة القيامة وأحمد (٢٥٠٣٢).

(٣) رواه مسلم (١٤٨٠) في الطلاق، والترمذي (١١٣٤) في النكاح والنسائي (٣٢٤٥) في النكاح، وأبو داود (٢٢٨٤) في الطلاق.

لا يعطيني ما يكفيني وولدي، فقال لها النبي ﷺ: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»^(١) أو كقول علماء الحديث: فلان كذاب، وقولهم الأعرج، الأعمش .. بصفته التي يُعرف بها، وكقول النبي ﷺ: «ما أظن أن فلاناً وفلاناً يعرفان شيئاً من ديننا لرجلين من المنافقين». ومن ذلك أيضاً التحذير من أهل البدع والمتجاهرين بالمعاصي، فهؤلاء لا غيبة لهم، وذكرهم بما فيهم لا يدخل في دائرة التحريم .

(٢) توجس وغلبة ظن أوجب التحذير

معرفة نبي الله يعقوب - عليه السلام - بأحوال أولاده ومشاعرهم تجاه ولده يوسف، هو الذي دفعه لمثل هذا التحذير فقال ليوسف - عليه السلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥] فحسداهم له سيزداد بسماعهم هذه الرؤيا، ولا يؤمن حيثئذ أن يكيدوا ليوسف، وهذه المعرفة قد يكون مدارها على الوحي، أو غلبة الظن التي تواجدت بمشاهدة أحوالهم، واستقراء تصرفاتهم، ومتابعة سلوكياتهم، بحيث تكون الحيلة والتحذير كالنتيجة المترتبة على مقدماتها، والأحكام مبناها على اليقين أو غلبة الظن، مثل عدم جواز بيع العنب لمن يتخذة خمراً، وحرمة خياطة الملابس لمن تتبرج فيها، وعدم مشروعية بيع السلاح لمن يقتل به مسلماً، أو تأجير العقار لمن يعصى الله فيه، وكل ذلك من باب ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] وسداً للذرائع التي توصل إلى معصية الله، ومن هذا الباب إطلاق حكم المنع بالنسبة للتليفزيون وغيره من الأجهزة إذا غلب عليها الشر والفساد، وغلب على الناس سوء الاستخدام، فالأحكام أغلبية، ولا عبرة بالشذوذ .

(٤) استشعار الحسد من إخوة يوسف

التخوف من إزدیاد حسد إخوة يوسف له، هو الذي دفع نبي الله يعقوب - عليه السلام - أن يقول ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥] والحسد آفة، والحاسد مغتاط على من لا ذنب له كما قال على رضي الله عنه .

(١) رواه البخاري (٥٣٦٤) في النفقات، وابن ماجه (٢٢٩٣) في التجارات.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] وقال رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود». وقيل بئس الشعار الحسد .

وقيل لبعضهم: ما بال فلان يبغضك، قال: لأنه شقيقي في النسب، وجارى في البلد، وشريكى فى الصناعة، فذكر جميع دواعى الحسد، والحسد يفعل فى الحاسد أكثر من فعله فى المحسود، ولذلك ما أعدله عندما يبدأ الحسد بصاحبه فيقتله .

قال أبو الليث السمرقندى: يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود :

أولها: غم لا ينقطع .

والثانية: مصيبة لا يؤجر عليها .

والثالثة: مذمة لا يحمد عليها .

والرابعة: سخط الرب .

والخامسة: يغلق عنه باب التوفيق .

قال عمر رضى الله عنه: يكفيك من الحاسد أنه يغم وقت سرورك .

وقال مالك بن دينار: شهادة القراء مقبولة فى كل شئ إلا شهادة بعضهم على بعض، فإنهم أشد تحاسداً من التيوس . والحاسد عدو النعمة متسخط لفعل الله سبحانه، غير راضى بقسمته جل وعلا .

قال الأصمعى: رأيت أعرابياً بلغ عمره مائة وعشرين سنة فقلت له: ما أطول عمرك، فقال: تركت الحسد فبقيت، وقالوا: لا يخلو السيد من ودود يمدح وحسود يقده .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: ألا لاتعادوا نعم الله، قيل: ومن يعادى نعم الله، قال: بالذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله .

وقيل لعبد الله بن عروة: لِمَ لزمتم البدو وتركت قومك؟ فقال: وهل بقى إلا حاسد على نعمة أو شامت على نكبة .

وقال عمر رضی الله عنه: نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسد .
وكان الحسود لم يقتصر على نصيبه من غموم الدنيا حتى أضاف إلى ذلك غمه
لسرور الناس ولذلك كان أشد غماً

اصبر على حسد الحسود فإن صبرك قاتله
كالنار تاكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وأنشد بعضهم:

أيا حاسداً لى على نعمتى أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى حكمه لأنك لم ترضى لى ما وهب
فأخزاک ربى بأن زادنى وسد عليك وجوه الطلب

(٥) الرجل يود أن يكون ولده خيراً منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه

هذه الآيات فيها دليل واضح على معرفة يعقوب - عليه السلام - بتأويل الرؤيا،
فإنه علم من تأويلها أن يوسف - عليه السلام - سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من
نفسه، فإن الرجل يود أن يكون ولده خيراً منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه .

ويدل أيضاً على أن يعقوب - عليه السلام - كان أحسن من بنيه حسد يوسف
وبغضه، فهناك عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن يغلب بذلك صدورهم، فعملوا
الحيلة فى هلاكه كما ذكر القرطبي .

وذكر ابن كثير فى تفسيره أن تعبير الرؤيا خضوع إخوة يوسف له، وتعظيمهم
إياه تعظيماً زائداً بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً، فخشى
يعقوب عليه السلام - أن يحدث يوسف بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على
ذلك فيبغون له الغوائل حسداً منهم له ولهذا قال له ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ
فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥] أى يحتالوا لك حيلة يردونك فيها .

وقال الرازى فى «التفسير الكبير»: المسألة الثانية: أن يعقوب عليه السلام كان
شديد الحب ليوسف وأخيه فحسده إخوته لهذا السبب، وظهر ذلك المعنى ليعقوب
- عليه السلام - بالآمارت الكثيرة فلما ذكر يوسف - عليه السلام - هذه الرؤيا
وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له . هـ .

وقال سيد قطب في «الظلال»: ولهذا نصحه بالألا يقص رؤياه على إخوته، خشية أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم الصغير غير الشقيق، فيجد الشيطان من هذا ثغرة في نفوسهم، فتمتلئ نفوسهم بالحقد، فيدبروا له أمراً يسوؤه ﴿قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥] ثم علل هذا بقوله:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥] ومن ثم فهو يوغر صدور الناس بعضهم على بعض ويزين لهم الخطيئة والشر .

(٦) العدل بين الأولاد في العطاء والمنع

ذكر المفسرون شدة محبة يعقوب ليوسف - عليهما السلام - فحسده إخوته لهذا السبب فهل كان بمقدور نبي الله يعقوب - أن يمسك قلبه عن محبة يوسف ؟ وهل هو أخطأ عندما قدم يوسف وأخاه في المحبة على سائر أولاده ؟ أو كان في استطاعته أن يعدل في هذه المحبة بين أولاده تجنباً لحسدهم لأخيهم الصغير غير الشقيق ؟ وللإجابة على ذلك نقول: هناك عدل مستطاع مقدور بالنسبة للإنسان وهو المتعلق بالعطاء والمنع وما شابه ذلك، وهناك عدل غير مستطاع وهو المتعلق بأعمال القلوب كالحب ونحوه، إذ قلوب العباد بيد الله وحده، ولذلك كان النبي ﷺ يعدل بين نسائه في النفقة والسكنى والمبيت ويقول: « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»^(١).

ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩] أي في الميل والمحبة والإتيان، وقد كان النبي ﷺ يحب السيدة عائشة رضي الله عنها أكثر من بقية نسائه، ويقول: «فضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(٢) وكذلك الأمر بالنسبة لمحبة الأولاد، فقد يحب الوالد أحد أبنائه أكثر من بقية إخوته، لصغره أو لصلاحه أو لغير ذلك من الأسباب، وهذه المحبة الزائدة لا تمنع الوالد من محبة بقية أولاده والحرص عليهم ومجاهدة نفسه في العدل بينهم وعدم إعانة الشيطان على نفوسهم والحذر من إتيان ما يوغر صدورهم .

(١) رواه أبي داود (٢١٣٤) في النكاح، والترمذي (١١٤٠) في النكاح والنسائي (٣٩٤٣) في عشرة النساء، وابن ماجه (١٩٧١) في النكاح.

(٢) رواه البخاري (٣٤١١) في أحاديث الأنبياء، ومسلم (٣٤٣١) في فضائل الصحابة والترمذي (٣٨٨٧) في المناقب، والنسائي (٣٩٤٧) في عشرة النساء وابن ماجه (٣٢٨٠) في الأطعمة، وأحمد (١٢١٨٧).

فقد كان السلف يستحبون العدل بين الأولاد حتى في القبلة، وفي حديث النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم»^(١).

وفي صحيح مسلم: «أن امرأة بشير قالت له: انحل ابني غلاماً، وأشهد لى رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ وقال: إن ابنة فلان سألتني أن انحل ابنها غلامى قال: «له إخوة؟ قال:

نعم، قال: أفكلهم أعطيت مثل ما أعطيته؟ قال: لا. قال: فليس يصلح ذا، وإنى لا أشهد إلا على حق»^(٢) وقال فيه: «لا تشهدنى على جور، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم» ورواه مسلم في الهبات، باب «كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة». وفي الحديث: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»^(٣)، وعن أنس: «أن رجلاً كان جالساً مع النبي ﷺ فجاء بنى له فقبله وأجلسه في حجره، ثم جاءت بنته فأخذها فأجلسها إلى جنبه، فقال النبي ﷺ: فما عدلت بينهما» وفي الحديث: «سوا بين أولادكم في العطية فلو كنت مفضلاً أحد لفضلت النساء».

فينبغي التسوية في المعاملة وتقديم الهدايا وتعليم العلوم النافعة، والعطية في الدنيا بصفة عامة إلا للمعارض الراجح كأن يطلب أحد الأبناء علماً أو يكون مريضاً مرضاً مزمناً فيعطى أكثر من إخوته، أو يكون سفيهاً مبذراً فيمنع، وإلا فالأصل التسوية، ولو تنازل أحد الأبناء عن حقه في العطية برضاه فلا بأس بذلك، أما بالنسبة للمحبة فإنها إن تفاوتت، إلا أنه لا يجوز الجور في التعامل مع الأبناء.

ومن هذا يتضح لك عدم مؤاخذه نبي الله يعقوب في محبته الشديدة ليوسف عليه السلام.

(٧) إخوة يوسف اترفوا أموراً تتنافى مع عصمة الأنبياء

وقع في كتاب الطبرى لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يردده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدينوى، وعن عقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك والتأمر

(١) رواه النسائي (٣٦٨٧) في النحل، وأحمد (١٧٩٥٤) وأبي داود (٣٥٤٤) في البيوع.

(٢) رواه مسلم (١٦٢٤) في الهبات، وأحمد (١٤٠٨٣).

(٣) رواه مسلم (١٦٢٣) في الهبات.

على قتله، فلا إلتفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء، ولا يستحيل في العقل زلة نبي، إلا أن هذه الزلة قد جمعت أنواعاً من الكبائر، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا في الصغائر .

قال ابن تيمية: «القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الأمدى أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول»^(١).

وقد ذهب فريق من العلماء إلى أن العصمة للأنبياء، ليس فقط بعد النبوة وإنما أيضاً قبلها حتى لا يكون ثمة مطعن في رسالته ودعوته، واستدلوا على ذلك بأن الله تبارك وتعالى قد اختار أنبياءه من صفوة البشر، ورعاهم منذ الصغر على عينه كما قال لموسى عليه السلام ﴿وَلَتُصَنِّعَ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] وجعلهم من المصطفين الأخيار ﴿وَأِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٧] فلا بد إذاً أن يكونوا معصومين ومحفوظين قبل النبوة وبعدها .

قال القرطبي: وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية .

وأما في الشرع: فالعصمة هي: حفظ الله لأنبيائه ورسله عن الوقوع في الذنوب والمعاصي، وارتكاب المنكرات والمحرمات . فالعصمة ثابتة للأنبياء وهي من صفاتهم التي أكرمهم الله تعالى بها، ويميزهم على سائر البشر، فلم تكن لأحد إلا للأنبياء الكرام حيث وهبهم الله هذه النعمة العظمى وحفظهم من ارتكاب المعاصي والذنوب، صغيرها وكبيرها . . . فلا يمكن أن تقع منهم معصية أو مخالفة لأوامر الله عز وجل بخلاف سائر البشر أ.هـ .

فما أثبتته نبي الله يعقوب في حق أولاده من جهة، وفعلهم بيوسف - عليه السلام - يدل على أنهم كانوا غير أنبياء في ذلك الوقت .

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤/٣١٩).

اجتباء يوسف وتعدد نعم الله عليه

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦] أي كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا، قال مقاتل: بالسجود لك، وقال الحسن: بالنبوة.

والاجتباء اختيار معالي الأمور للمجتبى، وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف - عليه السلام - وتعدد فيما عدده عليه من النعم التي آتاه الله تعالى، التمكين في الأرض، وتعليم تأويل الأحاديث، وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا .

قال عبد الله بن شداد بن الهاد: كان تفسير رؤيا يوسف عليه السلام بعد أربعين سنة وذلك منتهى الرؤيا .

وعنى بالأحاديث ما يراه الناس في المنام، وهي معجزة له، فإنه لم يلحقه فيها خطأ، وكان يوسف - عليه السلام - أعلم الناس بتأويلها . وقد قيل في تفسير قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦] أي أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد، فهو إشارة إلى النبوة وهو المقصود بقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٦] أي بالنبوة، وقيل: بإخراج إخوتك إليك، وقيل: بإنجائك من كل مكروه ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [يوسف: ٦] بالخلة وإنجائه من النار ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف: ٦] بالنبوة .

إن ربك عليم حكيم

آيات كثيرة في كتاب الله ختمت بهذين الإسمين الكريمين مثل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ومثل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَلْجُنَّ الَّذِي أَجَلْتُمْ لَنَا قَالُوا نَارُ مَشَاؤِكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ
يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦].

قال الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الحكم: في الإصطلاح هو من يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها .

فالله جل وعلا حكم لا يضع أمراً إلا في موضعه ولا يوقعه إلا في موقعه ولا يأمر إلا بما فيه الخير ولا ينهى إلا عما فيه الشر ولا يعذب إلا من يستحق العذاب وهو جل وعلا ذو الحكمة البالغة له الحجة والحكمة البالغة .

وأصل الحكم في لغة العرب معناها المنع، نقول: حكمه وأحكمه إذا منعه هذا هو أصل الحكم، والحكمة فعلة من الحكم وأظهر تفسير لها: العلم النافع لأن العلم النافع هو الذي يحكم الأقوال والأفعال أى يمنعها من أن يعتربها الخلل فمن كان عنده العلم الكامل فإنه لا يضع الأمر إلا في موضعه ولا يوقعه إلا في موقعه لأن كل إخلال في الأحكام إنما هو من الجهل بعاقبة الأمور، فترى الرجل الحاذق البصير يفعل الأمر يظن أنه في غاية الإحكام ثم ينكشف الغيب عن أنه فيه هلاكه فيندم حين لا ينفع الندم ويقول: ليتنى لم أفعل، أو لو أنى فعلت كذا لكان أحسن .

أما الله سبحانه العالم بعواقب الأمور وما تصير إليه، والعالم بما كان ويكون فلا يضع إلا أمراً في موضعه ومحال أن ينكشف الغيب عن أن ذلك الأمر على خلاف الصواب لعلمه سبحانه بما تؤول إليه الأمور .

والعليم: صيغة مبالغة لأن علم الله جل وعلا محيط بكل شئ يعلم خطرات القلوب وخائبات العيون وما تخفى الصدور، حتى أن من إحاطة علمه سبحانه، علمه بالعدم الذى سبق فى علمه أن لا يوجد فهو عالم أن لو وجد كيف يكون .

وأن اسم (الحكيم العليم) فيه أكبر مدعاة للعباد أن يطيعوه ويتبعوا تشريعه لأن حكمته سبحانه تقتضى أن لا يأمرهم إلا بما فيه الخير ولا ينهاهم إلا عما فيه الشر ولا يضع أمراً إلا فى موضعه .

وبإحاطة علمه يعلمون أن ليس هنالك غلط في ذلك الفعل أو أن ينكشف عن غير المراد، بل هو في غاية الإحاطة والإحكام، وإذا كان من يأمرك بحكم لا يخفى عليه شئ حكيم في غاية الإحكام لا يأمرك إلا بما فيه الخير ولا ينهك إلا عن ما فيه الشر فإنه يحق عليك أن تطيع وتمثل أ.هـ .

وقد قسم الإمام ابن القيم الأحكام إلى ثلاثة فقال: (١)

الحكم الأول : حكم شرعى دينى : فهذا حقه أن يتلقى بالمسألة والتسليم وترك المنازعة، بل الإنقياد المحض .

وهذا تسليم العبودية المحضة فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد، ولا يرى إلى خلافه سبيلاً البتة، وإنما هو الإنقياد المحض والتسليم والإذعان والقبول، فإذا تلقى بهذا التسليم والمسألة إقراراً وتصديقاً بقى هناك إنقياد آخر وتسليم آخر له إرادة وتنفيذاً وعملاً .

فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه . كما لا تكون له شبهة تعارض إيمانه وإقراره، وهذا حقيقة القلب السليم الذى سلم من شبهة تعارض الحق وشهوة تعارض الأمر، فلا استمتع بخلافه كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات ولا خاض فى الباطل خوض الذين يتبعون الشبهات بل اندرج خلافه تحت الأمر واضمحل خوضه فى معرفته بالحق فاطمأن إلى الله معرفة به ومحبة له وعلماً بأمره وإرادة لمرضاته، فهذا حق الحكم الدينى الشرعى .

الحكم الثانى : الحكم الكونى القدرى : والذى للعبد فيه كسب واختيار وإرادة والذى إذا حكم به يسخطه ويغضبه ويذم عليه، فهذا حق أن ينازع ويدافع بكل ممكن ولا يسالم البتة، بل ينازع بالحكم الكونى أيضاً، فينازع حكم الحق بالحق للحق فيدافع به وله كما قال شيخ العارفين فى وقته عبد القادر الجيلى : «الناس إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا وأنا انفتحت لى روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والعارف من يكون منازعاً للقدر لا واقفاً مع القدر» فإن ضاق ذرعك عن هذا فتأمل قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد عوتب على فراره من الطاعون فقيل له : أنفر من قدر الله ؟ فقال : نفر من قدر الله إلى قدره .

ثم كيف ينكر هذا الكلام من لا بقاء له في هذا العالم إلا به ولا تتم له مصلحة إلا بموجبه فإنه إذا جاء قدر الجوع والعطش أو البرد نازعه وترك الإنقياد له ومسالته ودفعه بقدر الأكل والشرب واللباس فقد دفع قدر الله بقدره، وكذا إذا وقع الحريق في داره فهذا بقدر الله فما باله لا يستسلم له ويسأله ويتلقاه بالإذعان؟ بل ينازعه ويدافعه بقدر الله، وما خرج في ذلك عن قدر الله، وهكذا إذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر ونازعه بقدر آخر يستعمل فيه الأدوية الدافعة للمرض .

فحق هذا الحكم الكوني أن يحرص العبد على مدافعته ومنازعته بكل ما يمكنه، فإن غلبه وقهره حرص على دفع آثاره وموجباته بالأسباب التي نصبها الله لذلك، فيكون قد دفع القدر بالقدر، ومن لم يستبصر في هذه المسألة ويعطيها حقها لزمه التعطيل للقدر أو الشرع شاء أو أبى، فما للعبد ينازع أقدار الرب بأقداره في حظوظه وأسباب معاشه ومصالحه الدنيوية ولا ينازع أقداره في حق مولاه وأوامره ودينه؟

وهل هذا إلا خروج عن العبودية ونقص في العلم بالله وصفاته وأحكامه، ولو أن عدواً للإسلام قصده لكان هذا بقدر الله ويجب على كل مسلم دفع هذا القدر بقدر يحبه الله وهو الجهاد باليد أو المال أو القلب دفعاً لقدر الله بقدره فما للإستسلام والمسألة هنا مدخل في العبودية اللهم إلا إذا بذل العبد جهده في المدافعة والمنازعة وخرج الأمر عن يده فحيثئذ يبقى من أهل الحكم الثالث .

الحكم الثالث: وهو الحكم القدرى الكوني الذى يجرى على العبد بغير اختياره ولا طاقة له ولا حيلة له فى منازعته فهذا حقه أن يتلقى بالإستسلام والمسألة وترك المخاصمة وأن يكون فيه كالميت بين يدي الغاسل، وكمن انكسر به المركب فى لجة البحر وعجز عن السباحة وعن سبب يدينه من النجاة، فها هنا يحسن الإستسلام والمسألة، مع أن عليه فى هذا الحكم عبوديات أخر سوى التسليم والمسألة، وهى أن يشهد عزة الحاكم فى حكمه، وعدله فى قضائه، وحكمته فى جريانه عليه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطأه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الكتاب الأول سبق بذلك قبل بدء الخليقة، فقد جف القلم بما يلقيه كل عبد فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فله السخط، ويشهد أن القدر ما أصابه إلا الحكمة اقتضاها اسم الحكيم جل جلاله وصفته الحكمة، وأن القدر قد أصاب مواقعه وحل فى

المحل الذي ينبغي له أن ينزل به، وأن ذلك أوجه عدل الله وحكمته وعزته وعلمه وملكه العادل فهو موجب أسمائه الحسنی وصفاته العلی فله عليه أكمل حمد وأتمه، كما له الحمد على جميع أفعاله وأوامره أ.هـ .

ومن هذا العرض تقف على سر اقتران الإسمين، وعلى مدلول ولوازم كل اسم منهما، وماذا يجب علينا من العبودية فيهما؟ بحيث لا يبقى بعد ذلك إلا التبعيد لله تعالى بأسمائه وصفاته والعمل بمقتضاها .

آيات للسائلين

كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية فيما خبروا به، لأنهم سألوا النبي ﷺ وهو بمكة فقالوا: أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر، فبكى عليه حتى عمى؟ ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ولا من يعرف خبر الأنبياء، وإنما وجه اليهود من المدينة من يسألونه عن هذا - فأنزل الله عز وجل سورة (يوسف) جملة واحدة، فيها كل ما في التوراة من خبر وزيادة، فكان ذلك آية للنبي ﷺ، بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت .

وكان مما نزل في هذه السورة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: 7] وإخوة يوسف هم روبيل وهو أكبرهم، وشمعون ولاوى ويهوذا وزبالون ويساخر، وأمهم ليا بنت ليان، وهى بنت خال يعقوب، وولد له من سريتين أربعة نفر، دان وفتالي وجاد وأشر، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً .

قال السهيلي: وأم يعقوب اسمها رفقا، وراحيل ماتت في نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب وقيل: في اسم الأمتين ليا وتلتا، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليا، وكانتا قد وهبتهما ليعقوب، وكان يعقوب قد جمع بينهما، ولم يحل لأحد بعده، لقول الله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: 23] وهؤلاء الإخوة لما بلغتهم رؤيا يوسف حسدوه وقالوا: ما يرضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه! فبغوه بالعداوة .

ورود عن ابن عباس: «أن حبراً من اليهود دخل على النبي ﷺ فسمع منه

قراءة يوسف فعاد إلى اليهود فأعلمهم أنه سمعها منه كما هي في التوراة، فانطلق نفر منهم فسمعوا كما سمع، فقالوا له: من علمك هذه القصة؟ فقال: الله علمنى، فنزل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: 7] فلعل الآيات المذكورة كانت في إخبار النبي ﷺ من غير سبق تعلم ولا مطالعة. ومن المعلوم أن أهل مكة أكثرهم كانوا أقارب الرسول ﷺ وكانوا ينكرون نبوته ويظهرون العداوة الشديدة معه بسبب الحسد، فذكر الله تعالى هذه القصة وبين أن إخوة يوسف بالغوا في إيذائه لأجل الحسد، ثم إن الله تعالى نصره وقواه وجعلهم تحت يده ورايته، ومثل هذه الواقعة إذا سمعها العاقل كانت زجراً له عن الإقدام على الحسد، وإذا كان يعقوب لما عبر الرؤيا وقع ذلك التعبير بعد ذلك بسنين، فكذلك فإن الله تعالى لما وعد محمداً عليه الصلاة والسلام بالنصر والظفر على الأعداء، فإن تأخر ذلك الموعود مدة من الزمان لم يدل ذلك على كون محمد عليه الصلاة والسلام كاذباً فيه، فذكر هذه القصة نافع من هذا الوجه، وكذلك فإن إخوة يوسف بالغوا في إيصال أمره، ولكن الله تعالى لما وعده بالنصر والظفر كان الأمر كما قدره الله تعالى، لا كما سعى فيه إخوته، وقد حدث مثل ذلك لرسول الله ﷺ، فإن الله لما ضمن له إعلاء الدرجة لم يضره سعى الكفار في إيصال أمره.

عُصْبَةٌ وَعُصْبَةٌ

قال إخوة يوسف: ﴿لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: 8] أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه، وأخوه هو بنيامين، وإنما قالوا: ﴿أَخُوهُ﴾ وهم جميعاً إخوة، لأن أمهما كانت واحدة ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أى جماعة، وكانوا عشرة، والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة وقيل: إلى الخمسة عشر، وقيل: ما بين الأربعين إلى العشرة، ولا واحد لها من لفظها كالنفر والرهط .
ونقل عن علي رضي الله عنه أنه قرأ ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ بالنصب قيل: معناه ونحن نجتمع عصبة .

والعصبة جمع عاصب كطالب وطلبة، وهم بنو الرجل وقرباته لأبيه، وسموا بذلك لشدة بعضهم أزر بعض . وهذا اللفظ مأخوذ من قولهم: عصب القوم بفلان إذا أحاطوا به، فالابن طرف والأب طرف آخر والأخ جانب والعم جانب آخر .

وقد ذكر ابن قدامة في «المنى»، أنه متى عدّم الأب وآبؤه فأولى الناس بتزويج المرأة ابنها ثم ابنه بعده وإن نزلت درجته الأقرب فالأقرب منهم، ولا خلاف بين أهل العلم في تقديم الأخ بعد عمودى النسب لكونه أقرب العصابات بعدهم فإنه ابن الأب وأقواهم تعصياً وأحقهم بالميراث، وذكر أن الولاية تترتب على ترتيب الإرث بالتعصيب فأحقهم بالميراث أحقهم بالولاية، ولا ولاية لغير العصابات من الأقارب كالأخ من الأم والخال وعم الأم والجدة أب الأم ونحوهم نص عليه أحمد في مواضع وهو قول الشافعى وإحدى الروایتين عن أبى حنيفة .

والثانية: إن كل من يرث بفرض أو تعصيب يلى لأنه من أهل ميراثها فوليتها كعصباتها . ولنا: ما روى عن على أنه قال: «إذا بلغ النساء نص الحقائق في فالعصبة أولى إذا أدركن» رواه أبو عبيد فى الغريب، ولأنه ليس من عصباتها فأشبهه الأجنبى إلى أن قال: لا خلاف نعلمه فى أن المرأة إذا لم يكن لها عصبه من نسبها أن مولاها يزوجها ا . ه .

وما ارتضاه ابن قدامة هو مذهب جمهور العلماء، منهم مالك والثورى والليث والشافعى فقد ذهبوا إلى أن الأولياء فى الزواج هم العصبه وليس للخال ولا للإخوة لأم، ولا لولد الأم، ولا لأى من ذوى الأحام ولاية، وفى الحديث عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال: «لا نكاح إلا بولى»^(١).

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «أیما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها، فإن اشتجروا (أى امتنعوا عن التزويج) فالسلطان ولى من لا ولى له»^(٢) وقال: حديث حسن . قال القرطبى: وهذا الحديث صحيح .

والعصبه هم الذين يصرف لهم باقى التركة بعد أن يأخذ أصحاب الفروض أنصباءهم المقدره لهم، فإذا لم يفضل شئ منهم لم يأخذوا شيئاً إلا إذا كان العاصب ابناً فإنه لا يحرم بحال، والعصبه كذلك هم الذين يستحقون التركة كلها

(١) رواه الترمذى (١١٠١) فى النكاح، وأبى داود (٢٠٨٥) فى النكاح وابن ماجه (١٨٨٠) فى النكاح، وأحمد (٢٢٦٠).

(٢) رواه الترمذى (١١٠٢) فى النكاح، وأبى داود (٢٠٨٣) فى النكاح وابن ماجه (١٨٧٩) فى النكاح، وأحمد (٢٣٨٥١).

إذا لم يوجد من أصحاب الفروض أحد، لما رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلاولى رجل ذكر» (١).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا أنا أولى به فى الدنيا والآخرة، اقرأوا إن شئتم «النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ» [الأحزاب: ٦] فأيما مؤمن مات وترك مالا فليسرته عصبة من كانوا، ومن ترك ديناً أو ضياعاً (من يخلفه الميت ولا شئ له) فليأتنى فانا مولاه» (٢).

والعصبة تنقسم إلى قسمين :

(١) عصبة نسية .

(٢) عصبة سببية .

والعصبة النسبية أصناف ثلاثة :

(١) عصبة بنفسه .

(٢) عصبة بغيره .

(٣) عصبة مع غيره .

ومن أراد المزيد من التفاصيل فعليه الرجوع إلى كتب الفقه والإطلاع على أحكام النكاح والموارث.....

هل ضل الأب؟

وكيف تكون مواجتهته؟

لقد نسب إخوة يوسف أباهم إلى الضلال المبين فقالوا : «لِيُؤَسِّفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْبَانًا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» [يوسف: ٨] يعنون فى تقديمهما علينا ومحبتة إياهما أكثر منا قال القرطبى : «لم يريدوا ضلال الدين، إذ لو أرادوه لكانوا كفاراً، بل أرادوا لفى ذهاب عن وجه التدبير، فى إيثار اثنين

(١) رواه البخاري (٦٧٣٢) فى الفرائض، ومسلم (١٦١٥) فى الفرائض والترمذي (٢٠٩٨) فى الفرائض، وأحمد (٢٦٥٢).

(٢) رواه البخاري (٢٣٩٩) فى الاستقراض وأداء الديون، وأحمد (٨٢١٣).

على عشرة مع استوائهم فى الإنتساب إليه، وقيل: لفى خطأ بين بإيثاره يوسف وأخاه علينا». اهـ.

وقال الرازى: المراد منه بيان السبب الذى لأجله قصدوا إيذاء يوسف، وذلك أن يعقوب كان يفضل يوسف وأخاه على سائر الأولاد فى الحب وأنهم تأذوا منه لوجوه:

الأول: أنهم كانوا أكبر سنأ منهما .

وثانيهما: أنهم كانوا أكثر قوة وأكثر قياماً بمصالح الأب منهما .

وثالثهما: أنهم قالوا إنا نحن القائمون بدفع المفاسد والآفات والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات إذا ثبت ما ذكر من كونهم متقدمين على يوسف وأخيه فى هذه الفضائل .

ثم إنه عليه السلام كان يفضل يوسف وأخاه عليهم، لا جرم قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يعنى هذا حيف ظاهر وضلال بين إلى أن قال: إنهم كانوا مؤمنين بنبوة أبيهم مقرين بكونه رسولاً حقاً عند الله تعالى، إلا أنهم لعلهم جوزوا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يفعلوا أفعالاً مخصوصة بمجرد الاجتهاد، ثم إن اجتهادهم أدى إلى تخطئة أبيهم فى ذلك الاجتهاد وأما يعقوب عليه السلام فلعله كان يقول: زيادة المحبة ليست فى الوسع والطاقة، فليس لله على فيه تكليف. وأما تخصيصهما بمزيد البر فيحتمل أنه كان لوجوه:

أحدها: أن أمهما ماتت وهما صغار .

وثانيهما: لأنه كان يرى فيه من آثار الرشد والتجابه مالم يجد فى سائر الأولاد.

وثالثهما: لعله عليه السلام وإن كان صغيراً إلا أنه كان يخدم أباه بأنواع من الخدم أشرف وأعلى مما كان يصدر عن سائر الأولاد .

والحاصل أن هذه المسألة كانت إجتهدية، وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة، فلا يلزم من وقوع الاختلاف فيها طعن أحد الخصمين فى دين الآخر أو فى عرضه وبعد أن ذكر أنه ما بقيت خصلة مذمومة ولا طريقة فى الشر والفساد إلا وقد أتوا بها، وكل ذلك يقدر فى العصمة والنبوة، قال: إن المعتبر عندنا عصمة الأنبياء عليهم السلام فى وقت حصول النبوة وأما قبلها فذلك غير واجب، والله أعلم. اهـ.

وما ذكره الرازي من نبوتهم غير صحيح، فما ورد في الآيات من نسبتهم الضلال المبين لأبيهم نبي الله يعقوب عليه السلام ثم قولهم: «أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ» [يوسف: 9] هذا بالإضافة إلى أنه لم يدل دليل صحيح على نبوتهم .

يقول ابن كثير: «واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك وفي هذا نظر، ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى :

«قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ» [البقرة: 136] وهذا فيه احتمال لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأسباط كما يقال للعرب: قبائل وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف لم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى، إليهم والله أعلم . هـ .

كان أولى بهم أن يحسنوا الظن بأبيهم النبي يعقوب - عليه السلام - وأن يتركوا اجتهادهم لاجتهاده - إن كانوا من أهل الاجتهاد - لأبوتهم من جهة، ونبوته من جهة أخرى، ولأن الأمر لا معصية فيه لله تعالى، فالمحبة من أعمال القلوب، والقلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء، وكان أرفق بهم أن يسألوا أباهم لماذا قدم أخاهم يوسف في المحبة عليهم ؟ بدلاً من نسبه للضلال المبين .

حق الوالدين ثابت وإن ظلما

حق الأبوة يوجب مزيد التعظيم، فعن ابن عباس رضى الله عنهما: قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح مطيعاً لله في والديه أصبح له بابان مفتوحان من الجنة، وإن كان واحداً فواحد، ومن أمسى عاصياً لله تعالى في والديه أصبح بابان مفتوحان من النار وإن كان واحداً فواحد، قال رجل: وإن ظلماه . قال: وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه»⁽¹⁾.

(1) رواه ابن أبي شيبة والحاكم والبيهقي وقال الحافظ في «اللسان»: رجاله ثقات أثبات إلا عبد الله بن يحيى السرخسي فهو أفته، وقد أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» موقوفاً على ابن عباس .

ورواه الديلمي من حديثه بلفظ: «من أصبح والداه راضيين عنه أصبح وله بابان مفتوحان إلى الجنة، ومن أصبح ساخطين عليه أصبح له بابان مفتوحان من النار، وإن كان واحد فواحد فقيل: وإن ظلماه، قال: وإن ظلماه» ورواه الدار قطنى بهذا اللفظ من حديث زيد بن أرقم .

وعن ابن عباس قال: «ما من مسلم له والدان مسلمان يصبح إليهما محسناً إلا فتح الله له بابين يعنى من الجنة وإن كان واحداً فواحد، وإن أغضب أحدهما لم يرضى الله عنه . قيل: وإن ظلماه، قال: وإن ظلماه»^(١).

وهذا في حالة الظلم، فكيف ونبي الله يعقوب، لم يظلم أولاده شيئاً .

وقد ورد عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: أوصانى رسول الله ﷺ بعشر كلمات قال: «لا تشرك بالله شيئاً وإن قتلت وحرقت، ولا تعقن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمداً فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله، ولا تشرب الخمر، فإنه رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية، فإن بالمعصية حل سخط الله، وإياك والفرار من الزحف، وإن هلك الناس وإذا أصاب الناس موت وأنت فيهم فائت، وأنفق على عيالك من طولك، ولا ترفع عنهم عصاك أدباً وأخفهم فى الله»^(٢) رواه أحمد والطبرانى فى «الكبير» وإسناد أحمد صحيح إلا أن فيه إنقطاعاً .

وعن أميمة مولاة رسول الله ﷺ قالت: «كنت أصب على رسول الله ﷺ وضوءه فدخل رجل فقال: أوصنى، فقال: «لا تشرك بالله شيئاً وإن قطعت وحرقت بالنار، ولا تعص والديك وإن أمراك أن تخلى من أهلك ودينك فتخل، ولا تشرب خمرأ فإنها مفتاح كل شر» رواه الطبرانى وفى إسناده يزيد ابن سنان الرهاوى وثقه البخارى وغيره وضعفه ابن معين وأحمد بن حنبل وغيرهما . وعن أم أيمن أن رسول الله ﷺ أوصى بعض أهل بيته، فقال:

(١) رواه البخارى فى «الأدب المفرد» ورجاله رجال الصحيح إلا سعيداً القيس ذكره فى «التهذيب» ولا فيه جرحاً ولا تعديلاً، وقال : انفرد عنه سليمان التيمي .

(٢) رواه أحمد (٢١٥٧٠) .

« لا تشرك بالله وإن عذبت وإن حرقت، وأطع ربك ووالديك وإن أمراك أن تخرج من كل شئ فإخرج » رواه البيهقي .
ومن المعلوم أن نبي الله يعقوب - عليه السلام - لم يأمر أولاده بالخروج من ديارهم ولا من أموالهم وأهلهم، فهل يكون هذا جزاؤه !؟

المجنى عليه والقاضى والجلاد !!!

هكذا كان إخوة يوسف، فقد أحسوا بمحبة أبيهم الزائدة ليوسف وأخيه، وكأنهم ظلّموا فدخلهم الحقد والحسد، ثم أجازوا لأنفسهم الوقوف على منصة القضاء بلا بينة ولا برهان فأطلقوا الأحكام الجائرة، لا على عوام الناس، بل على أقرب الناس إليهم، فرموا أباهم بالضلال المبين والقوه فى الحزن الدائم والأسف العظيم، كما أقدموا على تضييع الأخ الصالح وإلقائه فى ذل العبودية وتبعيده عن الأب المشفق، كما كانوا جلادين عندما قالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يقولون هذا الذى يزاحمكم فى محبة أبيكم لكم اعدموه من وجه أبيكم ليخلو لكم وحدكم إما بأن تقتلوه أو تلقوه فى أرض من الأراضى تستريحوا منه وتخلو أتم بأبيكم، ولا وجه فى الشر يبلغه الحاسد أعظم من ذلك .
وهكذا تضيق العقول والصدور، فلا بد من تبعيد يوسف عن أبيه !! وذلك لا يحصل إلا بأحد طريقين: القتل أو التغريب إلى أرض يحصل اليأس من اجتماعه مع أبيه !! مما يدل على قوة الحسد وبلوغه النهاية، ولك أن تتخيل الحياة، وقد نصّب كل إنسان من نفسه مجنياً عليه وقاضياً وجلاداً بالباطل !! كيف تكون حالة الناس، وكيف تستقيم الدنيا !؟!!

الحفاظة على النفس

عُرف بالاستقراء والتأمل أن مصالح العباد تتعلق بأمور ضرورية أو حاجية أو تحسينية، فالأولى هى التى لا قيام لحياة الناس بدونها وإذا فاتت حل الفساد وعمت الفوضى واختل نظام الحياة .

وهذه الضروريات هى حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وقد شرعت الشرائع لإقامة وتحقيق كل واحدة من هذه الضروريات، وبالنسبة للنفس شرع

لحفظها القصاص على من يعتدى عليها، وتحريم إلقاء النفس بالتهلكة ولزوم دفع الضرر عنها .

وقد اصطلاح الفقهاء على تسمية الجنايات التي تقع على النفس أو على ما دونها من جرح أو قطع عضو باسم جرائم الحدود والقصاص، ويعتبر حق الحياة من أعظم الحقوق وأولاها بالعناية . ولذلك ثبت عن رسول الله ﷺ أنه خطب في حجة الوداع فقال: «أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا في بلدكم هذا . . . ألا هل بلغت، اللهم فاشهد، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه»^(١) فكيف بدماء عزيزة كدماء نبي الله يوسف - عليه السلام - وقال تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ» [الإسراء: ٣٣] والحق الذي تزهق به النفوس هو ما فسره الرسول ﷺ في قوله عن ابن مسعود رضی الله عنه: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب^(٢) الزاني، والنفس بالنفس^(٣)، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(٤-٥).

وفي الحديث: « ليس من نفس تُقْتَل ظُلماً إلا كان على ابن آدم كفلٌ من دمه، لأنه كان أول من سنَّ القتل »^(٦).

وروى الترمذی بسند حسن عن أبي سعيد رضی الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار»^(٧).

وفي الحديث: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق» رواه ابن ماجه بسند حسن عن البراء^(٨).

(١) رواه البخاري (١٧٤١) في كتاب الحج، وأبي داود (١٩٠٥) في المناسك، وأحمد (١٣٩٥٦).

(٢) الذي سبق له الزواج.

(٣) قتل النفس التي قتلت نفساً عبداً بغير حق.

(٤) المرتد عن دين الإسلام.

(٥) رواه البخاري (٦٨٧٨) في الديات، ومسلم (١٦٧٦) في القسامة والحرابين.

(٦) رواه البخاري (٧٣٢١) في الاعتصام.

(٧) رواه الترمذی (١٣٩٨) في الديات.

(٨) رواه ابن ماجه (٣٦١٩).

وقد توعد سبحانه القاتل في الآخرة بالعذاب الأليم والخلود المقيم في جهنم، والغضب واللعنة فقال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وقد اعتبرت الآيات القاتل لفرد كالقاتل للأفراد جميعاً، قال تعالى: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] ولعظم أمر الدماء وشدة خطورتها، كانت هي أول ما يقضى فيها بين الناس يوم القيامة، كما رواه مسلم .

والقصاص عقوبة مقررة في الشرائع السابقة ففي سفر الخروج الفصل الحادى والعشرين «أن من ضرب إنساناً فمات فليقتل قتلاً، وإذا بغى رجل على آخر فقتله اغتيالاً فمن قدام مذبحى تأخذه ليقتل، ومن ضرب أباه وأمه تقتل قتلاً، وإن حصلت أذية فاعط نفساً بنفس، وعيناً بعين، وسناً بسن، ويداً بيد، ورجلاً برجل وجرحاً بجرح، ورضاً برض» ولم تفرق الشريعة بين نفس ونفس، فالقصاص حق سواء أكان المقتول كبيراً أم صغيراً رجلاً أم امرأة، وحتى فى قتل الخطأ، لم يعف الله تعالى القاتل من المسئولية، وأوجب فيه العتق فإن لم يجد صام شهرين متتابعين والدية فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢].

والقتل ينقسم إلى أنواع ثلاثة :

(١) عمد .

(٢) شبه عمد .

(٣) خطأ .

ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة آثار تترتب عليه، ذكرها الفقهاء فى كتبهم

الجماعة تقتل بالواحد

قال ابن قدامة في «المغنى» ح ٧ ص ٦٧١: «الجماعة إذا قتلوا واحداً فعلى كل واحد منهم القصاص إذا كان كل واحد منهم لو انفرد بفعله وجب عليه القصاص، روى ذلك عن عمر وعلى والمغيرة بن شعبة وابن عباس، وبه قال سعيد بن المسيب والحسن وأبو سلمة وعطاء وقتادة وهو مذهب مالك والثوري والأوزاعي والشافعي وإسحاق وأبي ثور وأصحاب الرأي .

وحكى عن أحمد رواية أخرى لا يقتلون به وتجب عليهم الدية . وهذا قول ابن الزبير والزهرى وابن سيرين وحبيب ابن أبى ثابت وعبد الملك وربيعة وداود وابن المنذر وحكاه ابن أبى موسى عن ابن عباس .

وروى عن معاذ بن جبل وابن الزبير وابن سيرين والزهرى: أنه يقتل منهم واحد ويؤخذ من الباقيين حصصهم من الدية لأن كل واحد منهم مكافئ له فلا تستوفى أبدال بمبدل واحد كما لا تجب ديات لمقتول واحد، ولأن الله تعالى قال: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ [البقرة: ١٧٨] وقال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] فمقتضاه أنه لا يؤخذ بالنفس أكثر من نفس واحدة، ولأن التفاوت في الأوصاف يمنع بدليل أن الحر لا يؤخذ بالعبد والتفاوت في العدد أولى .

قال ابن المنذر: لا حجة مع من أوجب قتل جماعة بواحد . ولنا: إجماع الصحابة رضى الله عنهم، روى سعيد بن المسيب «أن عمر بن الخطاب قتل سبعة من أهل صنعاء قتلوا رجلاً وقال: لو تمألاً عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعاً» .

وعن على رضى الله عنه: «أنه قتل ثلاثة قتلوا رجلاً» وعن ابن عباس: «أنه قتل جماعة بواحد» ولم يعرف لهم في عصرهم مخالف فكان إجماعاً، ولأنها عقوبة تجب للواحد على الواحد فوجب للواحد على الجماعة كحد القذف، ويفارق الدية فإنها تتبع بعض والقصاص لا يتبع بعض، ولأن القصاص لو سقط بالإشراك أدى إلى التسارع إلى القتل به فيؤدى إلى إسقاط حكمة الردع والزجر . . . قال: ولا يعتبر في وجوب القصاص على المشتركين التساوى في سببه . . . ألا ترى أنه لو قطع أطرافه كلها فمات وجبت دية واحدة كما لو قطع طرفه فمات . . . قال: إذا اشترك ثلاثة في قتل رجل فقطع أحدهم يده والآخر رجله وأوضحه الثالث

فمات، فللولي قتل جميعهم والعفو عنهم إلى الدية فيأخذ من كل واحد ثلثها، وله أن يعفو عن واحد فيأخذ منه ثلث الدية ويقتل الآخرين، وله أن يعفو عن اثنين فيأخذ منهما ثلثي الدية ويقتل الثالث. . أ . هـ

وقال مالك: «الأمر عندنا: أنه يقتل في العمدة الرجال الأحرار بالرجل الحر الواحد، والنساء بالمرأة كذلك، والعييد بالعبد كذلك أيضاً . وفي «المسوى» قال: والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم .

أما إذا أمسك رجل رجلاً فقتله رجل آخر، وكان القاتل لا يمكن قتله إلا بالإمساك وكان المقتول لا يقدر على الهرب بعد الإمساك، فيقتل القاتل ويحبس الممسك حتى يموت جزاء إمساكه للمقتول، وإلى هذا ذهب الشافعية والأحناف، لما رواه الدارقطني عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «إذا أمسك الرجل الرجل وقتله الآخر يُقتل الذي قتل ويحبس الذي أمسك» وصححه ابن القطان، وقال الحافظ بن حجر: ورجاله ثقات، وأخرج الشافعي عن علي أنه قضى في رجل قتل رجلاً متعمداً وأمسكه آخر قال: «يقتل القاتل، ويحبس الآخر في السجن حتى يموت»، وذهب الليث ومالك والنخعي إلى أنهما يقتلان لأنهما شريكان .

دخلت امرأة النار في هرة حبستها

روى البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار، وقيل لها: لا أنت أطعمتها ولا سقيتها حين حبستها، ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض» (١).

إن صنيع هذه المرأة مظهر من مظاهر قسوة القلوب وانتزاع الرحمة منها، والرحمة لا تنزع إلا من قلب شقي، وإذا كان هذا في شأن هرة حبست فماتت، فكيف بمن قال: «اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً» [يوسف: ٩] ونبي الله يوسف - عليه السلام - هو أخوهم، لقد بلغ بهم جفاء القلب وقسوته مبلغاً لم يراعوا معه الرحمة بالصغير ولا الشفقة على والدهم الكبير، أين هذا الصنيع من قوله تعالى: «ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿البلد: ١٨﴾».

(١) رواه البخاري (٢٣٦٥) في المساقاة، ومسلم (٢٢٤٢) في السلام.

وفى الحديث: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(١) وقوله ﷺ: «ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»^(٢).

فمن لا يرحم لا يرحم ولا تتزع الرحمة إلا من شقى، والجزء من جنس العمل. وروى مسلم فى صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٣).

إن الرحمة خلق فاضل تمتع به النفس من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، تدفع صاحبها إلى العقو عن ذى الزلة والمغفرة لصاحب الخطيئة وإغاثة الملهوف ومساعدة الضعيف وإطعام الجائع وكسوة العارى ومداوة المريض ومواساة الحزين، فكيف يكون الأمر مع أخ صغير لم يقترف ذنباً ولا جرماً !!

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ بهذا مثل الذى بلغ بى، فملاً خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له: قالوا: يارسول الله وإن لنا فى البهائم أجراً؟ قال: «فى كل كبد رطبة أجر»^(٤).

ورود مثل هذا المعنى فى حق البغى التى هى من بغايا بنى إسرائيل، وقد شكر لها ربنا صنيعها مع الكلب وغفر لها، فالراحمون يرحمهم الرحمن.

وروى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: «دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبى يوسف القين، وكان ظئراً لإبراهيم فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم ولده وقبّله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عيننا رسول الله تذرфан، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه: وأنت يارسول الله؟ فقال: يا ابن عوف إنها الرحمة، ثم قال: إن العين تدمع

(١) رواه البخارى (١٢٨٤) فى الجناز، ومسلم (٩٢٣) فى الجناز، وأبى داود (٣١٢٥) فى الجناز.

(٢) رواه الترمذى (١٩٢٤) فى البر والصلة.

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٦) فى البر والصلة والأداب، وأحمد (١٧٩٠٣).

(٤) رواه البخارى (٢٣٦٣) فى المساقاة، ومسلم (٢٢٤٤) فى السلام.

والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(١) فزيارة رسول الله ﷺ لطفله الصغير وهو في بيت مرضعه، وتقبيله إياه وشمه ثم عيادته له وهو مريض وجود بنفسه، ثم ما أرسله عليه من دموع الحزن كل ذلك من مظاهر الرحمة في قلب رسول الله ﷺ .

وروى البخاري عن أبي قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأدخل في الصلاة فأريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجزو مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه»^(٢).

وروى أن زيد العابدين على بن الحسين رضى الله عنه كان في طريقه إلى المسجد فسبه رجل، فقصده غلमानه ليضربوه ويؤذوه، فنهاهم عنه رحمة به، ثم قال: يا هذا، أنا أكثر مما تقول، وما لاتعرفه عنى أكثر مما تعرفه، فإن كان لك حاجة في ذلك ذكرته، فحجل الرجل واستحيا، فخلع عليه زين العابدين قميصه وأمر له بألف درهم .

أين هذا كله من فعل إخوة يوسف بيوسف ؟ !

أهدروا معاني الأخوة الإيمانية والنسبية

لقد قطع إخوة يوسف، ما أمر الله به أن يوصل، وأهدروا معاني الأخوة الإيمانية والنسبية عندما قالوا: ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم﴾ [يوسف: ٩] فعلموا ذلك بلا مبرر، وبلا عذر مقبول، وتناسوا قيمة هذه الرابطة، التي عطفت الملائكة من حملة العرش على المؤمنين من أهل الأرض، قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

(١) رواه البخاري (١٣٠٣) في الجنائز، ومسلم (٢٣١٥) في الفضائل.

(٢) رواه البخاري (٧١٠) في الآذان، ومسلم (٤٧٠) في الصلاة، والترمذي (٣٧٦) في الصلاة، وابن

ماجه (٩٨٩) في إقامة الصلاة.

كما ربطت السابقين باللاحقين ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فالرابطة التي تربط قلوب المؤمنين في شتى بقاع الأرض هي رابطة الإيمان ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وبمقتضاها يكون الحب في الله والبغض في الله، فإذا ضعفت معاني الإيمان، ضعفت بالتبعية رابطة الأخوة، وحينئذ يكون الاجتماع على الدنيا بمفاهيمها وتصوراتها ومتها الزائلة، وإذا كان الأمر كذلك فلا تأمن أن يسعى الإنسان في قتل أخيه والإيقاع به ! ! بدلاً من أن يكون له كالبنين يشد بعضه بعضاً، وبدلاً من أن يكون له كالمراة .

وقد وردت الأحاديث والآثار تؤكد على معاني الأخوة وتوضح كيف يكون الحب والبغض فيه سبحانه وتعالى .

ومن ذلك قوله ﷺ : «من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»^(١).

وقوله ﷺ : «إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور، ووجوههم نور، ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء، فقالوا يارسول الله: صفهم لنا، فقال: المتحابون في الله، والمتجالسون في الله، والمتزاورون في الله» رواه النسائي. وقوله ﷺ : «إن الله تعالى يقول: حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي، وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي»^(٢).

وفي الحديث: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتماعاً على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأته ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله تعالى، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(٣).

(١) رواه أبي داود (٤٦٨١).

(٢) رواه أحمد (١٨٩٤٥).

(٣) رواه البخاري (٦٦٠) في الأذان، ومسلم (١٠٣١) في الزكاة، والترمذي (٢٣٩١).

وورد عند مسلم، أن رجلاً زار أخاً له في الله، فأرصد الله له ملكاً فقال له: أين تريد؟ قال: أريد أن أزور أخي فلاناً، فقال: لحاجة لك عنده؟ قال: لا، قال: لقراءة بينك وبينه؟ قال: لا، قال: فبئمة لك عنده؟ قال: لا قال: فبم؟ قال: أحبه في الله، قال: فإن الله أرسلني إليك أخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة^(١).

وقال البعض: أين مثل الأخ الصالح؟ إن أهل الرجل إذا مات يقسمون ميراثه ويتمتعون بما خلف، والأخ الصالح ينفرد بالحزن، مهتماً بما قدم أخوه عليه، وما صار إليه، يدعو له في ظلمة الليل، ويستغفر له وهو تحت أطباق الثرى.

أتى رجل لأبي هريرة رضي الله عنه يقول: إني أريد أن أواخيك في الله، قال: أتدرى ما حق الإخاء؟ قال: عرفني، قال: لا تكون أحق بدينارك ودرهمك مني، قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد، قال: فاذهب عني.

إن هذه الأخوة التي تتحدث عنها تقتضي أن يكون كل منهما عوناً لصاحبه يقضى حاجته ويقدمها على نفسه، ويتفقد أحواله كما يتفقد أحوال نفسه، ويؤثره على نفسه، يسأل عنه، فإن كان مريضاً عاده، وإن كان مشغولاً أعانه، وإن كان ناسياً ذكره، يرحب به إذا دنا، ويوسع له إذا جلس، ويصغي إليه إذا حدث، وأن يكف عنه لسانه إلا بخير، فلا يذكر له عيباً في غيبته أو حضوره، يعفون زلاته ويتغاضى عن هفواته، يستر عيوبه، ويحسن به ظنونه، وأن يفى له في الأخوة فيثبت عليها ويديم عهدهما، لأن قطعها محبط لأجرها فقد أكرم رسول الله ﷺ عجوزاً دخلت عليه فقيل له في ذلك فقال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن كرم العهد من الدين» رواه الحاكم وصححه. ومن الوفاء أن لا يصادق عدو صديقه، قال الشافعي - رحمه الله -: إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عداوتك.

وقد أطاع إخوة يوسف الشيطان في الإيقاع بيوسف - عليه السلام - وبيتوا نية التخلص منه، ولم يحفظوا له حرمة ولا أخوته.

(١) رواه مسلم (٢٥٦٧) في البر والصلة والآداب، وأحمد (٧٨٥٩).

ماذا لو قالوا: اقتلوا يوسف... ولم يفعلوا

معظم النار من مستصغر الشرر، وقد سد الشرع الذرائع التي تؤول بالعباد لمواقعة ما حرم الله تعالى، وهذا من جملة القواعد المقررة، وقال تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ [المائدة: ٢].

وروى الترمذي بسند حسن عن أبي سعيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار»^(١) والإشتراك هذا قد يكون على سبيل التحريض بالقول على القتل

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من أعان على دم امرئ مسلم بشطر كلمة، كتب بين عينيه يوم القيامة، آيس من رحمه الله» رواه البيهقي، وشطر الكلمة أن يقول (أق) .

وفي الحديث: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به»^(٢).

فكلامهم وقولهم ﴿اقتلوا يوسف﴾ [يوسف: ٩] يؤاخذون عليه في شرعنا حتى وإن لم يفعلوا .

وثبت في الصحيح من قوله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل: يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(٣).

وهذا الوعيد إنما هو لمجرد حرص المقتول على قتل صاحبه، وقد جاءت التشريعات التي تحث على حفظ النفس، والزجر عما يزهقها ويؤذيها، ومن هنا اكتسبت كل طريقة أو وسيلة فيها إزهاق للنفس أو إتلاف لها أو إيذاء - ولو بالظن - وصف الحرمة، لأن ما يؤدي إلى الحرام فهو حرام .

(١) رواه الترمذي (١٣٩٨) في كتاب الديات.

(٢) رواه البخاري (٦٦٦٤) في الإيمان والنذور، ومسلم (١٢٧) وأبي داود (٢٢٠٩) وابن ماجه ؟ في الطلاق.

(٣) رواه البخاري (٣١) في الإيمان، ومسلم (٢٨٨٨) في الفتن، وابن ماجه (٣٩٦٤) في الفتن

فالإشارة بالسلاح أو بأى وسيلة قديمة أو حديثة - ولو كان المرء مازحاً - فيها مظنة الإيذاء، أو توقعه، لذا وجب ترك هذا الأمر سداً للذريعة وتفويتاً لفرص اغتنام الشيطان لمثل هذه الحالات، بل وردت النصوص بمنع المرء من المرور بالأسواق وهو يحمل ما يمكن أن يؤذى ففى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعري، عن النبى ﷺ قال «إذا مر أحدكم فى مسجدنا أو فى سوقنا ومعه نبل فليمسك على أنصالها» أو قال «فليقبض بكفه أن يصيب أحداً من المسلمين منها شئ»^(١).

كما نهى أن يُتعاطى السيف مسلولاً، إذ روى جابر بن عبد الله: «أن رسول الله ﷺ نهى أن يُتعاطى السيف مسلولاً»^(٢) وقال: حس غريب، وكذلك لا يصح مناولة السكين من نصلها أو أن يقذفها على أحد ليناولها إياه ولو عمل الناس بهذه الأحاديث واتبعوا ماجاء فيها لجنبوا أنفسهم وغيرهم كثيراً من الدماء والندم، فكم من رجل قتل ابنه أو أخ قتل أخاه عن طريق اللهب بالسلاح أو الخطأ فى استعماله مع تسديده للغير، والخير كل الخير فى اتباع ما جاءنا عن النبى ﷺ والتمسك بدقائقه.

ومن هذا تدرك خطورة التنادى باستباحة الدماء البريئة وغلظ تحريم القول بقتل المعصومين.

قولهم يخل لكم وجه أبيكم ... حرص وطمع فاجع

أراد إخوة يوسف بقتله، أن يخلص ويصفوا لهم أبوهم فيقبل عليهم بكليته، وإلا فيوسف شغله عنهم وصرف الأب وجهه إليه فإذا أفقده أقبل عليهم بالميل والمحبة، وهذه صورة من صور الحرص الفاجع، فما ذنب يوسف، وإذا كان قد استحوذ على شعبة من قلب أبيه يعقوب، فهل يكون جزاؤه أن يُقتل فيُحرم الأب منه بالكلية ويستحوذون هم وينفردون بنبى الله يعقوب؟! هكذا يفعل الطمع بأصحابه، ويسلبهم العقل والإدراك.

(١) رواه البخاري (٧٠٧٥) في الفتن، ومسلم (٢٦١٥) في البر والصلة، وأبى داود (٢٥٨٧) في الجهاد

(٢) رواه الترمذي (٢١٦٣) في الفتن، وأبى داود (٢٥٨٨) في الجهاد، وأحمد (١٣٧٨٩)

ولذلك ورد عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه: أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع، وقال: ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع .

وقال البعض: العبيد ثلاثة: عبد رقة . . وعبد شهوة . . وعبد طمع، وقالوا من أراد أن يعيش حرّاً أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع، وقيل: اجتمع كعب وعبد الله بن سلام، فقال له كعب: يا ابن سلام من أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به، قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه، قال: الطمع وشره النفس، وطلب الحوايج إلى الناس .

واجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعي، فتواصوا ثم افرقوا وهم مجمعون على أن أفضل الأعمال: الحلم عند الغضب والصبر عند الطمع .

وقيل: لما خلق الله آدم - عليه السلام - عجن بطيبته ثلاثة أشياء، الحرص والطمع والحسد، فهي تجرى في أولاده إلى يوم القيامة، فالعاقل يخفيها، والجاهل يبيدها، ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه .

وقيل لأشعب: ما بلغ من طمعك؟ قال: أرى دخان جارى فأفت خبزى، وقال أيضاً: ما رأيت رجلين يتساران في جنازة إلا قدرت أن الميت أوحى لى بشئ من ماله، ومازفت عروس إلا كنت بيتى رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها إلى .

وقيل للإسكندر: ما سر الدنيا؟ قال: الرضا بما رزقت منها، قيل: فما غمها؟ قال: الحرص عليها .

وأشدد البعض:

حسبى بعلمى إن نفع	ما الذل إلا فى الطمع
من راقب الله نزع	عن سوء ما كان صنع
ما طار طير وارتفع	إلا كما طار وقع

أضمروا التوبة قبل الذنب

فقالوا ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: 9] وكانهم علموا أن ذلك الذى عزموا عليه من قتل يوسف أو إبعاده، من الكبائر فقالوا: إذا فعلنا ذلك تبنا إلى الله ونصير من القوم الصالحين، وقيل: ليس المقصود هنا صلاح الدين، بل المعنى يصلح شأنكم عند أبيكم ويصير أبوكم محباً لكم مشتغلاً بشأنكم فلا أثره ولا تفضيل، أو أن المراد أنكم بسبب هذه الوحشة صرتم مشوشين لا تتفرغون لإصلاح مهم، فإذا زالت هذه الوحشة تفرغتم لإصلاح مهماتكم وقد ذكر الرازى هذه الأوجه فى تفسيره واقتصر القرطبى على الأول والثانى منها .

قال ابن كثير رحمه الله: أضمروا التوبة قبل الذنب .

ومعنى كلامه: أى أنهم من بعد الذنب وقتل يوسف أو إبعاده يصيرون تائبين، ويحدثون توبة بعد ذلك فيقبلها الله منهم، وإن كانت توبة القاتل مقبولة، وهذا قول جمهور العلماء، إلا أن قول إخوة يوسف لا يخلو من جرأة وطول أمل، كما يدل على غفلتهم وتلاعب الشيطان بعقولهم، وكأنه لا سبيل للإقلاع عن الذنب ابتداءً، فلا بد من مواقته، ثم بعد الفراغ من ارتكابه يتوب الإنسان إلى ربه، هذا حال كثيرين من الناس، يقترفون الذنوب والمعاصى ويؤمنى كل واحد منهم نفسه بتوبة، إما عاجلة وإما آجلة فى حال الشيخوخة وعند كبر السن !!!

بل أحياناً يقول الرجل لأخيه: افعل كذا من الذنوب ثم بعد ذلك تب إلى ربك

وهذا من جملة السفه والفجور، فأين التعظيم لحرمان الله؟!

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: 16] وقال الحسن: إياكم وهذه الأمانى فإنه لم يعط أحد بالأمنية خيراً قط فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وقالوا: إياكم وطول الأمل، فإن من ألهاه أمله أخزاه عمله .

وقيل: من جرى فى عنان أمله كان عاثراً بأجله، لو ظهرت الآجال لا فتضحت

الآمال .

وقيل لمحمد بن واسع: كيف تجدك؟ قال: قصير الأجل، طويل الأمل، مسيء العمل.

ولا يزال الكبير شاباً في اثنين حب المال وطول الأمل، وقال الحسن: لو رأيت الأجل ومروره، لنسيت الأمل وغروره.

من الذى أعطى إخوة يوسف الوعد بامهالهم وإطالة أعمارهم، حتى يتوبوا لربهم بعد قتلهم يوسف!! فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله ومنتظر غداً لا يبلغه، والموت قريب وهو يأتى فجأة، بل قد يعاجل الإنسان حال ارتكابه المعصية فيلقى الله على أسوأ أحواله، ويختم له بخاتمة أهل النيران.

ولذلك قال أبو الدرداء رضى الله عنه: «ثلاث أضحكتنى حتى أبكتنى: طالب دنيا والموت يطلبه، وضاحك ملئ فيه ولا يدري أأرضى ربه أم أسخطه، وغافل ليس بمغفول عنه، وقال: يا أهل دمشق: ألا تستمعون من أخ لكم ناصح، إن من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً وبينون شديداً ويأملون بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً وبنيانهم قبوراً وأملهم غروراً»، إن الله تعالى لم يجعل سعادة خلقه فيما حرم عليهم فقال: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ {طه: ١٢٤} فعلى العبد أن يقطع عن الذنوب والمعاصى وينأى بنفسه عن مواطن الردى، فإن اقترف هفوة، فعليه أن يبادر بالتوبة النصوح والحسنات الماحية، دون تسويف أو تأخير، فقد قالوا: تأخير التوبة ذنب يجب التوبة منه، وقول إخوة يوسف ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ {يوسف: ٩} يدل على أنهم قبل التوبة لا يكونون صالحين، ولا يخفى عليك أن السعى فى قتل الأخ وإيذاء الأب... يتنافى مع العصمة ويثبت أنهم ما كانوا أنبياء.

بعض الشرأهون من بعض

﴿قَالَ قَاتِلْ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ {يوسف: ١٠}.

قيل: إنه كان روبيل وكان أحسنهم رأياً فيه فمنعهم عن القتل، وقيل: قاتل ذلك أخوه يهوذا، وكان أقدمهم فى الرأى والفضل والسن.

وإنما ذُكرت الغيبة مع الجب دلالة على أن المشير أشار بطرحه في موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين فأفاد ذكر الغيبة هذا المعنى إذ كان يحتمل أن يلقي في موضع من الجب لا يحول بينه وبين الناظرين، وقد قرأها نافع «غيابات» وقرأ الجحدري «في غيبة الجب» ولعلمهم عينوا ذلك الجب لليلة التي ذكروها وهي قولهم «يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ» وذلك لأن تلك البئر كانت معروفة وكانوا يردون عليها كثيراً، وكان يعلم أنه إذا طرح فيها يكون إلى السلامة أقرب لأن السيارة إذا جازوا وردوها، وإذا وردوها شاهدوا ذلك الإنسان فيها وإذا شاهدوه أخرجوه وذهبوا به فكان إلقاءه فيها أبعد عن الهلاك .

والسيارة هم الجماعة الذين يسرون في الطريق للسفر وقال ابن عباس: يريد المارة وقوله: «إِنْ كُتِمَ فَأَعْلَيْنَ» [يوسف: ١٠] فيه إشارة إلى أن الأولى أن لا تفعلوا شيئاً من ذلك، وأما إن كان ولا بد فاقصروا على هذا القدر، ونظيره قوله تعالى: «وإن عاقبتُم فَعاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُم بِهِ» [النحل: ١٢٦] يعني الأولى أن لا تفعلوا ذلك .

وإشارة هذا القائل أخف من المناداة بقتل يوسف، وإن كان الإحتمال بموت يوسف في الجب لا يزال قائماً ولكنه ضعيف، ولا تخلوا الإشارة بإلقائه في غيبة الجب من أذى شديد ليوسف وأبيه يعقوب - عليهما السلام - إلا أن بعض الشر أهون من بعض فالإنسان قد يقبل قطع اليد بدلاً من قطع الرقبة طالما لا يستطيع دفع كليهما، وقد يلجأ إلى أكل الميتة - وهي سم - استدفاعاً للهلكة، طالما لم يجد مباحاً يسد به رمقه ويرد به المخمصة عن نفسه، ونقول ضرر الميتة أقل من الهلكة المحققة أو التي يغلب على الظن حدوثها، وقس على ذلك المرأة التي خيف عليها الهلاك ولم تجد إلا رجلاً يطيبها وهذا اختيار لأخف المضرتين بدفع أعلاهما .

ولا ندري لماذا كانت شفقة هذا المشير مبتورة، ولماذا لم ينصح إخوته بكف الظلم والتعدي بالكلية عن أخيه الصغير - يوسف - فهذا أليق وأرفق به، وهذه هي النصيحة الواجبة في مثل هذه الحالات، إلا أن يكون قد رأى نفسه مغلوباً مقهوراً من بقية إخوته فأداه عقله إلى إختيار أخف المضرتين، وهذا احتمال بعيد، إذ قوله: «وَأَلْقَوْهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ» [يوسف: ١٠] لا يخلو من شر وتواطؤ على الإجرام في حق يوسف - عليه السلام - .

اذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك

الظلم ظلمات، وهو كبيرة من الكبائر، وقد حرمه سبحانه دقه وجله
وفي الحديث القدسي الصحيح: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي
وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»^(١).

وثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال لمعاذ: «واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها
وبين الله حجاب»^(٢).

وقد توعد سبحانه الظالمين فقال: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]
وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢] قيل هذا
تسلياً للمظلوم ووعيداً للظالم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].
وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

وفي الحديث: «من اقتطع حق امرئ مسلم أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة،
فقال له رجل: يا رسول الله ولو كان شيئاً يسيراً . قال: ولو كان قضيباً من أراك»^(٣)
والظلم ثلاثة: فظلم لا يُغفر وظلم لا يُترك وظلم مغفور لا يُطلب
فأما الظلم الذي لا يُغفر: فالشرك بالله والعياذ بالله تعالى، قال الله تعالى
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].
وأما الظلم الذي لا يُترك: فظلم العباد بعضهم بعضاً .
وأما الظلم المغفور الذي لا يُطلب: فظلم العبد نفسه .

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) في البر والصلة.

(٢) رواه البخاري (١٤٩٦) في الزكاة، ومسلم (١٩) في الإيمان، والترمذي (٦٢٥) في الزكاة، وأبي داود
(١٥٨٤) في الزكاة.

(٣) رواه مسلم (١٣٧) في الإيمان، والنسائي (٥٤١٩) في آداب القضاء، وأحمد (٢١٧٣٦)

نادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر: يا سليمان اذكر يوم الأذان، فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل، فقال له: ما يوم الأذان، فقال: قال الله تعالى: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤] قال ففيم ظلامتك؟ قال: أرض لى مكان كذا وكذا أخذها وكيلك، فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضاً مع أرضه

وكان معاوية يقول: إنى لأستحى أن أظلم من لا يجد على ناصراً إلا الله .

وقال على بن أبى طالب: يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم .
ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال: يارب إن حلمك على الظالمين قد أضر بالمظلومين، فنام تلك الليلة فرأى فى منامه أن القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة فرأى ذلك المصلوب فى أعلى عليين، وإذا مناد ينادى: حلمى على الظالمين أحل المظلومين فى أعلى عليين .

وقيل: من سلب نعمة غيره، سلب نعمته غيره، ويقال: من طال عدوانه زال سلطانه .

وقال أبو العيناء: كان لى خصوم ظلمة فشكوتهم إلى أحمد بن أبى داود، وقلت: قد تضافروا علىّ وصاروا يداً واحدة، فقال يد إليه فوق أيديهم، فقلت له: إن لهم مكرراً، فقال: ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهل، قلت: هم فئة كثيرة، فقال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله .

وقال يوسف بن أسباط: من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه .

وقال مجاهد: يسلط الله على أهل النار الجرب فيحكون أجسادهم حتى تبدد العظام، فيقال لهم: هل يؤذيكم هذا؟ فيقولون: إى والله، فيقال لهم: هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين .

وقد ورد: أن من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه .

وقال ابن مسعود: لما كشف العذاب عن قوم يونس - عليه السلام - ترادوا المظالم بينهم، حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه وقال أبو ثور بن يزيد: الحجر في البنيان من غير حله عربون على خرابه وقال البعض: لو أن الجنة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب .

وكان يزيد بن حاتم يقول: ما هبت شيئاً قط هبتي من رجل ظلمته، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله، فيقول: حسبك الله، الله بيني وبينك . وقال بلال بن مسعود: اتق الله فيمن لا ناصر له إلا الله .

وبكى على بن الفضل يوماً، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى على من ظلمنى إذا وقف غداً بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة .

وروى أن كسرى أنوشروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق في العلوم، فضربه المعلم يوماً من غير ذنب، فأوجعه فحقد أنوشروان عليه، فلما ولي الملك، قال للمعلم: ما حملك على ضربى يوم كذا وكذا ظلماً؟ فقال له لما رأيتك ترغب فى العلم، رجوت لك الملك بعد أبىك فأحببت أن أذيقك طعم الظلم لثلاث ظلم، فقال أنوشروان: زه زه . (١)

وقال أبو الدرداء: إياك ودعوة اليتيم، ودعوة المظلوم فإنها تسرى بالليل والناس ينام فيتعين على كل عاقل أن يكف يده عن الظلم، ويسلك سنن العدل، ويعامل بالنصفة ويراقب الله فى السر والعلانية، ويعلم أن الله يجازى على الخير والشر ويعاقب الظالم على ظلمه ويتصبر للمظلوم، ويأخذ له حقه ممن ظلمه، وإذا أخذ الظالم لم يفله .

فإياك ودعوة المظلوم فإنما يسأل الله تعالى حقه، واحذر إذا شخص ببصره إلى السماء فقال الله عز وجل: لبيك عبدى حقاً لأنصرتك ولو بعد حين، واذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك، لا يعجبك رحب الذراعين سفاك الدماء فإن له قاتلاً لا يموت .

(١) أي احسنت، وقد تستعمل في التهكم أيضاً.

اللقيط

اللقيط هو الطفل غير البالغ الذي يوجد في الشوارع، أو ضل الطريق ولا يعرف نسبه، والتقاطه فرض من فروض الكفاية كغيره من كل شئ ضائع، لا كافل له لأن في تركه ضياعة، ويحكم بإسلامه متى وُجد في بلاد المسلمين، والذي يجده، هو الأولى بحضائه إذا كان حراً عدلاً أميناً رشيداً، وعليه أن يقوم بتربيته وتعليمه .

روى سعيد بن منصور في سننه أن سنين بن جميلة قال: وجدت ملقوياً فأتيت به عمر بن الخطاب، فقال عريفي: يا أمير المؤمنين إنه رجل صالح، فقال عمر: أكذلك هو؟ قال: نعم، قال: اذهب به، وهو حر ولك ولاؤه^(١)، وعلينا نفقته، وفي لفظه: وعلينا رضاعه .

فإن كان في يد فاسق أو مبذر أخذ منه وتولى الحاكم أمر تربيته، وينفق عليه من ماله، إن وجد معه مال فإن لم يوجد معه مال، فنفقته من بيت المال، لأن بيت المال معد لحوائج المسلمين، فإن لم يتيسر فعلى من علم بحاله أن ينفق عليه، لأن ذلك إنقاذ له من الهلاك .

وإذا مات اللقيط وترك ميراثاً ولم يخلف وارثاً كان ميراثه لبيت المال، وكذلك ديته تكون لبيت المال إذا قتل، وليس للملتقطه حق ميراثه .

ومن ادعى نسبه من ذكر أو أنثى ألحق به متى كان وجوده منه ممكناً، لما فيه من مصلحة اللقيط دون ضرر يلحق بغيره، وحيث يثبت نسبه وإرثه لمدعيه .

فإن ادعاه أكثر من واحد ثبت نسبه لمن أقام البينة على دعواه، فإن لم يكن لهم بينة أو أقامها كل واحد منهم عرض على القافة - الذين يعرفون الأنساب بالشبه - ومتى حكم بنسبه قائف واحد، أخذ بحكمه، متى كان مكلفاً ذكراً عدلاً مجرباً في الإصابة .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «دخل على النبي ﷺ مسروراً تبرق أسارير وجهه فقال: ألم ترى أن مجزراً المدلجى نظر أنفاً إلى زيد وأسامة وقد غطيا رؤسهما ويدت أقدامهما، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض»^(٢) .

(١) أي ولايته وحضائه .

(٢) رواه البخاري (٣٧٣١) في المناقب، ومسلم (١٤٥٩) في الرضاع والترمذي (٢١٢٩) في الولاء والهبه، وأبي داود (٢٢٦٧) في الطلاق .

فإن لم يتيسر ذلك اقترعوا بينهم، فمن خرجت قرعته كان له . وخالفت الحنفية في ذلك، فقالوا: لا يعمل بالقائف ولا بالقرعة، بل لو تساوى جماعة في ولد وكان مشتركاً بينهم ورث كل منهم كابن كامل وورثوه كأب واحد .

وقد يلتقط البعض ولداً من الملجأ أو الشارع ثم ينسبه لنفسه ويجريه مجرى الإبن في التسمية والميراث والاختلاط بالنساء حال كبره وهو ليس إبناً له في الحقيقة، قال تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم هو أوسط عند الله، فإن لم تعلموا آبائهم فأخوانكم في الدين ومواليكم﴾ فلو قام على شئونه ورعايته والقيام بمصالحه، فهذا عمل صالح، ولا حرج في أن يتصدق عليه ويهبه شيئاً من ماله، لا على سبيل الميراث، ويصير أجنبياً بالنسبة لزوجته الرجل ومحارمه حال بلوغه، لأنه ليس ابناً من الرضاع ولا من النسب . والبنت الملتقطة تصير أجنبية بالنسبة للرجل الذي التقطها وأولاده . . .

كذلك وفي قوله تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَقْرَبَهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠] أى يجده من غير أن يحتسبه، وقال ابن العربي: إنما كان أصل اللقيط الحرية لغلبة الأحرار على العبيد، كما حكم أنه مسلم أخذاً بالغالب، ولأن الإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه .

غدر وخيانة

لما تواطأوا على أخذه وطرحه فى البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روبيل جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا: ﴿مَّا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١] وهذه توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك لما له فى قلوبهم من الحسد لحب أبيه له .

قيل للحسن: أيحسد المؤمن ؟ قال: ما أنساك بينى يعقوب!

ولهذا قيل: الأب جلاب والأخ سلاب .

فعند ذلك أجمعوا على التفريق بينه وبين ولده بضرب من الإحتيال ولعلمهم سألوأ أباهم قبل ذلك أن يُخرج معهم يوسف فأبى .

وقال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير، وذلك أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم: ﴿أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون﴾ [يوسف: ١٢] فحينئذ قال أبوهم: ﴿إني ليحزنني أن تذهبوا به﴾ [يوسف: ١٣] فقالوا حيثذ جواباً لقوله: ﴿مألك لا تأمنا على يوسف﴾ [يوسف: ١١] وإمعاناً في الخداع قالوا لأبيهم: ﴿وإنا له لناصحون﴾ [يوسف: ١١]، ﴿وإنا له لحافظون﴾ [يوسف: ١٢] أى من كل ما تخاف عليه .

وقد نقل أنهم حملوا يوسف على اكتافهم ما دام يعقوب يراهم، ثم لما غابوا عن عينه طرحوه ليعدو معهم إضراراً به .
إن المكر والخديعة والخيانة في النار .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ثلاث من كن فيه كن عليه البغي والنكث والمكر .
قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣] وقال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] وكم أوقع العذر في المهالك من غادر، وضاعت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر، وطوقه غدره طوق خزي، فماله من قوة ولا ناصر .

إن البغي من أعجل الأشياء عقوبة، وأى خزي أرجح من ترك الوفاء بالمشاق عليه السلام وأى سوء أقبح من غدر يسوق إلى النفاق، وأى عار أفضح من نقض العهد إذا عدت مساوئ الأخلاق، وكان يقال: لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء واتضاع قدره عن إحتمال المكاره، في جنب نيل المكارم .

ولما حلف محمد الأمين للمأمون في بيت الله الحرام وهما وليا عهد طالبه جعفر بن يحيى أن يقول: خذنى الله إن خذلته فقال ذلك ثلاث مرات فقال الفضل بن الربيع: قال لى الأمين فى ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله: يا أبا العباس أجد فى نفسى أن أمرى لا يتم . فقلت له: ولم ذلك أعز الله الأمير . قال: لأنى كنت أحلف وأنا أنوى الغدر، وكان كذلك لم يتم أمره .

ومن غدر عبد الرحمن بن ملجم غدر بعلى رضى الله عنه وقتله، وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام رضى الله عنه وقتله، وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة غدر بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقتله .

اللهم إنا نعوذ بك من البغى وأهله ومن الغادر وفعله .

اللعب المباح والمحظور^(١)

قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢] أي ليتدرب بذلك ويترجل، فمرة يرتع، ومرة يلعب لصغره، والمراد من اللعب الإقدام على المباحات وليفرح يوسف بذلك .

وقيل لأبي عمرو بن العلاء: كيف قالوا: ﴿وَنَلْعَبُ﴾ وهم أنبياء؟ فقال: لم يكونوا يومئذ أنبياء، وقد ذكر ابن كثير أن نبوتهم لم تثبت لا قبل ذلك ولا بعد ذلك .

وقيل: المراد باللعب المباح من الإنسياط، لا اللعب المحظور الذي هو ضد الحق، ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم: ﴿وَنَلْعَبُ﴾ ومنه قوله ﷺ لجابر بن عبد الله عندما أراد أن يتزوج: «فهلأ بكرأ تلاعبها وتلاعبك»^(٢) والنفس بحاجة لشئ من الترويح والتخفيف، ولذلك عندما قال حنظلة الأسيدى لرسول الله ﷺ: يارسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنها رأى عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، ونسينا كثيراً، قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنكم لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، وكررها ثلاثاً»^(٣).

وكان النبي ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً، هاشماً باشاً ضحاكاً بساماً، وكان يستعيز بالله من الهم والحزن، وكان يأمر الركب أن ينطلق ثم يسابق السيدة عائشة رضى الله عنها، ويقول: «خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى»^(٤)، وضح عنه أيضاً أنه قال: «إن لربك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً، فأعط كل ذى حق حقه» وأقر لعب الحبشة بالحراب فى المسجد وقال: «دونكم بنى أرفدة» وكذلك كان أصحابه رضى الله عنهم، يمزحون ويضحكون ويلعبون ويتندرون، وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول: إن القلوب تمل كما تمل

(١) راجع كتابنا أضوابط شرعية للألعاب الرياضية.

(٢) رواه البخاري (٥٢٤٧) فى النكاح، والنسائي (٣٢١٩) فى النكاح، وأحمد (١٤٤٨٠).

(٣) رواه مسلم (٢٧٥٠) فى التوبة، والترمذي (٢٥١٤) فى صفة القيامة.

(٤) رواه الترمذي (٣٨٩٥) فى المناقب، وابن ماجه (١٩٧٧) فى النكاح.

الأبدان، فاختاروا لها طرائف الحكمة، وقال: روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلب إذا أكره عمى .

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: إنى لأستجم نفسى بالشئ من الباطل (اللهو المباح) ليكون أعون لها على الحق .

وكان النبي ﷺ يقول لأصحابه: «ارموا وأنا معكم»^(١).

وقد صارع النبي ﷺ ركانة فصرعه ثلاث مرات، وكان ركانة من مشاهير العرب بالقوة، وروت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: «لقد رأيت النبي ﷺ يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد حتى أكون أنا الذى أسأمه، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريضة على اللهو»^(٢).

وقال ﷺ: «ارموا واركبوا»^(٣)، وقال: «كل شئ لى من ذكر الله فهو لهو أو سهو إلا أربع خصال: مشى الرجل بين الغرضين للرمى، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، وتعليمه السباحة» رواه الطبرانى بإسناد جيد .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: «علموا أولادكم السباحة والرماية، ومروهم فليشبو على ظهور الخيل وثباً» وفى الحديث: « لا سبق إلا فى خوف أو حافر أو نصل » .

فمن الرياضات الجائزة: المصارعة والسباحة والجرى على الأقدام أو الدرجات أو السيارات وحمل الأثقال وسباق الزوارق البحرية وحل المسائل العلمية، ومن الألعاب المحرمة: اللعب بالنرد أو الطاولة، حتى وإن خلا من القمار لقول النبي ﷺ: «من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده فى لحم خنزير ودمه»^(٤) والشطرنج شر من النرد كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، مر على بن أبى طالب على قوم يلعبون بها فقال لهم: ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون .

(١) رواه البخاري (٣٣٧٣) فى أحاديث الأنبياء، وأحمد (١٦٠٩٣) .

(٢) رواه البخاري (٥٢٣٦) فى النكاح، ومسلم (٨٩٢) فى صلاة العيدين والنسائي (١٥٩٥) فى صلاة العيدين .

(٣) رواه الترمذي (١٦٣٧) .

(٤) رواه مسلم (٢٢٦٠) فى الشعر، وأبى داود (٤٩٣٩) فى الأدب .

ومن ذلك نهى النبي ﷺ عن التحريش بين البهائم، ولعنه من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً.....

وقد وردت النصوص بدم الدنيا ووصفها بأنها لعب ولهو وزينة كما فى قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ {الحديد: ٢٠} وقوله سبحانه:

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ {العنكبوت: ٦٤} وهذا الهم إنما ينصرف لأفعال العباد المخالفة لشرع الله، وقد كان البعض يقول: متاع الغرور ما ألهى صاحبه عن طلب الآخرة، وما لم يُلْهَكْ عن طلب الآخرة فليس بمتاع غرور ولكن متاع بلاغ إلى ما هو أبلغ منه، ولما رأى البعض إخواناً له يلعبون، فسألهم فقالوا له: فرغنا، فقال لهم: ما بهذا أمر الفارغ قال:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ {الشرح: ٨} فلكل مقام مقال، والخرج كل الخرج أن تصبح الحياة لعباً ولهواً وانصرافاً عن طاعة الله، والعيب كل العيب أن نتشبه بأهل الجاهلية، فنقول: اليوم خمر وغداً أمر، أو ساعة لربك وساعة لنفسك، فنعضى ربنا بزعم الترويح عن النفس والتخفيف عنها!!

البلاء موكل بالمنطق

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه فى جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعى فى الصحراء ﴿إِنِّي لِيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أى يشق على مفارقتة مدة ذهابكم به إلى أن يرجع وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال فى الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه .
وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ {يوسف: ١٣}.

يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها فى الساعة الراهنة:

﴿لَئِن آكَلَهُ الذُّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤] يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنا إذا لهالكون عاجزون . وقد اعتذر يعقوب - عليه السلام - إليهم بشيئين :

أحدهما: أن ذهابهم به ومفارقتة إياه مما يحزنه، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة .

والثانى: خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم لقله إهتمامهم به .

وقد ذكر الكلبي أنه رأى فى منامه أن الذئب شد على يوسف فلذلك خافه عليهم، وقيل: إنه رأى فى منامه كأنه على زروة جبل، وكان يوسف فى بطن الوادى، فإذا عشرة من الذئاب قد احتوشته تريد أكله، فدرأ عنه واحد، ثم انشقت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام، فكانت العشرة إخوته، لما تمالثوا على قتله، والذى دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا، وتواريه فى الأرض هو مقامه فى الجب ثلاثة أيام، وقيل: إنما قال ذلك لخوفه منهم عليه، وأنه أرادهم بالذئب، فخوفه إنما كان من قتلهم، فكفى عنهم بالذئب مساترة لهم، قال ابن عباس: فسماهم ذئاباً، وقيل: ما خافهم عليه، ولو خافهم ما أرسله معهم، وإنما خاف الذئب، لأنه أغلب ما يخاف فى الصحارى .

وفى أمثالهم: البلاء موكل بالمنطق، فكان الأب الهمهم حجتهم التى سيعتذرون بها فيما بعد، عندما يزعمون أن الذئب قد أكله .

وقد أجاب الأبناء بقولهم: ﴿لَئِن آكَلَهُ الذُّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ فحلفوا لئن حصل ماخافه من خطف الذئب أخاهم من بينهم وحالهم أنهم عشرة رجال يمثلهم تعصب الأمور وتكفى الخطوب إنهم إذا لقوم خاسرون، وأكدوا كلامهم باللام والواو، فاللام تدل على إضمار القسم، والواو واو الحال،

﴿لَخَاسِرُونَ﴾ أى فى حفظ أغنامنا، فإذا كنا لانقدر على دفع الذئب عن أختينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا، وقيل :

﴿لَخَاسِرُونَ﴾ لجاهلون بحقه، أو لعاجزون أو أنهم يكونون مستحقين لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار . وأن يقال خسروهم الله تعالى ودمرهم حين أكل الذئب أخاهم وهم حاضرون .

وقد أجاب الأبناء عن أحد الإعتذارين دون الآخر، ولعل حقدهم وغيظهم لما كان بسبب العذر الأول وهو شدة حب يعقوب ليوسف، فلما سمعوا ذكر ذلك المعنى تغافلوا عنه، واكتفوا بقولهم: ﴿لَئِن أَكَلَهُ الذِّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ .

هل أقسموا لإحكام مكرهم ؟!

أكد الأخوة كلامهم لأبيهم بقولهم ﴿لَئِن أَكَلَهُ الذِّبُّ﴾ قال صاحب الكشاف: هذه اللام تدل على إضمار القسم تقديره: والله لئن أكله الذئب لكننا خاسرين .

فعلى هذا يكون القسم إمعاناً في الخداع وإحكاماً للمكر، ويكون شبيهاً بقسم إبليس لأبينا آدم ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (٢١) فدلّاهما بغرور ﴿[الأعراف: ٢١]﴾ ولم يعهد آدم - عليه السلام - مخلوقاً يحلف بالله كذباً، ولذلك انخدع له، قال العلماء: من خدعنا بالله انخدعنا له، وروى مسلم: أن المسيح - عليه السلام - رأى رجلاً يسرق، فقال: سرقت، فقال الرجل: والله ما سرقت، فقال المسيح: آمنت بالله وكذبت عيني .

وقد ذكر العلماء من صور اليمين، اليمين الغموس وتسمى أيضاً: الصابرة - وهي اليمين الكاذبة التي تهضم بها الحقوق، أو التي يقصد بها الغش والخيانة وهي كبيرة من كبائر الإثم، وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا كفارة فيها^(١) . لأنها أعظم من أن تكفر، وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في نار جهنم، وتجب التوبة منها ورد الحقوق إلى أصحابها إذا ترتب عليها ضياع هذه الحقوق .

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ٩٤] .

وروى البخاري عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال:

«الكبائر: الإشراف بالله وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»^(٢) .

وروى أبو داود عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال:

(١) قال الشافعي ورواية عن أحمد: فيها الكفارة.

(٢) رواه البخاري (٦٦٧٥) في الإيمان والندور . والترمذي (٢١ ٣) في تفسير القرآن، والنسائي (٤٠١١) في تحريم الدم

« من حلف على يمين مصبورة كاذباً فليتبوأ بوجهه مقعده من النار »^(١).

ومن حلف على شئ وورى بغيره فالعبرة بنيته لا بلفظه، إلا إذا حلفه غيره على شئ فالعبرة بنية المحلف لا الحالف، وإلا لم يكن للأيمان فائدة فى التقاضى.

قال النووى: إن اليمين على نية الحالف فى كل الأحوال إذا استحلفه القاضى أو نائبه فى دعوى توجهت عليه فهى على نية القاضى أو نائبه، ولا تصح التورية هنا وتصح فى كل حال، ولا يحث بها وإن كانت للباطل حراماً.

والدليل على أن العبرة بنية الحالف إلا إذا حلفه غيره، ما رواه أبو داود وابن ماجه عن سويد بن حنظلة قال: «خرجنا نريد النبى ﷺ ومعنا وائل بن حجر، فأخذ عدو له، فتخرج القوم أن يحلفوا، وحلفت أنه أخى، فخلى سبيله فأتينا النبى ﷺ فأخبرته أن القوم تخرجوا أن يحلفوا، وحلفت أنه أخى. قال: صدقت، المسلم أخو المسلم»^(٢)، والدليل على أن العبرة بنية المستحلف إذا استُحلفَ على شئ، ما رواه مسلم وأبو داود والترمذى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «اليمين على نية المستحلف» وفى رواية «يمينك على ما يصدقك عليه صاحبك» والصاحب هو المستحلف وهو طالب اليمين ومن حلف أن لا يفعل شيئاً ففعله ناسياً أو خطأ فإنه لا يحث^(٣) لقول الرسول ﷺ: «إن الله تجاوز لى عن أمتى: الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(٤).

ويقول تعالى: «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ» {الأحزاب: ٥} ولا يلزم الوفاء باليمين التى يكره المرء عليها، ولا يأتى إذا حث، ولأن المكروه مسلوب الإرادة، وسلب الإرادة يسقط التكليف. ومن أراد المزيد من الأحكام فعليه بمراجعة «الأيمان» من كتب الفقه.

(١) رواه أبى داود (٣٢٤٢) فى الإيمان والنذور، وأحمد (١٩٤١١).

(٢) رواه أبى داود (٣٢٥٦) فى الإيمان والنذور، وابن ماجه (٢١١٩) فى الكفارات وأحمد (١٦٢٨٥).

(٣) الحث فى اليمين يكون بفعل ما حلف على تركه أو ترك ما حلف على فعله.

(٤) رواه ابن ماجه (٢٠٤٣) فى الطلاق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته عند أبيهم بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: 15] هذا فيه تعظيم لما فعلوه، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراماً له وبسطاً وشرحاً ل صدره وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب عليه السلام، لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له .

فذكر السدى وغيره: أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه، وتواروا عنه ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشمته وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء فغمره فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها الراغوفة فقام فوقها (ذكره ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره).

وقال القرطبي: قيل في القصة: إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ليحفظته، وسلمه إلى روبييل، وقال: ياروبييل إنه صغير، وتعلم يابني شفقتي عليه، فإن جاع فأطعمه، وإن عطش فاستقه، وإن أعيا فاحمله، ثم عجل برده إليّ، قال: فأخذوا يحملونه على أكتافهم لايضعه واحد إلا رفعه آخر، ويعقوب يُشيعهم ميلاً ثم رجع، فلما انقطع بصر أبيهم عنهم رماه الذي كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشد مما عند الآخر من الغيظ والعسف، فاستغاث بروبييل وقال: «أنت أكبر إخوتي، والخليفة من بعد والدي عليّ، وأقرب الأخوة إليّ، فارحمني وارحم ضعفي» فلطمه لطمه شديدة وقال: لاقرباة بيني وبينك، فادع الأحد عشر كوكباً فلتنجك منا، فعلم أن حقدهم من أجل رؤياه، فتعلق بأخيه يهوذا وقال:

ياأخي، ارحم ضعفي وعجزى وحدائة سني، وارحم قلب أبيك يعقوب، فما أسرع ماتناسيتم وصيته ونقضتم عهده، فرق قلب يهوذا فقال: والله لا يصلون إليك أبداً مادمتُ حياً، ثم قال: ياإخوتاه، إن قتل النفس التي حرم الله من أعظم

الخطايا، فردوا هذا الصبي إلى أبيه، ونعاهده ألا يحدث والده بشئ مما جرى أبداً، فقال له إخوته :

والله ما تريد إلا أن تكون لك المكانة عند يعقوب، والله لئن لم تدعه لنقتلنك معه، قال: فإن أبيتُم إلا ذلك فهاننا هذا الجب الموحش القفر، الذي هو ماوى الحيات والهوام فالقوه فيه، فإن أصيب بشئ من ذلك فهو المراد، وقد استرحم من دمه، وإن انفلت على أيديسيارة يذهبون به إلى أرض فهو المراد، فأجمع رأيهم على ذلك فهو قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجَبِّ﴾ [يوسف: ١٥] .

قال الرازي في تفسيره: فانطلقوا به إلى الجب يدلونه فيه وهو متعلق بشفير البئر فترعوا قميصه، وكان غرضهم أن يلطخوه بالدم ويعرضوه على يعقوب، فقال لهم: ردوا على قميصي لأتواري به، فقالوا: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً لتؤنسك، ثم دلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخرة فقام بها وهو يبكي فنادوه فظن أن رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فقام يهوذا فمنعهم وكان يهوذا يأتيه بالطعام، وروى أنه عليه السلام - لما ألقى في الجب قال: يا شاهدأ غير غائب، ويا قريأ غير بعيد، ويا غالبأ غير مغلوب، اجعل لى من أمرى فرجأ ومخرجأ

وروى عن إبراهيم عليه السلام لما ألقى في النار جرد عن ثيابه فجاءه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تيمة وعلقها في عنق يوسف عليه السلام - فجاء جبريل عليه السلام، فأخرجه وألبسه إياه . أ . ه .

الإسرائيليات وحكمها (١)

قال الله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْهُ كَثِيرٌ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١].

ففي هذه الآيات وغيرها دلالة واضحة على تحريف اليهود والنصارى لكتبهم المنزلة على رسلهم، والواقع يثبت هذا التحريف، فإن الأناجيل قد دونت بعد رفع عيسى بزمن طويل وهي اليوم مختلفة لا تتفق نسخة مع أخرى .

وكذلك التوراة والتلمود دونها أحبار اليهود بعد موسى بأزمان متطاولة، واختلافاتها الكثيرة وما تحويه من الكلام المنكر والقصاص الفاسد والشرك بالله، من أكبر الأدلة على تحريفها مما يجعل كل عاقل يقطع بأن هذا ليس مما يرضاه الله ويحبه فضلاً عن أن يكون من كلامه سبحانه وتعالى .

فالكتب السماوية السابقة لتزول القرآن منسوخة الشرائع والأحكام بهذه الشريعة الخاتمة .

أما أخبارها وقصصها فهي مترددة بين الصواب والخطأ لثبوت وقوع التحريف والزيادة والنقص، ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا... الآية» (٢).

(١) راجع كتاب [منهج التاريخ الإسلامي] لمحمد بن صامل العلياني .

(٢) رواه البخاري (٤٤٨٥) في تفسير القرآن .

ومن المعلوم أن القصص الإسرائيلية من أوسع القصص تفصيلاً لمعلومات تاريخية ولعهود وأزمان صحيحة، لكن بسبب وقوع التحريف فإنه لا يمكن الاعتماد على شئ من ذلك في الأمور الشرعية، أما الأخبار التاريخية مثل زيادة التفصيل لما ورد في القرآن أو السنة مجملاً أو الذي يغطي به النقص والفجوات في الوقائع التاريخية، ولا يترتب على ذلك تقرير حكم شرعي أو مخالفته فإنه لا بأس من ذكر ذلك على سبيل المعرفة والبيان لا الاعتماد والإعتقاد كما قرر ذلك كثير من العلماء المحققين من أمثال الإمام ابن تيمية والحافظ ابن كثير .

فقد جعل شيخ الإسلام ابن تيمية الإسرائيليات على ثلاثة أقسام :

- (١) ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذلك صحيح .
- (٢) ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه فذلك كذب .

(٣) ما هو مسكوت عنه لامن هذا القبيل ولا من هذا فلا نصدق به ولا نكذبه .

وهذا القسم الأخير تجوز حكايته لما ورد من الإباحة في ذلك، وغالب هذا مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني، ولهذا كان بعض الصحابة - رضى الله عنهم - يسأل مسلمي أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب الأحمري عن بعض جزئيات الحوادث، وتفصيل مجملات القصص في القرآن بقدر ما يرون أنه مبين للقصة وموضح لما أجمل فيها ولا يخرج عن دائرة الجواز التي حددها رسول الله ﷺ بقوله: «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب على فليتبوأ مقعده من النار»^(١).

ومن هذا الباب أورد بعض الأئمة الكبار مثل هذه الأخبار والأحاديث الإسرائيلية في كتبهم وتفاسيرهم، لا ليشبوا بها حكماً شرعياً أو يعتقدوا صحتها وإنما على سبيل المعرفة والإستشهاد وحكاية الأقوال، وهم مع ذلك ينبهون في الغالب على ما فيها من الخطأ إما تلميحاً أو تصريحاً، وقد يسكتون أحياناً لوضوح الأمر .

يقول ابن تيمية: «علماء الدين أكثر ما يحررون النقل فيما ينقل عن النبي ﷺ لأنه واجب القبول، وفيما ينقل عن الصحابة، أما ما ينقل من الإسرائيليات ونحوها فهم لا يكثرثون بضبطها ولا بأحوال نقلتها، لأن أصلها غير معلوم،

(١) رواه البخاري (٣٤٦١) في أحاديث الأنبياء، والترمذي (٢٦٦٩) في العلم وأحمد (٦٤٥٠).

وغايتها أن تكون عن واحد من علماء أهل الكتاب أو من أخذه عن أهل الكتاب، لما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»^(١).

فقد نهينا عن تصديق ما ينقل عن أهل الكتاب إلا أن يكون مما يجب علينا تصديقه مثل ما أخبر به نبينا عن الأنبياء وأممهم فإن ذلك يجب تصديقه مع الاحتراز في نقلته.

ومن الغريب أن بعض الكتاب المعاصرين يعتمدون في مصادرهم التاريخية على التوراة والإنجيل وينقلون عنهما مباشرة ويعارضون بما فيهما الأحاديث الصحيحة في حين يعيرون على علماء التفسير وغيرهم رواية الإسرائيليات وإدخالها في تفسير القرآن الكريم، ولو فكروا لعلموا أن الأوائل رجعوا إلى نسخ أقدم وربما أوثق من النسخ التي رجعوا هم لها في العصر الحاضر.

بل إن بعضاً من الكتاب المعاصرين يعتمد على التوراة كمصدر تاريخي ويستبعد القرآن الكريم والسنة المطهرة، وهذا متابعة للمنهج الاستشراقي الماكر الذي لا يؤمن برسالة النبي ﷺ ولا صدقه.

العداوة والبغضاء

ذكر سبحانه العداوة والبغضاء في كتابه العزيز فقال: ﴿فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ {المائدة: ١٤} وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ {يوسف: ٥} وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ {فاطر: ٦} وقال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ {التغابن: ١٤}.

قال لقمان: نقلت الصخور، وحملت الحديد، فلم أر شيئاً أثقل من الدين، وأكلت الطيبات وعانقت الحسان، فلم أر شيئاً ألد من العافية.

وأنا أقول: لو نزحوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة الأعداء، خصوصاً إذا كانوا مساهمين في نسب مجاورين في بلد، اللهم إنا نعوذ بك من تتابع الإثم وسوء الفهم وشماتة ابن العم.

(١) رواه البخاري (٤٤٨٥).

وقيل لأيوب - عليه السلام - : أى شئ كان عليك فى بلائك أشد، قال: شماتة الأعداء .

ويقال: فلان يتربص بك الدوائر ويتمنى لك الغوائل، ولا يؤمل صلاحاً إلا فى فسادك، ولا رفعة إلا فى سقوط حالك. كل المصائب قد تمر على الفتى فتهدون غير شماتة الأعداء ويقال: دار عدوك لأحد أمرين، إما لصداقة تؤمنك أو لفرصة تمكثك .

وقيل لكسرى: أى الناس أحب إليك أن يكون عاقلاً، قال: عدوى، قيل: وكيف ذلك . قال: لأنه إذا كان عاقلاً كنت منه فى عافية وأمن .

وقيل: كونوا من المرء الدغل أخوف من الكاشح المعلن، فإن مداواة أهل العلل الظاهرة، أهون من مداواة ما خفى وبطن .

وقال الحجاج لخارجى: والله إنى لأبغضك، قال: أدخل الله الجنة أشدنا بغضاً لصاحبه .

ولما أراد كسرى أنو شروان أن يقلد ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته فأنكروا عليه، وقال بعضهم: إن أمه تركية وقد علمت فى أخلاقهم ما علمت، فقال: إن الأبناء ينسبون إلى الأباء، لا إلى الأمهات، وكانت أم قباز تركية وقد رأيتم من حسن سيرته ما رأيتم . فقيل: هو قصير وذلك يذهب بيهاء الملك، فقال إن قصره من رجليه، ولا يكاد يرى إلا جالساً أو راكباً، فلا يستبين ذلك فيه، فقيل: هو بغيض فى الناس فقال كسرى: أواه هلك ابنى هرمز فقد قيل: إذا كان فى الإنسان خير واحد ولم يكن ذلك الخير المحبة فى الناس، فلا خير فيه، وإذا كان فيه عيب واحد، ولم يكن ذلك العيب البغض فى الناس فلا عيب فيه .

وعين البغض تبرز كل عيب وعين الحب لا تجد العيوب

وقال البعض: لا تأمن من عدوك وإن كان ضعيفاً، فإن القناة قد تقتل .

وما أحسن ما قاله عبد الله بن سليمان بن وهب:

كفاية الله خير من توقيتنا وعادة الله فى الماضين تكفيننا

كاد الأعداى فلا والله ما تركوا قولاً وفعلاً وتلقيناً وتهجيناً

ولم نزد نحن فى سر وفى علن كل مقاتلنا ياربنا اكفيننا
فكان ذاك ورد الله حاسدنا بنغيظه لم ينل تقديره فينا

قسوة قلب وغلاظة كبد

رؤى: «أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ كان لا يزال مُغتماً بين يدي رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «مالك تكون محزوناً؟» فقال: يارسول الله، إنى أذنبت ذنباً فى الجاهلية فأخاف ألا يغفره الله وإن أسلمت! فقال له: أخبرنى عن ذنبك، فقال: يارسول الله، إنى كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لى بنت، فتشفعت إلى أمرأتى أن أتركها فتركها حتى كبرت وأدركت، وصارت من أجمل النساء فخطبوها، فدخلتنى الحمية ولم يحتمل قلبى أن أزوجهأ أو أتركها فى البيت بغير زوج، فقلت للمرأة: إنى أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا وكذا فى زيارة أقربائى فابعثيها معى، فسرت بذلك وزيتها بالثياب والحلى، وأخذت على الموائيق بألا أخونها، فذهبتُ بها إلى رأس بشر فنظرتُ فى البشر ففطنت الجارية أنى أريد أن ألقىها فى البشر، فالتزمتنى وجعلت تبكى وتقول يأبت! أيش تريد أن تفعل بى! فرحمتها، ثم نظرت فى البشر فدخلت على الحمية، ثم التزمتنى وجعلت تقول: يأبت! لا تُضيع أمانة أمى، فجعلتُ مرةً أنظر فى البشر ومرة إليها وأرحمها، حتى غلبنى الشيطان فأخذتها وألقيتها فى البشر منكوسةً وهى تنادى فى البشر: يأبت، قتلتنى، فمكثتُ هناك حتى انقطع صوتها فرجعت. فبكى رسول الله ﷺ وأصحابه وقال: «لو أمرتُ أن أعاقب أحداً بما فعل فى الجاهلية لعاقبتك».

الرحمة لا تنزع إلا من شقى وخصوصاً إذا كان أباً أو أخاً، ويتضح هذا أكثر إذا كان المجنى عليه - بلا ذنب - بتاً أو أخاً صغيراً، والجاهليات تشابه، وفيها تنحرف السلوكيات والأقوال والأفعال عن مقتضى الفطرة السوية والعقول السليمة والشريعة المنزلّة، وما أكثر الأبرياء الذين انتقلوا إلى ربهم، تشكوا أرواحهم ظلم الفعجرة، ومن رحمة الله، أن الإسلام يجب ما قبله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

الإجماع المعتبر

الحق مقبول من كل من جاء به، والباطل مردود على صاحبه كائناً من كان، ودين الله ليس ديناً ديمقراطياً، بل هو دين (اعرف الحق تعرف أهله واعرف الباطل تعرف من آتاه)، والحق أبلج وعليه نور، وهو ما وافق الكتاب والسنة، والباطل بضد ذلك، والحق لا يعرف بكثرة ولا بقله ﴿وَأَنْ تَطْعَ أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] فقد تتفق كلمة الأكثرين على الباطل، فلا يصيره ذلك مشروعاً، ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لو تملاً على أهل صنعا لقتلتهم به - لرجل قتله جماعة - فقتلهم عمر به، وقد قال سبحانه عن إخوة يوسف: ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥] فلم يكن اجتماعهم محموداً ولا مرحوماً، ولم يكن فعلهم مشروعاً .

أما الإجماع الذى هو حجة، وأصل من أصول الإستنباط، فهو اتفاق علماء العصر من أمة محمد ﷺ على أمر من أمور الدين بعد وفاة رسول الله ﷺ .
ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] وما ثبت عن رسول الله ﷺ مثل قوله: «لا تزال طائفة من أمتى على الحق . . .» وفى الحديث: «لا تجتمع أمتى على ضلالة» وأحاديث الحض على الجماعة وعدم الشذوذ عنها .

وقد كان الصحابة يستدلون بمثل تلك الأحاديث على حجية الإجماع، ولا يشترط فى أهل الإجماع أن يبلغوا عدد التواتر، ولا يعتد فيه بقول الصبيان والمجانين، وأما العوام فلا يُعتبر قولهم عند الأكثرين إذ لا عبرة بهم لجهلهم كما يستحيل معرفة أقوال الأمة جميعها ومن يعرف من العلم مالا أثر له فى الأحكام الشرعية كعلم الكلام واللغة والنحو والحساب لا عبرة به فى الإجماع لأنه بالنسبة إلى الأحكام الشرعية عامى .

ولا يعتبر فى الإجماع بقول الكافر سواء كان بتأويل أو غيره، فأما الفاسق بإعتقاد أو قول أو فعل فقال القاضى لا يعتد به وهو قول جماعة لقوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أى عدولاً ، وهو ليس بعدل ، ولأنه لا يُقبل منفرداً فلا يُقبل مع غيره ، ولا ينعقد الإجماع بقول الأكثرين من أهل العصر فى قول الجمهور وحجة الجمهور أن العبرة بقول علماء جميع الأمة لأن العصمة إنما هى للكل لا البعض .

وإجماع أهل المدينة ليس بحجة ، وقال مالك هو حجة ، أما حجة الجمهور على أنه غير حجة فواضحة لأنهم بعض الأمة والمعتبر إجماع الأمة كلها .

واتفاق الخلفاء الأربعة ليس بإجماع عند الجمهور والصحيح أنه حجة وليس بإجماع لأن الإجماع لا يكون إلا من الجميع .

وإجماع أهل كل عصر حجة كإجماع الصحابة ، وقد اشترط الإمام أحمد انقراض العصر ، وقال الجمهور: لو اتفقت كلمة الأمة ولو فى لحظة واحدة انعقد الإجماع

والصحابه وغيرهم من أهل كل عصر ، إذا اختلفوا ثم اتفقوا كان إجماعاً ، وإذا اختلف الصحابة فى المسألة على قولين ، لم يجز إحداث قول ثالث مخالف لقولهم وإلى هذا ذهب جمهور العلماء ، ثم إذا قال بعض الصحابة قولاً فى تكليف فانتشر فى بقية الصحابة فسكتوا ففى ذلك ثلاثة أقوال ، والحق أنه إجماع سكوتى ، وبه قال أحمد وأكثر الشافعية والمالكية تنزيلاً للسكوت منزلة الرضا والموافقة .

وقد ذهب أكثر الأصوليين إلى أن الإجتهد والقياس يصح أن يكون مستند للإجماع مثل الإجماع على تحريم شحم الخنزير قياساً على لحمه ، والإجماع على تحريم القضاء فى حالة الجوع والعطش المفرطين ونحو ذلك من مشوشات الفكر قياساً على الغضب المنصوص عليه فى الحديث المتفق عليه : «لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان» .

ومن أراد معرفة المزيد من التفاصيل عليه بالرجوع إلى كتب أصول الفقه والحديث .

إنزال اليسر في حالة العسر

الناس لا يرون الجب إلا مكاناً مظلماً موحشاً كثيباً، يضيق على من وضع فيه ويصير بالنسبة له محنة، أما المؤمن فيرى ذلك منحة في صورة المحنة، فهو يعلم أن الله لا يضيع أهله وأولياءه، وسيجعل من بعد عسر يسراً، فلا يملك إلا أن يصبر ويحتسب ويضرع إلى ربه في شدته وبلاءه وكرهه، فيتداركه سبحانه بمنه وكرمه ورحمته ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَبْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطيباً لقلبه وتثبيتاً له: إنك لا تحزن مما أنت فيه فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع .

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] قال مجاهد وقتادة: أي بإيحاء الله إليه، وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حرك وهم لا يعرفونك ولا يشعرون بك، وذكر ابن جرير عن ابن عباس قال: لما دخل إخوة يوسف عليه فعرفهم وهم له منكرون قال: جيئ بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم، يقال له يوسف يدينه دونكم وأنكم انطلقتم به فالقيتموه في غيابة الجب، قال: ثم نقره فطن قال: فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله وجتتم على قميصه بدم كذب، قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم، قال ابن عباس - رضي الله عنهما - فلا نرى هذه الآية نزلت إلا فيهم ﴿لَتَبْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

وقيل: إن المراد بالوحي المذكور في الآية، النبوة والرسالة، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنه عليه السلام - هل كان في ذلك الوقت بالغاً أو كان صبياً، قال بعضهم: إنه كان في ذلك الوقت بالغاً وكان سنه سبع عشرة سنة، وقال آخرون: إنه كان صغيراً إلا أن الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحاً لقبول الوحي والنبوة كما في حق عيسى عليه السلام، ويكون فائدة تقديم الوحي تأنيسه وتسكين نفسه وإزالة الغم والوحشة عن قلبه وتشريفه به، وأمره بتبليغ الرسالة بعد أوقات، كما أن في قوله تعالى:

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] إشارة إلى تقوية قلبه بأنه سيحصل له الخلاص عن هذه المحنة ويصير مستولياً عليهم ويصيرون تحت قهره وسلطانه

معنى الوحي وكيفيته

الوحي: هو الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفي علي غيره. والوحي بمعناه اللغوي يتناول:

(١) الإلهام المفطري للإنسان كالوحي إلي أم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧].

(٢) الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلي النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨].

(٣) الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيحاء كإيحاء زكريا فيما حكاه القرآن عنه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

(٤) وسوسة الشيطان وتزيينه الشر في نفس الانسان: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

(٥) وما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

ووحى الله إلى أنبيائه قد عرفوه شرعاً بأنه: كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه.

وقد جاء في القرآن الكريم ما ينص على كلام الله لملائكته: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وعلى إيحائه إليهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] وعلى قيامهم بتسيير شئون الكون حسب أمره ﴿فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤].

كما ثبت أن القرآن الكريم كتب فى اللوح المحفوظ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢].

وقد نزل القرآن جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا فى ليلة القدر من شهر رمضان، ومنه منجماً مفرقاً على قلب رسول الله ﷺ، ويدل على التنزل الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣] ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] ويدل على التنزل الثانى قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وأهل السنة والجماعة على أن جبريل تلقف القرآن سماعاً من الله بلفظه المخصوص، فالقرآن الكريم هو كلام الله المنزل على رسول الله ﷺ والمتعبد بتلاوته .
والله تعالى يوحى إلى رسله بواسطة وبغير واسطة .

فالأول: بواسطة جبريل ملك الوحي .

والثانى: وهو الذى لا واسطة فيه ومنه الرؤيا الصالحة فى المنام، والكلام الإلهى من وراء حجاب

(١) الرؤيا الصالحة فى المنام: فعن عائشة رضى الله عنها قالت: «أول ما بدئ به ﷺ الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح» (١).

وليس فى القرآن شئ من هذا النوع لأنه نزل جميعه يقظة، وما يدل على أن الرؤيا الصالحة للأنبياء وحى يجب اتباعه، قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِبُحَيْرٍ حَلِيمٍ﴾ (١٠١) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيُ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٠٢) ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (١٠٣) ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (١٠٤) ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٠٥) ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ (١٠٦) ﴿وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٧].

ولو لم تكن هذه الرؤيا وحياً يجب اتباعه للأنبياء لما أقدم إبراهيم - عليه السلام - على ذبح ولده، لولا أن من الله عليه بالفداء . وقد انقطع الوحي ونسب المبشرات، رؤيا المؤمن يراها أو ترى له .

والرؤيا الصالحة فى المنام للأنبياء هى القسم الأول من أقسام التكليم الإلهى المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَ اللَّهُ إِلَٰهًا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَّرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

(ب) الكلام الإلهى من وراء حجاب بدون واسطة يقظة .

وهو ثابت لموسى - عليه السلام - ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

كما ثبت التكليم على الأصح لرسولنا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، وهدى المعج هو القسم الثانى المذكور فى الآية ﴿أَوْ مِنْ وَّرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى ٥١] ونسب فى القرآن شئ منه كذلك .

كيفية وحى الملك إلى الرسول: والقرآن الكريم نزل به، وهو الذى عنه مسح بقوله:

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١] وملك الوحي هو حبريل ولا تخلو كيفية وحى الملك إلى الرسول من إحدى حالتين :

(١) وهى أشد على الرسول: أن يأتيه مثل صلصلة الجرس .

(٢) أن يتمثل له الملك رجلاً ويأتيه فى صورة بشر .

روت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: «أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علىّ . فيصم عنى وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى ما يقول»^(١) وذكرت ﷺ ما كان يصيب رسول الله ﷺ من شدة فقالت

(١) رواه البخاري فى بدء الوحي، والنسائي (٩٣٤) فى الافتتاح وأحمد (٢٥٦٦٦).

«ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتمصد عرقاً»^(١)

أما النفث في الروع الوارد في الحديث: «إن روح القدس نفث في روعي...» فليس حالة مستقلة ويحتمل أن يرجع إلى إحدى الحالتين المذكورتين في حديث عائشة، فيأتيه الملك في مثل الصلصلة وينفث في روعه، أو يتمثل له رجلاً وينفث في روعه، وربما كانت حالة النفث فيما سوى القرآن الكريم

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ يوسف ١٥ قال القرطبي دليل على نبوته في ذلك الوقت، قال الحسن ومجاهد والضحاك وقتادة أعطاه الله النبوة وهو في الحب على حجر مرتفع عن الماء، وقال الكلبي ألقى في الحب وهو ابن ثمانى عشرة سنة، فما كان صغيراً، ومن قال كان صغيراً فلا يبعد في العقل أن يتنبأ الصعير ويوحى إليه، وقيل: كان وحى إلهام كقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ النحل ٦٨ وقيل: كان مناماً، والأول أظهر - والله أعلم - وأن جبريل جاء بالوحي

النبوة هبة ربانية

النبوة فضل إلهي وهبة ربانية، يهبها الله لمن يشاء من عباده، ويختص لها من يريد من خلقه، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ الأنعام: ١٢٤ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الملك: ١٤.

وهذه النبوة لا تدرك بالجد والإجتهاد والتعب، ولا تنال بكثرة الطاعة والعبادة، وإنما هي محض فضل من الله ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ البقرة: ١٠٥ فهي إذاً، إصطفاء واجتباء، ولا تكون إلا لمن اختاره الله تعالى لها ممن هم أهل لحمها والقيام بتبعاتها، لأنها حمل ثقيل وتكليف عظيم، لا يقدر عليها إلا أولو العزم من الرجال، كما قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ المزمل: ٥.

(١) رواه البخاري (٢) في بدء الوحي

والنبوة لا تكون بالوراثة، ولا تكون بطريق الغلبة والإستعلاء، إنما هي إختيار، يختار الله سبحانه وتعالى لها أفضل خلقه، وصفوة عباده، من بين سائر البشر، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] وقال جل وعلا بعد أن ذكر طائفة من المرسلين: ﴿وإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْآخِرِينَ﴾ [ص: ٤٧].

لهم ياهادى الضالين وياراحم المذنبين، ومقيل عثرات العائرين، نسألك أن تلحقنا بعبادك الصالحين، الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين اللهم طيِّبنا للفتاك، وأهّلنا لولائك، وأدخلنا مع المرجومين من أوليائك، وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين، اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وتلاوة كتابك واجعلنا من حزبك المفلحين وأيدنا بجندك المنصورين، وارزقنا مرافقة الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين .

يا عالم كل نجوى ويا منتهى كل شكوى

جاء في كتب التفسير من قصة يوسف عليه السلام، أنه لما قام على الصخرة كما قال وهب، قال: يا إخوتاه، إن لكل ميت وصية فاسمعوا وصيتي، قالوا: وما هي؟ قال: إذا اجتمعتم كلكم فأنس بعضهم بعضاً فاذكروا وحشتي، وإذا أكلتم فاذكروا جوعى، وإذا شربتم فاذكروا عطشى، وإذا رأيتم غريباً فاذكروا غربتى، وإذا رأيتم شاباً فاذكروا شبابى، فقال له جبريل: يا يوسف، كُفّ عن هذا واشتغل بالدعاء، فإن الدعاء عند الله بمكان ثم علمه فقال: قل: اللهم يامؤنس كل غريب، ويا صاحب كل وحيد، ويا ملجأ كل خائف ويا كاشف كل كرب، ويا عالم كل نجوى، ويا منتهى كل شكوى، ويا حاضر كل ملاء، يا حى يا قيوم، أسألك أن تقذف رجاءك فى قلبى، حتى لا يكون لى هم ولا شغل غيرك، وأن تجعل لى من أمرى فرجاً ومخرجاً، إنك على كل شىء قدير، فقالت الملائكة إلهنا: نسمع صوتاً ودعاءً، الصوت صوت صبى، والدعاء دعاء نبى .

وقال الضحاك: نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو فى الحب فقال له: ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهم عجل الله لك خروجك من هذا الحب؟ فقال:

نعم، فقال له: قل: يا صانع كل مصنوع، ويا جابر كل كسير، ويا شاهد كل نجوى، ويا حاضر كل ملاء، ويا مفرج كل كرب، ويا صاحب كل غريب، ويا مؤنس كل وحيد، إيتني بالفرج والرجاء، واقذف رجاءك في قلبي حتى لا أرجو أحداً سواك، فرددها يوسف في ليلته مراراً، فأخرجه الله في صبيحة يومه من الجب .

اللهم يافالق الحب والنوى، يامنسئ الأجساد بعد البلى، يامؤى المنقطعين إليه، ياكافى المتوكلين عليه، انقطع الرجاء إلا منك، وخابت الظنون إلا فيك، وضعف الإعتماد إلا عليك، نسألك أن تُمطر قحلاً قلوبنا من سحائب برِّك وإحسانك، وأن توفقنا لموجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، إنك جواد كريم رؤوف غفور رحيم .

اللهم يا عالم الخفيات، ويارفع الدرجات، يا غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا أنت إليك المصير، نسألك أن تذيقنا برد عفوك، وحلاوة رحمتك، يا أرحم الراحمين وأرأف الرائفين وأكرم الأكرمين .

البكاء ليس دليلاً على الصدق

﴿وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦] يقول تعالى مخبراً عن الذى اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه فى غيابة الجب: إنهم رجعوا إلى أبيهم فى ظلمة الليل يكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغممون لأبيهم، ولم يكونوا صادقين فى حزنهم ولا بكاءهم .

فروى أن يعقوب عليه السلام لما سمع بكاءهم قال: ما بكم؟ أجرى فى الغنم شئ؟ قالوا: لا، قال: فأين يوسف؟ قالوا: ذهبنا نستبق فأكله الذئب، فبكى وصاح وقال: أين قميصه؟، وقال السدى وابن حبان: إنه لما قالوا أكله الذئب خر مغشياً عليه، فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك، ونادوه فلم يجب، قال وهب: ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نفس يعقوب فلم يحس بنفس، ولم يتحرك له عرق، فقال لهم يهوذا: ويل لنا من ديان يوم الدين، ضيعنا أخانا، وقتلنا أبانا، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السحر، فأفاق ورأسه فى حجر روبيل، فقال: ياروبيل، ألم أتمنك على ولدى؟ ألم أعهد إليك عهداً؟ فقال: يا أبت، كُفَّ عنى بكاءك أخبرك، فكفَّ يعقوب بكاءه فقال: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧] .

وإنما جاءوا عشاءً أى ليلاً، ليكونوا أقدر على الإعتذار فى الظلمة، ولذا قيل: لا تطلب الحاجة بالليل، فإن الحياء فى العينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج فى الإعتذار .

ورواه ابن جنى عشىً بضم العين والقصر . وقال: عشوا من البكاء فعند ذلك فزع يعقوب وقال: هل أصابكم فى غنمكم شئ؟ قالوا لا قال: فما فعل يوسف؟ قالوا: ﴿ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧] فبكى وصاح وقال: أين القميص؟ فطرحة على وجهه حتى تخضب وجهه من دم القميص .

وروى: «أن امرأة تحاكت إلى شريح فبكت، فقال الشعبى: يا أبا أمية ما تراها تبكى؟ قال: قد جاء إخوة يوسف ويكون وهم ظلمة كذبة، لا ينبغي للإنسان أن يقضى إلا بالحق .

قال العلماء: هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله، لإحتمال أن يكون تصنعاً، فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر، وقد قيل: إن الدمع المصنوع لا يخفى، كما قال حكيم:

إذا اشتبكت دموعٌ فى خدود تبين من بكى ممن تباكى

أنواع البكاء

البعض تنهمر دموعه ويبكى عند الفرح، والآخر قد يحدث له ذلك بسبب المرض والألم، وهناك دموع أشبه بدموع التماسيح ودموع النساء أسرع من دموع الرجال، والحزن كثيراً ما يتسبب فى البكاء، بكاء رسول الله ﷺ عندما مات عثمان بن مظعون، وبكاه عند موت ولده إبراهيم، وقوله: «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن، ولا نقول ما يُغضب الرب، وإنا لفرأقك يا إبراهيم لمحزونون» (١) ولذلك فقوله ﷺ: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه» (٢) يحمل على النياحة وتكلف رفع الصوت بالبكاء على الميت أما بكاء الرحمة فلا حرج فيه .

(١) رواه البخاري (١٣٠٣) فى الجنائز، ومسلم (٢٣١٥) فى الفضائل، وأبى داود (٣١٢٦) فى الجنائز، وأحمد (١٢٦٠٢).

(٢) رواه البخاري (١٣٠٤) فى الجنائز، ومسلم (٩٢٧) فى الجنائز، والترمذي (١٠٠٢) فى الجنائز، والنسائي (١٨٤٨) فى الجنائز.

وأفضل أنواع البكاء بكاء الخوف من الله، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، الإمام العادل وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد ورجلان تحابا في الله اجتمعا علي ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»^(١).

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: «خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، فغطني أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم، لهم خنين»^(٢).

فالخوف المحمود هو الذي يقمع الشهوات ويكدر اللذات ويكف الجوارح عن المعاصي ويلزمها الطاعة، ولذلك قيل: ليس الخائف من بكي وعصر عينيه وإنما الخائف من ترك ما يعذب عليه.

وعلي هذا فلم يكن بكاء إخوة يوسف ولا خوفهم محموداً بل كان حزنهم تصنعاً ودموعهم تكلفاً.

حكم السباق وأنواعه

قوله تعالى: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: ١٧] أي نتسائل ونترامى، وهو نوع من المسابقة، قال الأزهرى: النضال في السهام، والرهان في الخيل، والمسابقة تجمعهما.

قال القشيري أبو نصر: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: ١٧] أي في الرمي، أو على الفرس، أو على الأقدام، والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العدو، لأنه الآلة في قتال العدو، ودفع الذئب عن الأغنام.

وقال السدي وابن حبان: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: ١٧] نشد جرياً لنرى أيننا أسبق.

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٤٦٢١) في تفسير القرآن، ومسلم (٢٣٥٩) في تفسير القرآن.

قال ابن العربي: المسابقة شرعة في الشريعة، وخصلة بديعة، وعون على الحرب، وقد فعلها صلوات الله عليه بنفسه وبخيله، وسابق عائشة رضی الله عنها على قدميه فسبقها، فلما كبر رسول الله صلوات الله عليه سابقها فسبقته، فقال لها: «هذه بتلك» أ. هـ .
«وسابق سلمة بن الأكوع رجلاً لما رجعوا من ذى قرد إلى المدينة فسبقه سلمة»
خرجه مسلم .

وقد أجمع المسلمون على أن السَّبْق لا يجوز على وجه الرهان إلا في الخف والحافر والنصل، قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسَّبْق فيها قمار، وقد سابق النبي صلوات الله عليه بين الخيل التي أضمرت، كما سابق بين الخيل التي لم تُضمّر، ولا بد أن تكون المسافة معلومة وأن تكون الخيل متساوية الأحوال، وألا يسابق المضمّر مع غير المضمّر في أمد واحد، وغاية واحدة وأن تكون الخيل معدة لجهاد العدو لا لقتال المسلمين في الفتن ولا يُحمل على الخيل والإبل في المسابقة إلا محتلم، ولو ركبها أربابها كان أولى، وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال: لا يركب الخيل في السباق إلا أربابها .
والأسباق ثلاثة: -

سَبْق يعطيه الوالى أو غيره من ماله متطوعاً فيجعل للسابق شيئاً معلوماً فمن سبق أخذه .

وسَبْق يخرج أحده المتسابقين دون صاحبه، فإن سبقه صاحبه أخذه وإن سبق هو صاحبه أخذه، وهذا مما لا خلاف فيه . - والسبق الثالث: اختلف فيه، وهو أن يُخرج كل منهما شيئاً مثل ما يخرج صاحبه، فأيهما سبق أحرز سبقه وسبق صاحبه، وهذا الوجه لا يجوز حتى يُدخلا بينهما محللاً لا يأمنا أن يسبقهما، فإن سبق المحلل أحرز السبقين جميعاً وأخذهما وحده، وإن سبق أحد المتسابقين أحرز سبقه وأخذ سبق صاحبه، ولاشئ للمحلل فيه، ولاشئ عليه .

وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة عن النبي صلوات الله عليه قال: «من أدخل فرساً بين فرسين وهو لا يأمنا أن يسبق فليس بقمار ومن أدخله وهو يأمنا أن يسبق فهو قمار»^(١) .

(١) رواه أبو داود (٢٥٧٩) في الجهاد، وابن ماجه (٢٨٧٦) في الجهاد وأحمد (١٠١٧٩) .

واتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلل واشترط كل واحد من المتسابقين أنه إن سبق أخذ سبقه وسبق صاحبه أنه قمار، ولا يجوز، وفي «الإختيارات الفقهية» من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ويجوز اللعب بما قد يكون فيه مصلحة بلا مضرة وظاهر كلام أبي العباس: لا يجوز اللعب المعروف بالطاب والمنقلة وكل ما أفضى كثيره إلى حرمة إذا لم يكن فيه مصلحة راجحة، لأنه يكون سبباً للشر والفساد، وما ألهى وشغل عما أمر به فهو منهي عنه وإن لم يحرم جنسه كالبيع والتجارة وسائر ما يتلهم به البطالون من أنواع اللهو وسائر ضروب اللعب مما لا يستعان به على حق شرعى فكله حرام .

وروى الإمام أحمد والبخارى ومسلم: «أن عائشة رضی الله عنها وجوار كن معها يلعبن بالبنات - وهى اللب - والنبي ﷺ يراهن فيرخص فيه للصغار مالا يرخص فيه للكبار .

والصراع والسبق بالأقدام ونحوهما طاعة إذا قصد به نصره الإسلام، وأخذ السبق (الرهان) عليه أخذ بالحق، فالمغالبة الجائزة تحل بالعوض (أى المقابل) إذا كانت مما ينتفع به فى الدين كما فى مراهنه أبى بكر رضى الله عنه، وهو أحد الوجهين فى المذهب .

قلت: وظاهر ذلك جواز الرهان فى العلم وفاقاً للحنفية لقيام الدين بالجهاد والعلم، والله أعلم. اهـ.

كاد المرئيب أن يقول خذونى

اعتذر إخوة يوسف لأبيهم ف ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] أخذوا ذلك من كلامه، فاعتذروا به لأنه كان أظهر المخاوف عليه، فلا يبعد إذا تركوا يوسف عند متاعهم وثيابهم، وانصرفوا هم للرعى والانتضال أن تنتهز ذلك الذئب فتفترس يوسف، ثم أعقبوا هذا الاعتذار بقولهم ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أى بمصدق ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] فى قولنا، ولم يصدقهم يعقوب لما أظهر منهم من قوة الهمة، وكثرة الأدلة، على خلاف ما قالوه .

وقيل ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] أى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا، ولا تهمتنا فى هذه القضية لشدة محبتك فى يوسف، قال معناه الطبرى والزجاج وغيرهما .

ولما كان الحق أبلج وعليه نور، والباطل لجلج وعليه ظلمة، علم المبطل أن لا ثقة ولا إطمئنان لكلامه، ولذلك تبوء محاولاته لتوثيق الكلام وتأكيده بالفشل إذ لا يستطيع أن يأتى بدليل صحيح على باطله، ولذلك قالوا: ما احتج صاحب بدعة على بدعته بدليل إلا وكان فى الدليل ما يرد عليه ويُدحض بدعته .

وكذلك الأمر بالنسبة للنفاق، فما أسر عبد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفتات لسانه ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَتَعَرَّفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] مهما حاول أصحابه تكتم ذلك .

والنفاق يقوم على ساقيتين: وساقية الرياء وساقية الكذب، ومخرجه من عينين: عين ضعف البصيرة وعين ضعف العزيمة، فإذا أكتمت هذه الأركان استحكم بنیان النفاق، ولكنه بمدارج السيول على شفا جرف هار، فإذا كان يوم القيامة، يوم يبعثر ما فى القبور ويحصل ما فى الصدور تبين لمن كانت بضاعته النفاق أن ما حصله كان سراباً، يحسبه الظمان ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب .

والمنافق لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لا تطمنن له، قد سبق يمينه كلامه ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٦] والكذب والمعصية لها أثر فى الوجه والبدن، كما أن للطاعة أثر، ولذلك قالوا: ليحذر أحدكم أن يبيت عاصياً فيصبح وعليه أثر الذنب، ومن كان عنده إيمان وفراصة قد يستشعر ذلك .

ثم اعلم أن الإيمان لغة بمعنى التصديق كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أما شرعاً فالإيمان قول وعمل، قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، وهو يزيد وينقص، وزيادته بالطاعات ونقصانه بالمعاصى والزلات، والطاعات كلها من شعب الإيمان وتسمى إيماناً، والمعاصى كلها من شعب الكفر وتسمى كفراً، ودلائل ذلك كثيرة مذكورة فى كتاب .

«معارج القبول» وغيره من كتب العقيدة .

المعصية قرينة الخذلان

قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨] قال مجاهد: كان دم سخلة أو جدى ذبحوه، وقال قتادة: كان دم ظبية، أى جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه . وقرأ الحسن وعائشة «بدم كذب» أى بدم طرى، يقال للدم الطرى الكذب، وقال الشعبي: هو المتغير، وقد بين العلماء وأنهم لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها، وهى سلامة القميص من التيب، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق، ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خرقاً ولا أثراً استدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص ! قاله ابن عباس وغيره .

وورد أيضاً عن ابن عباس أنه قال: لما نظر إليه، قال: كذبتهم، ولو كان الذئب أكله لخرق القميص .

وحكى المارودى أن فى القميص ثلاث آيات:

﴿حين جاءوا عليه بدم كذب﴾

﴿وحين قد قميصه من دبر﴾

﴿وحين ألقى على وجه أبيه فارتد بصيراً﴾

وقد اعترضه القرطبي، وقال: وهذا مردود فإن القميص الذى جاءوا عليه بالدم غير القميص الذى قُدّ، وغير القميص الذى أتاه البشير به، وقد قيل: إن القميص الذى قُدّ هو الذى أتى به فارتد بصيراً .

وروى أنهم قالوا له: بل اللصوص قتلوه، فاختلف قولهم، فاتهمهم، فقال لهم يعقوب، وتزعمون أن الذئب أكله، ولو أكله لشق قميصه قبل أن يُفضى إلى جلده، وما أرى بالقميص من شق، وتزعمون أن اللصوص قتلوه، ولو قتلوه لأخذوا قميصه، هل يريدون إلا ثيابه ؟ فقالوا عند ذلك: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] عن الحسن وغيره: أى لو كنا موصوفين بالصدق لاتهمتنا .

قال القاضي: ولعل غرضهم في نزع قميصه عند إلقائه في غيابة الجب أن يفعلوا هذا توكيداً لصدقهم، لأنه يبعد أن يفعلوا ذلك طمعاً في نفس القميص ولا بد في المعصية من أن يُقرن بها الخذلان، فلو خرقوه مع لطحه بالدم لكان الإيهام أقوى، فلما شاهد يعقوب القميص صحيحاً علم بكذبهم .

وقال الشعبي: قصة يوسف كلها في قميصه، وذلك لأنهم لما ألقوه في الجب نزعوا قميصه ولطحوه بالدم وعرضوه على أبيه، ولما شهد الشاهد قال: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قَبْلٍ﴾ [يوسف: ٢٦] ولما أتى بقميصه إلى يعقوب - عليه السلام - فألقى على وجهه ارتد بصيراً .

مثالب الكذب

مثالب الكذب أكثر من أن تذكر، فأخرج الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «اضمنوا لى ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة، اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا اتتمتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم»^(١).

وفى الحديث: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة»^(٢).

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر، والبر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(٣).

(١) رواه أحمد (٢٢٢٥١).

(٢) رواه الترمذي (٢٥١٨) في صفة القيامة.

(٣) رواه مسلم (٢٦٠٧) في البر والصلة والآداب.

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب فينكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه فيكتب عند الله من الكاذبين»^(١).

وعن أبي برزة مرفوعاً: «ألا إن الكذب يسود الوجه، والنميمة عذاب القبر» رواه أبو يعلى والطبرانى وابن حبان والبيهقى .

وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت الليلة رجلين أتياى قال: الذى رأيت يشق شذقيه فكذاب يكذب الكذبة تحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به إلى يوم القيامة»^(٢).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «آية المناق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا أوعد أخلف، وإذا عاهد غدر»^(٣)، وفى رواية لمسلم: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»^(٤).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

« لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب فى المزاح والمرء وإن كان صادقاً»^(٥).

وعن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت له كاذب»^(٦) رواه أحمد عن شيخه عمر بن هارون وفيه خلاف وبقية رواه ثقات .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «إذا كذب العبد تباعد الملك ميلاً من نتن ما جاء به»^(٧).

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، ما اطلع على أحد من ذلك بشئ فيخرج من قلبه حتى يعلم أنه قد أحدث توبة»^(٨).

(١) رواه الترمذي (١٩٧١) في البر والصلة، وفي موطا مالك في كتاب الجامع.

(٢) رواه البخاري (١٣٨٦) في الجنائز.

(٣) رواه البخاري (٣٣) في الإيمان، ومسلم (٥٩) في الإيمان.

(٤) رواه مسلم (٥٩) في الإيمان.

(٥) رواه أحمد (٨٤١٦).

(٦) رواه أبى داود (٤٩٧١) في الادب، وأحمد (١٧١٨٣).

(٧) رواه الترمذي (١٩٧٢) في البر والصلة.

(٨) رواه الترمذي (١٩٧٣) في البر والصلة، وأحمد (٢٤٦٥٧).

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال سمعت رسول الله ﷺ : «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب ويل له ويل له»^(١).

وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»^(٢).

وروى مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال:

« بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع » معناه الزجر عن التحديث بكل ما سمع فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب فإذا حدث بكل ما سمع فقد كذب لإخباره بما لم يكن^(٣).

لا يصلح الكذب إلا في ثلاث

روى الترمذي وحسنه عن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : « لا يصلح الكذب إلا في ثلاث: الرجل يكذب في الحرب والحرب خدعة، والرجل يكذب بين الرجلين ليصلح بينهما، والرجل يكذب للمرأة ليرضيها بذلك»^(٤). قال ابن مفلح في «الآداب الكبرى»: « ويحرم الكذب لغير إصلاح وحرب وزوجة، وقال ابن الجوزي: وضابطه أن كل مقصود محمود لا يمكن التوصل إليه إلا بالكذب فهو مباح إن كان ذلك المقصود مباحاً وإن كان واجباً فهو واجب . . . قال ابن مفلح: فإنه يجب الكذب إذا كان فيه عصمة مسلم من القتل، وعند أبي الخطاب يحرم أيضاً لكن يسلك أدنى المفسدين لدفع أعلاهما، وقال ابن عقيل: هو حسن حيث جاز لا إثم فيه وهو قول أكثر العلماء.

وقال ابن القيم في «الهدى»: يجوز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن

(١) رواه الترمذي (٢٣١٥) في الزهد، وأبي داود (٤٩٩٠) في الأدب.

(٢) رواه مسلم (١٠٧) في الإيمان، وأحمد (٩٨٦٧).

(٣) رواه مسلم في كتاب المقدمة.

(٤) رواه الترمذي (١٩٣٩) في البر والصلة، وأحمد (٢٧٠٥٠).

علاط على المشركين حتى أخذ ماله من مكة من غير مضره لحقت بالمسلمين من ذلك الكذب، وأما ما نال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن فمفسدة يسيرة فى جنب المصلحة التى حصلت بالكذب لاسيما تكميل الفرح وزيادة الإيمان الذى حصل بالخبر الصادق بعد هذا الكذب وكان الكذب سبباً فى حصول المصلحة الراجحة، قال: ونظير هذا الإمام والحاكم يوهم الخصم خلاف الحق ليتوصل بذلك إلى استعمال الحق، كما أوهم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام إحدى المرأتين بشق الولد نصفين حتى يتوصل بذلك إلى معرفة عين أمه. اهـ. والحاصل أن الكذب مذموم وفاعله من الخير محروم، وإنما يباح لما ذكرنا.

وقد اختلف العلماء هل الكذب فى هذه المواضع المراد به التورية أو مطلقاً، فلو كان التعريض والتورية تتحقق به المصلحة وتندفع به المضرة فلا بأس، وإلا فظاهر النص إباحة الكذب فى المواطن المذكورة .

فقد روى الشيخان عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس الكذاب الذى يصلح بين اثنين أو قال بين الناس فيقول خيراً أو ينمى خيراً»^(١) زاد مسلم قالت: «ولم أسمعته يرخص فى شئ مما يقول الناس كذباً إلا فى ثلاث يعنى الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل زوجته وحديث المرأة زوجها»^(٢).

فالكذب فى الحرب هو أن يظهر من نفسه قوة ويتحدث بما يقوى أصحابه ويكيد به عدوه لقوله عليه الصلاة والسلام:

« الحرب خدعة» وكان إذا أراد غزوة ورى بغيرها، والكذب للزوجة هو أن يعدها ويمنيها ويظهر لها من المحبة أكثر مما فى نفسه ليستديم بذلك صحبتها ويصلح به خلقها، قال البغوى: وقد روى أن رجلاً فى عهد عمر قال لزوجته: نشدتك بالله هل تحبينى فقالت: أما إذا نشدتنى بالله، فلا، فخرج الرجل حتى أتى عمر رضي الله عنه، فأرسل إليها فقال: أنت التى تقولين لزوجك: لا أحبك، فقالت: يا أمير المؤمنين نشدنى بالله أفأكذبه، قال: نعم، فأكذبه، ليس كل البيوت تبنى على الحب، ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والإحسان .

(١) رواه البخاري (٢٦٩٢) .

(٢) رواه مسلم (٢٦٠٥) .

والكذب بين اثنين أو قبيلتين أو أكثر هو أن ينقل إلى أحدهما عن صاحبه خيراً ويبلغه جميلاً، وإن لم يكن سمعه منه يريد بذلك الإصلاح، أو كان سمع منه كلاماً قبيحاً فبدله بخير منه، إذا لو علم بذلك لزادت الخصومة بينهما ونشأت العداوة، وجوز بعض العلماء الكذب بين كافرين للصالح بينهما كما هو ظاهر الأخبار، وذكر ابن حزم في كتاب «الإجماع»: أن العلماء اتفقوا على تحريم الكذب في غير الحرب وغير مداراة الرجل امرأته أو إصلاح بين اثنين أو دفع مظلمة، مراده بين اثنين مسلمين أو مسلم وكافر أ. هـ .

ويقاس على النص ما في معناه، ككذبه لستر مال غيره عن ظالم، وإنكاره المعصية للستر عليه أو على غيره ما لم يجاهر الغير بها، بل يلزمه الستر على نفسه وإلا كان مجاهراً اللهم إلا أن يريد إقامة الحد على نفسه كقصة ماعز، ومع ذلك فالستر أولى ويتوب بينه وبين الله تعالى، وكل ذلك يرجع إلى دفع المضرات، قال النووي: فإذا اختفى مسلم من ظالم يريد قتله، فلقى رجلاً، فقال: رأيت فلاناً، فإنه لا يخبره به ويجب عليه الكذب في مثل هذه الحالة، ولو احتاج للحلف في إنجاء معصوم من هلكة، لأن إنجاء المعصوم واجب كفعل سويد بن حنظلة .

في المعارض مندوحة من الكذب

التعريض هو أن يريد بلفظه خلاف ظاهرة كقوله: هذا أخي، يقصد أي في الدين، وبالسقف ويعنى به السماء، وبالفراش الأرض، وبالوتد الجبل، وبالباس الليل، وبالنساء الأقارب، وبالبارية السكين التي تبرى القلم، ولا بأس بتعلمها وتبعتها .

فقد روى عن عمران بن حصين: إن في المعارض لمندوحة من الكذب، أي فسحة وسعة، يعنى فيها ما يستغنى به الرجل عن الإضطرار إلى الكذب .

وهذه الرواية ذكرها ابن قدامة في «المغنى» محتجاً بها، وفي «الآداب الكبرى» هو ثابت عن ابراهيم النخعي .

وقد ورد عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: ما يسرنى أن لى بما أعلم من المعارض مثل أهل ومالى، وقال النخعي: لهم كلام يتكلمون به إذا خشوا من شئ يردون به عن أنفسهم .

فالكذب يجوز حيث كان لمصلحة راجحة، فإن كان لا يتوصل إلى مقصود واجب إلا به وجب وحيث جاز فالأولى استعمال المعاريض .

الصدق

على العبد أن يلازم الصدق ويتجنب الكذب، ولا يلجأ للتعريض والتورية إلا لمصلحة راجحة ويقدر الحاجة، وقد أطلق البعض على سوء استخدام التعريض اسم «النفاق الاجتماعي» وقد وردت النصوص والآثار، تحث على الصدق وتبشر الصادقين، قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩] وقال سبحانه: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] فمدحهم وبين لهم المغفرة والأجر العظيم . وقال عمر رضى الله عنه: عليك بالصدق وإن قتلك .

وقال اسماعيل بن عبيد الله: لما حضرت أبى الوفاة جمع بينه، فقال لهم: يا بنىّ عليكم بتقوى الله، وعليكم بالقرآن فتعاهدوه، وعليكم بالصدق حتى لو قتل أحدكم قتلاً .

والمؤمن يُعرف بوقاره ولين كلامه وصدق حديثه، وقيل: لكل شئ حلية وحلية النطق الصدق، وقيل: الصدق عمود الدين، وركن الأدب، وأصل المروءة فلا تتم هذه الثلاثة إلا به قال أرسطاطاليس: أحسن الكلام ما صدق فيه قائله، وانفع به سامعه .

وقال المهلب بن أبى صفرة: ما السيف الصارم فى يد الشجاع بأعزّ له من الصدق، وكان يقال عن الصدوق: فلان وقف لسانه على الصدق، ويقال: الصدق محمود من كل أحد إلا من الساعى (أى النمام) وقيل: من لزم الصدق وعود لسانه به وفق، ويقال: الصدق بالحر أحرى .

وقال عتبة بن أبى سفيان: إذا اجتمع فى قلبك أمران لاتدرى أيهما أصوب، فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه، فإن الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى، وقال أرسطاطاليس: الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب ،

وخطب بلال لأخيه امرأة قرشية فقال لأهلها: نحن من قد عرفتم، كنا عبيد فاعتقنا الله تعالى، وكنا ضالين فهدانا الله تعالى، وكنا فقيرين فأغنانا الله تعالى، وأنا أخطب إليكم فلانة لأخى، فإن تنكحوها له فالحمد لله تعالى، وإن تردونا

فأله أكبر، فأقبل بعضهم على بعض فقالوا: بلال ممن عرفتم سابقته ومشاهده ومكانه من رسول الله ﷺ، فزوجوا أخاه، فزوجوه فلما انصرفوا قال له أخوه: يغفر الله لك ما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ، وتترك ما عدا ذلك فقال مه (كف) يا أخى: صدقت فأنكحك الصدق .

وخطب الحجاج فأطال فقام رجل فقال الصلاة: فإن الوقت لا ينتظرك والرب لا تعذر، فأمر بحبس، فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون وسألوه أن يخلى سبيله، فقال: إن أقر بالجنون خلتيه فليل له، فقال: معاذ الله، لا أزعج أن الله ابتلاني وقد عافاني، فبلغ ذلك الحجاج فعفا عنه لصدقه .

أثار وحكايات تنفر من الكذب

قال الأصمعي: قلت لكذاب أصدقت قط، قال: لولا أنى أخاف أن أصدق فى هذا لقلت لك لا، فتعجب،

وكان بفارس محتسب يُعرف بجراب الكذب وكان يقول: إن مُنعت الكذب انشقت مرارتي، وإنى والله لأجد به مع ما يلحقنى من عاره من المسرة ما لا أجده بالصدق، مع ما ينالنى من نفعه،

وقال فيلسوف: من عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق فيما يقوله،

وعن عبد الله بن السدى قال: قلت لابن المبارك: حدثنا حديثاً، قال: ارجعوا فلست أحدثكم، فليل له: إنك لم تحلف، فقال: لو حلفت لكفرت وحديثكم، ولكن لست أكذب فكان هذا أحب إلينا من الحديث .

وقال مجاهد: يُكتب على ابن آدم كل شئ حتى أنينه فى سقمه، وحتى أن الصبى ليبيكى فتقول له أمه: اسكت وأشترى لك كذا، ثم لاتفعل فتكتب كذبة .

وقال الفضيل: ما من مضغة أحب إلى الله تعالى من اللسان إذا كان صدوقاً، ولا مضغة أبغض إلى الله تعالى من اللسان إذا كان كذوباً .

ولما نصب معاوية رضى الله عنه ابنه يزيد لولاية العهد أقعده فى قبة حمراء وجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يسلمون على يزيد، حتى جاء رجل ففعل

ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف ساكت، فقال معاوية: ما لك لا تقول يا أبا بحر . فقال: أخاف الله تعالى إن كذبت، وأخافكم إن صدقت، فقال: جزاك الله خيراً عما تقول، ثم أمر له بألوف، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب، فقال له: يا أبا بحر إنى لأعلم أن هذا من شرار خلق الله تعالى، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في إخراجها إلا بما سمعت، فقال له الأحنف: يا هذا أمسك، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجهاً،

وقيل: إن الكذب يحمّد إذا وصل بين المتقاطعين، أو أصلح بين الزوجين، ويذم الصدق إذا كان غيبة، وقد رُفِعَ الحرج عن الكاذب في الحرب وعن المصلح بين المرء وزوجه،

وكان المهلب في حرب الخوارج يكذب لأصحابه، يقوى بذلك جأشهم، فكانوا إذا رأوه مقبلاً إليهم قالوا: جاءنا يكذب، وقال يحيى بن خالد، رأينا شارب خمر نزع، ولصاً أفلع، وصاحب فواحش رجع، ولم نر كاذباً صار صادقاً .

ويكفى في التنفير من الكذب قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

البقرة: ١٠٠.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾

الزمر: ٦٠.

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨] هي لكل واصف كذب إلى يوم القيامة .

ملاحظة الأمارات والعلامات

يتطلب فهماً وذكاءً

استدل الفقهاء بقوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨] في أعمال الإمارات في مسائل من الفقه كالقسامة وغيرها، وأجمعوا على أن يعقوب - عليه السلام - استدل على كذبهم بصحة القميص، وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح وهي قوة التهمة ولا خلاف بالحكم بها، قاله ابن العربي .

وهذا الذي ذكره ابن العربي يحتاج عقلاً راجحاً وفضةً وذكاءً، فمن اتصف بذلك، أسفر عن وجه الإصابة ظنه، وإن كان حديث السن قليل التجربة كما نُقل في قصة سليمان بن داود - عليهما السلام - وهو صبي حيث رد حكم أبيه داود - عليه السلام - في أمر الغنم والحريث، وفي هذه القصة نزل قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَّثْنَا فِيهِ غَمَّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لَهُمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩] فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة، بل حصلت بعناية ربانية، فإذا قُذف النور في قلب العبد اهتدى إلى مواقع الصواب، ورجح على كثير من ذوى التجارب والإكتساب، ويُستدل على حصول كمال العقل في الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه، مثل ميله إلى محاسن الأخلاق وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته في إسداء صنائع المعروف، وتجنبه ما يكسبه عاراً، ويورثه سوء السمعة .

قيل للبعض: بم يُعرف عقل الرجل فقال: بقلة سقطه في الكلام، وكثرة إصابته فيه، وقيل: من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس، فمن حُرِمَ مداراة الناس فقد حُرِمَ التوفيق .

وقال علي بن عبيدة: العقل ملك والحصل رعية فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها، وقيل: بأيدي العقول تمسك أعنة النفوس، وكل شئ إذا كثر رخص، إلا العقل فإنه كلما كثر غلا، وقيل: لكل شئ غاية وحدّ، والعقل لا غاية له ولا حد، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار في المروج .

وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه قال: أهل مصر أعقل الناس صغاراً وأرحمهم كباراً، وقيل: العاقل المحروم خير من الأحمق المرزوق، وقيل ثلاثة هن رأس العقل: مداراة الناس، والإقتصاد فى المعيشة، والتجيب إلى الناس، وقيل لعلى رضى الله عنه: صف لنا العاقل، قال: الذى يضع الشئ مواضعه، قيل: فصف لنا الجاهل، قال: فقد فعلت يعنى الذى لا يضع الشئ مواضعه .

وقال المنصور لولده: خذ عنى اثنتين: لاتقل من غير تفكير، ولاتعمل بغير تدبير، وقال عامر بن عبد قيس: إذا عقلك عقلك عما لا يعينك فأنت عاقل، ويقال: لاشرف لإشرف العقل، ولاغنى لإغنى النفس، وقيل: يعيش العاقل بعقله حيث كان، كما يعيش الأسد بقوته .

وقال كسرى أنوشروان: أربعة تحتاج إلى أربعة: العقل إلى الرياسة، والرأى إلى السياسة والعلم إلى التصدير^(١) والحلم إلى التوقيير .

وقال أردشير: أربعة تحتاج إلى أربعة، الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقراة إلى المودة، والعقل إلى التجربة،

ولايكفى فى الدلالة على عقل الرجل الإغترار بحسن ملبسه وملاحة سمته، وتسريح لحيته فهذه أمور قد يشترك فيها العاقل والأحمق .

نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يُمنّ علينا بالعقل الكامل عند حلول الشبهات، وبالبصر النافذ عند حلول الشهوات، إنه سبحانه والى ذلك والقادر عليه .

واللهم يامعلم إبراهيم الخير علمنى، ويامفهم سليمان فهمنى .

نفس أمارة بالسوء سولت لهم المعاصي

روى أن يعقوب - عليه السلام - لما قالوا له: ﴿فَاكَلَهُ الذُّبُّ﴾ [يوسف: ١٧] قال لهم: لم يترك الذئب له عضواً فتأتوني به أستأنس به؟ ألم يترك لى ثوباً أشم فيه رائحته؟ قالوا: بلى هذا قميصه ملطوخ بدمه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨] فبكى يعقوب عند ذلك، وقال لبنيه: أروني قميصه، فأروه فشمه وقبله، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيه شقاً ولا تمزيقاً، فقال: والله الذي لا إله إلا هو ما رأيت كاليوم ذئباً أحكم منه، أكل ابني وأختلسه من قميصه ولم يمزقه عليه، وعلم أن الأمر ليس كما قالوا، وأن الذئب لم يأكله، فأعرض عنهم كالمغضب باكياً حزيناً وقال: يامعشر ولدي، دلوني على ولدي، فإن كان حياً رددته إليّ، وإن كان ميتاً كفتته ودفنته، فقيل: قالوا حينئذ: ألم تروا إلى أيننا كيف يكذبنا في مقالتنا! تعالوا نخرجه من الجب ونقطعه عضواً عضواً، ونأت أبانا بأحد أعضائه فيصدقنا في مقالتنا، ويقطع رأسه، فقال يهوذا: والله لئن فعلتم لأكونن لكم عدواً ما بقيت، ولأخبرن أباكم بسوء صنعكم، قالوا: فإذا منعنا من هذا فتعالوا نصطد له ذئباً، قال: فاصطادوا ذئباً ولطخوه بالدم، وأوثقوه بالحبال، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا: يا أبانا! إن هذا الذئب الذي يحل بأغنامنا ويفترسها، ولعله الذي أفجعنا بأخينا لانشك فيه، وهذا دمه عليه.

فقال يعقوب: أطلقوه، أطلقوه وتبصص له الذئب، فأقبل يدنو ويعقوب يقول له: ادن، ادن، حتى ألصق خده بخده، فقال له يعقوب: أيها الذئب، لم فجعتني بولدي وأورثني حزناً طويلاً؟ ثم قال: اللهم أنطقه، فأنطقه الله تعالى فقال: والذي اصطفاك نبياً ما أكلت لحمه، ولا مزقت جلده ولانتفت شعرة من شعراته، والله ما لى بولدك عهد، وإنما أنا ذئب غريب أقبلت من نواحي مصر فى طلب أخ لى فقد، فلا أدري أحي هو أم ميت، فاصطادنى أولادك وأوثقونى وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش، وتالله، لا أقمت فى بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش، فأطلقه يعقوب، وقال: والله لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم، هذا ذئب بهيم خرج يتبع ذمام أخيه، وأنتم ضيعتم أحاكم، وقد علمت أن الذئب برى مما جتتم به ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ [يوسف: ١٨] أى زينت لكم أنفسكم الأمارة بالسوء غير ما تصفون وتذكرون، ثم قال توطئه لنفسه ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨].

صبر جميل

الصبر خلق فاضل من أخلاق النفس يُمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة، أو هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، وقال البعض عن الصبر: تجرع المرارة من غير تعبس، والإيمان نصفه صبر، ونصفه شكر.

وقد مدح الله عز وجل في كتابه الصابرين وأخبر أنه يوفيه أجرهم بغير حساب فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وبين سبحانه أنه معهم بهدياته ونصره وتوفيقه فقال: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] . جعل سبحانه الإمامة في الدين منوطة بالصبر واليقين، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يُهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وأخبر الله تعالى أن الصبر خير لأهله مؤكداً باليمين فقال: ﴿وَلَكِنَّ صَبْرَتُمْ لَكُمْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] وذكر أنه مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط فقال: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَّا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وعلق الفلاح بالصبر والتقوى فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وأخبر عن محبته لأهله فقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ويشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون، فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧] وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصابرون فقال عز وجل: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١].

وخص في الانتفاع بآياته أهل الصبر وأهل الشكر تمييزاً لهم بهذا الحظ الوفور فقال في أربع آيات من كتابه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لِكُلِّ صَبَّارٍ شُكُورٍ﴾

[الشورى: ٣٣].

وساحة العافية أوسع للعبد ما لم تنزل به المصيبة، فإذا نزلت به المصيبة كانت ساحة الصبر له أوسع، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «وما أعطى أحد عطاء أوسع من الصبر»^(١).

والصبر يدل على شجاعة النفس، ولذلك قال البعض: الشجاعة صبر ساعة، وبه تمتنع النفس من لطم الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعاء الجاهلية.

والصابر يتجمل ولا يظهر الجزع، فالصبر والجزع ضدان ولذلك قال سبحانه عن أهل النار: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١] لهذا كله، قال نبي الله يعقوب ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] أى فشأني والذي اعتقده صبر جميل، وقال قطرب: أى فصبري صبرٌ جميل، أو فصبر جميل أولى بي، والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى، وقيل: المعنى لا أعاشركم على كآبة الوجه وعبوس الجبين، بل أعاشركم على ما كنت عليه معكم، وفي هذا ما يدل على أنه عفا عن مؤاخذتهم.

وعن حبيب بن أبي ثابت أن يعقوب كان قد سقط حاجباه على عينيه، فكان يرفعهما بخرقه، فقيل له: ما هذا؟ قال طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى الله إليه أتشكوني يا يعقوب؟! قال يارب خطيئة أخطأتها فاغفر لي.

وورد عن عائشة رضی الله عنها في قصة الإفك أنها قالت والله لئن حلفت لاتصدقوني وإن اعتذرت، لاتعذروني، فمثلي ومثلكم كمثلي يعقوب وولده ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] فأنزل الله عز وجل في عذرها ما أنزل.

والمعنى: أن إقدامه على الصبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى، فدواعي إظهار الجزع كثيرة وقوية، والدواعي الإيمانية تدفعه إلى الصبر والرضا، فما لم تحصل إعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة فقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يجرى مجرى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ وقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ يجرى مجرى قوله: ﴿وَيَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾.

(١) رواه البخاري (١٤٦٩) في الزكاة، ومسلم (١٠٥٣) في الزكاة، وأبي داود (١٦٤٤) في الزكاة، واللفظ له النسائي (٢٥٨٨) في الزكاة، وموطأ مالك (١٨٨٠) في الجامع، والدارمي (١٦٤٦) في الزكاة.

اتهام الرأى

قال ابن رفاعة: ينبغي لأهل الرأى أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب عليه السلام وهو نبى، حين قال له بنوه: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧] قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبِرْ جَمِلاً﴾ [يوسف: ١٨] فأصاب هنا، ثم قالوا له: ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١] قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ [يوسف: ١٨] فلم يصب. اهـ.

لا عصمة لأحد إلا للأنبياء فيما يبلغونه عن الله، وكل ابن آدم خطاء .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: «إياكم وأصحاب الرأى فإنهم أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، وتفلتت منهم أن يعوها، واستحيوا حين سئلوا أن يقولوا: لا نعم، فعارضوا السنن برأيهم، فإياكم وإياهم» .

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول: القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير، والناس ثلاثة: فعالم ربانى ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعا ع أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا لركن ركين، أف لحامل حق لابصيرة له، ينقدح فى قلبه بأول عارض من شبهة، مشغوف بما لا يدرى حقيقته، فهو فتنة لمن فتن به .

وكان الشافعى رحمه الله يقول: معى صواب يحتمل الخطأ، ومع خصمى خطأ يحتمل الصواب، وقال: ما ناظرت أحداً إلا أحببت أن يجرى الخير على لسانه .

ومن قال فى القرآن رأيه فقد أخطأ، لأنه لو أصاب الحكم مرة، فسيخطئه مرات، وكل إنسان يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله عليه السلام، وقال الإمام مالك - رحمه الله - مامنا إلا ورد عليه .

فلا يجوز إنزال أقوال الرجال منزلة قول المعصوم عليه السلام والحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر، كما ورد فى الخبر، فالعالم المجتهد قد يخطئ فى حكمه، ويكون معذوراً ومأجوراً لبذله وسعه فى استنباط الحكم الشرعى .

فاتقوا الحديث إلا ما علمتم، فإنه من كذب على النبي ﷺ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومن كذب على القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار .

والواجب على الإنسان أن يتهم رأيه، فهو ليس وحياً منزلاً، وأن يُحسن الظن ما استطاع إلى ذلك سبيلاً إلا إذا اقتضت الدلائل والقرائن خلاف ذلك .

لماذا لم يبحث يعقوب عن يوسف عليهما السلام؟

عرف يعقوب كذب أولاده حين قالوا ﴿أَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ فقال لهم: ﴿بَلْ سَوَّاتُ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْراً﴾ وذلك لأنه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم ليوسف وقد سبق أن قال ليوسف: ﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ [يوسف: ١٦] بالإضافة لاختلاف أقوالهم، وإتيانهم بقميص لم يتخرق، ولو أكله الذئب لخرق قميصه .

ولم يملك يعقوب - عليه السلام - إلا أن يصبر صبراً جميلاً، إذ الصبر واجب حتم على المسلم،

وقد استشكل البعض صبر يعقوب على ظلم الظالمين ومكر الماكرين، ولم لم يبلغ في التفتيش والبحث سعياً منه في تخليص يوسف - عليه السلام - عن البلية والشدة إن كان في الأحياء وفي إقامة القصص إن صح أنهم قتلوه؟ وقد يقال للرد على هذا الاستشكال:

إن الله تعالى منعه عن الطلب تشديداً للمحنة عليه، وتغليظاً للأمر عليه، ولعله عرف بقرائن الأحوال أن أولاده أقوياء وأنهم لا يمكنونه من الطلب والبحث وأنه لو بالغ في البحث فرجاً أقدموا على إيذائه وقلته، وأيضاً لعله - عليه السلام - علم أن الله تعالى يصون يوسف عن البلاء والمحنة وأن أمره سيعظم بالآخرة، ثم لم يرد هتك أستار سرائر أولاده وما رضى بإلقائهم في السنة الناس وذلك لأن أحد الولدين إذا ظلم الآخر وقع الأب في العذاب الشديد لأنه إن لم ينتقم يحترق قلبه على الولد المظلوم، وإن انتقم فإنه يحترق قلبه على الولد الذي ينتقم منه، فلما وقع يعقوب - عليه السلام - في هذه البلية رأى أن الأصوب الصبر والسكوت وتفويض الأمر إلى الله تعالى بالكلية (ذكره الرازي) .

وإذا كانوا قد شهدوا وغبنا، فلا ننسى أن كلمة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قوله نبي من الأنبياء، وقد ذُكرت في موضع الثناء من الله تعالى، وجاءت في مواجهة ابتلاء شديد لاحيلة لنبي الله يعقوب - عليه السلام - في دفعه بالأسباب المادية .

وهو يعرف أن منزل ذلك البلاء هو الله تعالى، وهو سبحانه مالك الملك، ولا اعتراض على الملك في أن يتصرف في ملكه، ثم هو سبحانه العليم الحكيم البر الرحيم فكان لا بد من التسليم لقضاء الله وعدم التسخط والشكاية، وهذا هو المقام المحمود الذي وقفه نبي الله يعقوب، فلا يُذم على صبره في هذا الموضع، ولا يُنسب للتقصير - عليه السلام - في تعاطي ما أمر الله به من الأخذ بالأسباب .

وجوب بر الوالدين وإن كانا مشركين

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وقال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وعن عبد الله بن عمر رضی الله عنهما، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يباعه على الهجرة وترك أبويه يبيكان، فقال رسول الله ﷺ: «ارجع إليهما وأضحكهما كما أبكيتهما» رواه عبد الرزاق والبخاري في «الأدب المفرد» والحاكم في «المستدرک» وقال: صحيح الإسناد .

قال النووي في «شرح مسلم»: «أجمع العلماء على الأمر ببر الوالدين وأن عقوقهما حرام من الكبائر. اهـ».

وقد أوجب سبحانه برهما وإن كانا مشركين، قال تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۗ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضی الله عنهما قالت: قدمت على أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصل أمي، قال نعم صلى أمك^(١)، قال ابن عيينه فأنزل

(١) رواه البخاري (٢٦٢٠) في الهبة، ومسلم (١٠٠٣) في الزكاة، وأبي داود (١٦٦٨) في الزكاة، وأحمد (٢٦٣٩٩).

الله فيها: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

قال الخطابي: فيه أن الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة، ويستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة وإن كان الولد مسلماً. اهـ.

وأخرج الطبراني بسند حسن عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طاعة الله طاعة الوالد، ومعصية الله معصية الوالد» وكذلك الأمر بالنسبة للوالدة.

وقد اتفق العلماء على وجوب طاعة الوالدين فيما لم يكن متفقاً على تحريمه للحديث: «لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف» (١).

وفي حديث النبي ﷺ لعبد الله بن عمر: «أطع أباك وطلق امرأتك» (٢). ويشترط في الأب الذي تجب طاعته في مثل هذا أن يكون عدلاً كما ورد عن الإمام أحمد، ولا يمين لولد مع والد، والولد وما كسب لوالده.

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه» (٣).

وقال الحافظ في «الفتح»: قال جمهور العلماء: يحرم الجهاد إذا منع الأبوان أو إحداهما منه بشرط أن يكونا مسلمين لأن برهما فرض عين عليه والجهاد فرض كفاية فإذا تعين الجهاد فلا إذن، وكذلك الأمر بالنسبة للسفر إلا أن يتعين السفر لتعلم فرض عين فلا مانع، والأم لها ثلاثة أرباع ما للأب من البر، ويتقدم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها.

سئل مجاهد عن الرجل يدعوه أبوه أو أمه في الصلاة قال: يجيبهما، وعن مالك إذا منعه أمه من شهود العشاء في جماعة لم يطعها وإن منعه من الجهاد

(١) رواه البخاري (٧٢٥٧) في أخبار الأحاد، ومسلم (١٨٤٠) في الإمارة، والنسائي (٤٢٠٥) في البيعة، وأبي داود (٢٦٢٥) في الجهاد وأحمد (٧٢٦).

(٢) رواه أحمد (٤٦٩٧) والترمذي (١١٨٩) في الطلاق واللعان، وأبي داود (٥١٣٨) في الأدب، وابن ماجه (٢٠٨٨) في الطلاق.

(٣) رواه مسلم (١٥١٠) في العتق، والترمذي (١٩٠٦) في البر والصلة، وابن ماجه (٣٦٥٩) في الأدب، وأحمد (٧١٠٣) وأبي داود (٥١٣٧) في الأدب.

أطاعها، وعن الحسن في الرجل تقول له أمه: أفطر قال: يفطر وليس عليه قضاء وله أجر الصوم، وإذا قالت أمه: لا تخرج إلى الصلاة، فليس لها في هذا طاعة لأن هذا فرض. اهـ.

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: «سألت رسول الله ﷺ أى العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها؟ قلت: ثم أى؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أى؟ قال: الجهاد فى سبيل الله»^(١).

فبر الوالدين أكد من الجهاد كما قال النووى، وقال ابن عباس: إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله من بر الوالدة، وعن الإمام أحمد قال: بر الوالدين كفارة للكبائر، قال البيضاوى: إن أحسن ما يتوسل به إلى دخول الجنة ويتوصل به إلى وصول درجتها العالية مطاوعة الوالد ومراعاة جانبه. اهـ.

وقد وردت الأحاديث تدل على استجابة دعاء من بر والديه، وأن رضى الله فى رضى الوالدين، وأن البر يحول الشقاوة سعادة ويزيد فى العمر ويقى مصارع السوء.

عن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر»^(٢) وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يمد له فى عمره ويؤاد فى رزقه فليبر والديه وليصل رحمه»^(٣).

وسئل سفيان: كم يدعو الإنسان لوالديه: فى اليوم مرة أو فى الشهر أو فى السنة، فقال: نرجو أن يجزيه إذا دعا لهما فى آخر الشهادات.

وقال بعض التابعين: من دعا لوالديه خمس مرات فقد أدى حقهما فى الدعاء لأن الله تعالى قال: «أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ» [لقمان: ١٤] فشكر الله تعالى أن يصلى فى كل يوم خمس مرات، وكذلك شكر الوالدين أن يدعو لهما فى كل يوم خمس مرات.

(١) رواه البخاري (٥٢٧) فى مواقيت الصلاة، ومسلم (٨٥) فى الإيمان، والترمذي (١٧٣) فى الصلاة، والنسائي (٦١٠) فى المواقيت وأحمد (٣٩٨٨).

(٢) رواه الترمذي (٢١٣٩) فى القدر.

(٣) رواه أحمد (١٢٩٨٨).

وليس من الإحسان إلى الوالدين ولا من المصاحبة بالمعروف أن يموتا جوعاً والولد موسر، فيجب على الابن أن ينفق على والديه، وقد قال جمهور العلماء: يأخذنا من ابنهما قدر الحاجة، وقال الإمام أحمد: يأخذنا الحاجة وغير الحاجة .

وعلى الابن أن يسعى فى تأدية الدين عن والديه، وأن يخشع لهما عند الغضب، ولا يرفع يده عليهما إذا كلمهما، ولا يسمى والديه باسمهما، ولا يمشى قدامهما ولا يقعد قبلهما ولا يستسب لهما، ويستأذن عليهما قبل دخوله، ولا يوقظهما إذا كانا نائمين، ويقوم لهما، كما لا بد من لين الجانب للوالدين لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] قال ابن المسيب: قول العبد المذنب للسيد اللفظ .

وعن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضى الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من بنى سلمة فقال: «يا رسول الله هل بقى من بر أبوى شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما»^(١).

فمن مات وعليه صيام صام عنه وليه، وفى الحديث: «حج عن أبيك واعتمر»^(٢) والصدقة والدعاء كلاهما يصل للميت باتفاق العلماء، ومن جملة الأشياء التي ينقلب بها العاق إلى بار بعد موت الوالدين، إنفاذ وصيتهما التي لا تشمل على محرم، وصلة صديقهما وزيارة قبرهما وسداد ديونهما والاستغفار لهما والترحم عليهما، والاجتهاد فى طاعة الله بصفة عامة لقوله تعالى: ﴿وَنُكْتَبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» وابن الإنسان من سعيه وكسبه وهو من جملة آثاره، وعمله الصالح يعود لوالديه دون أن ينقص من أجره شيء .

(١) رواه أبى داود (٥١٤٢) فى الأدب، وابن ماجه (٣٦٦٤) فى الأدب.

(٢) رواه الترمذي (٩٣٠) فى الحج، والنسائي (٢٦٢١) فى مناسك الحج، وابن ماجه (٣٩٠٦) فى المناسك، وأحمد (١٥٧٥١) .

ما بعد البراءة العقوق

العقوق كبيرة من الكبائر فعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنع وهات...» (١)، والتحريم لا يختص بالأمهات كما بين العلماء .

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرَهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣].

قال الألوسى: معناه لا تتضجر مما يستقذر منهما ويستثقل من مؤنهما، والنهى عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياساً جلياً لأنه يفهم بطريق الأولى، وعن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ﴾ [الإسراء: ٢٣] قال: فيما تميط عنهما من الأذى، الخلاء والبول، كما كانا لا يقولانه فيما يميطن عنك من الخلاء والبول، وقال السدى: لا تقل لهما أف فما سواه .

وقال الحافظ فى «الفتح» فى معنى العقوق: والمراد به صدور ما يتأذى به الوالد من ولده من قول أو فعل إلا فى شرك أو معصية ما لم يتعنت الوالد. اهـ.

وعن أبى بكر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قلنا بلى يارسول الله، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئاً فجلس فقال: ألا وشهادة الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت» (٢) .

والعاق لوالديه من الثلاثة الذين لا يُنظر إليهم يوم القيامة، وقد وردت النصوص بلعنه وقيل: فى معنى أصحاب الأعراف الذين يوقف بهم بين الجنة والنار، أنهم قوم منعهم من النار قتلهم فى سبيل الله، ومنعهم من الجنة معصية آبائهم، والعاق ممن لا يقبل الله عز وجل منهم صرفاً ولا عدلاً .

وفى رواية عند البخارى فى «التاريخ» والطبرانى فى «الكبير»: «اثنان يعجلهما الله فى الدنيا البغى وعقوق الوالدين» .

(١) رواه البخاري (٢٤٠٨) فى الاستقراض، ومسلم (٥٩٣) فى الأقضية.

(٢) رواه البخاري (٥٩٧٦) فى الأدب، ومسلم (٨٧) فى الإيمان، وأحمد (١٩٨٧) فى الترمذي (٢٣٠١) فى الشهادات.

وعن ابن عباس قال: «ما من مسلم له والدان مسلمان يصبح إليهما محسناً إلا فتح الله له بابين يعنى من الجنة، وإن كان واحداً فواحد، وإن أغضب أحدهما لم يرض الله عنه قيل: وإن ظلماه قال: وإن ظلماه وإن ظلماه» رواه البخارى فى «الأدب المفرد» .

ومن العقوق أن يحزن والديه، وأن يتسبب فى بكائهما، وكان ابن عمر يقول: بكاء الوالدين من العقوق والكبائر .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «من الكبائر شتم الرجل والديه، قالوا: يارسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه، فيسب أمه»^(١).

ومن العقوق أن يحد النظر إلى الوالدين، وأن يتبرأ منهما أو يرغب عنهما، أو يتكبر عليهما، وأشد إثمًا من ضرب والديه أو قتلها أو أحدهما، بل ورد عن ابن عمر أنه مر بأعرابى فى سفر وكان أبو الأعرابى صديقاً لعمر رضى الله عنه فقال للأعرابى: ألسنت ابن فلان، قال: فأمر له ابن عمر بحمار كان يستعقب، ونزع عمامته عن رأسه فأعطاه، فقال بعض من معه أما يكفيك درهمان، فقال قال النبي ﷺ: «احفظ ود أبيك لا تقطعه فيطفئ الله نورك» رواه البخارى فى «الأدب المفرد» والطبرانى فى «الأوسط» والبيهقى فى «الشعب» وقال العراقى والهيثمى: إسناده جيد حسن .

صور من البر

رأى ابن عمر رجلاً يمانياً يطوف بالبيت وقد حمل أمه وراء ظهره وهو يقول
 إنى لها بغيرها المذل
 إن أذعرت ركابها لم أذعر
 ثم قال: يا ابن عمر أترانى جزيتها؟ قال: لا ولا بزفرة واحدة، أى حملة واحدة .

ورأى على بن أبى طالب رجلاً يطوف بأمه بالكعبة وهو ينشد:

(١) رواه البخارى (٥٩٧٣) فى الأدب، ومسلم (٩٠) فى الإيمان، والترمذى (١٩٠٢) فى البر والصله .
 داود (٥١٤١) فى الأدب وأحمد (٦٨٠١).

أنا مطيتها لا انفر وإذا الركاب ذعرت لا أذعر
وما حملتني وأرضعتني أكثر

لييك اللهم لييك فقال على لعمر: هيا بنا يا أبا حفص ندخل في الطواف لعل
الرحمة تنزل فتمعنا والرجل يحمل أمه ويردد قوله، وعلى خلفه يقول:

إن تبرها فالله أشكر يجزيك بالقليل الأكثر
لييك اللهم لييك

ولما غلا النخل اشترى أسامة بن زيد نخلة بألف درهم ثم قطعها وأطعم أمه جمارها،
فعوتب في ذلك فقال: سألتني، ولا تسألني شيئاً أقدر عليه إلا أطعمتها إياه .

وقال المأمون: لم أر أحداً أبر من الفضل بن يحيى بأبيه، بلغ من بره له أنه كان
لا يتوضأ إلا بماء سخّن فمنعهم السجان من الوقود في ليلة باردة، فلما أخذ يحيى
مضجعه، قام الفضل إلى قمقم من نحاس فملأه ماء وأدناه من المصباح، فلم يزل
قائماً وهو في يده إلى الصباح، حتى استيقظ يحيى من منامه .

وقيل: طلب بعضهم من ولده أن يسقيه ماء، فلما أتاه بالشربة نام أبوه، فما
زال الولد واقفاً والشربة في يده إلى الصباح حتى استيقظ أبوه من منامه .

وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: إن لى أماً بلغ منها الكبر، أنها لا
تقضى حاجتها إلا وظهرى لها مطية، فهل أدبت حقها؟ قال: لا، لأنها كانت
تصنع بك ذلك وهى تتمنى بقاءك، وأنت تصنعه وتتمنى فراقها .

وقال ابن المنكدر: بت أكبس رجل أبى ويات أخى يصلى ولا يسرنى ليلته بليلى .

وقال عمر بن عبد العزيز لابن مهران: لا تأتين أبواب السلاطين وإن أمرتهم
بمعروف أو نهيتهم عن منكر، ولا تخلون بامرأة، وإن علمتها سورة من القرآن،
ولا تصحب عاقاً فإنه يقبلك وقد عق والديه .

وعن على رضى الله عنه: لو علم الله شيئاً من العقوق أدنى من أفٍ لحرمه،
فليعمل العاق ماشاء أن يعمل فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن
يدخل النار .

وقيل لعلى بن الحسين رضى الله عنه: إنك من أبر الناس، ولا تأكل مع أمك في صحفة فقال: أخاف أن تسبق يدي يدها إلى ما تسبق عيناها إليه فأكون قد عققتها .
وكان ابن سيرين إذا تكلم مع أمه فكأنما أسير بين يدي أمير يريد أن يقتص منه، فلما سئلت أخته، قالت: هكذا يكون إذا كان مع أمه .

ومن أعظم صور البر ما قصه النبي ﷺ من قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار فأطبقت عليهم الصخرة، فدعا كل منهم ربه وتوسل إليه بعمل صالح ظن فيه الإخلاص وكان الأول بارأ بوالديه فقال: «اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فتنا بى طلب شجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً ومالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً . . . ثم توسل الثانى بعفته عن المرأة بعد أن تمكن منها والثالث بتشميره مال الأجير وأمانته، فانفرجت الصخرة وخرجوا جميعاً يمشون» (١).

دع الأمور تجري في أعنتها، فعجائب

التدبير تحار فيها العقول

قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢] لقد أمرت أم موسى أن تضعه في التابوت وتقذفه في البحر، وقيل لها: ﴿فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] ومن عجائب التدبير، أن يصل التابوت إلى قصر فرعون، فلم يغرق ولم يضل السبيل إلى مكان آخر: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] ومن قبل ألقى نبي الله يوسف - عليه السلام - في الجب، فلم يغرق ولم تلدغه حية، ولم يمت عطشاً أو جوعاً، إذ لا بد أن يكون له شأن، ولا بد أن يصل إلى قصر عزيز مصر، ودون ذلك أحداث قصها سبحانه على خلقه

(١) رواه البخاري (٢٢٧٢) في الإجارة، ومسلم (٢٧٤٣) في الذكر والدعاء.

في كتابه فقال: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩] يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام في الجب حين ألقاه إخوته وتركوه في ذلك الجب وحيداً فريداً فمكث في البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش، وكيف أنه سبحانه سهّل السبيل في خلاصه من تلك المحنة .

قال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته في البئر جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون ماذا يصنع وما يصنع به فساق الله له سيارة فنزلوا قريباً من تلك البئر وأرسلوا واردهم وهو الذي يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به وقال ﴿يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ [يوسف: ١٩] قال ابن عباس: جاءت سيارة أى قوم يسيرون من مدين إلى مصر فأخطأوا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق فهبطوا على أرض فيها جب يوسف عليه السلام، وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران لم يكن للرعاة، وقيل: كان ماؤه مالحاً فعذب حين ألقى فيه يوسف - عليه السلام - فأرسلوا رجلاً يقال له: مالك بن ذعر الخزاعي ليطلب لهم الماء وهو الوارد الذي يرد الماء ليسقى القوم، فتعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر، أحسن ما يكون الغلمان .

قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام في حديث الإسراء من صحيح مسلم: «إذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطي شطر الحسن»^(١) وقيل: إنه ورث الجمال من جدته سارة، فلما رآه مالك قال: ﴿يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ وهذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة، إلا ابن ابى اسحق فإنه قرأ «يا بشريّ هذا غلام» وقرأ أهل الكوفة ﴿يَا بُشْرَى﴾ وفي معناه قولان:

أحدهما: اسم الغلام .

والثاني: يا أيها البشري هذا حينك وأوانك .

قال قتادة: بشر أصحابه بأنه وجد عبداً، وقال السدي: نادى رجلاً اسمه بشري .

قال النحاس: قول قتادة أولى ورجحه ابن كثير، فتعود القراءة إلى معني التبشير، ولأنه لم يأت في القرآن تسمية أحد إلا يسيراً كما قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ

(١) رواه مسلم (١٦٢) في الإيمان، وأحمد (١٢٠٩٦).

يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴿الفرقان: ٢٧﴾ وهو عقبة بن أبي معيط، وبعده ﴿يَا وَيَلَّتِي لَيْتِي لَمْ آتُخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ ﴿الفرقان: ٢٨﴾ وهو أمية بن خلف .

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً﴾ ﴿يوسف: ١٩﴾ أى وأسره الواردون من بقية السيارة، وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره، قاله مجاهد والسدى وابن جرير، هذا قول .

وقال العوفى عن ابن عباس قوله: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً﴾ يعنى إخوة يوسف أسروا شأنه وكنتموا أن يكون أخاهم وكنتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته واختار البيهقي فذكره إخوته لوارد القوم فنادى أصحابه ﴿يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ يباع فباعه إخوته، قيل: إن يهوذا وصى أخاه يوسف بلسانهم أن اعترف لأخوتك بالعبودية فإنى أخشى إن لم تفعل قتلوك، فلعل الله أن يجعل لك مخرجاً، وتنجوا من القتل، فكنتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته ،

فقال مالك: والله ما هذه سمة العبيد ! قالوا: هو تربى فى حجورنا، وتخلق بأخلاقنا، وتأدب بأدابنا، فقال: ماتقول يا غلام؟ قال: صدقوا ! تربيت فى حجورهم، وتخلقت بأخلاقهم، فقال مالك: إن بعتموه منى اشتريته منكم، فباعوه منه .

وقوله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه ولكن له حكمة وقد سبق فترك ذلك ليمضى ما قدره وقضاه ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿الأعراف: ٥٤﴾ .

وفى هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ وإعلام له بأنى عالم بأذى قومك لك وأنا قادر لك على الإنكار عليهم ولكنى سأملى لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته .

بين البشارة والتهنئة

استبشر مالك لما رأى يوسف - عليه السلام - وبشر أصحابه أنه وجد عبداً، وكان سبب البشارة أنه وجد غلاماً فى غاية الحسن، ولعلمهم يبيعونه بثمان عظيم ويصير ذلك سبباً لحصول الغنى . وقد وردت البشارة فى نصوص كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧].

وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾

[التوبة: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿وَأَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وكان النبى ﷺ يبشر أمته بشهر رمضان فيقول: «أتاكم رمضان شهر مبارك فرض عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب السماء وتغلق فيه أبواب الجحيم وتقل مردة الشياطين، لله فيه ليلة خير من ألف شهر من حُرِمَ خيرها فقد حُرِمَ» (١).

وعن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ بَشَّرَ خديجة رضى الله عنها بيت فى الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب» (٢).

وقد بشر النبى ﷺ جمعاً من صحابته بالجنة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى . . . وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وقد وُجِدَت البشارات به ﷺ فى الكتب المتقدمة، وهى أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر، وأتباع الأنبياء يعلمون ذلك ولكن أكثرهم يكتُمون ذلك ويخفونه قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقد بعث رسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

(١) رواه النسائي (٢١٠٦) فى الصيام، وأحمد (٨٧٦٥، ٩٢١٣) واللفظ للنسائي.

(٢) رواه البخاري (١٧٩٢) فى الحج، ومسلم (٢٤٣٣) فى فضائل الصحابة، والترمذي (٣٨٧٦) فى المناقب.

فينبغى التبشير والتهنئة بالخير استناناً بسنة رسول الله ﷺ ، قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - فى كتابه «تحفة المودود بأحكام المولود» : إنه لما كانت البشارة تسر العبد وتفرحه استحب للمسلم أن يبادر إلى مسرة أخيه وإعلامه بما يفرحه .

ولما ولد النبى ﷺ بشرت به ثويةُ عمه أبا لهب وكان مولاهما، وقالت: قد وُلد الليلة لعبد الله ابنٌ فأعتقها أبو لهب سروراً فلم يضيع الله ذلك له وسقاه بعد موته فى النقرة التى فى أصل إبهامه .

فإن فاتته البشارة استحب له تهنئته، والفرق بينها أن البشارة إعلام له بما يسره، والتهنئة دعاء له بالخير فيه بعد أن علم به . ولهذا لما أنزل الله توبة كعب بن مالك وصاحبيه ذهب إليه البشير فبشره، فلما دخل المسجد جاء الناس فهتوه، وكانت الجاهلية يقولون فى تهنئتهم بالنكاح: بالرفاء والبنين، والرفاء: الالتحام والاتفاق، فيهتنون بالبنين سلفاً وتعجلاً، ولا ينبغى للرجل أن يهنئ بالابن، ولا يهنئ بالبت، بل يهنئ بهما أو يترك التهنئة ليتخلص من سنة الجاهلية، فإن كثيراً منهم كانوا يهتنون بالإبن وبوفاة البنت دون ولادتها وإذا ما بُشِّر الإنسان بحصول خير أو اندفاع شر فعليه أن يهب من بشره شيئاً، فإن كعب بن مالك لما بُشِّر، نزع ثوبيه فكساهما من بشره، واستعار ثوبين فلبسهما كما ورد فى صحيح البخارى .

لايجوز بيع الحر

قال ابن عباس رضى الله عنهما: إن إخوة يوسف لما طرحوا يوسف فى الجب ورجعوا عادوا بعد ثلاث يتعرفون خبره، فلما لم يروه فى الجب ورأوا آثار السيارة طلبوهم فلما رأوا يوسف قالوا: هذا عبدنا أبق منا، فقالوا لهم: فيبعوه منا، فباعوه منهم، فأخفوا كونه أخواً لهم، بل قالوا: إنه عبد لنا أبق منا، وتابعهم على ذلك يوسف لأنهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية .

واعلم أنه لا يجوز بيع الحر، ولا أكل ثمنه، ولا يحل لعالم بذلك أن يقدم على شرائه، ولذلك قال ابن عباس فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠] يريد حراماً لأن ثمن الحر حرام، قال: كل بخص فى كتاب الله نقصان إلا هذا فإنه حرام .

ولما كان ذلك معلوماً عند إخوة يوسف، وأرادوا التخلص منه، احتالوا وادعوا أنه عبد أبق منهم، وأقر هو بالرق على نفسه لأنهم توعدوه بالقتل، أى كان مستكرها ولذلك اشتراه السيارة على قول ابن عباس رضى الله عنهم .

وإلا فمن ادعى رق اللقيط يلزمه البينة كما ذكر ابن قدامة فى المغنى وقد وجد الإقرار من يوسف، فبيع ببيع الرقيق وقد يقول قائل: كيف يبيح الإسلام نظام الرق .

وللإجابة على هذا السؤال نقول: إن الكفار لما تمردوا على ربهم وطغوا وعتوا، وأعلنوا الحرب على رسله لثلاث تكون كلمته هى العليا، واستعملوا جميع المواهب التى أنعم عليهم بها فى محاربتة وارتكاب مايسخطه، ومعاداته ومعاداة أوليائه القائمين بأمره، وهذه أكبر جريمة يتصورها الإنسان، فعاقبهم الحكم العدل اللطيف الخبير رجل وعلا عقوبة شديدة تناسب جريمتهم، فسلبهم التصرف ووضعهم من مقام الإنسانية إلى مقام أسفل منه كمقام الحيوانات فأجاز بيعهم وشراءهم، وغير ذلك من التصرفات المالية، مع أنه لم يسلبهم حقوق الإنسانية سلباً كلياً، فأوجب على مالكهم الرفق والإحسان إليهم وأن يطعموهم مما يطعمون ويكسوهم مما يلبسون، ولا يكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، كما هو معروف فى السنة الواردة عنه ﷺ، مع الإيضاء بهم فى القرآن

ولو فرضنا (ولله المثل الأعلى) أن حكومة من هذه الحكومات التى تنكر مسألة الرقيق وتشنع فى ذلك على دين الإسلام قام عليها رجل من رعاياها كانت تغدق عليه النعم، وتسدى إليه جميع أنواع الإحسان ودبر عليها انقلاباً يريد إسقاطها، ثم قدرت عليه بعد مقاومة شديدة فإنها تقتله شر قتلة، ولا شك أن ذلك القتل يسلبه جميع تصرفاته وجميع منافعه، فهو أشد سلباً لتصرفات الإنسان ومنافعه من الرق بمراحل . والكافر قام ببذل كل مافى وسعه ليحول دون إقامة نظام الله الذى شرعه ليسير عليه خلقه، فإذا أقدر الله المسلمين المجاهدين الباذلين مهجهم وأموالهم فى سبيل الله، جعلهم ملكاً لهم بالسبى، إلا إذا اختار الإمام المن أو الفداء لما فى ذلك من المصلحة على المسلمين .

وهذا الحكم من أعدل الأحكام وأوضحها وأظهرها حكمة، فإن قيل: إذا كان الرقيق مسلماً فما وجه ملكه بالرق ؟ مع أن سبب الرق الذى هو الكفر ومحاربة الله ورسله قد زال ؟

فالجواب أن القاعدة المعروفة عند العلماء وكافة العقلاء: أن الحق السابق لا يرفعه الحق اللاحق، فالمسلمون عندما غنموا الكفار بالسبي ثبت لهم حق الملكية بتشريع خالق الجميع وهو الحكيم الخبير، فإذا استقر هذا الحق وثبت ثم أسلم الرقيق بعد ذلك كان حقه في الخروج من الرق بالإسلام مسبقاً بحق المجاهد الذي سبقت له الملكية قبل الإسلام، وليس من العدل والإنصاف رفع الحق السابق بالحق المتأخر عنه كما هو معلوم عند العقلاء، نعم يحسن بالمالك ويجمال به أن يعتقه إذا أسلم، وقد أمر الشارع بذلك ورغب فيه وفتح له الأبواب الكثيرة فسبحان الحكيم الخبير ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

صحة بيع الشيء العظيم ذي القيمة الكثيرة بشيء تافه لا يكفي ثمنًا في العادة للعين المباعة

يقول صاحب كتاب «الشرائع السابقة»: وذلك في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١٩) وشره بثمان بخر درهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾ [يوسف: ١٩-٢٠] وذلك أنهم لم يستقصوا الثمن المناسب ليوسف عليه السلام كما يدل عليه قوله: ﴿وشره بثمان بخر درهم معدودة﴾ وقوله: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ وهم على أحد القولين، إخوة يوسف، وسبب زهدهم فيه ورخصه عندهم أنه لم يكن مقصودهم منه الثمن، وإنما قصدهم الأول هو إبعاده عن وجه أبيهم ليخلوا لهم ويحفظوا بمحبته، قيل: إن إخوته لما رأوا وارد السيارة أخرجوه من الجب، وقالوا لهم: هذا عبدنا أبق فباعوه عليهم بثمان بخر.

وعلى القول الثاني: وهو أقرب لظاهر الآيات أن الذين باعوه بثمان بخر هم وارد السيارة، وإنما باعوه بثمان بخر وكانوا فيه من الزاهدين، لأنهم رأوه مكسباً كله حيث لم يتبعوا فيه ولم يخسروا فيه.

قال القرطبي في «تفسيره»: «وفي هذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء بالثمن اليسير، ويكون البيع لازماً ولهذا قال مالك: لو باع درة ذات خطر عظيم بدرهم ثم قال: لم أعلم أنها درة وحسبتها مخشلية (خرز أبيض يشبه اللؤلؤ) لزمه البيع، ولم يلتفت إلى قوله» اهـ.

قلت: وهذا صحيح إذا كان السباع عالماً بقدر المبيع وقيمته ورضى بالبيع بأقل من ثمن المثل، فالعقد صحيح وليس له الرجوع، ولا أعلم فيه خلافاً، فيكون موافقاً لشرع من قبلنا الوارد به شرعنا في قصة يوسف، أما إذا كان جاهلاً بثمن العين وقدرها وباعها بأقل من ثمنها كثيراً جاهلاً، فيأتى في ذلك خيار الغبن المعروف في الشريعة الإسلامية .

ويدل عليه الحديث عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «ذكر رجل لرسول الله ﷺ أنه يُخدع في البيوع، فقال: من بايعت فقل: لاخلافة»^(١)، أى لا خديعة .

قال صاحب «نيل الأوطار»: «المراد أنه إذا ظهر غبن رد الثمن واسترد البيع، واختلف العلماء في هذا الشرط، هل كان خاصاً بهذا الرجل أم يدخل فيه جميع من شرط هذا الشرط؟ فعند أحمد ومالك في رواية عنه والمنصور بالله والإمام يحيى أنه يشبث الرد لكل من شرط هذا الشرط ويثبتون الرد بالغبن لمن لا يعرف قيمة السلع .

وقيده بعضهم بكون الغبن فاحشاً وهو ثلث القيمة عنده، قالوا بجامع الخدع الذى لأجله أثبت النبي ﷺ لذلك الرجل الخيار، وهذا ليس فى شرع من قبلنا الوارد به شرعنا ما يدل عليه فيما أعلم .

وكذلك ماجاء من النهى عن تلقى الركبان أيضاً كما فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تلقوا الركبان» متفق عليه أى لا يتلقى شخص طائفة يحملون متاعاً فيشتريه لما فى ذلك من الغرر فى البيع فى حق الركبان بنقص السعر مع عدم علمهم بالسوق، فالبيع حيثئذ فاسد عند كثير من العلماء، قال ابن دقيق العيد رحمه الله: وهو عند الشافعى صحيح وإن كان آثماً، وعند غيره من العلماء يبطل ومستنده أن النهى للفساد، ومستند الشافعى أن النهى لا يرجع إلى نفي العقد، ولا يخل هذا الفعل بشيء من أركانه وشرائطه وإنما هو من أجل الإضرار بالركبان وذلك لا يقدر فى نفس البيع». اهـ.

(١) رواه البخاري (٢١١٧) في البيوع، ومسلم (١٥٣٣) في البيوع، والنسائي (٤٤٨٤) في البيوع، وأبي داود (٣٥٠٠) في البيوع، وأحمد (٥٤٩١).

إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي

لاتبالي إن عُدَّتْ وَشُرِّدَتْ، وباعوك في سوق النخاسة بيع الرقيق، ولاتنصرف عن أمر الله، إن هان أمرك على أهل الأرض فسبوا عرضك وشمتموا آباءك ولا تجزع إن جفاك وقلاك أقرب الناس إليك، واستحضر مشهد رسول الله ﷺ يوم توجه بالدعوة إلى الطائف فناله ما ناله من الأذى حتى اجتمع حوله الصبية والعبيد يقذفونه بالأذى ويرمونه بالحجارة وهو يرفع يده اليمنى يدعو بها ربه ويده اليسرى يصد بها الأذى، اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح به أمر الدنيا والآخرة، لك العتبي حتى ترضى ولك العتبي إذا رضيت ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ومما نُسب إلى رابعة:

فليتك تحلو والحياه مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بينى وبينك عامر
وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين
وكل الذي فوق التراب تراب

لقد أودى رسول الله ﷺ في الله وما أودى أحد، حوصر في شعب أبي طالب، ووضعوا على ظهره الشريف سلا الجزور، وخنقه أشقى القوم بطرف رداه، وكسرت رباعيته وجرح وجهه الشريف، بلا جريرة ارتكبتها، كما أودى أصحابه الكرام وهذا إيذاء له ﷺ ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: 8] «وحدث ما أخبر به ورقة بن نوفل: « ماجاء أحد بمثل ما جئت به لإعودي» .

وذلك عندما ذهب النبي ﷺ هو والسيدة خديجة رضی الله عنها إليه، عند نزول الوحي عليه ﷺ .

وأنت قد تحسن لمن أساء إليك، وتعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك وتعطى من حرمك، وتحرص على إيصال الحق للخلق، ودلالة العباد على طريق الله الموصل إلى رضوانه سبحانه والجنة، فيواجهك البعض بالكيد والمكر والأذى، فلا تنتظر توفيراً وتبجيلاً، وحسبك أن يكون الله راضياً عنك وأن تكون من الاتقياء الأصفياء الذين يخفى أمرهم على أهل الأرض ويعرفون في أهل السماء، فإن لم يكن به عليك غضب فلا تبالى، واعلم أن رضا الناس غاية لا تدرك، وأحسن التأسى بالأنبياء والمرسلين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠] قال تعالى عن نبيه يوسف: ﴿وَشَرَّوهُ بِئْمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠].





الموضوع

الصفحة

تقديم

- 5 مقدمة
- 7 ذكر نبى الله نوح عليه السلام فى القرآن
- 8 نسبه - عليه السلام - والفترة بينه وبين آدم - عليهما السلام -
- 9 نوح - عليه السلام - من اولي العزم فى الرسل
- 10 نوح - عليه السلام - اول رسول إلى أهل الأرض
- 11 إنه كان عبداً شكوراً
- 12 مدة لبث نوح - عليه السلام - فى قومه
- 13 حالة قوم نوح أثناء بعثته إليهم
- 14 التوحيد الخالص دين جميع الأنبياء
- 15 التوحيد أولاً، فهو مفتاح دعوة الرسل
- 16 سبب عبادة الأصنام فى قوم نوح
- 17 حيلة النبي ﷺ لجناب التوحيد
- 19 الغلو فى الصالحين ذريعة الشرك
- 20 الأساليب التى انتهجها نوح - عليه السلام - فى دعوته
- 21 الدنيا والآخرة تناهيا بالاستغفار
- 22 (١) نوح يلفت أنظار قومه إلى آيات الله فى الأنفس والآفاق
- 23 (٢) تهمته الدعوة إلى توحيد الله جل وعلا
- 24 (٣) اتباع نوح - عليه السلام - فقراء ضعفاء
- 26 (٤) الملائ يتصدون له كما تصدوا لكل الدعوات
- 28 (٥) دعوة تسير وسط التهديد والتسفيه
- 29 (٦) رحمة وشفقة فى مواجهة الجفاء والغلظة
- 30 (٧) توكل على الله فى مواجهة التهديد والوعيد

- 31 (٨) اصبر على دعوة الحق كما صبروا على آلهتهم الباطلة
- 32 (٩) دعوة صدق وإخلاص وتجرد
- 33 (١٠) نعوذ بالله من الخذلان فالرحمة قد عميت عليهم
- 34 (١١) خوف وتذلل وتواضع لله عز وجل
- 35 (١٢) رد علم ما طوى عنا إلى الله
- 36 (١٣) ولا أقول إني ملك
- 37 (١٤) إذا اطلع إلى قلبي لم يغيره ثوبي
- 38 (١٥) جدال الأنبياء بالتي هي أحسن
- 38 (١٦) لاجاة وعناد وتعجل العذاب بسبب طمس البصيرة
- 40 (١٧) استحضار الداعي أن الخلق لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً ولا ضراً
- 41 (١٨) ما كان ليذر الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله
- 43 سفينة نوح
- 43 (١) دعا نوح على قومه لما أخبر أنه لن يؤمن إلا من قد آمن
- 44 (٢) مثل عمر كمثل نوح
- 45 (٣) كلهم طوع إشارة ورهين أمر
- 46 (٤) أمره - عليه السلام - بصنع السفينة
- 48 (٥) السخرية من نبي الله نوح والطعن بالدعوة والدعاة
- 49 (٦) فار التنور وكان طوفان نقمة لا مطر رحمة
- 50 (٧) الكافر أهون على الله من الجهلان
- 51 (٨) «وما آمن معه إلا قليل» درس لكل متعجل
- 52 (٩) ذكر البسمة عند الركوب وعند ابتداء كل فعل
- 53 (١٠) سفينة نجاه تسيرو وسط أمواج كالجبال
- 54 (١١) ولد نوح كان كافر، فلماذا ناداه
- 55 (١٢) لم يفني عن امرأته من الله شيئاً
- 56 (١٣) لا جبل ولا غيره يعصم اليوم من أمر الله إلا من رحم
- 57 (١٤) لا داعي للهزيمة النفسية أمام قوة الأعداء
- 57 (١٥) أمره سبحانه نافذ في الجمادات فكيف لا يستسلم العقلاء لحكمه؟!
- 59 (١٦) استوت السفينة على الجودي، فأين هي الآن
- 60 (١٧) لماذا تواضع الجودي وخضع عز
- 60 (١٨) رغم قربه من ابنه إلا أنه لا يعلم حقيقته
- 61 (١٩) العبرة بقراءة الدين لا بقراءة النسب

- 62 (٢٠) قصة نوح مع ولده تسلية للخلق في فساد أبنائهم _____
- 63 (٢١) عتاب لا يقدر في عصمة نبي الله نوح - عليه السلام - _____
- 64 (٢٢) هبوط أهل السفينة بعد نجاتهم إلى الأرض _____
- 65 (٢٣) جميع الخلائق من نسل نوح - عليه السلام - _____
- 66 معالم الانتصار في قصة نوح _____
- 67 موازنة بين فضائل نوح وفضائل رسول الله ﷺ _____
- 70 وختاماً : فالعلم والصلاح رحم بين أهله _____

قصة لوط

- 73 مقدمة _____
- 77 قصة قوم لوط في القرآن _____
- 79 نسب نبي الله لوط _____
- 80 قصة قوم لوط كما وردت في كتب التفسير _____
- 82 ترسيخ الإيمان وتقويم الانحراف _____
- 84 بعض القبائح نسبتها أهل الكتاب إلى لوط _____
- 86 فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين _____
- 88 ضرب المثل بامراته الهالكة _____
- 90 نتن الفعل وانتكاس الضطرة _____
- 92 نكسوا لانتكاسهم وأبدلوا بحيرة منتنة نتن خصالهم _____
- 93 آية للذين يخافون العذاب _____
- 95 وما هي من الظالمين ببعيد _____
- 97 كان يأوي إلى ركن شديد _____
- 98 وأنت كذلك لتست وحدك _____
- 100 التوبة من عمل قوم لوط _____
- 102 أضرار اللواط _____
- 103 ومن أهم أضرار اللواط وأشدّها خطورة _____
- 103 (١) الإيدز _____
- 103 انهيار وسائل الدفاع الطبيعية في الجسم _____
- 105 لماذا فشلت العلاجات الوضعية؟ _____
- 107 (٢) الرغبة عن المرأة _____
- 107 (٣) التأثير في الأعصاب _____

108	(٤) التأثير في المخ
108	(٥) السويداء
108	(٦) عدم كفاية اللواط
109	(٧) اتخاذ عضلات المستقيم وتمزقه
109	(٨) علاقة اللواط بالأخلاق
109	(٩) اللواط وعلاقته بالصحة العامة
109	(١٠) التأثي على أعضاء التناسل
110	(١١) التيفود والدوسنتاريا
110	(١٢) أمراض الزنا
110	حكم اللواط
111	حكم السحاق
112	إتيان البهيمة
113	حكم الاستمناء
115	حكم إتيان النساء في أدبارهن
117	حكم وطء المرأة في الدبر
118	النظر إلى الأمد
119	نظر الرجل إلى الرجل
120	نظر المرأة إلى المرأة
122	الخنثى
123	لعن الخنثين ونفيهم لإفسادهم
124	تحويل الذكر إلى أنثى وبالعكس
125	اللوطيون أصناف ثلاثة
126	هل تنتشر الحرمة باللواط
127	ديمقراطية قوم لوط
128	الديمقراطية المعاصرة تبيح اللواط
129	الديمقراطية اللوطية تطارد المتطهرين
131	تهمة لا نفيها وشرف لا ندعيه
131	الخاتمة

تقسمة سليمان

- 141 _____ نسب سليمان - عليه السلام -
- 141 _____ ذكره في القرآن
- 143 _____ ثناء القرآن عليه
- 143 _____ وراثه سليمان لداود في الملك والنبوة لا في المال
- 144 _____ بين العبد الرسول والنبي الملك
- 146 _____ بعض مظاهر العفة وصور المنة علي سليمان - عليه السلام -
- 146 _____ أولاً : آتاه الله الحكمة علي حداثة سنه
- 147 _____ اجتهاد الأنبياء
- 148 _____ اجتهاد العلماء والقضاة
- 149 _____ القول في الحرث والحكم في هذه الواقعة في شرعنا
- 150 _____ اللهم يا مفهم سليمان فهمنا ، فالهم نعمه
- 152 _____ ثانياً : تسخير الريح لسليمان
- 153 _____ الجمع بين كون الريح عاصفة ورخاء وبين كونها تجري إلي الأرض المباركة وحيث أصاب
- 153 _____ معجزات لرسول الله ﷺ مماثلة لمعجزات نبي الله سليمان
- 154 _____ ثالثاً : تسخير الجن لسليمان
- 155 _____ هذا التسخير لم يكن لأحد إلا سليمان
- 156 _____ معجزات مماثلة لرسول الله ﷺ
- 157 _____ حكم استخدام الجن
- 158 _____ هل صنعوا لسليمان التماثيل المحرمة؟ وهل يجوز التصوير؟
- 160 _____ رابعاً : اسأل الله له عين القطر
- 160 _____ خامساً : تعليمه منطق الطير
- 161 _____ طرائف وعجائب ونصائح مهداة من الطير
- 163 _____ قصة سليمان مع النملة
- 164 _____ أدب النملة وشفقتها
- 164 _____ النهي عن قتل النمل
- 165 _____ فتبسم ضاحكاً من قولها
- 165 _____ هداية الحيوانات
- 166 _____ أعطى رسول الله ﷺ مثل معرفة منطق الطير
- 167 _____ قصة سليمان مع الهدد
- 168 _____ تفقد الإمام أحوال رعيته
- 169 _____ قصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ

- 170 _____ الأنبياء لا تعلم الغيب
- 171 _____ الحكمة ضالة المؤمن والحق مقبول من كل من حاربه
- 172 _____ لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة
- 173 _____ سجدة التلاوة في سورة النمل
- 173 _____ المؤمن لا ينسى دينه مهما كانت الزخارف والزينات
- 174 _____ قال سليمان سننظر فهل في ذلك تجريح لعدالة الهدد؟
- 175 _____ قواعد هامة تتعلق بقبول الخبر ورده
- 176 _____ تمكن يستثمر في الدعوة مع مراعاة حدود الأدب
- 177 _____ آداب تراعي في كتابة الرسائل والخطابات
- 178 _____ أفتوني في أمري
- 179 _____ المشاورة من عزائم الأحكام
- 179 _____ هكذا يكون الرجال تحت ولاية وقوامة المرأة
- 181 _____ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وللمسلمين شأن آخر
- 181 _____ الهدية تقع موقعا من الناس
- 182 _____ نبي الله سليمان لا ينشغل بالدنيا عن الدين
- 183 _____ ما فائدة الإتيان بالعرش قبل مجئ بلقيس؟
- 184 _____ الجن وظاهرة الأطباق الطائرة
- 186 _____ دواعي تغيير صفة عرش بلقيس
- 188 _____ المال والتقدم والذكاء ليست قرينة الهداية
- 189 _____ الناس علي دين ملوكهم، والمرء بقريته يقتدي
- 190 _____ شكر سليمان - عليه السلام - لربه جل وعلا
- 191 _____ بناء سليمان لبيت المقدس والهيكل
- 192 _____ اهتمامه - عليه السلام - بالخيل
- 193 _____ اختلاف العلماء هنا سائغ وفعل الصوفية غير سائغ
- 194 _____ فتنة سليمان ونسج اليهود للأوهام
- 195 _____ قوة سليمان ومحبته الجهاد وعمله بمبدأ تعدد الزوجات
- 196 _____ اتهام اليهود لسليمان بعمل السحر
- 197 _____ وفاته عليه السلام دليل علي أن الجن لا تعلم الغيب
- 199 _____ الخاتمة

قصة ذي النون

- 203 _____ المقدمة
- 206 _____ خبرة في القرآن
- 207 _____ قصته كما جاءت في كتب التفسير
- 208 _____ لا تفضلوني علي يونس بن متي
- 211 _____ يونس من المرسلين والفرق بين النبي والرسول
- 212 _____ يونس - صاحب الحوت - ذوالنون
- 214 _____ رسالته - عليه السلام - قبل أن يلتقمه الحوت
- 216 _____ هل بلغت دعوته المائة ألف أويزيدون؟
- 217 _____ استمرار الدعوة مع التأكيد من عدم التأثير
- 218 _____ شبهه وجواب
- 220 _____ ترك الدعوة خوف الضرر
- 222 _____ هل خروجه - عليه السلام - دون إذن يطعن في عصمته؟
- 224 _____ تعرض نبي الله يونس للبلاء
- 226 _____ فاصبر لحكم ربك
- 229 _____ خرج - عليه السلام - مغاضباً لمن؟
- 230 _____ معني (فظن أن لن يقدر عليه)
- 232 _____ قضية العذر بالجهل
- 234 _____ (١) بعض أدلة الكتاب علي قضية العذر بالجهل
- 236 _____ (٢) بعض أدلة السنة علي العذر بالجهل
- 238 _____ (٣) بعض أقوال أهل العلم
- 241 _____ المسألة الثانية: معني العذر بالجهل
- 242 _____ المسألة الثالثة: المعلوم من الدين بالضرورة
- 244 _____ المسألة الرابعة: تتمات وأصول للرد علي الغلاة
- 246 _____ بعض أوجه القراءات - معناها وفائدتها
- 248 _____ القرعة ومشروعيتها
- 249 _____ السفينة لا تخف برمي الرجال فما سبيل استبقائها؟
- 250 _____ تعرف إلي الله في الرخاء يعرفك في الشدة
- 253 _____ كان من المسبحين فخرج الله كربه
- 255 _____ فوائد الذكر

- 257 _____ إذا سألت فاسأل الله
- 260 _____ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين
- 260 _____ اسم الله الأعظم
- 261 _____ الدعاء
- 262 _____ آداب الدعاء
- 265 _____ دفع إيهاام الاضطراب
- 267 _____ الخاتمة
- قصة يوسف**
- 271 _____ مقدمة
- 275 _____ ملامح عامة لسورة يوسف
- 277 _____ سبب النزول
- 277 _____ تسميتها بأحسن القصص
- 279 _____ الأحرف المقطعة ودلالاتها
- 281 _____ قرآناً عربياً للعالمين يحرم ترجمته ويجب تعلم لفته
- 282 _____ معجزة الإخبار عن الغيوب بما يطابق الحق
- 284 _____ قص الله ورسوله علينا فكيف نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!
- 286 _____ فضائل يوسف - عليه السلام -
- 287 _____ الكريم ابن الكريم ابن الكريم
- 288 _____ يوسف - عليه السلام - أكرم الناس
- 291 _____ أكرمهم أتقاهم
- 293 _____ الرؤيا حالة شريفة
- 295 _____ لماذا كانت الرؤيا الصادقة جزءاً من النبوة؟
- 295 _____ رؤيا الكافر والفاسق قد تصدق أحياناً
- 296 _____ أقسام الرؤيا
- 296 _____ الرؤيا ليست من أدلة استنباط الأحكام
- 297 _____ حقيقة الرؤيا
- 298 _____ الرؤيا الصالحة مبشرة أو منذرة
- 299 _____ رؤيا الصغير
- 299 _____ لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها
- 299 _____ لا تقص الرؤيا علي غير شفيق ولا ناصح
- 300 _____ ماذا يفعل من رأى ما يحب وما يكره في نومه؟
- 301 _____ التحذير من الكذب في الرؤيا

- 301 حكم من رأى النبي ﷺ في نومه
- 304 الحث على علم الرؤيا والسؤال عنها
- 304 رؤيا يوسف - عليه السلام -
- 306 نهى يعقوب ليوسف عن حكاية الرؤيا لإخوته
- 306 ما ينطوي عليه النهي من معان
- 306 ١- قضاء الحوائج بالكتمان
- 307 ٢- نصيحة وليست غيبة محرمة
- 309 ٣- توجس وغلبة ظن أوجبت التحذير
- 309 ٤- استشعار الحسد من إخوة يوسف
- 311 ٥- الرجل يود أن يكون ولده خيراً منه والأخ لا يود ذلك لأخيه
- 312 ٦- العدل بين الأولاد في العطاء والمنع
- 313 ٧- أخوة يوسف اختلفوا أموراً تتنافى مع عصمة الأنبياء
- 315 اجتناب يوسف وتعدد نعم الله عليه
- 315 إن ربك عليهم حكيم
- 319 آيات للسائلين
- 320 عصبية وعصبة
- 322 هل ضل الأب؟ وكيف تكون مواجته؟
- 324 حق الوالدين ثابت وإن ظلماً
- 326 المجنى عليه والقاضي والجلاد
- 326 المحافظة على النفس
- 329 الجماعة تقتل بالواحد
- 330 دخلت امرأة النار في هرة حبستها
- 332 أهدروا معاني الأخوة الإيمانية والنسبية
- 335 ماذا لو قالوا: اقتلوا يوسف... ولم يفعلوا
- 336 قولهم يخل لكم وجه أبيكم حرص وطمع فاجع
- 338 أضمرُوا التوبة قبل الذنب
- 339 بعض الشر أهون من بعض
- 341 اذكر عند الظلم عدل الله فيك وعند القدرة قدرة الله عليك
- 344 اللقيط
- 345 غدر وخيانة
- 347 اللعب المباح والمحظور
- 349 البلاء موكل بالمنطق
- 351 هل أقسموا لإحكام كرههم؟

- 353 _____ بثسما أجمعوا عليه
- 355 _____ الإسرائيليات وحكمها
- 357 _____ العداوة والبغضاء
- 359 _____ قسوة قلب وغلظة كبد
- 360 _____ الإجماع المعتبر
- 362 _____ إنزال اليسر في حالة العسر
- 363 _____ معنى الوحي وكيفيته
- 366 _____ النبوة هبة ريانية
- 367 _____ يا عالم كل نجوي ويا منتهي كل شكوي
- 368 _____ البكاء ليس دليلاً على الصدق
- 369 _____ أنواع البكاء
- 370 _____ حكم السباق وأنواعه
- 372 _____ كاد المرئيب أن يقول خذوني
- 374 _____ المعصية قرينة الخذلان
- 375 _____ مثالب الكذب
- 377 _____ لا يصلح الكذب إلا في ثلاث
- 379 _____ في المغاريض مندوحة من الكذب
- 380 _____ الصدق
- 381 _____ آثار وحكايات تنفر من الكذب
- 383 _____ ملاحظة الأمارات والعلامات يتطلب فهماً وذكاءً
- 385 _____ نفس أماراة بالسوء سولت لهم المعاصي
- 386 _____ صبر جميل
- 388 _____ اتهام الرأى
- 389 _____ لماذا لم يبحث يعقوب عن يوسف عليهما السلام ؟
- 390 _____ وجوب بر الوالدين وإن كانا مشركين
- 394 _____ ما بعد البر إلا العقوق
- 395 _____ صور من البر
- 397 _____ دع الأمور تجري في أعنتها ، فعجائب التدبير تحار فيها العقول
- 400 _____ بين البشارة والتهنئة
- 401 _____ لا يجوز بيع الحر
- 403 _____ صحة بيع الشيء العظيم
- 405 _____ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي
- 407 _____ الفهرس